



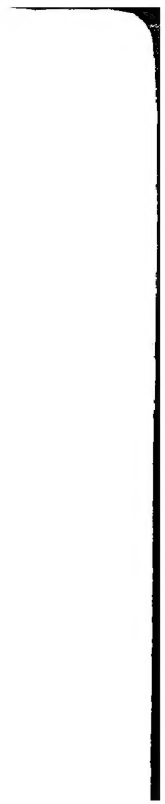
البيروت شاندور

صَلَاةُ رُوحِ الدِّينِ الْإِسْمَاعِيلِيِّ البطل الأبقى في الإسلام

مراجعة وتحقيق
نديم مرعشلي

ترجمه عن الفرنسية
محسن





909, 0924

92702

C P 2

GP



دمشق - أوتوستراد المزة

هاتف

٢٤٤١٢٦ - ٢٤٣٩٥١ - ٢١٣٨٢١

تلكس: ٤١٢٠٥٠

ص.ب: ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

ربيع الذار مخصص

لصالح مدارس ابناء الشهداء، في القطر العربي السوري

صَلَاةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

الْبَطْلُ الْأَبْقَى فِي الْإِسْلَامِ

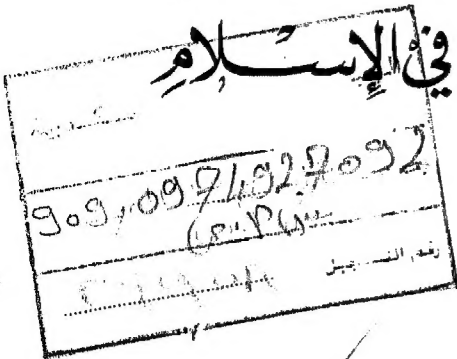
جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

طبعة ثانية
١٩٩٣

31048

البرشاندور

صَلَاةُ الرَّحْمَنِ الدِّينِ الْإِيْمَانِي
البطل الأبقى في الإسلام



مراجعة وتحقيق
نديم مرعشلي



Library (GOAL)

قدم له
العماد مصطفى طلاس

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى الجندي العربي الباسل، الواقف على خط النار في مواجهة
العدو الصهيوني.. نقدم كتابنا هذا في ذكرى مرور ثمانية قرون على
معركة حطين وتحرير القدس، والفقين أن للعروبة — أقصر الأمد أم
طال — حطين ثانية، وتحريراً أخيراً لبيت المقدس. ولن تُخمد قوى
الطغيان شعله الإيمان.

سعيد ، نديم

رأيت صلاح الدين أمة وحده

دائتي

الكوميديا الإلهية

تقديم

بقلم العماد مصطفى طلاس

ما زالت قصة الصراع بين الشرق والغرب إبان الحروب الصليبية^(١) المصدر التاريخي الثر لكثير من البحوث والدراسات التي ما برحت ترفد المكتبة العالمية بنتائج القرائح وثمرات الأفكار من شتى أصقاع المعمورة .

ذلك لأن تلك الحروب تركت بصماتها على المسيرة التاريخية، بل ما انفكت آثارها تظهر بهذه الصورة أو تلك في العلاقة ما بين الشرق والغرب ولا تصالها المباشر بملحمة صراعهما العقائدي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، لتأخذ الآن دورها، ولو بشكل غير مباشر، ممثلاً بمختلف ضروب النزاع الدائر في عالمنا المعاصر .

ولا أدري إذا كان ذاك على قدر أم محض مصادفة أن يضع بين يدي الأخوان العزيزان الأستاذان سعيد أبو الحسن ونديم مرعشلي مخطوطة هذا الكتاب «صلاح الدين .. البطل الأنقى في الإسلام» لمؤلفه المستشرق

(١) الجدير بالذكر أن المؤرخين العرب أطلقوا على تلك الحروب اسم (حروب الفرنجة) في حين أطلق عليها المؤرخون الأوربيون اسم (الحروب الصليبية) ثم نقلت هذه التسمية في القرن الحالي بعد السيطرة السياسية والثقافية الغربية .

الفرنسي «البر شاندور» كي أقدم له .. في وقت كانت دمشق العروبة تحيي
بندوتها العامرة ذكرى مرور ٨٠٠ عام على معركة حطين الخالدة، وتحرير بيت
المقدس، وتنفس بلاء رثتها عقب هذا الحدث التاريخي الهام .. لأن حطين
هي — بلا ريب — إحدى كبريات معاركنا التحريرية .. ونقطة انعطاف في
مسيرة الصراع العربي — الأوروبي .. وواحدة من أنصع صفحات تاريخنا تألقاً
ضد غزو الاستعمار الاستيطاني الذي شهدته القرون الوسطى، ممثلاً
بالممالك الفرنجية ولادة الحملات الصليبية في الشرق الأوسط .. وكان بطل
أبطالها وعلم أعلامها «صلاح الدين» .

ويديهي والوطن العربي اليوم يعاني ما يعانيه من واقع مر مرده تمزق وحدة
الصف، أن تحمل لنا هذه الذكرى شذى طيب الماضي، وعبق تاريخنا التليد،
وأن تشدنا لتقليب صفحات ماغير من أيامها، فيما نحن نتلمس سبيل
المستقبل، ونرى بشائره تومض في سماء دمشق العروبة .

لقد تعرض وطننا العربي — نتيجة تمزقه — لكثير من غزوات الاحتلال
وأعاصير الاجتياح، فالغزو الصليبي، والإعصار المغولي، ثم الاستعمار
الاستيطاني ممثلاً بالكيان الصهيوني الذي غرسته حراب الإمبريالية العالمية في
فلسطين الحبيبة .

مما يجعل حطين اليوم تتجلى لنا ليس فقط في منارة أمل، بل كذلك
مجترح عمل، فالكيانات المصطنعة مصيرها الزوال سواء أقصر الزمن أم
طال .. مادامت شعلة التحرير تعمر قلوبنا، وإرادة القتال متوهجة في أعماقنا
تؤجج فينا جذوة الإيمان بالنصر والتحرير، وتكتب صفحة الأحداث التي لا بد
أن تكون على موعد مع أمين الأمة وقائد المرحلة التاريخية وبطلها أسد الشام
الذي سيجمع متفرق الكلمة تحت راية الشهادة أو النصر .. كما اضطلع
صلاح الدين برسالة لم الشمل، وتوحيد الكلمة فصدم الصليبيين بقوة العرب

والمسلمين مجتمعين داحرا إياهم في حطين بطاقة ثلاث عواصم. هي دمشق وحلب والقاهرة، ترفدها نخشود الأمة من جميع أقطارها.

ألبير شاندور ... والشرق

وألبير شاندور، المستشرق الفرنسي المنصف والباحث الرصين، الذي اهتم بآثار الشرق وقضاياها وعشق جماله الأسطوري وحضاراته المتعاقبة، ووضع عدة مؤلفات تترجم نوازع اهتماماته منها «بلاد سورية وآلهتها»، «تدمير خرائب وأطلال»، «هياكل بعلبك»، «نينوى»، «مصر الفراعنة»، «طيبة ذات المئة باب».

والذي كتب بصفته باحثاً في علم الجمال عن «امتلاك الجمال» وعن الجميل في آثار الشرق وقدم دراسات جادة، أثرت المكتبة العالمية وكرس شخصيات تاريخية كانت لسان عهدتها الذي اتسم بها، مثال «قورش» العظيم ملك فارس القديمة وباني عظمة الأسرة الأخمينية، و «تيمورلنك» الفاتح المغولي الرهيب، وأخيراً وليس آخراً هذا الكتاب، الذي يجلو للعالم صورة بطلنا الأشهر في تاريخ الأمة العربية في القرون الوسطى «صلاح الدين البطل الأنقى في الإسلام»، والذي صور فيه شخصية هذا العلم والقائد الإنسان بإطار مرحلته التاريخية الهامة وكفاحه البطولي ضد الكيانات الفرنجية في الشرق بأسلوب علمي رصين وأداء مشرق، ووسط لنا صفحات حياته الحافلة بالأحداث وما تحلى به من رفيع السجاياء، ودماثة الخلق، رغم مضاء حسامه وشدة ذراعه، كل ذلك برصانة العالم، وتحليل الباحث ونفاذ بصيرة المفكر والمعية المؤرخ الناقد، ويشغف يحده هاجس تملّي روائع بلاد الشرق، بذكرها ويذكر حصونها وقلاعها، ورسم كل ذلك بريشة فنان فذ، وشاعرية عاشق يهوى البطولة، ويقدر الجمال فاستطاع أن يصور لنا بكلمات قليلة — لكنها نابضة بحس شاعري مرهف — نشوء مدن الشرق وآثارها الفريدة ولحظاتها البطولية.

ولنسمعه يتحدث عن دمشق الجميلة الخالدة البيضاء النقية إبان الحملة الصليبية الثانية، وكيف أصيب الفرنجة بالدهشة لرأى سحرها الأخاذ يقول :

«أي تأثر استحوذ على الصليبيين حينما اكتشفوا دمشق العظيمة الصامته البيضاء، التي كانت مآذنها تشمخ في انطلاقة واحدة من الحجر وسط امتداد رحب المدى من البساتين، وأي فرح لعيونهم المرهقة بالاشعاعات القاسية عندما رأوا هذا الفردوس المنسي على الأرض ينتصب أمامهم، فهذه المدينة الشهيرة كانت تبدو لمن يرنو إليها من التلال المجاورة ساجحة في النور المنبثق من ذاتها غامضة عظيمة شبة .

ودمشق كانت رمز الشرق وجماله وسحره، بل كل عظمتها الأسطورية التي لم تتعب منها مخيلاتهم». (الفصل الثالث).

ويتحدث عن القاهرة المدينة الملكية، مجد الإسلام وسيفه :
«القاهرة ... هذا الاسم المهيّب الذي يجنح وقعه جميل ذكرياتنا، هذه المدينة المقدسة التي — شأنها شأن دمشق الصامته البيضاء الكبرى — والتي كانت تعبر أمس كما تعبر على الدوام بشاعرية قصورها وترف أسواقها عن مجد الإسلام وسيفه، هذه المدينة الملكية حقاً، والمشهورة، موضع احترام جميع المسلمين في سائر أنحاء العالم» (الفصل السادس).

ويحدثنا في معرض دراسته عن مدينة حلب، حين عسكرت قوات صلاح الدين أمام أسوارها بتلك اللقطات التي يأخذ فيها التاريخ بيد الجغرافية يمشیان جنباً إلى جنب، تفيأ كلاهما ظلال الحضارة المنبسطة من الماضي البعيد، مندججة براهن الأيام :

«حلب أقدم مدينة في العالم، ما تزال قائمة في أيامنا مسكونة مزدهرة، بعد أن شهدت تحت أسوارها أوسع هجرات الشعوب ...» وهو بعد أن يستعرض ما شهدته من ازدهار وعمران، وما أثّرت به عميق طابعها المميز على

مختلف شعوب المشرق لتظل رغم ما اعتورها من أحداث قائمة راسخة شائخة على صدر المعمورة ، بينا انهارت من حولها عواصم كثيرة أمثال نينوى وبابل وغيرهما يقول :

« وهكذا فإن مركز حلب ، الواقعة على ملتقى تقاطع وحدات جغرافية واسعة ، وتجمعات بشرية كبيرة ، كان وراء حسن حفظها أو سوء طالعها ، وذلك محصلة مفترق طرق المواصلات ، وكانت الأعجوبة تكمن في قدرتها على البقاء عبر هذه الإمبراطوريات العديدة .. وأن تزدهر رغم غزوات الشعوب التي عنت — في كل مكان آخر — على حضارات كاملة ، أية آلهة إذاً حمت حلب عبر هذه السلسلة الطويلة من القرون ؟ هذه المدينة التي رأت الكثير من الأرباب وظلت حية متجددة الشباب ، بينا انهارت نينوى في اللهب ، واحت بابل في الصحراء ، ولم تعد مدن شهيرة غيرها لتخطر بذاكرة البشر . (الفصل الثامن) .

وهكذا يأخذ بيدنا هذا المؤرخ معرجاً على معظم مدن بلاد الشام ذاكراً تاريخ نشوئها ، أوابدها وأحداثها في استطرادات تاريخية ممتعة ، فيما هو ماض بدراسته « صلاح الدين .. البطل الأنقى في الإسلام » وما كابدته مع الغرب الفرنجي باحثاً بدراسة منهجية ما وراء الأحداث من بواعث بدءاً من أولى الحملات الصليبية التي أسست الممالك الفرنجية ، وظهور الروح الكفاحية ، انطلاقاً من بقاع الشام وقيام عهد صلاح الدين محققاً الانجازات العظيمة ، التي زعزعت الكيانات الصليبية ، ومهدت عملياً لتصفيتها نهائياً . في ثنايا قصة حياة بطل ، كم يتمنى القارئ أن تطول وتطول .

واقع العالم الإسلامي عشية الحروب الصليبية

والآن لنرى كيف يبدأ المؤلف دراسته واقع الصراع الذي شجر ما بين الشرق والغرب ؟ هل تراه شرع من الغرب مَكْمَن هذه الحروب الصليبية ؟ أم من الشرق ، مسرح أحداثها ، ومشهد دامي معاركها التي استمرت قرابة قرنين

بدءاً من الحروب الصليبية الأولى (١٠٩٥ - ١٠٩٩). حتى سقوط عكا
آخر معقل صليبي في الأرض المقدسة (١٢٩١)؟

لقد اختار مؤرخنا الشرق منطلقاً لدراسته ، حين بحث في الفصل الأول
من كتابه « التمهضات الكبرى في العالم الإسلامي عشية الحروب الصليبية »
وعرض واقع الانقسام في الصف العربي والإسلامي وضعف السلطة المركزية ،
وتسلط المرتزقة على الحكم وعلى الخلافة العباسية ، وقيام الدويلات والإمارات
وهزيل الممالك ، بعد أن كانت للعالم الإسلامي وحدته المعتقدية والزمنية
الراسخة ، وهو يرى أن بوادر الانقسام والتفكك هذه ، قد أدت إلى تمزق العالم
الإسلامي الذي دخلت أطرافه مرحلة النزاع فيما بينها حتى لم يبق للخلافة
العباسية سوى ظلها الديني ، وللخليفة غير العيش في شاهق قصره .. يحيا على
الرفاه لكن دون أن يمسك بمقاليد الحكم .

ويزيد في فصول المأساة أن يكون للخلافة مركز ثان هو القاهرة . حيث
يتربع الخليفة الفاطمي الذي امتد سلطانه على فلسطين حيث دمرت كنيسة
القيامة على يد الحاكم بأمر الله ، وحدثت بعض التجاوزات على الحجاج الفرنجة
التي ضخمت كثيراً في ربوع الغرب فتحركت الكنيسة . تؤجج نيران العداوة
ضد عالمي العروبة والإسلام ، مخفية وراء ذلك كما نعلم علم اليقين حوافز
اقتصادية استثمارية استعمارية كما يتضح في ثنايا الكتاب والكثير من صفحاته .

وكانت معركة ملاذكرد (هنزيكريت) عام ١٠٧١ التي أباد فيها
السلاجقة جيشاً بيزنطياً قوامه مئة ألف مقاتل ، الفتيل الذي زاد في ضرام
الأحداث وتسارعها ، وخرج مجمع كليرمون عام ١٠٩٥ بقرار امتشاق
السلاح ، وزحف أولى الحملات الصليبية نحو الشرق في الظروف التي بسطنا
بعض جوانبها من انقسامه وتمزقه .

وتلقت سورية وحدها الصدمة الأولى ، يقول الكاتب المؤرخ :

« وهذا الحدث الذي انتاب سورية كان بالنسبة إلى الصليبيين حدثاً

سماوياً، فالوحدة الإسلامية المحققة بقبضة حديدية لم تقم قطعاً تجاه هذه الحنة الجديدة التي حلت بالإسلام السوري، أما ورثة السلجوقيين فانقلبوا اقطاعيين همهم المحافظة على مناطقهم من غارات جيранهم، وبهذا انفصمت روابط الوحدة مرة أخرى، بوقت كانت فيه وحدة العرق والدين ضرورية لمواجهة التهديد الذي أخذ يتضح في الغرب». (الفصل الأول).

الدول اللاتينية في المشرق وعوامل قوتها ووضعها

وكان من النتائج المباشرة للحملة الصليبية الأولى، أن حقق الفرنجة نصرهم العسكري في الشرق فسقط الساحل السوري بيدهم، من انطاكية حتى إيلات، واحتلوا مدينة القدس (١٠٩٩)، وظهرت الدول اللاتينية في بلاد الشام، وتأسست مملكة القدس وإلى جانبها قامت دول وإمارات وكونتيات ومشيخات صليبية.

ويمكن القول إن الصليبيين حملوا معهم بذور قوتهم وضعفهم معاً، حين مارسوا أساليب العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية للنظام الإقطاعي الأوربي في إطار سياسة استعمارية استيطانية، ولكن مع تطوير ليبرالي لهذا النظام، يقول المؤلف: «لقد مارس الصليبيون في سورية عفواً ودون شعور منهم سياسة استعمارية بارعة من الغبن عدم الاعتراف باستلهاماتها الليبرالية». (الفصل الثاني).

تلك الليبرالية التي كم حزّت انعكاساتها في نفس الرحالة ابن جبير، إذ عاد كثير من النازحين العرب المسلمين إلى بيوتهم وأراضيهم، مؤثرين العيش في كنف الفرنجة المستعمرين، على الحياة في ظل الحكام المسلمين، لأنهم اختاروا النير الأخف وطأة.. وحبذا لو وعى بعض حكامنا اليوم هذا المثل.

وفي ظل النظام الإقطاعي ومنهجية الاستعمار الاستيطاني، انتشرت القلاع والحصون الصليبية في المشرق على ساحل سورية، والتي ما برحت آثارها

ظاهرة حتى اليوم ، تذكرنا بذلك الماضي البعيد القريب الذي مازلنا نحياه ونقلب صفحاته ونقرأ واقعنا الراهن فيه .

هذا ، ودرس الكاتب طبيعة النظام القائم وحلل أسس العلاقات الاقتصادية — التجارية السائدة ، والواقع الاجتماعي للمسلمين الذين يعيشون في ظل النظام الصليبي مستنداً إلى مصادر الدراسات التاريخية العربية منها والأجنبية ، التي كانت شاهد عيان لما جرى على الأرض ، فهو ينقل عن كتب الرحالة العرب كابن جبير والمؤرخين المعاصرين كابن الأثير في كتابه : الكامل في التاريخ ، والعماد الأصفهاني ، وتاريخ وليم الصوري ، وذيله .. هذه المصادر التي تعد وثائق تاريخية هامة ، لتلك المرحلة الخطيرة في علاقات الشرق

واستناداً إلى الوثائق الفرنجية ، أكد المؤلف أن فرنجة المشرق لم يعودوا أوروبيين بل غدوا شرقيين يقول : « ولم تلبث أن دوت كلمة رئيس الكنيسة بودوان الأول : « لقد أصبحنا شرقيين كاملين ، فالروماني أو الفرنجي تحول في بنائه الجديد إلى جليلي أو فلسطيني ، والمولود في رنس أو شارتر انقلب إلى واحد من أهالي صور أو انطاكية » .

يقظة الإسلام السوري

ولكن الوجود الصليبي في الشرق لم يمر دون ردة فعل قدحت شرارتها أول ما قدحت على الصعيد الشعبي ، فسقوط المدن الساحلية السورية ومن ثم احتلال القدس ، وارتكاب المجزرة الشنيعة التي ذهب ضحيتها سبعون ألف مسلم في المسجد الأقصى وحده ، هذه جميعها أحدثت هزة عنيفة في ديار الإسلام .

وماعثم أن تبدت آثارها الأولى وبالتالي أوار لهبها كيقظة — بعد غفلة — في سورية النضال . فكانت الدعوة إلى الجهاد تتعالى في بلاد الشام ، وتتردد

أصدائها في سائر الأصقاع الإسلامية، يقول شاندور: «لم تلبث الدلائل الأولى لرد الفعل الإسلامي أن ظهرت في دمشق أولاً، ثم في حلب وديار بكر والموصل.. واستيقظ الإسلام السوري بعد أن وعى مصائبه، للجهاد، ومن أقاصي المغرب إلى أعماق المشرق دوت صرخة التوحيد الرهيبية على كل ماعداها من صرخات ثانوية.. الجهاد في كل مكان».

نور الدين زنكي بطل الإسلام والمناضل بلا هوادة ضد الفرنجة

وكان أن تشكلت آمال عريضة لدى العرب المسلمين بالنصر على الفرنجة مع فشل الحملة الصليبية الثانية أمام دمشق وارتداد الصليبيين عن أسوارها عام ١١٤٨ وغدت هذه الآمال حقيقة مع بزوغ نجم نور الدين زنكي البطل القومي نيراً ساطعاً، يتابع شاندور: «وتحققت هذه الآمال، إذ دخل تاريخ الإسلام السوري شخص جديداً — يمكن اعتبار ملكه بهذا الشكل أو غيره المقدمة لملك صلاح الدين — لقد سبق أن أشرنا إليه آنفاً حين قلنا إن منطقة حلب آلت إلى يد نور الدين، الذي كان تجسيدا للإيمان المناضل».

كان حاكماً صوفياً عنيفاً، وبطلاً قومياً حقيقياً، مؤمناً بعظمة الرسالة السماوية. هذا الجندي الباسل الذي غدا بفضل سلسلة من المناورات تدعمها التظاهرات العسكرية سيد سورية، والذي سيكرس حياته لمقارعة الفرنجة ومنازلتهم، بينما كانت الممالك اللاتينية في الغرب تصاب بردة الفعل المزعجة في أعقاب فشل الحملة الصليبية الثانية». (الفصل الثالث).

واستفاد الإسلام المناضل من انقسام صف فرنجة المشرق، وحقق — على يد نور الدين زنكي — وحدة بلاد الشام، هذا البطل القومي الذي وضع نصب عينيه هدفاً وحيداً لا يحيد عنه: الكفاح ضد الجسم الغريب، وطرد الصليبيين الأجانب خارج سورية وفلسطين.

وأهمية نور الدين زنكي بالنسبة لتاريخ الحروب الصليبية ولعهد صلاح

الدين تكمن في أنه أرسى قواعد النضال ضد فرنجة المشرق، وأقام الأسس
الراسخة التي شاد عليها صلاح الدين شاخ مجده النضالي، مستفيداً من
ضعف النظام الاقطاعي الصليبي، يقول شاندور:

«وسبق لبعض المؤرخين أن كتبوا قائلين: إن ضعف دول الفرنجة
بسورية ناجم في جوهره عن كون الصليبيين جلبوا معهم النظام الاقطاعي، ولم
تكن سلطة كبار البارونات لتتعدى اقطاعاتهم المحصنة. وغدت القدس بيزنطة
ثانية. وكانت هذه الأسباب من عوامل الضعف التي ما كان لها إلا أن تحظى
بمباركة زعيم مسلم من مستوى نور الدين الذي انفرد بمهمة استغلال هذا
الوضع مرسياً الأسس التي سيشيد عليها صلاح الدين بناءً راسخاً.. فخلال
الثاني والعشرين سنة التي أمسك فيها بمقاليد الحكم (١١٤٦ — ١١٧٤)
أنهك الصليبيين هادماً حصونهم.. وفي أقل من سنتين احتل تقريباً جميع مواقع
الفرنجة في سورية الشمالية، غير تارك لأعدائه لحظة راحة، داحراً إياهم في
جراة اهتزت لها القدس». (الفصل الثالث).

الصراع على وادي النيل وبروز نجم صلاح الدين

لقد حدد الصراع على وادي النيل بين الفرنجة والمسلمين، بدايات هذا
«البطل الأنقى في الإسلام: صلاح الدين» إذ سعى الصليبيون لبسط نفوذهم
على أرض الكنانة، للاستئثار بخيراتها من جهة، وخشية قيام وحدة سورية
مصرية، تقرب نهايتهم في المشرق.. من جهة ثانية. ودفعت الحملة الصليبية
على مصر، وما نجم عنها من ارتكاب الفظائع والمجازر في بلبيس، الخليفة
الفاطمي للاستنجد به نور الدين حين أرسل له شعور نسائه مستغيثاً به..

وكان هذا حدثاً بالغ الأهمية في سياق الحركة التاريخية لمنطقة الشرق
الأوسط، إذ ترتبت عليه جملة من الأحداث، منها: تألق نجم صلاح الدين
الأيوبي الذي رافق عمه البطل الأسطورة أسد الدين شيركوه على رأس الجيش
السوري الذي أنفذه نور الدين إلى مصر، لدرو الخطر الصليبي عنها، فاستقبل

في ٨ كانون الثاني كمحرر للبلاد . وكان صلاح الدين ساعد عمه الأيمن في القضاء على مؤامرات رجالات البلاط الفاطمي ، واستتباب الأمن في أرض الكنانة ، وخلفه بعد قصير زمن على سدة وزارة مصر ، فغدا سيدها المطلق الذي وضع نهاية الخلافة الفاطمية في القاهرة ، مؤسساً على أنقاضها الدولة الأيوبية ، ومتابعاً خطة مقارعة الفرنجة ، متمماً بذلك رسالة نور الدين ، يقول شاندور :

« أقض مضجع الصليبيين أن يروا قبضة صلاح الدين تحكم السيطرة على مصر المشتتة ، وكان على الممالك اللاتينية في المشرق التي تهددها حلب من الشمال ودمشق من الشرق ، أن تأخذ من الآن فصاعداً جانب الحذر من الجنوب حيث غدت مملكة القدس تهددها مصر التي أصبحت ثانية — تحت حكم صلاح الدين — بؤرة الإسلام المناضل » . (الفصل الخامس) .

ومالبث ملك القدس أن سارع إلى الدعوة لحرب صليبية جديدة لكنها لم تسفر عن أية نتيجة ، رغم قيام حلف ما بين بيزنطة ومملكة القدس هدفه الاستيلاء على مصر ، والعمل على فصم وحدة وادي النيل وبلاد الشام ، فنهذ صلاح الدين لمقارعة قوى التحالف هذه ، وتمكن من دحرها في دمياط عام ١١٦٩ . وليس هذا فحسب ، بل انتقل من الدفاع إلى الهجوم لينزع الصليبيين من التسلسل ثانية إلى مصر ، وخاض ضدهم عمليات عسكرية ظافرة ، فدخل مدينة غزة وحرر إيالات الواقعة على البحر الأحمر ، وبذا تمكن من إبعاد شبح خطرهم عنه ، وتأمين سلامة أرض الكنانة .

وبرز صلاح الدين رجلاً سياسياً بارعاً ، وعسكرياً لا يشق له غبار ، وشكل خطراً داهماً على الممالك اللاتينية ، وخاصة بعد أن أنهى الخلافة الفاطمية ، وسارع لإصلاح نظام الحكم في ربوع وادي النيل ، وحقق نهضة سياسية ، وازدهاراً اقتصادياً . وتقدماً عمرانياً .

وفي هذه المرحلة التاريخية ، ظهرت الانقسامات داخل صفوف الفرنجة

ولا سيما بعد وفاة آموري ملك القدس والخلافات الناشبة حول الوصاية ، كما ذكر
قرن الفتنة في الدولة الزنكية أعقاب وفاة نور الدين وقيام المنازعات بين الأمراء
على اقتسام السلطة بوجود ابن نور الدين القاصر .

وتوجهت أنظار الشخصيات النافذة في دمشق إلى البطل صلاح
الدين ، فسارعت لاستدعائه لانقاذ بلاد الشام من الأخطار المحدقة بها داخلياً
وخارجياً ، طالبة منه أن يكون له دوره الحاسم في مستقبل البلاد ، وأن يحقق
بالتالي المشروع الطموح الذي بدأه نور الدين : طرد الفرنجة وتحرير الديار من
رجس الدخلاء .

وفي العام ١١٧٤ استقبل سكان دمشق بأهازيج الابتهاج صلاح الدين
كرمز للبطل المنقذ ، وسرعان ما انضوت تحت ظل قيادته المدن السورية الأخرى
حين حقق نصره الحاسم على القوات الزنكية التي قادها أمراء ما بين النهرين ،
قرب حماة ، وبذا غدا سيد القطرين سورية ومصر ، مطوقاً بهما الوجود الصليبي
من حلب إلى القاهرة .

ويقول شاندور : « وهكذا بعد نجاحات متنوعة كانت سلطة مؤسس
السلالة الأيوبية تترسخ ويعترف بها من حلب إلى القاهرة . وكتب غيوم
الصورى يقول : لقد انتشرت تلك الأنباء في أراضى الفرنجة الذين انتابهم من
جرائها الذعر لأنها كانت دائماً موضع تخوفهم ، لإدراكهم تماماً أنهم سيطوقون
من جميع الجهات ، إذا استولى صلاح الدين على حلب » . (الفصل الثامن) .

وتابع صلاح الدين سيرته الكفاحية ضد الوجود الصليبي في الشرق
بعد أن رأى أن الفرنجة ما زالت تنزع بهم الأحلام للسيطرة على وادي النيل وأن
محاولاتهم العسكرية الرامية حسب قول شاندور : « إلى إقامة دولة فرنجية تكون
امتداداً طبيعياً لمملكة القدس في وادي النيل الحصب ينبوع الغلات ،
ومصدر الواردات » . (الفصل التاسع) خاصة وأن هذه المحاولات لم
تبرح تأخذ هذا الشكل أو ذاك .

إلا أن طموحاتهم تبخرت أمام صمود السلطة الأيوبية أولاً، وبسبب خلافاتهم الداخلية، ومصالحهم الإقطاعية الأنانية ثانياً.

السيرة النضالية المستمرة ضد الفرنجة الشرق

لقد كانت سيرة صلاح الدين بمجموعها سيرة كفاح متواصل، إذ نقل مركز سلطته إلى دمشق ليكون قريباً من أعداء العرب والإسلام. وليتابع مشروعه التحرري النضالي الطموح الهادف إلى تصفية الكيانات الصليبية لاستمرار انتهاكاتهم، في المشرق.. لا سيما وأن الصليبيين لم يكفوا البتة عن النزوع العدواني، وشنيع أفعال سيد الكرك رينودي شاتيون، الذي عجل بطيشه وحماقاته، ومشروعه الخطير للاستيلاء على المدينتين الإسلاميتين المقدستين مكة والمدينة، فضلاً عن تجاوزاته المتكررة وخرق اتفاقيات السلم ونهب قوافل الحجيج المسلمين، مما عجل بدفع عجلة الأحداث إلى النقطة الحاسمة في سياق الحروب الصليبية، ونشوب معركة حطين، حين دعا صلاح الدين يؤيده خليفة بغداد «إلى الجهاد المقدس في جميع الديار الإسلامية واعتبرت بذلك أراضي الفرنجة دار حرب». (الفصل الثالث عشر).

حطين .. النصر الأعظم للعرب والمسلمين على الفرنجة

وأعطت الدعوة إلى الجهاد المقدس ثمارها، إذ استنفرت سائر القوى والقبائل العربية في مصر والمشرق العربي، وزجت طاقاتها في معركة التحرير، فعمجت التلال والهضاب بفارسان الرحمن.. يقول شاندور واصفاً حشود المسلمين:

«فامتألت تخوم الجليل بسحب من القوافل شبيهة بزمن التجمعات العربية عشية فتح الشرق البيزنطي والساساني».

وأخذ صلاح الدين يعد العدة لحرب عسكرية طويلة الأمد، ولخوض معركة مصيرية حاسمة، سرعان ما بلغت أصدائها مسامع الفرنجة، فسارعوا إلى

نبد خلافاتهم ورأب الصدع في صفوفهم، وتنادوا لتحقيق «وحدتهم المقدسة» لأنهم غدوا على يقين من أن المعركة المقبلة مع المسلمين تختلف عما عداها من معارك. خاضوها في الشرق، فهي معركة مصير، يتوقف عليها وجود أو زوال الكيانات اللاتينية في المشرق العربي، ولهذا حشدوا لها سائر الرجال القادرين على حمل السلاح، يقول شاندور:

«وكان يومع ملك القدس — غي دي لوزينيان — أن يزعم أنه حشد في صفورية أحد أهم الجيوش في جميع الحروب الصليبية». (الفصل الرابع عشر).

وأجبر صلاح الدين الفرنجة — بمحاصرته قلعة طبرية — على التخلي عن صفورية الغنية بالينابيع والمراعي، ليقودهم في حركة تكتيكية بارعة إلى الموقع الذي اختاره بنفسه للقتال، بعيداً عن مصادر المياه، فوقعوا في الشرك، حين أطبقت عليهم القوات الإسلامية وحاصرتهم محاصرة تامة مضيقة عليهم الخناق، دون أن يزج صلاح الدين بكامل جيشه، إذ احتفظ بقوات احتياطية للعملية العسكرية الشاملة وشرع في إنهاك الفرنجة المحاصرين، المرهقين ظمأً وحرماً وجوعاً، والذين اندفعوا على غير هدى يتسلقون تل حطين، الذي شهد رقدتهم على نار جراح القتل، والتي كانت أبدية لا يقظة بعدها.

ويصف شاندور النهاية المأساوية لجيش الفرنجة: «وأخيراً أطل اليوم الرابع من تموز (يوليو) ١١٨٧ اليوم الشديد الشؤم على النصرانية».

ففي هذا اليوم الأغر من تاريخ العروبة استطاع الجيش الإسلامي — حين أصدر صلاح الدين أمره — بشن الهجوم الصاعق، وزج قواته في المعركة الحاسمة أن يبيلد الفرنجة المحاصرين عن بكرة أبيهم...

ويتابع شاندور محلاً نتائج المعركة، بقوله:

«وقطعاً، لم تحدث هزيمة أكمل ولا أفدح خسائر، فعشية المعركة كان

ثلاثون ألف فرنجي يوقدون فوق الرماد الذي ما برح حاراً في هذه الأرض المعادية .. وتؤيد رواية أحد الحجاج وكان قد حضر هذه المعركة الخالدة ما قلناه آنفاً عن يوم حطين ، هذا اليوم الذي كان أعظم نصر لصلاح الدين .
(الفصل الرابع عشر) .

وعملياً ، فإن معركة حطين التي كانت الضربة القاضية على القوة الأساسية للفرنجية ، قد هيأت النتائج لصلاح الدين ، الذي لم يتباطأ في قطف ثمرات النصر فحرر كامل الساحل الفلسطيني وقسماً من الساحل اللبناني ، وسرعان ما تهاوت مدن الفرنجة ، وتساقطت قلاعهم وحصونهم المنيعة يقول شاندور :

« وهكذا ، مثلما جعلت معركة حماة صلاح الدين سيد سورية ، فإن معركة حطين قد جعلته سيد فلسطين » .

فتح بيت المقدس

إلا أن أعظم الثمرات التي جناها صلاح الدين أو كانت من النتائج المباشرة لمعركة حطين ، هي تحريره بيت المقدس ، يقول شاندور :

« وفي السادس عشر من شهر رجب ٥٨٥ هجرية الموافق ٢ أيلول (سبتمبر) ١١٨٧ م أي بعد معركة حطين بشهرين ونصف الشهر ، ظهر صلاح الدين أمام أسوار القدس ، ولم تلبث المدينة أن سقطت وكان هذا تاريخاً لا ينسى في العالم الإسلامي » (الفصل الخامس عشر) .

صلاح الدين ومشروع تصفية الوجود الصليبي في الشرق

وبعد أن حرر صلاح الدين فلسطين ، وضع نصب عينيه تصفية الوجود الصليبي في المشرق تصفية تامة ، ودعا إلى جهاد جديد ، ومع مطلع آذار عام ١١٨٨ .. استؤنفت الأعمال القتالية لاستئصال شأفة الوجود الصليبي من الساحل السوري ، وتمكنت قوات العروة والإسلام من تحرير بيروت وبانياس وجبله واللاذقية ، وانتزاع حصن صهيون الذي كان يعد أعجوبة

الإنشاء العسكري والذي اعتبر ممتنعاً على الفتح وشبه بالشجاء الناشب في حلق المسلمين .

كما تهاوت شبكة التحصينات الصليبية : حامية مملكة أنطاكية ، حين افتتح صلاح الدين عنوة أهم حصونها وأشهر قلاعها .. وفي هذا الوقت تمكن أخوه الملك العادل أن يفتح الكرك .. وبسقوطها أعيدت الاتصالات بين مصر والشام .

الحملة الصليبية الثالثة

كان معركة حطين الخالدة وفتح بيت المقدس وتحرير المدن العربية من نير الاستعمار الصليبي ، وقعه البالغ عالمياً ، فإسلامياً قوبلت بالأفراح أنباء هذه الأحداث ، بينما كان الدهول يخيم على الغرب ، ولم يبق من الصدمة إلا على أنباء الإعداد لحملة صليبية جديدة . يقول شاندرور :

« لقد أقضت المضاجع في جميع البلاطات الأوربية ، وبدأت الدعوة للحملة الصليبية الثالثة التي دعا إليها البابا غريغوريوس الثامن ، إذ حث جميع المسيحيين القادرين على القتال على حمل السلاح بغية إنقاذ الدين » . (الفصل الثامن عشر ، تحالف أوروبا المسيحية ضد الإسلام) .

وتسلم كل من عاهلي انكلترا (ريتشارد قلب الأسد) وفرنسا (فيليب أوغست) الصليب من بطريك صور ، وشرعا يعدان العدة معاً للحملة المقبلة ، كما حلم امبراطور جرمانيا فردريك باربروس بانتزاع قصب السبق في المشرق ، فوضع قواعد صارمة لحملة الصليبية الجديدة ، وأعلن الحرب على صلاح الدين باسم الأباطرة الرومان — حين رفض بطل الإسلام إنذاره بإعادة الأراضي المحررة إلى الفرنجة — وشرع بالزحف براً باتجاه الشرق على رأس جيش قوامه مئة ألف مقاتل .

وظهرت عبقرية صلاح الدين الفذة ، حين عقد معاهدة تحالف مع اسحق لانج امبراطور بيزنطية يقول شاندور محلاً :

« كان عالمان يتأهبان للمجابهة ولتحمل تجربة رهيبة ، ولكن عبقرية صلاح الدين السياسية ستتيح له أن يحقق أعظم نجاح دبلوماسي في حياته : فمعاهدة التحالف التي وقعها مع اسحق لانج الإمبراطور البيزنطي والمسيحي العريق الذي بفضلها انضمت بيزنطية إلى المسلمين عشية الحملة الصليبية الثالثة » ويتابع شاندور حديثه عن معطيات المعاهدة ، قائلاً :

... « فقد تعهد اسحق لانج بموجب المعاهدة التي أبرمها مع فاتح القدس بالتنازل للمسلمين عن إحدى أشهر كنائس بيزنطية لتصبح جامعاً ، ووعد بأن يستنزف مؤخرة جيش فريديك باربروس ، وأن يحول الدروب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً إلى طرق مقطوعة . (الفصل الثامن عشر) .

ملحمة عكا

كان قد سبق لصلاح الدين أن حاصر مدينة صور ثم اضطر إلى رفع الحصار عنها ، مرجعاً إلى وقت آخر فتحها وكان قد تسلم كورنراد دي مونفرا زمام قيادتها ، فلم يلبث أن حولها إلى قلعة حصينة ، وبوابة مفتوحة لاستقبال أساطيل الغرب ، والأمر الأخطر أن انطلق منها غي دي لوزينيان عاهل مملكة القدس — الملكة الشبح — الذي أطلق صلاح الدين سراح أسره في أعقاب معركة حطين — « بعد أن أقسم له بألا يشهر سيفه أبداً ضد الإسلام » — « ليظهر من جديد على مسرح الأحداث السياسي على رأس سبعة آلاف رجل » زاحفاً باتجاه عكا ، حيث التقى هناك بطلائع قوى الفرنجة ، وضرب حصاراً على المدينة .

يقول شاندور محلاً الوضع العسكري الجديد أمام أسوار عكا المحاصرة : « وبدلاً من أن يواجه صلاح الدين في عكا — كما كان يعتقد — بضعة

مئات من الفرنجة المتعصبين الذين لا يقلقونه لقلة عددهم وجد نفسه وجهاً لوجه مع ألفي فارس، وثلاثين ألف راجل تقريباً، وكانت قوات فرنجية جديدة تنزل من البحر على الساحل اللبناني، ويعبر خمسمائة مركب مضيق جبل طارق قادمة من أوروبا الشمالية في أول أيلول (سبتمبر) وعليها ١٢٠٠٠ من الدانماركيين والفرنسيين. وكانت أساطيل أخرى ترسو.. ولا ننسى أن هذه القوات لم تكن تمثل سوى طليعة أنفذها الغرب اللاتيني، ... طليعة ستبعتها عما قريب جيوش ملكي فرنسا وانكلترا، وكان فريدريك باربروس ما يزال زاحفاً مع جرمانيه المائة ألف..».

وعند أسوار عكا، دارت أضرى المعارك ما بين عالين.. فكانت الملحمة العظمى، في تاريخ الحروب الصليبية.

وينقل شاندور عن كتاب الروضتين لأبي شامة ما يلي:

«وهكذا، غدا المسلمون والفرنجة كل منهما محاصراً ومحاصراً في آن واحد، الأولون في عكا والآخرون في المدينة الجديدة التي كانوا ينشؤونها دفاعاً عن أنفسهم ضد صلاح الدين، إلا أنه بقي وحده محتفظاً بحرية الحركة» وأحكم الفرنجة الحصار على عكا براً وبحراً، هذا الحصار الذي بدأ في أيلول ١١٨٩ حتى سقوطها في ١٣ تموز ١١٩١.

ولكن، إذا كان الفشل نصيب الحملة الصليبية الألمانية بسبب ما عانتته قواتها من المجاعة والمرض والتساقط موتاً على قارعتي طريق زحفها، وأخيراً فقدانها قائدها غرقاً، ووصول فلولها هزيلة إلى أرض المعركة.. فإن قوى الانكليز والفرنسيين وصلت إلى حومة الصراع بكل زخمها.. كما لم يتوقف البتة تدفق الإمدادات العسكرية لكلا المعسكرين معاً.. الفرنجة، والعرب المسلمين، تترى متقدمة نحو عكا لتتناوب الهجمات والهجمات المضادة، وكان سكان عكا المحاصرون يعانون الجوع والحرمان، وبالمقابل فقد خامر اليأس قلوب الفرنجة من طول الحصار المشفوع بقوة الصمود.. فشرع كل من

ملكي انكلترا وفرنسا يتباحثان سرّاً مع صلاح الدين لإيجاد مخرج لهذا الصراع الذي تمثلت فيه شعوب شتى وأمم مختلفة.

وأخيراً، سقطت المدينة بيد الفرنجة الذين دفعوا الثمن غالياً، فقد خسروا أمام أسوارها خمسين ألف راجل، ويقدر شاندور استناداً إلى المصادر الغربية أن الفرنجة خسروا في الحملة الصليبية الثالثة مائة وعشرين ألف قتيل.

وانفجرت الخلافات الكامنة في الصف الصليبي إثر سقوط المدينة الشهيدة، فغادر ملك فرنسا الأراضي المقدسة، وتفرّد ملك انكلترا بقيادة الفرنجة، وارتكب مجزرة رهينة عز نظيرها في التاريخ، بسكان عكا العزل من السلاح.. والذين ساقهم رجالاً ونساءً مكبلين حفاة عراة، إلا من ستر الإيمان، لتغرز أسنة الحراب في حر الرقاب.

الصراع على الساحل الفلسطيني، وسياسة الأرض المحروقة

وحاول الفرنجة الاستيلاء على الساحل الفلسطيني، بهدف إعادة سيطرتهم على القدس، فناجزهم صلاح الدين بمعارك ضارية دارت ما بين أرسوف والرملة، ولم يتردد بطل الشام في تدمير مدينة عسقلان خشية أن تسقط بيد الفرنجة كي يؤمن حسب قوله حياة القدس وخلاصها.. كما هدم الرملة واللد جاعلاً الطريق إلى القدس قاعاً صنفصفاً، مطبقاً بذلك استراتيجية الأرض المحروقة، في كل موطن قدم يمكن للأعداء أن يجوسوا خلاله.

الطريق إلى القدس

واقترب جيش الفرنجة من القدس، وعسكر على قاب قوسين منها، لكنه عانى عند أعتابها: الأمرين، مرارة الظرف القاسي، والمواجهة الأقسى مع عقبان الصحراء أبطال القبائل العربية، يقول شاندور:

«لقد هرع بدو المناطق المجاورة، فأنزلوا ضرباتهم الخاطفة بالجيش المبتل

بمياه الأمطار، المرتعد برداً، والذي كان يتقدم بمنتهى البطء في الطرقات الموحلة، وقطعوا عليه قوافل تموينه مكرهين إياه على البقاء بحالة استنفار دائم» .

«وتوقف ريكاردوس قلب الأسد على مسافة عشرين كيلومتراً من القدس وعقد اجتماعاً لمجلسه، وتردد. فقد كان فرنجة المغرب يودون متابعة الزحف نحو القدس، على حين كان فرنجة المشرق ييغون العودة إلى الساحل لأنهم كانوا يتوجسون خوفاً من أن يصبحوا بين فكي كاشة: حماة القدس، وجيش صلاح الدين المسيطر على الريف. وكان هذا الخطر شبيهاً بذاك الذي سبق أن واجهوه وراء أسوار عكا، ولكنه هذه المرة أشد، لأنهم بمنأى عن البحر ويعيدون عن حماية الأساطيل الفرنجية.. وكان الفرنجة على شبه يقين بأن امداداتهم ومواصلاتهم مع الساحل يمكن أن يقطعها عليهم البدو» . (الفصل الرابع والعشرون) .

واضطرب الفرنجة إلى الانكفاء متقهقرين إلى الورا ارتداداً إلى الساحل، توجساً من مواجهة العرب المسلمين عند أبواب بيت المقدس، فتكون القاضية عليهم .

البحث عن مخرج من حالة اللاسلم واللاحرب

وابتدأت مرحلة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية، وترتب على الفرنجة أن يفكروا بطريقة تخرجهم من مأزقهم الكبير وتخططهم في النفق المظلم دون أن يروا أي بصيص أمل، وكان هدف صلاح الدين مع مطلع عام ١١٩٢ حسب رأي شاندور: «أن يطيل حالة اللاسلم واللاحرب المتأرجحة بين المسلمين والفرنجة»، معتمداً في سياسته البعيدة المدى، على الصبر واليقظة والتأهب وإلإنهاك تمهيداً لاستئناف القتال كما يقول صلاح الدين: «حالما نلمح الامارات المؤاتية لنصر الإسلام الحاسم» .

القدس .. وهاجس حطين أخرى

وقرر الفرنجة استئناف القتال مرة أخرى والزحف نحو القدس ولكنهم انكفأوا عنها ثانية قبل أن يبلغوها لأنهم أدركوا عقم حصارهم إياها إذ تأكدوا أنها غدت حصينة لا تقهر، وأن عليهم مواجهة القوات الإسلامية الموحدة تحت راية صلاح الدين الظافرة عند أسوارها المنيعة، ويحلل شاندور موقف ريكاردوس قلب الأسد، وهاجسه المقلق من حطين أخرى، بقوله:

«ويلاحظ أن ملك انكلترا لم يكن يريد أن يتحمل مسؤولية حطين ثانية، وأنه كان يفضل الاحتفاظ بالمواقع المحتلة على الساحل، ولو بصعوبة بالغة، سليمة بدلاً من خسارة كل شيء في معركة يذكر ريكاردوس قلب الأسد بذعر نتائجها». (الفصل الخامس والعشرون).

الصلح الصعب

وبدأت مرحلة تالية في البحث عن أسس جديدة للصلح الصعب، كان من نتائجها حسب رأي شاندور: «أن أمل صلاح الدين المعاهدة إملاء المنتصر»، حين تم التوقيع على «وثيقة ليست هي سلماً دائماً بل هدنة مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام... وبقي الساحل الممتد من يافا إلى عكا تحت سلطة الفرنجة، وظلت عسقلان محايدة، وقسمت منطقة الرملة — البلد قسمين أحدهما بيد الفرنجة، والثاني بيد المسلمين، وبموجبها كان المسيحيون يستطيعون الحج بحرية إلى الديار المقدسة».

مجد صلاح الدين وفشل الحملة الصليبية الثالثة

ويخرج شاندور بتحليله الأخير أن الصلح بين الفرنجة والمسلمين كرس مجد صلاح الدين وعبقريته السياسية والعسكرية، كما كشف عن عقم الحملات الصليبية، يقول:

« تلك كانت نهاية هذا التحالف الضخم للشعوب، الذي عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة وكرست هذه النهاية مجد صلاح الدين وعبقريته، كما كرس عجز الفرنجة المنقسمين سعياً وراء قضايا مصلحية قذرة، أمام الإسلام الذي كان ظله يتعاضم، وسيشمل قارات أخرى فيما بعد ».

صلاح الدين: سيف ملحمة الإسلام المنتصر

كانت حياة صلاح الدين ملحمة بطولية خالدة، ولذا اعتبر رمز الإسلام وسيفه المنتصر... يقول شاندور:

« مطلقاً لم يبلغ أحد من البشر ما بلغه صلاح الدين من ألق المجد بعد انقضاء عهد الرسول وقادة الفتح الأولين، إذ أحرز أكبر نصر للإسلام على الفرنجة في حطين وأزاح ستار الظلام القائم بين الشرق والغرب. لقد بكى الناس فقدان القدس في أكثر الأكوخ تواضعاً في فرنسا، ولكن هنا في دمشق أصبح صلاح الدين في حياته وسيبقى أبداً على مر الأجيال سيف الإسلام. وأضحى رمز الإسلام، وغدا اسمه وحده يجعل يقظة الإسلام تهز رهبة أعماق أقصى الولايات في الغرب ». (الفصل السادس والعشرون).

وكان صلاح الدين، وسيظل تلك الصورة النقية للحاكم العادل والقائد الإنسان؛ تجلي لمؤرخي الحروب الصليبية بتلك الصورة التقية الورعة، ورغم أنه ألحق أفدح الهزائم بالغرب الفرنجي.. فقد ملأت قلبه الرحمة التي تمثلت بأروع صورها بعد نصره العظيم في معركة حطين وتحريره بيت المقدس.. لم يقابل أعداءه بالحقن الديني ولا الهمجية الجماعية التي عاملوا بها المسلمين وخاصة عندما سقطت بأيديهم القدس عام ١٠٩٩ في الحملة الصليبية الأولى، إذ ذبحوا سبعين ألفاً من المسلمين في المسجد الأقصى، بينما سمح هو عقب التحرير، للفرنجة المهزومين بالخروج سالمين وأظهر أريحيته ونبله تجاه مستضعفيهم، مخففاً من آلام النسوة، غامراً لإياهن بالهدايا والمؤن، وبفيض رحمته على هؤلاء وأولئك من البؤساء، في وقت تنكر لهم أبناء دينهم وجلدتهم.

صلاح الدين الأيوبي .. وحطين ما بين الأمس واليوم

وعوداً على بدء نرجع إلى القول : لقد قدم بطلنا الخالد ، بطل حطين ومحرر بيت المقدس الدروس والعبر التاريخية ، سياسياً وعسكرياً ، ومن هنا كانت الأهمية الكبرى لدراسة الحروب الصليبية والوقفة المتأنية حيال أبطالنا الذين نازلوا الكيانات الاستعمارية المصطنعة ، وقارعوها حتى النهاية : نور الدين زنكي ، صلاح الدين الأيوبي ، الظاهر بيبرس ، وإعادة بحث المعارك العسكرية التي دارت ما بين العرب المسلمين والفرنجة الصليبيين وكان مسرحها شرقنا العربي ، ومن هنا كانت أيضاً في محلها تلك الندوة : ندوة حطين التي عقدت مؤخراً بدمشق ، في سياق صراعنا مع الكيان الصهيوني .

ما أشبه اليوم بالبارحة .. الماضي البعيد بالحاضر الراهن ، أي منذ ولادة فكرة الحروب الصليبية إلى الغزو الصهيوني ، بدءاً من الخدعة السياسية والتعلق بالخرافات والأساطير ، إلى تغذية الروح الاستعمارية بهدف الاستيلاء على ثروات الشرق . وكيف لا ؟ والوجود الصليبي — شأنه أمس شأن صنوه الكيان الصهيوني اليوم — قام على حراب الدعم الخارجي الكبير ، فأوروبا كانت وراء الممالك اللاتينية في المشرق ، كما أن أمريكا زعيمة الامبريالية العالمية ودول أوروبا الغربية والرجعيات الدولية ، دعمت وما زالت تدعم بلا حدود هذا الكيان الدخيل .

ولا ننسى أن كلا الغزوين الفرنجي والصهيوني استفادا من تمزق العرب وتخلف المسلمين ، بل من صراعاتهم الداخلية ، ضد بعضهم بعضاً ، عشية الغزو الفرنجي والاحتلال الصهيوني . ولكن هاهي ذي بوارق اليقظة ومشاعل النضال تلوح — كما في سورية الأمس — وفي سورية اليوم معقد آمال العرب وكعبة رجائهم في النهوض والتحرير .

ولا خلاف فإننا مع الأخ الدكتور شاكر مصطفى بما ذهب إليه في محاضراته القيمة التي ألقاها في ندوة حطين « من الغزو الصليبي إلى الغزو

الصهيوني وبالعكس» ، حين خالص إلى النتيجة الهامة — التي يعرفها الصهاينة وامبرياليو الغرب حق المعرفة — والتي مفادها :

« كانت عملية تحرير فلسطين من الفرنجة من عمل مصر والشام ، وكان شمال العراق هو العمق الاستراتيجي للعملية .. ويدو أن المنطق الجيو — بولتيكي ما يزال قائماً وماتزال عملية التحرير من مهمات هذه المنطقة بالذات دون غيرها .. وكانت حطين ، لكنها لم تكن إلا بعد أن وجدت عاصمة ومركزاً ديناميكياً لها في دمشق وقيادة واعية ملهمة وقوة موحدة ساحقة ، وعمقاً استراتيجياً وراءها وإعداداً سياسياً وعسكرياً طويلاً » .

وليس من ريب — وقد كانت نهايات الكيانات الصليبية المصطنعة هي الزوال — أن نهاية الكيان الصهيوني ستكون مماثلة ، لأن منطق التاريخ يفرض هذا كما هذه ، ويرفض الكيانات الدخيلة المصطنعة ولن يضيع حق وراءه مطالب ، خاصة وأن سورية اليوم تعمل وحدها جادة لتحقيق التوازن الاستراتيجي مع إسرائيل ، وتعد العدة إلى صراع طويل الأمد ، فكيف إذا آتت الظروف وتوحدت كلمة العرب ، وانتهت الكلمة الموحدة إلى طاقة وعمل ؟

إننا الآن إذ نودع القارئ الكريم لياشر بذاته — وعلى هواه — تلك النزهة التاريخية الممتعة ، على صفحات هذا السفر — سواء المترجم منها أو نصوص التحقيق — لا بد من الاقرار بأننا كثيراً وكثيراً ما لاحت لنا تلك الحقيقة في قوله جل جلاله : ﴿ إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصَرِكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ . ويتأطر هذا الشرط وجوابه بوعده الحق : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .

الشَّام ٢٦ تموز ١٩٨٨

المعتمد
مصطفى طلاس

الفصل الأول

التمخضات الكبرى في العالم الإسلامي عشية الحروب الصليبية

العهد الذهبي للإسلام

في القرنين السابع والثامن للميلاد هزّ الانفجار الرهيب للإسلام القارة القديمة، وعرف العالم العربي عهداً ذهبياً من التوسع الإقليمي والديني، ومن الإشعاع المتوهج في مضمار العلوم والفنون، فكان هذا هو العصر الذهبي للمؤرخين العرب، كان عيداً مستمراً، وليس هذا فحسب، بل تحقق حلم الاشتراكيين المعاصرين، في أن يروا أنفسهم عائشين في كنف الدولة على الرخاء منسكناً ومطعماً.

وحدة العقيدة الروحية والزمنية للعالم الإسلامي وبوادر الانقسام

واستقر الإسلام بعد أن هدد أوروبا، وفي هذه الكتلة الإسلامية الضخمة التي نجمت فجأة في تاريخ العالم لم يلبث أن ظهرت — في لحظة حرجة حرجاً خاصاً بالنسبة للغرب المهتز أمام الفتوحات العربية والصقلبية — الخصومات السلالية والأزمة الرومانية في القرن التاسع، كما تفجر الكثير من بؤر الاضطراب بين غلاة الدعوة للمائة والأربعين سورة من القرآن الكريم بما فيها من إيجازٍ موحٍ. كان يمكن تأويلها بتفسيرات مختلفة. ومن جهة كان النبي (ﷺ) قد

قال : « اختلاف أئمتي رحمةً ». هذا الحديث ذاته كان يمكن أن يريح أكثر ضمائر المؤمنين رسوخ يقين ، وهو يفسر لنا — إذا لم نؤخذ بعظمة الإسلام الظاهرة — تعدد المدارس الأصولية وتفتحها ، وتلاحقها فيما بينها لاكتساب التابعين .

وكان من نتائج فقدان التوازن العميق لدى قوى الإسلام الروحية أن تتزعزع — ولا مناص — الوحدة العقيدية والزمنية للعالم الإسلامي الذي لم يكن لديه — ولنركز على هذه الملاحظة — تقليد امبريالي ولا أرستقراطية ولا نخبات ، وهي أمور لا يمكن من دونها تغذية ودعم سياسة قومية واضحة .

زعزعة السلطة المركزية وتسلسل الموالي على الحكم

وفي خضم الخصومات العقيدية الحادة تقوضت السلطة المركزية التي غالباً ما كانت شرعيتها غير معترف بها .

وبالتأكيد لم يكن الخلفاء ، خلفاء النبي (ﷺ) لينخشوا شيئاً خشيتهم من أن تجردهم من سلطتهم الفئات الإصلاحية التي كانت ماتنفلك ثائرة عليهم . ولذا استدعوا الموالي من مختلف أجناسهم للحفاظ على سلطانهم وحراسة بلاطاتهم وقصورهم وإخماد الفتن الشعبية التي طالما أرّثها رجال المذاهب بعناية فائقة . وخشية أن تميد الأرض بهم استعاضوا بالمرتزقة الأتراك أو العبيد الإفريقيين عن الأعراب الأوفياء الذين أسس أجدادهم المتواضعون من قادة القوافل امبراطورية الإسلام ، وتلك هي عقدة المأساة . فالمرتزقة الذين استدعاهم الخلفاء ، وقد هبطوا جميعاً مندفعين من مهدهم : الهضاب الآسيوية القاسية ، سعداء بأن يُسدوا خدماتهم لِسادة بغداد الباهرين ، أو سادة دمشق الحاطين بسحابة كثيفة من الشعراء والأمراء .

وكما يكتب أبو داود : لقد سعد رجال الشمال ، هؤلاء الرعاة الذين كان ينزّ منهم البؤس في قراهم ، أولئك الحفاة القساة في ساحة المعركة ، الذين هم على أهبة الاستعداد لاستيعاب التلميح في القول لتحديد مهماتهم الأشد قبحاً ، الخدم السريعو التصرف ، الخرس ، نعم سعدوا بالغ السعادة من الآن فصاعداً بحياة الرغد في ظل أصحاب السلطان ، وبأن يلعبوا دوراً أساسياً في مأساة الحريم الهزلية . ولذا استجابوا دونما استثناء لنداء الخلفاء غير

المترؤى، تماماً كما حدث فيما مضى للبرابرة الذين تركوا قبائلهم التائهة الجائعة وخفوا مسرعين لحماية نخوم روما، ومن ثم لتقويض الإمبراطورية التي آوتهم^(١).

ولم يلبث الوافدون الجدد أن اطلعوا على الضعف المزمن للسلطة التي كان عليهم أن يحموها، وسرعان ما انقلب المعاونون الأتراك على أسيادهم المتساقطين على عرش آل النبي (ﷺ) وحلوا محلهم، ولم يدعوا لهم سوى السلطة الروحية، وثم امتدت منهم قبضة نحو الشرق، تواصل الإغارة ليل نهار حتى بسطت على الهند سلطان الإسلام، وأما قبضتهم الأخرى فقد احتلت الولايات الغربية من فارس. وفي كل مكان تربع قادة العصابات القدامى والمغامرون على دست الوزارة. وغدت فوضى الخلافة الدستورية متواصلة، والحروب المحلية مستمرة، ولا ينفك كبار الاقطاعيين يثيرونها على بعضهم بعضاً في السلطنات الثانوية. وكما هو الأمر في أوربا الاقطاعية في الحقبة ذاتها، شرع حكام الاقطاعات يهددون السلطة المركزية. وكان ما يجري من نزاع دائم بين المصالح المحلية، والنهب المتفاقم الذي يمارسه الأعراب (البدو)، والتشاجر المستمر بين السكان، كل هذه الأسباب الأولية لعدم الاستقرار كانت تخدم خدمة تتجاوز مطرَح آمال الجبليين الوافدين من الشمال الطامعين، غلف القلوب. وكنتيجة غير مرتقبة، كان هؤلاء المغامرون إبان الحملات الصليبية يجعلون الحروب أشد ضراوة، أو يثيرون بتجاوزاتهم قُدراً من الاستنكار حمل النصرانية بقضها وقضيضها على امتشاق السلاح لتجعل المسلمين الذين طغى عليهم الأتراك يحترمون اتفاقات شارلمان وهارون الرشيد التي كانت تحافظ على امتيازات مسيحيي سورية الفرنجية.

والأسباب ذاتها تؤدي على الدوام إلى النتائج ذاتها. فالخلفاء خدمة الأرضين المقدستين، سيكتفون من الآن فصاعداً، بما تدره عليهم سلطتهم الروحية، تاركين لوزرائهم الأجانب مهمة حل قضايا الدولة، وعكفوا منهمكين برعاية شعرائهم، يخشون وقع قوافيهم حتى ليفرغوا بيت المال وهم يتمتعون — كما جرى للأمين عشية قتله — بعذوبة ضوء القمر الراقص على مياه دجلة. فهذا المجتمع الطائش يدع، مبهجاً عبء المسؤوليات السياسية. وكان رجال البلاط الدائرون في فلك الأمراء ما ينفكون محتاجين للمال ميسس الحاجة لأنفسهم أولاً، ولعائلاتهم وبطانتهم ثانياً، ومن ثم لحاشيتهم وحواشي حاشيتهم، ويرسم لنا

مؤرخو الحواريات العرب بلغتهم الخيالية هذا الفراغ في السلطة، وذلك الإسراف مع عدم الانضباط وجشع الوزراء وولاة الأقاليم وسائر العمال، ناهيك بتحليل الولايات التي كان عمالها يرفضون بقحة ووقاحة دفع الضرائب، تجرّئهم على الفوضى هذه الانشقاقات المستمرة في قلب الخلافة، وتلك المطالب من المغامرين. وسياسة ذاك قوامها تشجع — لا محالة — الاضطرابات حتى لتبدو كارثية.

محنة العالم الإسلامي وانقسامه عشية الحروب الصليبية

وقبل أن نتعرض لعصر صلاح الدين ينبغي أن نقول فيه هذه الكلمات: كان الإسلام يمر بمحنة، لحظة لم تكن السلطة الخليفة البتة منعدمة أو مشكوكاً فيها بهذا المقدار، لحظة كان يمكن التنبؤ بانقسام العالم الإسلامي إلى مجموعتين كبيرتين تستقطبهما بغداد، والقاهرة.

فالعباسيون ينشرون أوامرهم الثورية، وعصابات من الزنج تنتشر في بقاع ما بين النهرين السفلي، ناهبين المدن المزدهرة، حتى المدينة المقدسة مكة لم تكن في منجاة من ذلك. فقد أغارت عليها جحافل القرامطة المتعصبة فقتلت عشرة آلاف من المؤمنين حوالي الكعبة.

ولأن قوافل الحجاج لم تعد تجرؤ على التوجّه إلى مكة حيث كان الناس يتذابحون بضراوة على مدار الأيام، وقع حادث سيكون له تأثيره المزعج في العلاقات بين المسيحيين والمسلمين، ذلك أن هؤلاء قرروا أن يحجّوا من الآن فصاعداً إلى القدس، حيث حلّ مسجد عمر محل الكعبة، ولم يكن المسيحيون ليحصلوا على أيّ ربح من تفجّر هذه المواكب التي لا تنتهي من المؤمنين وهي تؤم القدس دورياً، والتي كانت تحت تأثير حماسها تهدد وتقتل أعضاء المجتمعات المسيحية. وقد دفعت التجاوزات التي كان المسيحيون ضحاياها، بيزنطة إلى التدخل، إذ كانت العاصمة الكبرى للإمبراطورية الرومانية الشرقية تؤكد أنها لن تقف متفرجة على ما يجري في الأرض المقدسة، وخاصة وهي منذ خمسة قرون تصمد لضغط العالم الإسلامي، وكما سنرى، فقد أخذت سياسة أباطرتها السورية، تنعش آمال مسيحيي الشرق، إبان كانت المستوطنات المسيحية في مصر مصابة بالإرهاب من تصرفات الخليفة الحاكم.

ففي القرن الحادي عشر تمّ انشطار العالم الإسلامي قسمين أساسيين. فالمدينتان

المقدستان أصبحتا للخلفاء الفاطميين القادمين من إفريقية الشمالية السادة الجدد لمصر، منتزعين من خصومهم خلفاء بغداد الألقاب المثيرة للحسد، ألقاب حماة الحرمين الشريفين، وكان على الخلافة الفاطمية حسب كلمة مؤسسها أن تبني على أنقاض عالم الجور والفساد مملكة العدالة، والسعادة، وكان ظهورها — ولارب — حدثاً ضخماً في تاريخ الشرق الإسلامي.

الفاطميون والحكم الإرهابي في مصر

لقد بلغت الإمبراطورية التي أقامها الفاطميون من القوة حداً جعلها تهدد تهديداً جدياً الإسلام السوري الذي أوهنته خصومات أمرائه، وبلغت هذه الإمبراطورية ذروتها حينما أفسدت الأمور، فقد ارتقى عرش مصر مهزوز، حسب رأي البعض، أو مكشوف عن بصيرته حسب قناعة الآخرين. كان عمره إحدى عشرة سنة، وكان اسمه الحاكم، هذا الملك الغريب الأطوار، وغير المستقر، والسابق لزمانه، يستحق أن نخصص له بضعة أسطر لأنه صورة متميزة إذ كان — كما يشيع عنه أعداؤه — يتلهى بقطع رؤوس المنجمين، ويجلس ليلاً في المحاكم، يجندل في يوم واحد رؤوس عشرة آلاف ضحية، يحرق ليتسلى أحياء كاملة من القاهرة، يخرج الجثث من المقابر ليغذي بها كلابه الحبيبة، ويحمل عبيده الزنوج على ضرب النساء العاريات بالسيف.

وفي وقت من الأوقات أغرق شعبه في زهول قريب من البدعة، فجعل المقربون منه يروون عنه أنه تجلّ للخالق ذاته، وقد وجد أناساً مهووسين ينشرون هذه البدعة في فارس والهند وسورية.

اضطهاد مسيحي مصر

غير أن المسلمين لم يكونوا الوحيدين الذين آذتهم هذه الاضطرابات النفسية للخليفة. فبعد أن هاجم الحاكم الممارسات التقليدية للإسلام خطر له أن يضطهد المسيحيين الذين كانوا يقدمون لإدارته أفضل الموظفين، فلكي يميز المسيحيين ويذلهم، ويعيدهم إلى منزلة دافعي الجزية جعلهم يحملون حملاً ظاهراً صليباً زنته أربع أوقيات. ولم يكتف بهدم كنائسهم

وحِيَّهم في القاهرة، وتوسلاً لبعض الشعبية والدعوات في العالم الإسلامي،.. خطر له خاطر مجافٍ للحكمة، وهو أن يقلب الأرض التي جرت عليها المأساة الأبدية، فنقض كنيسة القيامة حجراً حجراً، والتهمت النار ما أخطأته يد الدمار في جبل الجبلجلة.

ودعيت العامة لنهب الأديرة التي طرد منها قساوستها، وبلغ الإرهاب حداً أخذت معه جمهرة كبرى من المسيحيين تنسحق تراحماً أمام أبواب المحاكم الشرعية لتشهر إسلامها تقية.. ومن نافلة القول: إن هذا الاضطهاد أثار في الغرب ردة فعل عنيفة، وبلغ التأثير ذروته، عندما ألغى الحاكم نهائياً الحماية التي أقرها شارلمان في الأرض المقدسة. ودخل النزاع بين المسيحية والإسلام مرحلة متفاقمة.

السلجوقيون وكارثة البيزنطيين في معركة ملاذكرد (هنزيكرت)

ولم يكن التأثير الذي أحدثه اضطهاد المسيحيين في مصر قد هدأ بعد عندما عُلم في أوربا بحدوث كارثة جديدة، إذ عمد عدد من المرتزقة الأتراك القدماء الذين استدعته خلافة بغداد وهم السلجوقيون الذين ما كادوا يأنسون بأنفسهم قوة الشكيمة نتيجة ما خاضوا من مغامرات حتى اندفعوا لمهاجمة حدود بيزنطية، وأبادوا في ١٠ آب سنة ١٠٧١ في حومة معركة ملاذكرد المشهورة جيشاً بيزنطياً قوامه مائة ألف مقاتل. ثم استولوا على القدس وأنطاكية وازمير وروودس، ودخلت العواصم الآسيوية، التي اشتهرت بذكريات العهد الرسولي الواحدة بعد الأخرى ضمن دائرة النفوذ السلجوقي.

مجمع كليرمون والدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى

وهنا أخذت الأحداث بالتسارع، ولم يعد بوسع روما أن تبقى غير مكترثة أمام هذا الانهيار. ففي مجمع كليرمون سنة ١٠٩٥ دعا البابا الفرنسي أوريانوس الثاني إلى الحملة الصليبية الأولى، ولكن ما وطأ للبابوية من مسوغات هذه الحرب المقدسة لم يكن التهديد الضاغط على بيزنطة بقدر ما كان مصير القدس. ويمكن القول: إن هذه الحملة الصليبية المستوحاة جماهيرياً من بؤس المسيحيين في الشرق قد عبرت تعبيراً عفويّاً عن غيرة المسيحيين على الأرض المقدسة التي سبق أن طبعها في قلب مسيحيي الغرب قرنان من الحجج المتواصلة

ودبلوماسية شارلمان الباهرة التي حصلت على الإذن ببناء الكنائس، والأديرة والمشافي في فلسطين.

وإذا لم نعترف بقيمة هذا الماضي وتأثيره فهذه لنا أن ندرك معنى ولادة الحروب الصليبية، هذا الاندفاع الروحي لشعوب صهزها إيمانها حول قبر المعلم الإلهي — بلا تمييز في القومية — في اتحاد واحد متوهج قلباً وروحاً^(٢).

واقع التجزئة والانقسام في الصف الإسلامي

وفيما كان الصليبيون الأوائل يحتشدون، كان السلجوقيون الذين ما كادوا يفرغون من إشادة صرح إمبراطوريتهم المزدهرة حتى انكفؤوا يشهدون انهيارها دون أن يتسع لهم الوقت للتمتع بها. وهذا الحدث الذي انتاب سورية كان بالنسبة إلى الصليبيين — حدثاً سماوياً — فالوحدة الإسلامية المحققة بقبضة حديدية لم تقم قطعاً تجاه هذه المحنة الجديدة التي حلت بالإسلام السوري.

أما ورثة السلجوقيين فانقلبوا لإقطاعيين همهم المحافظة على مناطقهم من غارات جيرانهم، وبهذا انفصمت روابط الوحدة مرة أخرى، بوقت كانت فيه وحدة العرق والدين ضرورية لمواجهة التهديد الذي أخذ يتضح في الغرب، في بلدان أوربة اللاتينية التي كان يطوف فيها الرهبان مثيرون غضباً مقدساً ضد غير المؤمنين (المسلمين). وحينما أخذت جيوش الحملة الصليبية الأولى بالتدفق على أرض آسية، لم يحفل الأمراء السوريون بالنتائج المنطقية لهذا الغزو، إذ كانت أحقادهم الأسرية والقبلية تسيطر مهيمنة على ساح النزاع. كانوا متحصنين في عواصمهم معتقدين أنهم في منجاة وراء صحارى ما بين النهرين. وكانوا ينظرون إلى هذه الموجة تمر عرضاً بدلاً من أن يضعوا حداً لأحقادهم ضد بعضهم بعضاً، وأن يتحدوا للدفاع عن الإسلام.

وهكذا بقيت الصليبية الأولى غير مفهومة لديهم، ولم تكن في نظر المسلمين حرباً دينية كما سيثيرها فيما بعد صلاح الدين بعد الحركة الغبية التي قام بها رينو دي شاتيون عندما اختطف في قلب السلم قافلة تجارية كانت تعبر أراضيه. وفي غمرة حركة المد الضخمة للغرب

نحو الشواطىء الموقرة للأراضي المقدسة لم يجد أتقياء المسلمين القصيرو النظر أي سبب للقلق. وكان يجب انتظار بروز صلاح الدين الأيوبي الذي سيعرف كيف يجمع ويُعقلن حواليه الأمراء المنشقين، كما كان يجب انتظار عبقرية بيبرس وقرنين من الصراعات لكي تتطهر أخطاء المسؤولين المسلمين في آخر القرن الحادي عشر بدم الآلاف المؤلفة من الرجال المباديين على طريق القدس بالأوثئة والجوع والظما والحرب.

الممالك اللاتينية في الشرق

وواقى الحظ غود فروا دي بويون، فدحر الأتراك في بضع مراحل عبر الأناضول، على حين كان أخوه يؤسس عبر الفرات إمارة الرها التي كان يمكن أن تهدد الموصل وبغداد. وبعد معركة ظافرة ضرب غود فروا دي بويون خيمته أمام القدس. وإثر حصار شهر واحد أخذت المدينة، وذبح مائة ألف مسلم. وهكذا أرسيت دعائم مملكة الشرق اللاتينية وسط صرخات الابتهاج في العالم المسيحي، وشهقات العويل في العالم الإسلامي. وأخذ الصليبيون يقتطعون لأنفسهم ولايات إمارة أنطاكية التي كانت تُظَلُّ براية حمايتها أرمينية الصغرى، وكونتية طرابلس المحدودة شمالاً وجنوباً بقلعة المرقب المهيبة، وجبيل الفينيقية القديمة، وأخيراً مملكة القدس التي احتوت مناطق مؤاب النبطية القديمة، والتي قسمت إدارياً أربع بارونيات كبرى: كونتية يافا وعسقلان، إمارة طبرية، بارونية صيداء، ومشيخة الشوبك في أراضي عبر الأردن. وفي كل مكان شاد الصليبيون — الذين استولوا على هذه الأراضي التي سيقون فيها الكثير من الدماء — القلاع والحصون، لكي يحموا الشاطئ السوري، ويراقبوا طرق دمشق وحلب أو القاهرة.

حواشي الفصل الأول

١ — لم نعرف مؤرخاً اشتهر بكنية أبي داود الذي يعبر قوله . « لقد سعد رجال الشمال هؤلاء الرعاة ... » عن نعمة العرب ضد عناصر الموالي من شعوب الأمة الإسلامية التي قفزت إلى سدة الحكم ، ولم تدع للخليفة العباسي سوى القشرة الدينية الظاهرة من معالم السلطة ..

وقد تجلّت تلك النعمة أبرز ما تجلّت لدى المتنبي أيام اندفاعات شبابه وتطلعات طموحه سعياً للحكم ، في قوله :

ولمّا الناس بالملوك وحاً	تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب	ولا عهد لهم ولا ذمم
بكل أرض وطقتها أم	ترعى بعييد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه	وكان يرى بظفره القلـم

ولكنه — عفا الله عنه — نسي هذا القول وغيره من نظائره ، وقصد كافوراً الأخشيدي في مصر ومدحه ، كما مدح عضد الدولة وابن العميد وأطنب ..

وإن كانت لنا كلمة بالموضوع ، فالإسلام رغم كونه غرساً عربياً خالصاً عالمي النزوع ، إنساني التطبيق ، وحسبنا قوله عليه السلام لأبي ذر وبالتالي لمن هم وراء أبي ذر من متعاقبي الأجيال ، برواية أنس ، وتخريج البخاري ومسلم : « اسمع وأطع ولو لعبد حبشي كأن رأسه زبيبة » ...

وهل بمستطاعنا — وخاصة إذا أحطنا موضوعياً بالظروف التاريخية — إلا أن نفخر ونباهي بأمثال : عماد الدين ، ونور الدين الزنكيين ، وشيركوه وصلاح الدين الأيوبيين ، والملكين الظاهر بيبرس وقلارون ، وغيرهم وغيرهم كثير ، وخاصة أنهم استعربوا جميعاً ، بعد أن درجوا على أرض العروبة .
والمهم وحده هو الحكم الصالح ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

٢ — لم تكن دوافع الحروب الصليبية — التي دامت قرابة قرنين ما بين الغرب المسيحي والشرق العربي الإسلامي —

دينية بحتة ، بل هي أصلاً دنيوية ، حققت بمصل ديني لتحريك مشاعر العامة من مسيحيي الغرب ، ولتثير حسب قول شاندرور : « ذلك الاندفاع الديني حول قبر المعلم » .

ففي أعقاب معركة ملاذكرد « هنزيكريت » التي منيت بها بيزنطية بالهزيمة المرة أمام السلاجقة ، تعالت أصوات الدعوة الأولى للحروب الصليبية التي أطلقها امبراطور بيزنطية الأرثوذكسية مستنجداً بأوروبا الكاثوليكية ، حين ذكرها بالفروات الطائلة التي يمكن أن يقدمها دعماً للحملات الصليبية والتي أغرت ملوك أوروبا بحركة أطماعهم فضلاً عن أن المدن الأوربية الإيطالية والفرنسية وخاصة البندقية ، التي كانت تسيطر على تجارة البحر الأبيض المتوسط ، أخذت تخشى تفاقم الخطر السلجوقي الداهم الذي شرع يهدد مصالحها الاقتصادية بعد أن تمكن السلاجقة الأتراك من بسط سيطرتهم على الأناضول ، ونفوذهم إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط حين سيطروا على أنطاكية عام ١٠٨٤ م ، وأنشؤوا أسطولاً ضخماً في أزمير وطفقوا يشكلون خطراً جدياً ليس على بيزنطية فحسب ، وإنما على سائر المدن التجارية الأوربية ، ولا سيما المدن الإيطالية : البندقية وبيزة وجنوة ، التي تحكمت آنذاك في التجارة العالمية بين الشرق والغرب لأنها : « الأبواب الرئيسية لأسواق الغرب وفيها وحدها تنتهي عهد ذلك طريق الصين والهند ، أو طريق الحرير والتوابل .

ولقد درس صديقنا الباحث المرحوم قدرتي قلعي في كتابه القيم « صلاح الدين الأيوبي » كيف تناول : أشهر الباحثين من فرنجة وعرب مسألة الدوافع الاقتصادية ، والعوامل الأساسية الكامنة وراء الحروب الصليبية ، نأخذ طرفاً من أقوالهم ، اقتباساً عنه :

« ولعل أفضل من عدد الدوافع المختلفة للحروب الصليبية سواء لدى الزعماء الداعين لها أو لدى المتطوعين الذين اندفعوا في غمارها ، هو المستشرق جون لامونت ، فقد أشار إلى خطاب البابا أوربانوس في كليرمون فيران بقوله : « ولم ينس أوربانوس أن يذكر مستمعيه بالآرياح المادية والروحانية التي سيجنيها الصليبيون . إن من يموتون في سبيل القضية سينالون المغفرة والخلاص . أما مدن « أرض الميعاد » الغنية فستكون جزءاً من يحتلها من الأحياء . ولم يشير البابا إلى الفائدة العظيمة التي ستجنيها السدة البابوية من قيادة جيش فخم يسير تحت راية البابا ، كما لم يشير إلى الأثر العظيم الذي سيرتبه مثل هذا الجيش البابوي في نفوس الأباطرة والملوك . ولم يشير البابا إلى النكسات التي نزلت بالكنيسة على أيدي السلطات الزمنية ، وإلى أن الحملة الصليبية ستذكر عاهل الإمبراطورية الرومانية المقدسة بأن خادماً خدام الرب (البابا) مازال قادراً على القيادة وإصدار الأوامر . » .

وأشار لامونت إلى المتطوعة أجناداً وقادة فقال : « وبينما تطوع عدد كبير من القادة في « صليبية الأمراء » مدفوعين بدوافع دينية في جوهرها ، فقد شارك آخرون في الحملة لكسب مغنم الدنيا أكثر مما فعلوا في سبيل إعلاء مجد الرب . لاشك في صدق الدوافع التي حملت غودفري على الاشتراك في الحملة للتكفير عن ذنوبه السابقة ، ونيل الخلاص لنفسه . ويحتمل أن يكون روبرت أوف نورمندي وروبرت أوف فلاندرس مدفوعين إلى حد كبير ، بدوافع دينية ، وإن كنت أرى إنهما كانا مدفوعين بدافع آخر ، إلى جانب الدوافع الدينية ، ألا وهو أن الحملة الصليبية أتاحتهما الفرصة ليصبحا بطلين . ولكن لا يستطيع أحد أن يزعم بأن بوهيمند أوف تورنتو قد ذهب لسبب غير رغبته في تأسيس إمارة في الشرق . كما كان ريموند أوف سنت جيلز ، بطل الحروب الإسبانية ، يطمع في الاستيلاء على قطعة من أرض سورية الجميلة . وأغلب الظن أن اتباع هؤلاء القادة قد اشتركوا في الحملة لأسباب

عديدة. فقد ذهب بعضهم مدفوعين بحماسة الدينية المحضة، وذهب بعضهم فراراً من رتابة حياتهم المملة، أو تخلصاً من السنة زوجاتهم السليطة. وحمل بعضهم الصليب حباً بالمغامرة والمخاطرة. وذهب بعضهم لمجرد ان الآخرين قد فعلوا ذلك. ».

وينفذ لامونت إلى أعماق الواقع الإنساني عندما يقول: « انني لست واثقاً من أن الحماسة الدينية التي رافقت الحملة الصليبية الأولى قد استمرت طوال حياة الرجال الذين قادوها. لقد أدرك أبناء الجيل الأول أن « بينهم وبين جيرانهم كثيراً من الأمور المشتركة » على الرغم من أنهم « كانوا يعتبرون كل سورية الإسلامية أرضاً للميعاد لأصحاب لها » هذا من حيث المحاولات التي كانت تجري للاستيلاء عليها، ولست أعتقد أن الصليبيين حاولوا الاستيلاء على البلاد الإسلامية لكونها بلاداً إسلامية. فالحقيقة أن الجيل الأول من الصليبيين حملوا الصليب وخرجوا ليستولوا على البلاد ويؤسسوا فيها إمارات لهم. وكانت البلاد، بصورة عامة، بأيدي المسلمين، وعلى هذا فقد تعين عليهم أن يحاربوا المسلمين للاستيلاء على ما ملكت أيديهم. إن سيرة تنكريد وهو أحد عظماء الصليبية الأولى، الذي أثلج قلب أغويير بلذخه المسلمين بشكل وحشي عندما احتل القدس وانهبها تعطينا شواهد عديدة على أن أمراء الحملة الصليبية، عندما اندفعوا بسياسة التوسعة، كانوا يستهدفون غايات دنيوية محضة، وأنهم كانوا على استعداد، حين تدعو الضرورة، للتفاهم مع أعدائهم المسلمين. فكان تنكريد مصمماً على إنشاء أكبر دولة ممكنة. وفي سبيل تحقيق هذه الغاية لم يجد أي بأس في أخذ البلاد من أيدي المسلمين أو اليونان أو الأرمن أو من أيدي أبناء جنسه الإفرنج.. إن الزمن والنشاط اللذين أنفقهما تنكريد في محاولة الاستيلاء على اللاذقية وغيرها من المدن النصرانية من أيدي حكامها اليونان والأرمن يعدلان الزمن والنشاط اللذين أنفقهما في مجاربة الأتراك. أما سيرة بلدوين دي بورغ وبخاصة في أيامه بالرها، فلا تنقض هذه القاعدة العامة » (راجع كتاب دراسات إسلامية بإشراف الدكتور نقولا زيادة ص ١٠٢ - ١١٠).

أما محمد عبد الله عنان فهو يرى أن الحروب الصليبية لم تكن فورة فجائية أثارتها قصص الحجاج الناقمين أو دعوة بطرس الناسك، ولكنها كانت تنمة أو ذروة للمعركة الكبرى التي كانت تضطرم منذ أربعة قرون بين الشرق والغرب، وكان مسرح هذه المعركة حتى القرن الحادي عشر في أوروبا وفي اسبانية بنوع خاص، فنقلته الحروب الصليبية إلى آسيا، ثم يقول في وصف الدوافع المباشرة والخفية لهذه الحروب:

« ولئن جاشت أنفس الزعماء والفرسان بنوع من الحماسة الدينية، فقد كانت الأطماع الدنيوية أقوى البواعث التي زجت بهم في غمار تلك المخاطر النائية، بل لقد شق التنافس على الملك والرياسة بينهم طريقه منذ البداية. ولنا ما يوضح ذلك في معظم الحملات الصليبية، فقد سار جودفروا دي بويون وزملاؤه الأمراء على رأس الحملة الأولى بعد أن تعهدوا بأن يحكموا البلاد المفتوحة باسم البابوية، فلما وصلوا إلى قسطنطينية تعهدوا بأن يحكموها باسم الامبراطور مقابل اختراق الجيوش الصليبية أراضي الدولة، غير أنهم ما كادوا يصلون إلى طرسوس وأنطاكية حتى ثارت بينهم عاصفة شديدة من الخلاف والتنازع، فافترق بلدوين عن زملائه واستقر في إمارة الرها، واستقر بوهيموند في أنطاكية وأتى السير إلى الجنوب، واشتغل زعمون دي تولوز بغزو طرابلس، واستقل جودفروا بإمارة بيت المقدس. وحكم الجميع الإمارات الجديدة باسمهم ولحسابهم، وأنشأوا القصور، وأقطعوا القطائع. وقد رأينا أن الحملة الرابعة لم تصل إلى الأرض المقدسة بل استقرت في قسطنطينية، وخاض أمراؤها غمار الدسائس التي

كانت تعصف حينئذ بعرش القيصرية، وآثروا في النهاية أن يلتمهوا أشلاء الدولة الشرقية على أن يحجوا إلى قبر المسيح» .

(راجع كتاب مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام لمؤلفه عبد الله عنان ص ٩٦) .

ويقول دكتور نقولا زيادة اعتماداً على كثير من المصادر الغربية والشرقية : « كان في الجيوش الصليبية ومع التجار الصليبيين ، الفرنسيون من مختلف المدن ، واللومبارديون ، من مدن إيطاليا التجارية الشمالية ، والمالطيون ، والإسبان ، والإسكندريانيون ، والإنكليز ، والهنغاريون ، والبلغار ، والجرمان من القبائل المتفرقة في أواسط أوروبا وكان عددهم كبيراً جداً حتى تألفت منهم فرقة الفرسان التوتون . وكانت قلاعهم الخاصة حصينة . وكان بين هؤلاء القادمين على رواية المؤرخين المعاصرين من الغربيين : القاتل واللس وقاطع الطريق والجرم والقرصان والسكير واللاعب والراهب والراهبة والرجل والمرأة والطفل والعاهرة والمحكوم عليه بالإعدام والملك والأمير والفلاح والتاجر والنبيل والغني والفقير . وباختلافهم اختلفت الغايات والأطماع ، من دينية خالصة إلى مادية بحتة ، والأخيرة هي التي غلبت مستترة بالأولى . وقد كان هناك من جاء يفتش عن أميرة شرقية غنية يتزوجها » .

وصفوة القول ، إن الحروب الصليبية تندرج في إطار الحروب الاستعمارية ، فهي حسب قول ج . وتومبسون : « كانت الحروب الصليبية أول تجربة في الاستعمار الغربي قامت بها الأمم الأوروبية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق » .
(قدري القلعجي : صلاح الدين الأيوبي ص ٣٩ — ٤٨) .

الفصل الثاني

سورية الفرنجية

وضع سورية الفرنجية في مطلع القرن الثاني عشر

بإزاء وضع الإسلام السوري الذي بسطنا باختصار عوامل ضعفه، قمين بنا أن نشرح باقتضاب وضع سورية الفرنجية وما كانت عليه في مطلع القرن الثاني عشر في أعقاب تلك النتيجة الظافرة للحملة الصليبية الأولى.

قلاع الصليبيين وحصونهم في سورية

فبعد تأسيس مملكة القدس قام في سورية بضع مئات من الفرسان الجسورين بتشييد هذه القلاع التي لمّا تزل — رغم ما انتابها من عوامل الخراب والدمار إذا ما تمّ لها المرء — موضع الإجلال والإكبار في طابع مؤثر في النفس، وذلك لأن تلك العمائر العملاقة تذكرنا بماضي غنيّ بشتى ضروب الدروس لمن يريد أن يجد معنى لعظمة شهادتها، إذ تركت الصليبية الغازية بصماتها على هذه الأرض السورية العظيمة التي سحرت شبابنا، وكذلك تحت أديم هذه السماء ذات الصفاء الذي لا يحيط به وصف، حيث تتابعت حضارات عديدة غير مخلفة سوى ذكرى مدنها الهامدة، وشعوبها المندثرة، على حين أقام أولئك الرجال الوافدون من وراء

البحار في قمم جبال لبنان التي تسامر نجوم السماء بمواقع عظيمة هذه الملاجئ التي كانوا يستطيعون منها مراقبة دار الإسلام وتهديدها. وقد أشار الرحالة العربي ابن جبير^(١) الذي تجول بسورية أيام صلاح الدين إلى ما كان يعتري المسلمين من ذعر لدى رؤيتهم هذه القلاع المستعصي بلوغها أو القائمة على جرف من المنخفضات في معتزل المرتفعات الشاهقة، فهي رؤى كابوسي لم يستطيعوا دفعه عن مخيلتهم، إذ كانت تقوم في مواجهة الإسلام فخورة قوية رموزاً للصليبية الظافرة، حارسة متيقظة لاتحاد الدول الفرنجية الذي كان ينتظم بعضها بعضاً راسخة في الأرض السورية^(٢). لقد بنى الصليبيون الأوائل للمستقبل كما لو أنه جارٍ في قبضتهم بديمومته إلى الأبد.

كان التناقض جد مثير إذا ما غمّله بواقعية، ولنتذكر هنا للمقارنة أسس مملكة القدس اللاتينية، وعدم الاكتراث الرومانطيسي لحكام بغداد.

البنية السياسية للمجتمعات اللاتينية في سورية

لقد مارس الصليبيون في سورية — عفواً ودونما شعور منهم — سياسة استعمارية بارعة من الغبن عدم الاعتراف باستلهاقاتها الليبرالية. يقول الأب لامنس في كتابه المدهش (سورية): «إننا لن نلقى في أية حقبة من القرون الوسطى تركيبة سياسية أوسع، تجمع في عمل مشترك واحد جميع فئات الدولة: النبلاء، الكهنوت، البورجوازية، الشعب المحلي. ووحده كان العهد الروماني يذكرنا بازدهار اقتصادي مماثل. فالفرنجة مع الرومان كانوا أكثر البناء اجتهاداً متواصلين بين جميع الذين مروا بالأرض السورية». فمنذ القرن الثاني عشر نهضت في ممالك المشرق اللاتينية بورجوازية كاملة التنظيم متمسكة بامتيازاتها المحددة تحديداً دقيقاً في وثيقة دستورية. متقدمة عدة أجيال على الغرب الإقطاعي. فعلى هنا أن نرى تأثير أولئك الرجال المستنيرين أمثال غودفروا دي بويون وبودوان وغيرهما من الصليبيين القادمين من الفلاندر ومن الجمهوريات الإيطالية، إذ حصلت البورجوازية عهد ذاك على الاعتراف بحقوقها، وعلى احترام استقلالها الذاتي.

وكحصيلة لاعتراف البابوية بالممالك اللاتينية في المشرق مُنحت الكنيسة حقّ الإشراف على المنشآت الفرنجية، ومارست باستمرار رقابة لا يمكن نكران دورها المهدىء،

الخَيْر. ومؤكد أن ملك القدس كان ممسكاً بإدارة بلاطه وكبار موظفيه، وهو قادر على دعم عمّاله، وممارسة سلطته التنظيمية إذا ما شغل منصب من لا عقب له، كما كان يفصل في النزاعات. ولكن في المقابل كانت سلطته خاضعة لرقابة بطريركية القدس والمجالس الإكليريكية ومنظمات الفرسان، ولم يكن مسموحاً بالاستبداد في الأراضي المقدسة، إذ لم تكن الملكية وراثية بل انتخابية لا مجال فيها للتطلع إلى تلك السلطة المطلقة التي طالما تمتع بها عهد ذاك أباطرة بيزنطية الذين كان عملهم الإفسادي ظاهراً ظهوراً فاحشاً.

ونتيجة للدعم غير المحدود الذي قدمته البابوية للصليبيين كان في صلب غايتهم أن يؤمنوا للتنظيمات الكنسية مركزاً ممتازاً في إدارة الممالك اللاتينية المشرقية. فبطريرك القدس— وهذا ماله فحواه الخاص— هو الذي كان يكرّس الملك، ولا يفتأ يتدخل رسمياً وعلناً في شتى القضايا التي من شأنها أن تؤثر في مستقبل المملكة وازدهارها.

وغدا سدنة التنظيمات الدينية بما تتلقاه من هبات الأمراء ومتقي المؤمنين من كبار الملاكين العقاريين، وبالمقابل كانت تلك التنظيمات تساهم في الذود عن الأرض الخاضعة لسلطتها القضائية، وتحمل الكثير من أعباء أعمال البر. ففي مدينة القدس وحدها— كما يحكي لنا بنجامان توديل— كان ألفان من المساكين يتلقون من الاسبتاريين المعونة اليومية، وكان تنظيم القديس اليعازر الفروسي يعنى بالمجذومين. وبدوره كان المطران الأرمني الشهير القديس نرسيس دي لامبرون، يتحدث بإعجاب عن أعمال الإحسان التي شاهدها رؤي العين جارية لدى المسيحيين، فيكتب قائلاً: ففي كل قدّاس، بعد تلاوة الإنجيل يستدير الكاهن نحو المصلين فيضع كل منهم في يده ثمار إيمانه. كان الرجال والنساء يقدمون أعطياتهم كما يحبها الله. يقدمونها كبركة، يداخل نفس كل منهم أنه بتقبّل الفقر الذي قبله المخلص سيصبح هو غنياً. فباسم المسيح، وحسب روح الكتب المقدسة، كانت يد العون تسدى خالصة إلى الحجاج والمرضى، وليس بغية تسجيل وقفة تكرم سهلة.

وفي داخل المملكة، لم تكن سلطة الملك تمارس مباشرة إلا في بعض المدن (عكا، صُور، القدس) وحتى هنا علينا أن نلاحظ أن هذه السلطة كانت معدّلة بوجود الامتيازات الأجنبية: شأن الامتيازات الغامضة للجمهوريات الإيطالية فيما يتعلق بالسلطة الزمنية. وفي

أماكن أخرى مثل نابلس وقيسارية، وبيروت وصيدا كانت سلطة الملك خاضعة لتصديق النبالة الإقطاعية التي كانت تملك إقطاعات مستقلة بشكل إمارات أو كونتيات، أو بارونيات أو مشيخات تدار وفق التقاليد العريقة للقانون الإقطاعي.

منظمات الفرسان زمن الحروب الصليبية^(٣)

وكانت التنظيمات الفروسية تحقق أمن المملكة. وهذه التنظيمات جد معروفة: إنهم الاستباريون وفرسان الهيكل، وبعدها في آخر الحروب الصليبية الفرسان التوتونيون. وقد لعب الاستباريون وفرسان الهيكل دوراً أولياً في سورية رغم صفتهم الدُولية، والعنصر الفرنسي هو السائد فيما بينهم، وترتب على الأعضاء أن يتلفظوا بالندور الرهبانية. وكان كل تنظيم يشتمل على ثلاث طبقات: الفرسان — وكلهم نبلاء — والرقباء، وجميعهم ينحدرون من البورجوازية، والإكليزيكيون وهم الذين يضطلعون بالأعمال الكنسية. وكان للتنظيمات الفروسية، جنودها المشاة والبحرية ورجال الدبلوماسية، وحاز التنظيم الأخير حق إبرام المعاهدات وفرض الضرائب على الأمراء وعمالهم المسلمين، وبكلمة فقد شكلت تلك التنظيمات دولاً داخل الدولة وبلغت ثروات سدنتها حدّاً يفوق ثروات الملوك أنفسهم، وكان من شأن هذا الاستقلال وذلك الازدهار أن يؤثر تأثيراً سيئاً في الانضباطات الأولية. ومع ذلك فميخائيل السرياني الذي كثيراً ما عايشهم في عصر صلاح الدين اقترحهم قدوة لرعاياه. وكان مما جرى به قلمه: «حينما يحتل الهيكليون أو الاستباريون موقعاً عسكرياً لا يتزحزحون عنه ثابتين فيه للنهاية معرضين أنفسهم للقتل حيث هم. وحينما يموت أحد الأخوة يطعمون الفقراء إكراماً له طيلة أربعين يوماً بمعدل أربعين شخصاً في اليوم الواحد. ويعتبرون قتلى المعارك شهداء. ويوزعون على الأهالي عشر غلاتهم من القمح والنبيد، وكلما خبزوا في أحد بيوتهم يدعون للفقراء رغيفاً من كل عشرة أرغفة، وهم رغم طائل ثرائهم متواضعون يعاملون بالحسنى كل من احترام الصليب. وأنتى كانوا، شادوا المشافي والمصححات لخدمة الغرباء المرضى ومساعدتهم.»

ومهما تكن الأخطاء التي اقترفها فيما بعد أعضاء هذه التنظيمات الفروسية بسبب قوتهم المتفاقمة فيشفع لهم أنهم أسهموا بقسط وافر ببقاء مثل مسيحيي أعلى في المشرق يشهد على عظمتهم جُم أعمال إحسانهم.

المحاكم والقوانين في المجتمعات الصليبية

وكان السادة مجتمعين في هيئة يؤلفون المحكمة العليا التي لا يمكن لأي مرسوم ملكي أن يصبح قانوناً نافذاً دون موافقتها. ولم يكن التاج يرفع على هامة الملك إلا بعد أن يؤدي أمامهم القسم بأن يحترم قوانين القدس الأساسية. هذه القوانين، وهي الوثيقة الدستورية (الشَرْطُ الدستوري) كانت تلحظ جميع الحالات حتى حالة حنث الملك يمينه، وهنا يعتبر السادة في حلٍّ من واجباتهم تجاهه، ويعلنون بالتالي عزله لأنه غير أهل بالتاج. وتقوم تحت المحكمة العليا محاكم بورجوازيين تماثل اختصاصاتهم اختصاصات السادة. وكان هؤلاء الوجهاء يتمتعون بوضع سياسي لاتعهده أغلب الدول الأوروبية القروسطية. وكانت المستعمرات التجارية التي هي أصلاً من بيزة أو جنوة أو البندقية أو مارسيلية أو مونبلييه، والتي قامت على الشواطئ السورية هي الصناعة النشطة لازدهار المملكة الاقتصادي. ولكونها أسهمت في الفتوحات الأولى بما قدمته من أساطيل فقد عرفت كيف تفرض تثمين مساهمتها، وتحصل على ضروب من الإعفاءات التي فوتت على الخزينة المركزية الكثير من الدخل ناهيك بما كانت تثيره من منازعات بشأن امتيازات أحيائها في المدن ومحاكمها الخاصة المخالفة لروح قوانين القدس. وكان على الدوام يجب المناقشة والمرافعة في منازعات لا تفُضُ حتى تعود لتذر قرنهما من جديد.

التحولات الاجتماعية

أما النبالة الفرنجية، فما إن استقرت في هذه الأراضي حتى فسحت المجال بالترحاب لينخرط في صفوفها السوريون أو الإقطاعيون الأرمن حيث ظهرت بناتهم في بلاطي القدس وأنطاكية.

ولم تلبث أن دَوَّت كلمة رئيس كنيسة بودوان الأول: «لقد أصبحنا شرقيين كاملين، فالروماني أو الفرنجي تحوّل في بنائه الجديد إلى جليلي أو فلسطيني، والمولود في رنس أو شارتر انقلب إلى واحد من أهالي صور أو أنطاكية، وبنينا بنسائٍ لسن من بلادنا، وإنما هن سوريات أو أرمنيات، وأحياناً مسلمات متنصرات».

واحتفظت المدن التي احتلها الصليبيون بأغلب سكانها المسلمين ، وكثير منهم نازحون هاربون دون موجة الغزو ، ولكنهم آثروا العودة إلى مدنها وقراهم الأصلية التي يحكمها الصليبيون بعد أن جربوا العيش في ديار الإسلام ، وإنما في ظل نظام أقل حرية . ولم يستطع الرحالة الأندلسي ابن جبير أن يمنع نفسه — كمُسْلِم صادق — من أن يلوم هؤلاء المؤمنين الذين لم يبادوا كما يحلو للحدث لبعض المؤرخين ، ولكنهم بالعكس ، كانوا متمتعين بحماية امتيازات شارلمان^(٤) .

العلاقات التجارية بين الفرنجة والمسلمين

وإذا كان قادة الممتلكات اللاتينية يراعون الحالة الذهنية للجماعات الإسلامية المقيمة في المدن مراقبين إياها ، كان التجار السوريون بالمقابل ينعمون بحرية واسعة . فقوافلهم كانت تتجول بلا عائق من الساحل إلى داخل البلاد . ولم يكن أمنهم مهدداً ، ماعداً مرة أو مرتين على التقريب بحالة الحرب في عهد صلاح الدين . وقد لاحظ ابن جبير — إبان زيارته سورية — « أن القوافل الإسلامية كانت تتوغل في الأراضي الفرنجية متقاطعة في الطريق مع قوافل الأسرى المسيحيين الذين كان يجب أن يباعوا بالمزاد في أسواق نخاسة دمشق »^(٥) وعلى طول الحدود ، في بانياس الغنية بمرزاتها (حقول أرزها) حيث كانت تتداخل متشابكة الأملاك الإسلامية والمسيحية . يقول كاتب عربي آخر : « إن قسمة الغلات كانت عادلة ، وإن القطعان كانت ترعى معاً بلاممانعة ولا عنف » ويقول ابن جبير في يوميات رحلته : « لقد اجتزنا سلسلة من القرى ، حيث المستغلات تتبع إحداها الأخرى ، يقطنها جميعاً مسلمون يعيشون في رفاهية تحت حكم المسيحيين » نعوذ بالله من الفتنة^(٦) . « إنهم يتركون لهم نصف الغلة إبان الحصاد مكتفين باستيفاء ضريبة الأعناق ديناراً وخمسة قراريط لا أكثر ، ناهيك بضريبة خفيفة على الأشجار ، وبالمقابل يملك المسلمون منازلهم ويديرون شؤون أنفسهم كما يحلو لهم . وهكذا هي الحال في جميع الأراضي التي احتلها الفرنجة على الشاطئ السوري ، وفي جميع الدساكر والبروج والقرى التي يقطنها مسلمون . ولا يستطيع أغلبهم أن يجسوا النفس إغراء عن عقد المقارنة بين وضعهم ووضع إخوانهم الذين لبثوا مقيمين في المناطق الخاضعة لحكم سلطان دمشق ؛ لأن هذا الوضع الأخير كان نقيض البحبوحة والازدهار . وإحدى محن المؤمنين الحقيقيين أنهم كانوا يتذمرون من ظلم سادتهم على حين كانوا لا يستطيعون إلا أن يمتدحوا

سلوك المسيحيين أعدائهم الأبدية. أصلح الله هذه الحال^(٧) وإنها لشهادة بليغة — وخاصة لا يحق لنا أن نتهم ابن جبير بمحاباة المسيحيين كل المحاباة، لأنه كان حتماً يهتز فرحاً حينما يصفهم «بخنانيص قدرة».

وعلى حين كان وصول الصليبيين صفر الأيدي من كل شيء، إلا من الحماسة، كان الأمر بالنسبة للتجار السوريين مصدراً غير مرتقب للموارد الإضافية، ولا يخفى أن بعض هؤلاء التجار الدمشقيين أو الحلبين جمعوا من الثروات ما بلغت معه حد الفحش، وسرعان ما انتزع ذهبهم المتراكم احترام الفرسان المسيحيين، واحتراماً ليس دونه نفعية لدى الأمراء المسلمين. وكان سان جيروم قد أشار إلى ما اتصف به أولئك التجار «من حماسة في أعمالهم المالية، وحمى البحث عن الثروة حتى تحت قعقة السلاح»، حتى أقرض بعضهم الهيكليين مبالغ ضخمة.

البنية الإدارية للممالك اللاتينية والمسيحيون الشرقيون

وكما هو الأمر في عهد العباسيين، كان المسيحيون من أهل البلاد يستخدمون في مكاتب الإدارة المحلية. فمنهم مثقفون ينشئون تفاهات المراسلات الرسمية بنثر رقيق الحاشية مسجّع وبروتوكولي. وكما كان خليفة بغداد على الدوام يضم في عداد إداريه موظفين مسيحيين، لأن وضعهم المتدني كدافعي جزية يدفع عن نفسه الشك في مروتهم وولائهم، كانت البنية الإدارية للممالك اللاتينية في المشرق هي البنية الإدارية ذاتها لبغداد، فهناك كتاب وموظفو ديوان ومراقبو مكوس (جمارك) وجباة ضرائب ومترجمون في المحاكم. إنهم يمثلون أمراء الداخل الذين أقام الفرنجة معهم علاقات يومية لتصفية المنازعات الحدودية المحددة تحديداً سيقاً، وتبادل الأسرى أو افتدائهم وإبرام المعاهدات التجارية واستيفاء الجزى. وعلينا أن نقول: «إن الموظفين السوريين كانوا ناعمي البال لهذه القرطاسية المغربية؛ إذ احتل الكتبة مكانة بارزة في عداد الأقليات التي ترتب على الفرنجة أن يأخذوا جانب حذرهم منها أكثر من حذرهم من المجتمع الإسلامي» فهم سوريون غير قابلين للتحويل، أوفياء للمطامع الإمبريالية، ولطقوس الكنيسة البيزنطية، كثيرو الحركة في أنطاكية، يظهرون في كل مناسبة أحكامهم المسبقة ضد اللاتين، ولكونهم متفشيّن في مكاتب الدبلوماسية الإمبراطورية التي لم تدع

سائحة تمر، دون أن تعلن عداؤها لروما. وبدورهم كان هؤلاء الكتبة أفضل عملائها المتآمرين في سورية، رافضين أن يعترفوا بكل فخر إلا بسلطة رأس الكنيسة الشرقية، مما كان يصدد شعور الغربيين سياسياً ودينياً، ناهيك بمعاداتهم الباباوية القيصريّة، لمعرفة كيف جعلت بيزنطية من كهنتها آلة ضخمة للدعاوة وبالتالي للسيطرة؛ وهذا ما حمل ميخائيل السرياني على اتهامهم بإثارة المعارك بين التنظيمات الأخوية المسيحية، وبالتدخل في صبر شرقيّ تماماً لدى السلطات الفرنجية لإفسادها ببيزنطيتهم الحاقدة العنيدة.

ولطالما أشار بعض المؤرخين غير المدققين أو المتأثرين بانحيازهم إلى التعصب الكاثوليكي لدى الصليبيين «الذين لم يكونوا— كما يقول أحد مؤرخيهم— يعاملون المسيحيين المحليين أفضل مما يعاملون المسلمين». ولتقابل هنا هذا الاتهام المجافي للواقع بشهادة البطريك ميخائيل السرياني الذي نوّه بليبرالية الفرنجة وتسامحهم:

«كان أحبار كنيستنا اليعقوبية يعيشون في ظهرائهم غير مضطهّدين ولا معذّبين. ففي فلسطين كما في سورية لم يكن الفرنجة يقيمون أية عقبة تتعلق بالمعتقد، كما لم يحاولوا إيجاد صيغة واحدة لجميع الشعوب أو لسائر اللغات المسيحية. بل كانوا يعتبرون بإطار عام كل من قدّس الصليب مسيحياً دونما تحقيق بملته أو نخلته».

المبادئ الليبرالية في مجتمعات سورية الفرنجية

وهكذا كانت سورية الفرنجية في القرن الثاني عشر تساس وفق مبادئ مستوحاة من ليبرالية حقيقية ومتناقضة مع حالة أوروبا الإقطاعية في الحقبة ذاتها.

وتقريباً للحقيقة؛ فإن فقدان التجربة لدى القادمين الجدد الذين كان عليهم إبان الاحتلال أن يخطّوا ارتجالاً الفصل الأول من الاستعمار الأوربي، والضعف الدستوري للسلطة المركزية، وأخطاء بعض العناصر المريبة وفضائلتهم، كان من شأنه حتماً أن يسبب سوء تفاهم، ويفضي إلى نتائج مضرّة بسمعة الحروب الصليبية.

طبعاً لم يكن الصليبيون كلهم قديسين؛ إذ كثيراً ما كان الإكليروس المستنكر السلوك العام أو الخاص للسادّة غير المحترمين يأمرهم بأن يستنزلوا الغفران ورضا الله بالذهاب

للقتال في الأرض المقدسة؛ ولم يكن هؤلاء البتة مجنّدين ذوي قيمة؛ وحمل بعض الكهنة الطامعين الصليب حاملين بمطرائية آسيويّة مترفّة. وفي خضم كل هذه الكتل التي تحركت في أوربة بعامل غيرة أساسية نقية، لا مناص أن تظهر شيئاً فشيئاً دناءات الطبيعة البشرية التي هيئات مجانبتها.

هذا الشرق! — ومن منا يستطيع أن ينكر أنّ خياله كان دمية سحره؟ — لم يكن البتة أرض التجليات الإلهية فحسب، بل غدت هذه الأرض خلال تلك المسيرة العجيبة نحو القدس أرض العجائب التي تهوي فيها النجوم من السماء، حيث تبدو نيران سماوية تهدي الحجاج إلى الأراضي المقدسة بتجلي الرب، حيث تمزّق المذنبات كالحراب الغسق من جهة مدن الإسلام. هذه الغيرة السماوية التي كانت تدفع الجحافل الضخمة السائرة نحو القدس على أنغام الموسيقى والمزامير خلال المائة والخمس والسبعين سنة التي سيستمر إبانها الصراع العملاق بين الشرق والغرب، لتتطهر في سورية بالشقاء والمجد.



1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100

101
102
103
104
105
106
107
108
109
110
111
112
113
114
115
116
117
118
119
120
121
122
123
124
125
126
127
128
129
130
131
132
133
134
135
136
137
138
139
140
141
142
143
144
145
146
147
148
149
150
151
152
153
154
155
156
157
158
159
160
161
162
163
164
165
166
167
168
169
170
171
172
173
174
175
176
177
178
179
180
181
182
183
184
185
186
187
188
189
190
191
192
193
194
195
196
197
198
199
200

حواشي الفصل الثاني

١ - ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد: (١١٤٥-١٢١٧)

رحالة أندلسي، ولد في بلنسية. خرج للحج، فزار سردينية ومصر وجزيرة العرب والعراق والشام وصقلية، ثم قام برحلتين أخريين إلى المشرق. وصف رحلاته في كتابه «رحلة ابن جبير». توفي بالاسكندرية. (الموسوعة الميسرة ص ١٢).

ويعد كتابه «رحلة ابن جبير» من المصادر الهامة اجتماعياً وسياسياً لعصر صلاح الدين عموماً، وتحديدأ في دراسة العلاقات الإسلامية الصليبية.

٢ - من الملاحظات التي خلفها لنا ابن جبير، والتي يمكن أن نعتبها بـ «الرسم بالكلمات» وصفه حصون الفرنجة ومنشأتهم العسكرية وكيفية اختيار مواقعها، ليقينهم بأن الأرض التي تحدد بهم عدوة، يقول في رحلته: «فرحلنا عنها - أي بانياس - عشّي يوم السبت المذكور إلى قرية تعرف بالمسية بمقربة من حصن الإفرنج المذكور فكان مبيتنا بها، ثم رحلنا منها يوم الأحد سحراً، واجتزنا في طريقنا بين هونين وتينين بواد ملتف الشجر، وأكثر شجره الرُند، بعيد العمق كأثّه الخندق السحيق المهُوى، تلتقي حافته، ويتعلّق بالسماء أعلاه، يعرف بالإسطيل لو ولجة العساكر لغابت فيه، لا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه، المَهْبَط إليه والمَطْلَع عنه عقبتان كزودان، ففجبنا من أمر ذلك المكان.» (رحلة ابن جبير ص ٢٧٤).

٣ - منظمات الفرسان إبان الحروب الصليبية:

لقد ظهر عدد من التنظيمات العسكرية الدينية الأصل زمن الحروب الصليبية، أبرزها منظمتان هما: منظمة فرسان المستشفّى، أو فرسان القديس يوحنا التي أطلق عليها العرب اسم الاستبارية، ومنظمة فرسان الهيكل (وسماها العرب الداوية)، ثم أنشئت منظمة ثالثة إبان الحملة الصليبية الثالثة هي منظمة فرسان التوتون، وننقل عن الموسوعة الميسرة تعريفاتها بها:

فرسان مستشفى القديس يوحنا أو الاسبتارية

أعضاء الهيئة العسكرية الدينية التابعة لمستشفى القديس يوحنا المقدسي، ويعرفون أحياناً بفرسان القديس يوحنا، أو بفرسان بيت المقدس. وسماهم العرب: الفرسان الاسبتارية. وقد نشأت الهيئة من مستشفى أسس في القرن ١١ للعناية بالحجاج في الأراضي المقدسة. وعندما أعيد تكوين فرقة الفرسان على أساس عسكري لم تلبث أن ازدادت ثروتها وسطوتها. وأنشئت على غرارها مؤسسات أخرى لمساعدتها في أوروبا كلها. وقد اشترك فرسانها مع زملائهم ومنافسهم فرسان الهيكل أو الداوية في جميع حروب المملكة اللاتينية والصليبيين. وبعد استيلاء العرب على بيت المقدس ١١٨٧ انتقل الاسبتارية إلى عكا، ثم إلى قبرص ١٢٩١، وفتحهم لجزيرة رودس ١٣١٠، ونتيجة لما جلب الحلال الفرسان الداوية عليهم من فوائد مادية، بدأوا عهداً تعاضمت فيه قوتهم وسطوتهم. وبدؤوا يعرفون بفرسان رودس، وسيطروا على البحر المتوسط. وتمكنوا من وقف غزو المسلمين لأقطار أوروبا بل أخذوا يلجأون هم أنفسهم إلى الغزو البحري، ودافعوا ببطولة عن رودس تحت إمرة بيير دوبوسون ضد محمد ٢ (١٤٨٠)، ولكنهم اضطروا إلى الاستسلام لسليمان ١ (١٥٢٢)، فمنحهم الامبراطور شارل ٥ (١٥٣٠) جزيرة مالطة التي أصبحت مقرهم الرئيسي. ودافعوا عن هذه الجزيرة ببطولة تحت إمرة جان دي لانالت ضد الأتراك الذين ظلوا يهددونهم تهديداً قوياً حتى معركة ليبانتو ١٥٧١ ومنذ هذا الوقت واصل فرسان مالطة أعمال الإحسان في المستشفيات. متمتعين بسلم نسبي، إلى أن استولى نابليون على مالطة ١٧٩٨. ولا تزال بقايا من هذه الهيئة في أوروبا. وأعاد البابا ١٨٧٩ منصب الرئيس الأعلى للاسبتارية، ولكن علاقة الهيئة الجديدة بفرسان مالطة القدماء غدت واهية.

فرسان الهيكل أو فرسان الداوية

الهيئة العسكرية الدينية التابعة لفرسان المسيح الفقراء، الذين كانوا يعرفون في العصور الوسطى أيضاً بفرسان هيكل سليمان، نسبة إلى مقرهم بيت المقدس. وقد عرفوا في الكتب الدينية التي ترجع لعصر الحروب الصليبية باسم الداوية. وهي كاهنيات العسكرية الأخرى، مثل فرسان القديس يوحنا (اسبتارية) والتيتون. تألفت خلال الحروب الصليبية، وكانت النواة الأولى للهيئة فرقة تألفت من تسعة فرسان اجتمعوا ١١١٨ برياسة هيو دي باين، لحماية الحجاج إلى الأماكن المقدسة المسيحية. وازداد عددهم تدريجاً، واتخذوا لأنفسهم قانون طائفة الرهبان البندكتيين، ومنحوا موقراً في بيت المقدس مجاور البناء الذي كان يدعى هيكل سليمان. وانضم كثير من النبلاء الشباب إلى هذه الهيئة التي بدأت فقيرة جداً. ثم سرعان ما أخذت تتلقى منحة من أقطاعات ومال من جميع أنحاء أوروبا. فأصبحت في مدة قصيرة من أقوى المنظمات العسكرية الأوروبية. واكتسب الداوية شهرة عظيمة بفضل إعلانهم أن هدفهم الأمثل هو حماية المسيحية، وبفضل انتصاراتهم العسكرية، إذ أثبتوا شجاعتهم في جميع الحروب التي قامت بها المملكة اللاتينية، ولعبوا دوراً هاماً في الصراع بين الصليبيين والمسلمين. وقد قامت منذ وقت مبكر منافسة مستعرة بينهم وبين الاسبتارية. وكان فرسان الداوية مسؤولين عن قلعة غزة التي سقطت في يد نور الدين زنكي، ثم استعادوها منه. غير أن فتوح صلاح الدين الأيوبي أكرهت الداوية، كما أكرهت الاسبتارية، على الجلاء عن بيت المقدس.

وبعد فتح عكا، استقر الفرسان فيها، ولعبوا دوراً هاماً في الحروب الصليبية الثالثة. وأخذ نصيب فرسان

الداوية والاسبطارية والتبوتون من محاربة العرب يطرد ازدياداً، حتى كادوا ينفردون به دون الصليبيين المتأخرين. لكن هذه الهيئات وقعت فريسة التنافس المدمر فيما بينها، كما أدى صراعها الداخلي المميت هذا إلى إضعاف قضية المسيحية في الشرق الأدنى. وأخذ المسلمون يستعيدون جميع الأراضي المقدسة، وسقطت عكا ١٢٩١، وانسحب الاسبتاريون والداوية إلى قبرص، ثم تخلت هيئة الداوية عن صفتها الحربية الرئيسية، وكان أفرادها قد أصبحوا حتى في القرن ١٢ صيارفة أوروبا بفضل الأموال الطائلة التي أغدقت عليهم، وكانت مؤسساتهم في إنجلترا وفرنسا بوجه خاص عديدة ومزدهرة، وأصبحت مقارهم بيوتات العالم المالية. وقد زادت هذه السيطرة المالية من قوتهم، وأثارت عليهم حسد الأمراء والملوك. وما زاد الطين بلة ابتعاد الداوية عن المبادئ القويمة: فساقوا أنفسهم إلى التهلكة. وحقد عليهم فيليب ٤ ملك فرنسا لسيطرتهم المالية، وإرتكابهم لجرائم عديدة، فاضطهدهم (١٣٠٨ — ١٣١٤) وبإعدام الرئيس الأعلى لفرسان الهيكل، جاك دي مولاي ١٣١٤، انصرفت حياة هذه الطائفة.

فرسان تبوتون

طائفة عسكرية دينية ألمانية، تأسست (١١٩٠ — ١١٩١) في البلاد المقدسة، على غط جماعتي فرسان الهيكل وفرسان المستشفى (الاسبطارية). ذاع أمر هذه الطائفة عندما قامت بغزو بروسيا الوثنية ١٢٢٦، وكانت أراضيها الواقعة على البلطيق تخضع للسيادة الاسمية للبابا في بادئ الأمر، لكن بولندا استولت على بعض مناطقهم ١٤٦٦، فرضخوا للسيادة البولندية. اتحدوا مع الفرسان الليقونيين (١٢٣٧ — ١٥٢٥) وبعد أن أبادوا سكان بروسيا الأصليين تقريباً أسكنوا فيها جاليات ألمانية. كان المقر الأول للفرسان في مارينبورج، ثم أبدلوا بكنينجزبرج بعد ١٤٦٦. وفي ١٥٢٥ اعتنق رئيسهم الأعلى البرت البراندنبرجي البروتستانتية، ونقل مقر الطائفة إلى دوقية بروسيا الوراثية. واستمرت الطائفة تقيم بألمانيا الكاثوليكية حتى ١٨٠٥، ثم أحييت في النمسا كطائفة فخرية. ولباس الفرسان طيلس أبيض، عليه صليب أسود مطرز بالذهب. (الموسوعة الميسرة ص ١٢٨٨ — ١٢٨٩).

٤ — ٧: ويتحدث ابن جبير في رحلته هذه عن طبيعة العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والفرنجية، أي بين دار الإسلام ودار الحرب، وعن اتفاق المسلمين والمسيحيين، واختلاف القوافل بين مصر ودمشق، عبر البلاد التي احتلها الصليبيون، بقوله:

الحرب واتفاق النصارى والمسلمين

ومن أعجب ما يُحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفتنين مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم. شاهدنا في هذا الوقت، الذي هو شهر جمادى الأولى، من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز والمنازع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين المقدس مسيرة يوم أو أشق قليلاً، وهو سرة أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة، يُذكر أنه ينتهي إلى أربع مئة قرية. فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره.

واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإنجليز غير منقطع. واختلاف المسلمين من دمشق إلى

عَنَّا كذلك . وَتَجَارُ النصارى أيضاً لَا يُمْنَعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا يُعْتَرَضُ . وَلِلنصارى عَلَى الْمُسْلِمِينَ ضَرِيَّةٌ يُؤَدُّهَا فِي بِلَادِهِمْ ، وَهِيَ مِنَ الْأَمْنَةِ عَلَى غَايَةٍ ، وَتَجَارُ النصارى أيضاً يُؤَدُّونَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى سِلْعِهِمْ ، وَالْإِتِّفَاقُ بَيْنَهُم وَالْإِعْتِدَالُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ . وَأَهْلُ الْحَرْبِ مُشْتَغَلُونَ بِحَرْبِهِمْ ، وَالنَّاسُ فِي عَافِيَةٍ ، وَالدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَ . (رحلة ابن جبير ص ٢٦٠) .

ويتابع ابن جبير في رحلته الحديث عن طبيعة العلاقات الاقتصادية — حتى في زمن الحرب — بين دار الإسلام والبلاد التي احتلها الصليبيون ، وكيف أن المسلمين يدخلون مواقع الصليبيين في حين أن سبيهم يدخل بلاد المسلمين ، قوله :

« وَمَنْ أَعْجَبَ مَا يُحَدِّثُ بِهِ فِي الدُّنْيَا أَنْ قَوَائِلَ الْمُسْلِمِينَ تَخْرُجُ إِلَى بِلَادِ الْإِفْرَنْجِ وَسَبْيُهُمْ يَدْخُلُ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ ؛ شَاهَدْنَا مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ خُرُوجِنَا أَمْرًا عَجِيبًا ، وَذَلِكَ أَنَّ صَلَاحَ الدِّينِ عِنْدَ مَنَازِلَتِهِ حَصْنَ الْكَرْكِ ، الْمُتَقَدِّمُ الذِّكْرُ فِي هَذَا التَّارِيخِ ، قَصِدَ إِلَيْهِ الْإِفْرَنْجُ فِي جَمِيعِهِمْ ، وَقَدْ تَأَلَّوْا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَرَامُوا أَنْ يَسْبِقُوهُ إِلَى مَوْضِعِ الْمَاءِ وَيَقْطَعُوا عَنْهُ الْمِيزَةَ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ . فَصَمَدٌ لَهُمْ وَأَقْلَعٌ عَنِ الْحَصَنِ بِجَمَلَتِهِ وَسَبْقُهُمْ إِلَى مَوْضِعِ الْمَاءِ . فَحَادَاوُا عَنْ طَرِيقِهِ وَسَلَكُوا طَرِيقًا وَغَرًّا ذَهَبَ فِيهِ أَكْثَرُ دَوَابِّهِمْ ، وَتَوَجَّهُوا إِلَى حَصَنِ الْكَرْكِ الْمَذْكُورِ ، وَقَدْ سَدَّ عَلَيْهِمْ بَنِيَاتُ الطَّرِيقِ الْقَاصِدَةِ إِلَى بِلَادِهِمْ وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِلَّا طَرِيقٌ عَنِ الْحَصَنِ يَأْخُذُ عَلَى الصَّحْرَاءِ وَيَبْعُدُ مَدَاهُ عَلَيْهِمْ بِتَحْلِيْقٍ يُعْتَرِضُ فِيهِ . فَاهْتَبَلَ صَلَاحُ الدِّينِ فِي بِلَادِهِمْ الْغَرَّةَ وَانْتَهَزَ الْفُرْصَةَ وَقَصِدَ قَصْدَهَا عَنِ الطَّرِيقِ الْقَاصِدَةِ ، فَدَهَمَ مَدِينَةَ نَابُلُوسَ وَهَجَمَهَا بِعَسْكَرِهِ فَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا وَسَبَى كُلَّ مَنْ فِيهَا وَأَخَذَ إِلَيْهَا حَصُونًا وَضِياعًا . وَامْتَلَأَتْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ سَبْيًا لَا يَحْصِي عَدَدُهُ مِنَ الْإِفْرَنْجِ ، وَمِنْ فِرْقَةٍ مِنَ الْيَهُودِ تَعْرِفُ بِالسَّمَرَةِ مَنْسُوبَةٍ إِلَى السَّامَرِيِّ . وَانْبَسَطَ فِيهِمُ الْقَتْلُ الذَّرِيعُ ، وَحَصَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا عَلَى غَنَائِمٍ يَضِيقُ الْحَصْرُ عَنْهَا ، إِلَى مَا اكْتَفَتْ مِنَ الْأَمْنَةِ وَالذِّخَائِرِ وَالْأَسْبَابِ وَالْأَنْثَاءِ ، إِلَى النَّعَمِ وَالْكَرَاعِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ . وَكَانَ مِنْ فِعْلِ هَذَا السُّلْطَانِ الْمُؤَفَّقِ أَنْ أَطْلَقَ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى جَمِيعِ مَا احْتَاذَتْهُ ، وَسَلَّمَ لَهُمْ ذَلِكَ ، فَاحْتَازَتْ كُلُّ يَدٍ مَا حَوَتْ وَامْتَلَأَتْ غَنًى وَبَسَارًا . وَغَفَى الْجَيْشُ عَلَى رُسُومِ تِلْكَ الْجِهَاتِ الَّتِي مَرَّ عَلَيْهَا مِنْ بِلَادِ الْفَرَنْجِ ، وَأَبَوُا غَنَائِمَ فَاثَرَيْنَ بِالسَّلَامَةِ وَالْغَنِيمَةِ وَالْإِيَابِ ، وَتَخَلَّصُوا مِنْ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ عَدَدًا كَثِيرًا ، وَكَانَتْ غَزْوَةٌ لَمْ يَسْمَعْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ .

وخرجنا نحن من دمشق وأوائل المسلمين قد طرَقوا بالغنائم كلِّ بما احتواه وحصلت يده عليه ، وكان مبلغ السبي آفاقاً لم تتحقق إحصاءها . ولحق السلطان بدمشق يوم السبت بعدنا الأقرب ليوم انفصالنا ، وأُغْلِمْنَا أَنَّهُ يُجِمُّ عَسْكَرُهُ قَلِيلًا وَيَعُودُ إِلَى الْحَصَنِ الْمَذْكُورِ ، فَاللَّهُ يُعِينُهُ وَيَفْتَحُ عَلَيْهِ بَعْرَتَهُ وَقَدْرَتَهُ . وَخَرَجْنَا نَحْنُ إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ وَسَبْيُهُمْ يَدْخُلُ بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ ، وَنَاهِيكَ مِنْ هَذَا الْإِعْتِدَالِ فِي السِّيَاسَةِ ! فَكَانَ مَبِيتُنَا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ بِدَارِيَّةَ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ دِمَشْقَ عَلَى مَقْدَارِ فَرَسَخٍ وَنَصْفٍ ، ثُمَّ رَحَلْنَا مِنْهَا سَحَرُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ بَعْدَهُ إِلَى قَرْيَةٍ تَعْرِفُ بِبَيْتِ جَنْ ، هِيَ بَيْنَ جِبَالٍ ، ثُمَّ رَحَلْنَا مِنْهَا صَبِيحَةَ يَوْمِ السَّبْتِ إِلَى مَدِينَةِ بَانِيَّاسَ ، وَاعْتَرَضْنَا فِي نَصْفِ الطَّرِيقِ شَجَرَةً بَلُوطٌ عَظِيمَةٌ الْجَرَمِ مُتَسَعَةً التَّدْوِيعِ ، أُغْلِمْنَا أَنَّهَا تَعْرِفُ بِشَجَرَةِ الْمِيزَانِ ، فَسَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ ، فَقِيلَ لَنَا : هِيَ حَدُّ بَيْنِ الْأَمْنِ وَالْخَوْفِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ لِحَرَامِيَةِ الْإِفْرَنْجِ ، وَهُمْ الْحَوَاسَةُ وَالْقَطَّاعُ ، مَنْ أَخَذُوهُ وَرَاءَهَا إِلَى جِهَةِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَلَوْ بِبَاعٍ أَوْ شَرٍّ أَسِيرٍ ، وَمَنْ أَخَذَ دُونَهَا إِلَى جِهَةِ بِلَادِ الْإِفْرَنْجِ يَقْدَرُ ذَلِكَ أَطْلُقَ سَبِيلَهُ ، لَهُمْ فِي ذَلِكَ عَهْدٌ يُؤْفُونَ بِهِ ، وَهُوَ مِنْ أَظْهَرِ الْإِزْتِبَاطَاتِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ وَأَغْرَبِهَا . (رحلة ابن جبير ص ٢٧١ — ٢٧٢) .

وحين يصل ابن جبير في رحلته إلى بانياس يتحدث عن حدّ المقاسمة بين عمالة الفرنجة والمسلمين بقوله :
« هذه المدينة — أي بانياس — ثغر بلاد المسلمين ، وهي صغيرة ، ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر
ويقضي إلى أحد أبواب المدينة ، وله مَصَبُّ تحت أرحاء . وكانت بيد الإفرنج فاسترجعها نور الدين ، رحمه الله . ولها
محراث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للإفرنج يسمّى هونين ، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ .
وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين ، لهم في ذلك حدّ يعرف بحدّ المُقاسمة ، فهم يتشاطرون الغلة على
استواء ، ومواشيهم مختلطة ، ولا خِيفَ يجري بينهما فيها » (رحلة ابن جبير ص ٢٧١ — ٢٧٢) .

ويقف ابن جبير عند واقع المسلمين الذين آثروا البقاء في قراهم وضياعهم والعيش في حماية الفرنجة ، قوله :
« ورحلنا من تبين ، دمرها الله ، سحر يوم الاثنين ، وطريقنا كلّ على ضياع متّصلة وعمائر منتظمة ، سكّانها
كلّها مسلمون ، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه ، نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك أنّهم يؤدّون لهم نصف الغلّة عند
أوان ضمتها وجزية على كلّ رأس دينار وخمسة قرايط ولا يعترضونهم في غير ذلك ، ولهم على ثمر الشجر ضريبة
خفيفة يؤدونها أيضاً . ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم . وكلّ ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام
على هذه السبيل ، رساتيقهم كلّها للمسلمين ، وهي القرى والضياع ، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون
عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمّالهم ، لأنّهم على ضدّ أحوالهم من الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع
الطارئة على المسلمين : أن يشتكي الصنف الإسلاميّ جورَ صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضدّه وعدوّه المالك له
من الإفرنج ، ويأنس بعدله ، فإلى الله المشتكى من هذه الحال ، وحسبنا تعزية وتسليّة ما جاء في الكتاب العزيز :
﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتُهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ (رحلة ابن جبير ص ٢٧٤ — ٢٧٥) .

الفصل الثالث

الحملة الصليبية الثانية ويقظة الإسلام السوري

سقوط القدس وردود الفعل الإسلامية الأولى

لقد أحدث سقوط القدس هزة كبرى في أرض الإسلام؛ وتسربل خليفة بغداد ثياب الحداد على المدينة المقدسة. ورفع الشعراء المستلهمون وحيهم الحربي عقيرتهم: إن الإسلام في خطر:

وشر سلاح المرء دمعٌ يفيضه إذا الحرب شبت نأرها بالصوارم

ولم تلبث الدلائل الأولى لرد الفعل الإسلامي أن ظهرت في دمشق أولاً، ثم في حلب وديار بكر والموصل، وكان صنيعاً له مغزاه أن يطالب الجمهور عام ١١١٠ أمام قصر الخليفة في بغداد بعمل سريع ومباشر ضد الصليبيين. وقامت وفود سورية مؤلفة من الفقهاء والتجار البارزين والجنود باقتحام الجوامع وإثارة الاضطرابات فيها، قاطعين شعائر العبادة مطالبين بالرد المطلوب. واستيقظ الإسلام السوري يعي مصائبه. الجهاد! ومن أقاصي المغرب إلى أعماق المشرق دوّت صرخة التوحيد الرهيبية طاغية على كل ماعداها من صرخات ثانوية. الجهاد في كل مكان. في كل مسجد بعد صلاة الجمعة يستنزل الأئمة اللعنات الأبديّة على أولئك

القاعدين الذين لا يؤدون فريضة الجهاد كمؤمنين صادقين ، بل القتال حتى الموت ضد أعداء الإسلام ، ذلك القتال الذي سينتهي بالشعوب العربية إلى السيطرة الكونية .

معركة الرها والدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية

وكانت استعادة إمارة الرها في ٢٥ ديسمبر (كانون الأول) ١١٤٤ على يد ابن أمير الموصل عماد الدين حدثاً ضخماً^(١) . أولاً لأن مائة ألف مسيحي قتلوا فيها ، ثم لأن هذا الحدث تسبب بنشوب الحملة الصليبية الثانية التي دعا إليها القديس برنار دي كليرفو الذي لخص خطابه الذي ألقاه في فيزليه تلخيصاً واضحاً المصيبة التي حاقت بالنصرانية ، أمام هذه المصائب الجديدة . وجلجل صوته ، مخاطباً جموع الشعب الضخمة التي احتشدت لسماعه : « ليكن دارعوكم لا يُغلبون ، لتكن المخاطر والآلام ومشقات الحرب التوبة التي يفرضها الله عليكم ، لقد اجتاحت المسلمون أراضينا في الديار المقدسة . إنهم يسبون نساءنا وبناتنا ويدبسون معابدنا . ماذا تنتظرون لتدفعوا هذه المصائب الرهيبة ؟ احملوا السلاح ، ولينفخ فيكم الغضب المقدس روح القتال ، ليردد في العالم المسيحي هذا الحديث النبوي : ويل للذي لا يخضب سيفه بالدم » .

وأقبل الكل على حمل الصليب : ملك ومطارنة . وجثا ذوو النبالة الحاضرون عند قدمي الواعظ ، وطاف القديس برنار فرنسا مثيراً الجماهير السائرة خلفه ، وكتب إلى أمراء إيطاليا وألمانيا محرضاً إياهم على حمل الصليب . واقتدى كونراد الثالث بملك فرنسا ؛ وكذلك فعلت النبالة الجرمانية قاطبة .

الصليبيون وصراع المصالح الخاصة

وفي مطلع عام ١١٤٧ شرع الملكان يغذان السير . وبعد صعوبات جمة ، وبسبب خيانة اليونانيين الذين كانوا يلحونهم بعد أن يعوذوهم بدعوات وتمنيات لا تنتهي ، وبلغت الجيوش المسيحية فلسطين في ربيع ١١٤٨ بدلاً من أن ييمموا القصد نحو الموقع الأكثر إلحاحاً ، أعني إلى استرجاع الرها ، وهي قلعة الفرنجة فيما بين النهرين ، ومنطقة حلب التي كان السلطان نور الدين قد افتتحها ، وصار بمستطاعه أن يهدد أنطاكية مباشرة . واجتمع

قادة الصليبية الثانية في عكا للتشاور، ولكن انفض هذا المجلس الذي حضره ممثلا الكرسي الرسولي: ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا، وكذلك بطريرك القدس وقادة الفرسان في سورية وفرنسا وألمانيا، مسفراً عن خيبة أمل بالغة، فكل من أولئك القادة كان يعمل على توظيف تجهيزات الصليبية لتطمين مصالحه الخاصة، ولم يكن البتة هدف هذه الحملة المعلن في فيزلاي مدار مباحثات عكا، وإنما تلك القضايا النافهة، قضايا المصالح الشخصية التي طالما احتدم النقاش حولها، وقرر في نهاية المطاف مهاجمة دمشق.

فشل الحملة الصليبية الثانية أمام دمشق

وبعد قطع الصحارى، وتكسرات الحرارة المثيرة للهلوسة؛ وتموجات الرمال؛ واجتياز جبال الحرمون الجرداء ذات الأخاديد الموحشة العدائية... أيّ تأثير استحوذ على الصليبيين حينما اكتشفوا دمشق العظيمة الصامته البيضاء التي كانت مآذنها تشمخ في انطلاقة واحدة من الحجر وسط امتداد رحب المدى من البساتين، وأيّ فرح لعيونهم المرهقة بالإشعاعات القاسية عندما رأوا هذا الفردوس المنسي على الأرض ينتصب أمامهم، وهذه المدينة الشهيرة كانت تبدو لمن يزنو إليها من التلال المجاورة ساجدة في النور المنبثق منها ذاتها.. غامضة، عظيمة، شبة.

فدمشق كانت رمز الشرق، وجماله وسحره، بل كل عظيمته الأسطورية التي لم تتعب منها مخيلاتهم. وبانتظار المعركة كان الصليبيون يحلمون بقصور سلاطينها ويكنوزها المتراكمة في نورها المظلل، وبأسواقها، وبجمال جوارى حريمها.

وهت حاكم دمشق لدى رؤيته الغضب المسيحي ينقض عليه، فدافع عن نفسه ببسالة طوال خمسة أيام حاول خلالها الصليبيون عبثاً اقتحام أسوارها. ماذا حدث فعلاً بعد ذلك؟ يزعم غيوم الصوري أن البارونات السوريين أي سادة الفرنجة المقيمين في سورية فاضوا حاكم دمشق سراً على اتفاق ما؛ ويذهب المؤرخ العربي القلانسي المذهب نفسه، فقد عرض الدمشقيون على ملك القدس دفع مائتي ألف قطعة ذهبية مقابل رفع الحصار، فكان العرض مغرياً، فقبل ملك القدس هذه الصفقة المخجلة التي خدع فيها خدعة كاملة؛ وإذا

صدقنا كاتب الحوليات السرياني أبا الفرج، فقد اكتُشف متأخراً أنَّ كثيراً من هذه القطع كان مزيفاً.

وهكذا فشلت الصليبية الثانية فشلاً ذريعاً، ومن فوره غادر كونراد مع فرسانه سورية مشمئزاً يجر أذيال الخيبة وكذلك فعل ملك فرنسا^(٢).

وأثارت نتيجة مساومات دمشق ظلال عدم الثقة بين لاتين المشرق ولاتين المغرب الذين لم يمنعو أنفسهم من اتهام البارونات السوريين مالكي الأراضي والمستحوزين على المنافع بأنهم خانوا القضية المشتركة. وعلينا أن نركز على هذه النقطة:

إن فشل حملة دمشق أثار استياءً حقيقياً، فبعد الاندفاع الكاثوليكي عام ١٠٩٧، واحتلال القدس وما أسفر عنه من تثبيط عزائم المسلمين، حتى «لقد عاش الإسلام السوري على الدوام — كما يقول ابن الأثير — هواجس تهديد صليبية جديدة توقع بحلب ودمشق ما أوقعته في أنطاكية والقدس»^(٣). ولكن هاهم الصليبيون يعودون إلى سورية غازين بقيادة رئيسي دولة، وإنما ينكفئون دونها خاسرين، وأسفرت مغبرتهم المؤمنة عن فتور حماسة النصرانية الغربية نحو الغزوات عبر البحر، على حين تأخذ الحماسة سبيلها — في الصف الإسلامي — إلى القلوب بغيرة أشدّ لمنازلة أعداء دينهم، لأنهم آنسوا أن الهيبة العسكرية للصليبيين قد نهت، وفيما كانوا يخشون جانب كبار القادة الغربيين — كما يقول غيوم الصوري — «فهاهم يرونهم يرحلون دون أن يفعلوا أي شيء، فخامرت نفوسهم الفرحة، ولم يعد هاجس الخوف من الفرنجة يستحوذ على تفكيرهم، وتكونت لديهم آمال عريضة».

نور الدين زنكي ويقظة الإسلام المناضل

وتحققت هذه الآمال، إذ دخل تاريخ الإسلام السوري شخصاً جديداً يمكن اعتبار ملكه بهذا الشكل أو ذاك المقدمة لملك صلاح الدين. لقد سبق أن أشرنا إليه آنفاً حينما قلنا إن منطقة حلب آلت إلى يد نور الدين، الذي كان تجسيدا للإيمان المناضل، وحاكماً صوفياً عفيفاً، وبطلاً قومياً حقيقياً، مؤمناً بعظمة الرسالة السماوية. هذا الجندي الباسل الذي غدا بفضل سلسلة من المناورات تدعمها التظاهرات العسكرية سيّد سورية، والذي سيكرس

حياته لمقارعة الفرنجة ومنازلتهم، على حين كانت الممالك اللاتينية في الغرب تصاب بردة الفعل المزعجة في أعقاب فشل الحملة الصليبية الثانية. وبينما كان المسيحيون يندبون حظهم في القدس، كان الإسلام المقاتل، المستقر جيداً في قبضة نور الدين يستعيد نوعاً من الطمأنينة النفسية. ولا يخفى أن الصليبيين الأوائل كانوا قد أفادوا من الصراعات بين الممالك الهشة، ومن سلسلة طويلة من الأخطاء، وعدم الكفاءة، وكثرة الممالك الصغيرة، ومن ممارسات أهل البدع الذين غالباً ما كانوا معادين للفكرة العربية والإسلام الأصولي، ومن الانتفاضات على الطريقة الإيرانية المشؤومة الصبغانية.

أما الآن فتغيرت الصورة، فنور الدين كان يبذل قصارى جهده لتوحيد سورية، ولأنه كان ثابت الإيمان بحقيقة الرسالة النبوية فقد انصبت جهوده من الآن فصاعداً نحو هدف واحد: طرد الأجانب خارج سورية وفلسطين. وسيسهل مهمته الصليبيون أنفسهم، فالمستعمرات المسيحية الدولية طفقت تتنازع على مناطق النفوذ، وحلّت روح جديدة محل الاندفاعات الأولى، من حماسات عشية الزحف، ولم يكن عهد ذلك «سياسة مسيحية» يجب تحديدها واتباعها لئلا تتوزع حركة الصليبيات الأولى إلى مجهودات عقيمة. وسبق لبعض المؤرخين أن كتبوا قائلين: إن ضعف دول الفرنجة بسورية ناجم في جوهره عن كون الصليبيين جلبوا معهم النظام الإقطاعي. ولم تكن سلطة كبار البارونات لتتعدى إقطاعاتهم المحصنة. وغدت القدس بيزنطية ثانية، وكانت المنظمات العسكرية التي تحتل القلاع الأهم تمارس رقابتها المستمرة على السلطة الشرعية. وهذه الأسباب من عوامل الضعف ما كان لها إلا أن تحظى بمباركة زعيم مسلم من مستوى نور الدين الذي انفرد بمهمة استغلال هذا الوضع. ولكونه جديراً بوالده الذي كان جندياً شجاعاً حسن التدبير، فقد أرسى الأسس التي سيشيد عليها صلاح الدين بناء راسخاً. فخلال الثاني والعشرين سنة التي أمسك فيها بمقاليد الحكم (١١٤٦-١١٧٤) أنهك الصليبيين هادماً حصونهم في كونتية طرابلس، مغرقاً بالنار والدماء ضواحي حارم، ساحقاً في معركة ضارية فرسان الأمير ريمون الأنطاكي، مكرهاً حُمَاة أفعامية على الاستسلام. وفي أقل من سنتين احتلّ تقريباً جميع مواقع الفرنجة في سورية الشمالية، غير تارك لأعدائه لحظة راحة، داحراً إياهم في جرأة اهتزت لها القدس.

ولم يقف عند هذا الحد . فمصر ، بعد حكم الحاكم ذلك الخليفة العبقري الذي لم يمت شأن سائر الناس — بل اختفى بصورة غامضة — فمصر هذه عرفت أياماً قائمة . فلم يقيض لها حكام حقيقيون ؛ بل آلت ليدين ضعيفتين لطفل لم يتخطَّ التاسعة ، هو الخليفة العاضد الذي كان مجرد صورة يتنازع الوزراء حوالها السلطة ؛ ويفرغون خزائن بيت المال ، يدفعون بأزلامهم لإثارة الفتن ، وليعيشوا حياة السلب باختفاء شرقيّ غامض . وطمع نور الدين في سهل النيل الخصيب الذي بدا له غنيمة سهلة ؛ وضرورياً لعظمة الإسلام ؛ وذلك بأن يعيد شيئاً من النظام إلى هذا البلد بأسرع ما يستطيع ، خاصة وأن المسيحيين في القاهرة الذين طالما اضطهدوا في عهد الحاكم بدؤوا يظهرن جسارة وتُعد همة بصورة غريبة . فحشد جيشاً ليرسله إلى مصر ، وعقد لواء قيادته لشيركوه الكردي .

حواشي الفصل الثالث

١ - عماد الدين زنكي: الشهيد (ت ١١٤٦) من أبرز أبطال الإسلام، ومؤسس الدولة الزنكية في الموصل.. كان من الأمراء المقدمين في العهد السلجوقي.. بسط نفوذه على سنجار وحران وحلب، ناضل نضالاً لا هوادة فيه ضد الصليبيين ونازهم بمعارك كثيرة أبرزها معركة الرها، حين استعادها منهم عام ١١٤٤.. فكانت الذريعة لشن الحملة الصليبية الثانية، ولقد أرخ ابن الأثير (انظر ترجمته المادة ٣ من هذا الفصل) في كتابه «الباهر» للدولة الزنكية، الذي كان متحزباً لها.. وما سجله عن نضال عماد الدين الشهيد وفتح الرها، قوله:

في ذكر فتح الشهيد مدينة الرها

في جمادى الآخر من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، فتح الشهيد رضي الله عنه مدينة الرها من الفرنج، وكانت لجوسلين عاتيق وشيطانهم، والمقدم على رجالتهم وفرسانهم، وكلهم قد أذعن له بالنهاية في الشجاعة، فهم يخضعون له ببذل الطاعة. وكان مدة حصارها ثمانية وعشرين يوماً، وأعادها إلى حكم الإسلام، ونفذت فيها أحكام أهل الإيمان، وهذه الرها هي من أشرف المدن عند النصاري وأعظمها محلاً. وهي لإحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيت المقدس، ثم أنطاكية، ثم رومية والقسطنطينية، والرها. وكان هذا فتح الفتوح حقاً، وأشبهها بيدر صدقاً، من شهده فقد تمسك من الجهاد بأوثق سبب، ولو عاصره الطائي (أبو تمام) لعلم أنه أولى بقوله: السيف أصدق أنباء من الكتب، لأن ضرر من بهذه المدينة من الفرنج على المسلمين لقرتها عظيم، وشرهم إليها جسيم. إذ كانت من الديار الجزرية عينها، ومن البلاد الإسلامية حصنها، وانضاف إليها عدة من البلاد فانتسعت مملكته، واشتدت على أهلها وطأتهم فملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات. وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر، وماردين، ونصيبين، ورأس عين، والرقعة. وأما حران فكانت معهم في الحزبي، كل يوم قد صبحوها بالغارة، فلما رأى الشهيد الحال هكذا، أنف لدولته أن يترك من بالرها من الكفار يجوسون من مملكة الإسلام خلال الديار، وكان يعلم أنه لا ينال منها غرضاً، ولا يمكنه أن يحيل جوهر الكفار بها عرضاً، مادام بها جوسلين وفرسانه، وجنوده وأعوانه، وأنه متى قصدتها محاصراً لها اجتمعت الفرنج لحفظها منه، فعدل إلى أعمال الحيل والخذاع، والرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي الحل الثاني. فعدل عن قصدتها إلى ما جاورها من ديار بكر التي بيد المسلمين، كحاني، وجبل جور، وآمد على ما تقدم ذكره، فكان يقاتل من بها قتالاً فيه إبقاء، فهو يخطبها وعلى

غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده. فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر، ظن أنه لا فراغ له إليه، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه، ففارق الرها إلى بلاده الشامية ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله، فأتت الشهيد عيونته فأخبرته بمسيره مع عساكره وذويه، وخلو البلد عن حافظه وحاميه، فحينئذ أمر بالنداء في العسكر بالتجهيز والتشهير، والجد في المسير، ويهدد لمن عن صحبته تأخر، وأعلمهم أنه لا يقبل عذر من اعتذر، وأقبل مسرعاً كالسهم الصادر عن وتره، والسيل الصائر إلى مستقره، وتبعته العساكر يتلو بعضها بعضاً، عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفرضاً، وأقبلوا زمراً مجددين كقطع السحاب تحتها الجناث، وقد استعانوا على السرعة بركوب النجائب. فلما علم من بها من العدو إقباله، سرى الرعب في أحشائهم، واختلط الخوف بدمائهم وسقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا وقالوا ﴿لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾. فأبى الله إلا أن ينتقم منهم بسيف الشهيد، ويجمع في جهنم بين الغائب منهم والشهيد، جزاء بغية الشنيع، وقتلهم الفظيع، فضبه الله عليهم عذاباً، وساقه إليهم عقاباً فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضائق عليهم نفوسهم، ونكست لشدة هيئته رؤوسهم، ووافى البلد في حده وحديده، وعدده وعديده ومواكبه المنصورة، وجموعه المحشورة، وينوده المنشورة.

وزحف بهم نحو البلد يقدمه، والشجاعة تقدمه، فكادت الأرض تزلزل. والنهار بسواد الليل يسرل، وصار الفرنج مع علمهم بأنهم صائرون إلى البوار، يتهافون إلى القتال تهافت الفراش في النار، أخذوا بقول من يقول: تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد نفسي حياة مثل أن أتقدما

-فما رأى الشهيد البلد، رأى بلداً جمع بين الحصانة والحسن، فراسل أهله يبذل لهم الأمان والأمن، ليسلموه سليماً من إغراب أسواره، وإخلاء دياره، ضناً منه على مثله أن يصبح خاوياً على عرشه، وأن يلتحق سماءه بفرشه، فأبوا قبول الأمان، وامتنعوا من الإذعان، فاستخار الله تعالى في قتاله، وقدم الشجعان لنزاله، ونصب المجانيق، وقدم النقبان، وألح على من به القتال، خوفاً أن يجتمع الفرنج فيزحزحونه عنه ويستنقذونه منه. وبلغ الخبر إلى الفرنج فقاموا وقعدوا، وأبرقوا وأرعدوا، وجمعوا فارسهم وراجلهم، وشابهم وكهلهم، وحرصوا على السرعة خوف القوات وعاد جوسلين عند سماعه الخبر إلى شرق الفرات، لعله يجد فرصة ليدخل إليها، أو يرسل نجدة يحافظ عليها، فعجل بينه وبين ذلك، وأبى أن يكون ما يريد وخصمه الشهيد أثابك. ولم يزل الشهيد يزحف إليها مرة بعد أخرى، حتى وصل النقبان إلى سورها فنقبوه، فألقوا النار فيه فأحرقوه، وملك البلد عنوة وقهراً، وأوسع كل من فيه نكالاً وشراً، فلما ملكها استباحها، وأذل لقاحها، وقتل شجعانها وفرسانها، فهم معه بين قتيل وأسير، وجريح وكسير، ومأى الناس أيديهم من النهب والسبي، وكذلك أخذ ريك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد. ثم إنه دخل البلد فراقه منظره، وشاقه خبره، فأسف لمثله من الخراب، وأن يستولي عليه في ملكه البوار والتباب، ورأى إن أخربه وأخلاه من أهله، غير مستحسن من مثله، فأمر بإعادة ما أخذ منه من أثاث ومال، وسبي ورجال، وجوار وأطفال، فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم إلا الشاذ النادر، فعاد البلد عامراً بعد أن كان دائراً، وأهلاً وآمناً، ورتب فيه من العساكر من يحفظه، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من هذه الناحية من المدن والحصون والقرى، كسروج وغيرها، وأخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشريم، وأراح أهلها من كيدهم وضرمهم، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين، وعلى مهاد الأمن وادعين، ومنادي التوحيد ينادي: جاء الحق

وزنه الباطل . وألقى الإسلام بهذه البلاد جرانه ، وبث فيها أنصاره وأعوانه ، وصدق وعد الله في قوله ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ﴾ . فهي لهم إلى يوم العرض . وكان فتحاً عظيماً لم ينتفع المسلمون بمثله ، وطار في الآفاق ذكره ، وطاب بها نشره ، وسارت به الرفاق ، وامتألت به المحافل في الآفاق ، وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء ، واستبشر به الأبرار والأصفياء . (ابن الأثير : الباهر في التاريخ ص ٦٦ — ٦٩) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الصليبيين استعادوا الرها بقيادة جوسلين الثاني ، حين علم بوفاة عماد الدين زنكي .. عندها زحف نور الدين محمود بن الشهيد عماد الدين على المدينة عام ١١٤٦ وخربها وأنزل العقاب الصارم بأهلها .. وجاء في الموسوعة الميسرة في ترجمة حياة نور الدين محمود :

« .. وكان لاستيلاء المسلمين على الرها وقع كبير في أوروبا ، لما كان لها من قداسة عند العالم النصراني ، فدعا البابا يوجين الثاني إلى حملة صليبية جديدة ، وألهب القديس برنار ببلاغته شعور المسيحيين وحثهم على محاربة المسلمين ، فاستجاب للدعوة اثنان من كبار ملوك أوروبا ، وهما لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا ، وقاما بما يعرف بالحملة الصليبية الثانية التي انتهت بالفشل ، فقد حاصروا دمشق ١١٤٨ ، فاستنجد صاحبها مجير الدين آبق البوري بنور الدين ، ففشل الملكان في الاستيلاء عليها » (الموسوعة الميسرة ص ١٨٥٧) .

٢ — حصار الصليبيين دمشق وارتدادهم عن أسوارها :

كتب ابن الأثير في كتابه الباهر في التاريخ :

« في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، خرج ملك الألمان من بلاد الفرنج في جيوش عظيمة لا تحصى كثرة من الإفرنج إلى بلاد الشام ، واتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج ، واجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها ولا يشك ملك الألمان أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره . وهذا النوع من الفرنج هم أكثر الفرنج عدداً وأوسعهم بلاداً ، وملكهم أكثرهم عدداً وعُدداً ، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلاً ، والسيف أصدق أنباء من الكتب . فلما حصروا دمشق وبها صاحبها مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين ، وليس له من الأمر شيء وإنما كان الأمر إلى معين الدين أنر بن مملوك جده طغتكين ، فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر . وكان عاقلاً خيراً ديناً حسن السيرة ، فجمع العسكر وحفظ البلد ، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول ، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم عن القرب منه ، وكان فيمن خرج معهم ، الفقيه حجة الدين يوسف بن ذي ناس الفندلاوي المغربي ، وكان شيخاً كبيراً زاهداً عابداً ، خرج راجلاً فرأه معين الدين فقصدته وسلم عليه ، وقال له : يا شيخ أنت معذور ونحن نكفيك ، وليس بك قوة على القتال . فقال : قد بعث واشترى ، فلا نقيه ولا نستقبله يعني قول الله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾ الآية . وتقدم وقاتل الإفرنج حتى قتل رضي الله عنه عند النيرب شهيداً . وقوي أمر الفرنج وتقدموا ، فنزلوا بالميدان الأخضر وضعف أهل البلد عن ردهم عنه ، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين يستغيث به ويستنجده ، ويسأله القدوم عليه ، ويعلمه شدة الأمر الذي قد دفعوا إليه ، فجمع سيف الدين عساكره وحشد ، وسار مجدداً إلى مدينة حمص ، وأرسل إلى معين الدين يقول له : قد حضرت ومعني كل من يطيق حمل السلاح من بلادي ، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي وكانت الهزيمة علينا ، لا يسلم منا أحد لبعد بلادنا عنا ، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها ، فإن

أردت أن ألقاهم وأقاتلهم ، فتسلم البلد إلى من أئق إليه ، وأنا أحلف لك ، إن كانت النصرة لنا على الفرنج أنني لا آخذ دمشق ، ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدو عنها وأعود إلى بلادي . فمأطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج .

وأرسل سيف الدين إلى الفرنج الغرباء يتهددهم ، ويعلمهم أنه على قصدهم إن لم يرحلوا ، وأرسل معين الدين إليه أيضاً يقول لهم : قد حضر ملك الشرق ومعهم من العساكر ما لا طاقة لكم به ، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ لا تطعمون في السلامة منه . وأرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم ، ويقول لهم : أنتم بين أمرين مدمومين ، إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق لا ييقون عليكم ما بأيديكم من البلاد ، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرُونَ على منعه عن البيت المقدس ، وبذل هم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلوا ملك الألمان عن دمشق ، فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه ، واجتمعوا بملك الألمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده ، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل ، فأجابهم إلى الرحيل عن دمشق وسار عنها . ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين ، وبقي حصن بانياس مع الفرنج حتى فتحه نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى . » (الباهر في التاريخ ص ٨٨ — ٨٩) .

٣ — ابن الأثير ، أبو الحسن علي (١١٦٠ — ١٢٣٤)

مؤرخ عربي ، عاش بالموصل وتنقل بين دمشق والقدس واستقر أخيراً بالموصل .. عاصر صلاح الدين الأيوبي ويعتد كتاباه « الكامل في التاريخ » و « الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية » من المصادر التاريخية الهامة والأساسية لتلك المرحلة من صراع الشرق والغرب أبان الحروب الصليبية ، وكذلك لعصر صلاح الدين ..

الفصل الرابع

صراع الفرنجة والمسلمين على وادي النيل

بدايات صلاح الدين

اصطحب شريكوه معه ابن أخيه صلاح الدين: ذلك الفتى المنعزل الخجول الذي كان يريد أن يثقفه ويعدّه لمهنة قيادة الرجال المخيبة للآمال، وربما لإنقاذه من التأثير السيء لبلاط دمشق، وحتى ذاك التاريخ لم يكن صلاح الدين قد استرعى الأنظار. فقد ولد سنة ١١٣٨ في تكريت: القرية المتواضعة القائمة على الضفة اليمنى لنهر دجلة، في قلب المنطقة الكردية، وكانت مركزاً قديماً لمطرانية يعقوبية أغلب سكانها حتى عهد صدر الإسلام الأول مسيحيون، وقد هاجر أبوه إلى بغداد— حيث سعى له أحد أصدقائه من ذوي النفوذ في بلاط السلاجقة الأتراك ليسند إليه منصب حاكم بعلبك، وفيها أنشأ تكية للصوفيين، وهم مسلمون أتقياء ينسبون أنفسهم إلى البدايات الزاهدة للإسلام القائلة بفكرة «الحب في الله». في هذه المدينة القديمة التي سمق فيها شاهقاً هيكل جويتر الضخم لعبادة الشمس ربّي صلاح الدين متلقياً تعاليم الصوفية الآمرة باحتقار كل ما هو دنيوي وتوجيه النفس نحو الباقي وحده، الكائن الإلهي، والتجرد من كل مظهر للحياة الشخصية وصولاً إلى الاتحاد بالحياة الإلهية التي هي وحدها حقيقة، و «إلى الانتشاء بالشراب الروحي من الجمال والنور الإلهيين».

وانغمس صلاح الدين في هذه الفلسفة ، وكان عليه ما عاش أن يتذكر التعاليم التي تلقاها في تكية بعلبك . ورغم هموم السلطة ومغرياتها سيسعى ما امتد به الأجل إلى بلوغ حالة النعمة هذه في محبة الله . وسيتبع هذا المثل الأعلى لكمال النفس الإنسانية ، الذي هو الصوفية ، وسيفرض في محيطه ممارسات التقشف درجاً على نهج تعاليم الله ، والتلاشي في الله . ودرس أشهر الشعراء العرب الصوفيين الذين كتبوا فيما نظموا « تطهر من كل صفة ذاتية ، لكي تشاهد جوهرك الباهر . ألغ وجودي لأن اللاوجود يناديني على أنعام القيامة . إنا لله وإنا إليه راجعون . انظر في قلبك معرفة النبي بلا كتاب ولا معلم ، ولا مدرب »^(١) ولن ينسى صلاح الدين سحابة عمره أن يشيع ذاته بهذه التأملات — إنه مدين للصوفية التي ستلهمه وتهديه طوال حياته السياسية .

وفي السابعة عشرة من عمره رافق صلاح الدين أباه ، الذي سمي حاكماً لدمشق ، إلى بلاط نور الدين ، فلم يتألق له أي نجم لدى السلطان ، بل كان على درجة من خمول الذكر لم يعرفه معها عهد ذلك الأمير أسامة بن منقذ . وأتم صلاح الدين الشاب ثقافته ، واجتهد معلمو دمشق بعد معلمي بعلبك في أن يوحوا إليه بمجاهدة النفس بحزم بأداء شعائر دينه ، وفي بغض المسيحيين (الفرنجية) ، وبسبب ميوله السلمية لم يكن هنالك ما يدعو إلى التنبؤ بما ستكون عليه سيرته المدهشة . ولم يظهر على الساحة لأول مرة إلا حينما قرر عمه شيركوه اصطحابه في حملته على مصر رغم عزوفه عن ذلك^(٢) ، كما يؤكد أحد مؤرخيه أبو شامة^(٣) .

نور الدين واهتمامه بحماية مصر من الهجمات الصليبية

ولم يحمل نور الدين على التفكير في إنفاذ حملة إلى وادي النيل جاذبية الثروات الأسطورية التي كانت تندفق على القاهرة ، ولا النداءات المتكررة لوزير معزول كان يعرض على سلطان دمشق مقابل مساعدته إياه لاستعادة سلطته ثلث واردات مصر ، بقدر ما كان يحفزها الاهتمام بحماية الإسلام من الهجمات الصليبية على هذه البلاد . وذلك لأنه انتهى إلى علمه ، وقد أخذته الدهشة ، أن ملك القدس وقع معاهدة تحالف مع الخلافة الفاطمية في القاهرة ، وأن جيشاً لا يستهان بعدده من الاستبائيين كان في طريقه إلى عاصمة الفراعنة القديمة لقاء ألف دينار لكل مرحلة يقطعها . وكان ملك القدس ينتهج سياسة غريبة وغريبة ، مورطاً نفسه

في قضية يتطلب نجاحها وقتاً ورجالاً، بظرف هبات له أن يأمل في الاستقرار بمصر حين كانت الإمارات الصليبية في سورية تهتز يومياً تحت متكرر ضربات نور الدين. فبأي خداع للرؤية أرسل أموري الأول المسيحيين دفاعاً عن عرش خلافة إسلامية؟ في حين كانت مملكته محتاجة للسلم لكي تتحصن.

إن سياسة النفوذ الجديدة الأجل هذه ما كان لها أن تؤتي ثمارها، وكان الأجدى لو استطاع الصليبيون المتمكنون في الأرض المقدسة أن يحصلوا على خيارات مصر دونما مخاطرة نزع الهجوم عليها؛ لكن الأمر لم يكن البتة آخذاً هذا السياق، وأية هبة تبقى للصليبيين حينما يرسل ملك القدس «المسيحي جداً» فرجة ليحاربوا ويموتوا تحت إمرة وزير مسلم كبير؟ واهتم نور الدين بإضفاء الشرعية المسوغة لعمله ضد الفاطميين، وذلك بأخذه موافقة خليفة بغداد ومباركته.

الخليفة العباسي يؤيد سياسة نور الدين تجاه مصر

وكان على الرسول الذي بعثه إلى الخليفة أن يبرهن لأمر المؤمنين على أن شعب أرض الكنانة — وهو تحت حكم الفاطميين — ما زال سراً على مذهب السنة، وأنه يتطلع إلى العودة إلى أحضانها، وإذا ما تخلص من سلالة المرتدين هذه الذين انتهوا إلى التحالف مع أسوأ أعداء الإسلام، فسيكون له مجد الممثل الأوحد للإسلام غير المنازع. وإن اسمه سيتردد في الجوامع كافة، وإن العقيدة الإسلامية الحققة ستعاد سيرة تدريسها في مدارس مصر.

وأيد خليفة بغداد هذه الحجج الدامغة؛ ولا يخفى أنه كان منذ زمن بعيد يتطلع إلى استئصال شأفة هذه السلالة المنافسة التي كانت تهدد وحدة الإسلام المعنوية، وتنازعه بعناد لقب الإمام الأول؛ والممثل الوحيد لخلافة النبي، وهذا ما شجّع نور الدين لكي ينفذ إلى مصر ألفي فارس من السوريين، وستة آلاف تركي واعداء إياهم بنعيم المجاهدين، فسعدوا بأن يقاتلوا مجتمعين تحت راية سلطان دمشق.

الحملة الصليبية على مصر واستنجد الخليفة الفاطمي بنور الدين

وعبر ملك القدس صحراء سيناء وانتهى — في غرة تشرين الثاني ١١٦٨ — بفرسانه

الاستبائيين إلى أسوار بلبيس. وهناك سأل قائد الموقع أين يمكن أن يضرب خيام جيشه، ويظهر أن هذا الأخير أجابه محتداً: «خيم على رؤوس حرابنا». فأمر آموري بالهجوم، وبعد ثلاثة أيام سقطت بلبيس، فعمل السيف برؤوس أبنائها إبادة جماعية، ولم يحترم المنتصرون حتى المسيحيين من السكان. ولننقل هنا ما يقوله غيوم الصوري: «دخل جماعتنا المدينة ولم يوفروا حتى النساء ولا الأولاد ولا الشيوخ». ويقول أبو شامة: «وإن مثل هذه الأعمال غير الضرورية أثارت ثائرة المصريين واستنكارهم، ولو سلك الفرنجة سلوكاً إنسانياً نحو سكان بلبيس لتسنى لهم بيسر الاستيلاء على القاهرة»^(٤). كانت النتيجة السياسية لهذه المجزرة محزنة، فقد حمل الرجال السلاح للدفاع عن وطنهم، وطردها الحامية الفرنجية من القاهرة حيث كان الوزير الخائن للخليفة الفاطمي قد أدخلها.. وأحرق حاكم القاهرة ضاحية الفسطاط لحماية العاصمة التي شرع الفرنجة يستعدون لاجتياحها. وفي ٢٢ تشرين الثاني ١١٦٨ احترقت المدينة العسكرية القديمة واستمرت طعنة للنار أربعة وخمسين يوماً. واستطاع آموري أن يتمتع بهذا المشهد وسأله شمس الخلافة: «هل ترى اللهب الذي يرتفع نحو السماء؟ إنها الفسطاط تحترق. فقبل أن أجيء إلى هنا أمرت بإضرار عشرين ألف وعاء من النفط، وبإلقاء عشر آلاف شعلة في المدينة»^(٥). وبينما كان آموري ينتظر ابتعاد رماد المدينة ليتمكن من العبور كانت القاهرة تنظم دفاعها، وإضافة إلى ذلك، كان الخليفة الفاطمي العاضد — رغم ما أبرمه من تحالف مع ملك القدس — يساوره القلق فجأة من نوايا صديقه الذي تصرف تصرفاً همجياً بهدف حمايته. وهنا خرج من ذهوله، وكتب إلى نور الدين مرسلاً إليه شعور نساء حريمه، قائلاً له: «هذه شعور نسائي يستغثن بك لتنقذهن من الإفرنج»^(٦) ولم تكن لهجة الخليفة الإنشائية تتصف بما يجب من الحزم، ولكن سلطان دمشق أدرك أن الخطر داهم، وفيما كان الخليفة يطلب سراً التدخل السوري عمد كبير وزرائه الممعن في الخداع إلى السعي لكسب المزيد من الزمن وخاطب ملك القدس، ويده على قلبه قائلاً: «إنه يفضل أن تبقى مصر بيد الفرنجة على أن تكون بيد نور الدين، وأضاف في استحياء: إن الشعب تألم كثيراً لما حلّ بلبيس، ومن المشقة بمكان احتواء غضبه ومنعه من الاستنجاد بالسوريين». ورغم انزعاج الفرنجة، كان قميناً بهم أن يعقدوا معه اتفاقاً جديداً، ولأنه كان يعرف من يخاطب وعد آموري بكل ما في مصر من ذهب، كما عرف كيف يشتري موافقة بعض البارونات البارزين، وهكذا تمت الصفقة مع ملك القدس الطامع في المال أكثر من طمعه في

المجد. فتخلى عن مشروعه في إقامة حماية فرنجية في القاهرة، وراح يعسكر في نواحي بلبس مع فرسانه، بانتظار القوافل السرايية المحملة ذهباً؛ وخلال ذلك كان صلاح الدين وعمه شيركوه يصلان إلى مصر^(٧).

وخذع وزير خليفة القاهرة آموري، وفيما أخذ صبر هذا الأخير ينفد لعدم وصول القافلة الموعودة، شرع الوزير يتذرع بأنه محتاج إلى المزيد من الوقت لفرض ضرائب على المناطق الأكثر استعصاء، وكان يرسل إلى آموري تأكيدات الصداقة مع المرتطبات والهدايا الصغيرة قائلاً له: «اصبر أيها الملك النبيل، اترك الوقت لعبيدي ليستخرجوا الذهب من مناجم النوبة السفلى وليستخرجوا الزمرد من مناجم الصحراء بين كفت وأسوان».

وصول القوات السورية إلى مصر

وبينا كان ملك القدس الواصل الغني ينتظر القناطير المقنطرة من الذهب والحجارة الكريمة، لاهياً مع بارونات، علم أن الأسطول الذي سبق لإمبراطور بيزنطية أن وعد أن يمه به أنزل به الأسطول المصري ضربة قاصمة، وأن القاهرة تعجّ بالجيوش وقد دعمت حصونها، وأن جيشاً سورياً اجتاز حدود مصر. وعند ذاك أدرك آموري أن المسلمين خدعوه حين وعدوه بالقوافل، وأن هيئته وهيبة المسيحيين قد تأثرت تأثراً جدياً بهذه المغامرة، ولم يبق له بالتالي سوى مخرج واحد هو مغادرة مصر، لأنه ليس معقولاً أن يقاتل في آن واحد أترك نور الدين، وسوري صلاح الدين ومصري صديقه خليفة القاهرة. فغادر هذا الوادي الخصيب، وادي النيل الغني الذي طالما تاق إليه، وأخذ طريق القدس متفادياً مواجهة صلاح الدين. وكان من نذالته أن ألقى بمسؤولية هذه الهزيمة على الذين نصحوه بعدم القيام بهذه الحملة. وبكل الأحوال، فقد استبعد نهائياً أمل إقامة حماية فرنجية على مصر.

شيركوه وصلاح الدين في القاهرة

وفي كانون الثاني (يناير) ١١٦٩ استقبل شيركوه في القاهرة^(٧) كمُحرراً، فأقيمت الاحتفالات العامة. وأظهر الخليفة الفاطمي لمبعوثي سلطان دمشق كل مودة مع أنه كان سيحاربهم إلى جانب ملك القدس لو كانوا هم الأضعف. وغمر شيركوه بضروب التكريم،

وبالطبع انعكس هذا المجد الصاحب على ابن أخيه الذي صار أقل ندماً في أيام النصر هذه على متارف بلاط دمشق، وعلى دروسه الفقهية الغالية، ومع ذلك، وبعد العناقات المعتادة وخطب الصداقة التي تتجلى فيها العواطف أكثر من أي شيء آخر، كان شاور وزير الخليفة الأول مغتاضاً من نجاح الكردي لدى سيده ولدى الشعب معاً؛ وأدرك أن نجمه سيجنح للأفول أمام النجم الشاب الجديد الذي بدأ يسطع في مصر، خاصة وأن شريكه المخلص للمهمة التي كلفه إياها سرّاً نور الدين شرع يتصرف لمصالح السوريين، ويشترى معونة ضباط الخليفة ووجهاء القاهرة وأخذ يعتني بترسيخ شعبيته وشعبية ابن أخيه الملازم إياه على أيدي شعراء التكسب الذين كانوا يتجمعون على أبواب العظماء كجراد الصحراء.

صلاح الدين يعجل بنهاية الوزير الخائن

وأغضبت هذه الحفارات، وتلك المهرجانات، وهاتيك الروحات والجيفات عند الخليفة أغضبت كثيراً شاور البائس الذي كان يرى في ذلك زوال سلطته، حتى إنّه قرر التخلص من غريمه. وقد اختار الوسيلة الأنيقة التقليدية: المأدبة. وأشرك في سرّ نواياه الخبيثة هذه ابنه البكر الذي سبق للمسيحيين أن عفوا عنه في مجزرة بلبيس، ولكن الابن رفض أن يشترك في المؤامرة؛ ولشدة اشمئزازه من الانحدار في درك النذالة أسرع فأطلع صلاح الدين على مشروع أبيه. فقرر صلاح الدين أن يزيل نهائياً هذا الشخص المزعج، مدركاً أن شاور هذا لا يمكن أن يكون مالياً لأحد. فأوقف بنفسه الوزير، وكان ذلك أول عمل سلطويّ له. وما كاد نبأ هذا العمل الجيّد يشاع في القاهرة حتى عمّها ارتياح حقيقي، وتزاحم خصيان القصر على قطع رأس شاور وجروّه كما تجر الدمية في أسواق القاهرة. وتلك كانت نهاية هذا المأفون الذي سلّم بلاده ثلاث مرات لأعداء سيده وأعداء دينه بغية المحافظة على وزارته.

صلاح الدين يخلف عمه وزيراً أول لمصر

وعين الخليفة الفاطمي شريكه وزيراً أول لكنه لم يتمتع طويلاً بالتكريمات التي استحقها بوفائه، وبالخدمات التي أداها لنور الدين، لأنه مات بعد شهرين من هذا الحدث. وقام العاضد — بناءً على نصيحة خصيٍّ معتوق كان شريكه قد سمّاه أميراً — برفع

صلاح الدين إلى منصب الوزير الأول. صحيح أنه رفعه إلى هذا المركز ليس لأن صلاح الدين سيضطلع بهذا المنصب بصفات استثنائية بقدر ما كان يتمناه من حدوث خيبة أمل لدى الأمراء السوريين النافسين، حظَّ هذا الشاب المجهول ابن الاثنين والثلاثين عاماً. فكان العاضد بإسناده منصب الوزارة لصلاح الدين ينوي إثارة الخصومات، ووضع بعض السوريين في مواجهة بعضهم الآخر، ومن ثم طردهم. وفعلاً حصلت احتجاجات، لكنها مرت دونما عقابيل، لأن نور الدين اعترف فوراً بصلاح الدين قائداً أعلى وحيداً للقوات السورية في مصر إضافة إلى صفته وزيراً أكبر، موجهاً إليه تهانيه.

هكذا كان سيبدأ عصر مجيد للإسلام. فاعتباراً من هذا اليوم سيكون الملك الناصر صلاح الدين يوسف، صلاح الدين العظيم. فالقوة التي واثته إياها ظروف ملائمة وجدت فيه رجل دولة مؤهلاً بصورة خاصة للنهوض بمثل هذا العبء المنيع وإيصاله إلى نهايته الحميدة.

صلاح الدين سيد مصر المطلق

ورغم كونه لم يظهر البتة حتى الآن ميلاً لمهنة السلاح، ولدرجة اضطر معها عمه إلى التدخل الحازم كي يقبل بمرافقته إلى مصر، وربما كان يفضل المناقشات الفقهية الهادئة على مشهد ساحات القتال، وركض الفرسان المحاربين، فقد تكشف رغم كل ذلك عن رجل عمل، وقائد مهيب، ومدبر ممتاز. فوهب ذاته للقضية بدأب ومثابرة. وقد تجلت له واضحة الطريق التي عليه أن يسلكها: إعادة العقيدة السنية إلى الربوع المصرية ورد الجميع إلى جادة القانون وإطاعته إطاعة دقيقة، ومحاربة الصليبيين دونما هوادة، وبالتالي تحقيق سلطته وسلطة عشيرته وممارسة سياسة إعادة بناء فخمة. ويفضله سيعهد الإسلام عصر ازدهار جديد يعيد إلى الذاكرة أزهى أيام العباسيين أو الأمويين الذين حملوا من بغداد أو من دمشق إلى الشرق حضارة مذهلة.

وإذا كان صلاح الدين قد استطاع أداء ما عليه فيجب ألا يعزب عن البال أن نور الدين قد سهّل له مهمته، كما أفاد من انخراط الخلافة الفاطمية، وكذلك من انقسامات الصليبيين، كما عرف كيف يوجّه ضرباته في اللحظة المناسبة، ويفيد من أخطاء خصومه مستوحياً كل سياسته من هذا شعار: العمل. سيعمل بلا توقف ولا قسوة.

ولانسى أن الخليفة العاضد عندما رفع صلاح الدين إلى سدة الوزارة كان يأمل ألا يبقى الشاب السوري طويلاً في القاهرة. فالمصريون حالما هدأت حرارة حماساتهم الأولى، انقلبوا يتوجسون خوفاً من سيطرة هذا الغريب الصارم الذي كان يزعم أنه سيحكم حكماً سلطوياً، وسيسحق الفتن، ويثور الجهاز الإداري، ويجعل السيادة للقانون في تلك الديار التي حالت منذ زمن طويل فردوساً للمغامرين بمختلف ضروبهم، وقد فوجئوا مأخوذِينَ دهشة أنه يوم غداً وزيراً ودون أي احتفال ابتهاج حتى مع خلصائه نشر مرسوماً يقضي بتطهير جميع الإدارات، مما يعني القضاء على المؤامرات البيروقراطية البالغة التمكن والاستشراء، وقد أنحى المستأثرون المطرودون من مناصبهم باللائمة على صلاح الدين لرغبته في تقليص نفوذ الخلافة الفاطمية؛ وتطلعه إلى الدكتاتورية. وفي حكم المؤكد تقريباً، أن الوزير الجديد لم يكن يثق في العاضد، متوقفاً بروز العقبات دونه، ولذا قرر بتصميم على الإمساك صراحةً بالدفة، وأن يعمل لحساب نفسه. فمصر كانت مغرية في نظر هذا الوزير ذي الاثنين والثلاثين سنة. وبما أن قبضته الحازمة ما كان لها أن تحظى برضا رجال البلاط الذي أخضعه لرقابته الصارمة ذر قرن الفتنة بعد عدد من التوقيفات المثيرة، وثار الحرس الأسود من النوبيين والأحباش بقيادة خصي يدعى المتنعم، كان يفرض القانون في القصر وفي أسواق القاهرة القديمة.

وبتشجيع سري دونما ريب، من سيد القصر المتقلب حرض المتنعم الفرنجة لأن يكونوا على أهبة الاستعداد لغزو مصر حالما يبلغهم نبأ ثورة الحرس الأسود الذي يدعمه كبار الموظفين في الإدارة المركزية، وكان على النوبيين — حسب الخطة — أن يبيدوا حامية القاهرة السورية، ويغتالوا الوزير الجديد، ولكن البريد الذي وجهه إلى القدس أوقف وشدد عليه بالتحقيق حتى اكتشفت الخيانة. ودحرج رأس المتنعم، وحينما ذاع النبأ بادر خمسون ألف مصري إلى محاصرة قصر الوزارة، شمالي القاهرة رافعين عقيرتهم بشتم صلاح الدين، ولكن هذا الأخير لم يكن عابثاً بتهديد وعيدهم، فأمر بالخال قواته السوريّة بالهجوم، وبلا رحمة من الجانبين استعر القتال من شارع إلى شارع، واستمرت المجزرة ثمانين وأربعين ساعة. وقد ترك لنا المؤرخ العربي ابن الأثير حكاية هذه الأيام المأساوية. فكل حي لجأ إليه الناثرون أحرق، وكان النسوة والأطفال يُشَوون بين الجثث التي كانت تتراكم وأحرق أيضاً قلاع القوات الأرمنية

دافنة تحتها البؤساء الذين لم يشتركوا في هذه الفتنة . وأخيراً أعيد النظام ، ولكن إشارة الانذار بالخطر كانت مقلقة^(٨) .

وحينما قدم صلاح الدين تقريره إلى الخليفة الفاطمي أدرك هذا ، بعد أن بهت دهشة ، أن وزيره لم يكن ينوي أن يذّله وإنما هو مصمم على الإقامة المتمكنة في القاهرة ، وعدم ترك الحكم لأحد غيره ، وكان الخليفة غاية في السعادة لأن أحداً لم يشر إليه بإصبع الاتهام في هذه القضية ، ولكنه — كما قيل — هو الذي قدّم الخنجر لمن كان عليه أن يغتال صلاح الدين إذا نجحت المؤامرة ، وأسند لوزيره السلطات كاملة ولم يعد يجزئ على الإتيان بأية حركة .

حواشي الفصل الرابع

١ — أغلب الظن أن هذا الشعر هو لجلال الدين الرومي، كما أخبرنا الأستاذ الزميل عبد القادر عنداني الضليع بالتراث الصوفي، ولكن لم نعثر على النص الأصلي.

٢ — ظهور نجم صلاح الدين حين أشركه عمه شيركوه بحملته على مصر:

جاء في رواية القاضي ابن شداد، أن صلاح الدين قال له: «كنت أكره الناس للخروج في هذه الواقعة، وما خرجت مع عمي باختياري، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾» (ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٣١، أبو شامة: كتاب الروضتين ج ١ ص ١٥٥).

٣ — أبو شامة المقدسي، عبد الرحمن بن اسماعيل:

(١٢٠٣ — ١٢٦٨). لغوي، ومحدث، ومؤرخ. ولد ومات بدمشق، ودرس اللغة والفقه بها وبالإسكندرية. ولي مشيخة دار الحديث للأشرفية بدمشق، وأدى لسانه اللاذع إلى أن دخل عليه اثنان يتظاهران باستفتائه، فضرباه، فمرض ومات، أو قتله جمهور غاضب لاثامه بإحدى الجرائم. ألف عدة كتب، مثل: «الروضتين في أخبار الدولتين»، ترجم فيه لصلاح الدين ونور الدين، و«ذيل الروضتين»، و«مختصر تاريخ دمشق»، و«المتع المقتضب في سيرة خير العجم والعرب»، في التاريخ، و«المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز»، و«البسمة»، و«أبرز المعاني في شرح حرز الأماني» في علوم القرآن، و«شرح البردة»، و«المقاصد السنية في شرح القصائد النبوية» في اللغة. (الموسوعة الميسرة ص ٣٥).

٤ — حصار الفرنجة بلبليس وأعمالهم السيف بأهلها: (راجع الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١٥٠ — ١٥١، أبو شامة: كتاب الروضتين ج ١ ص ١٥٤).

٥ — إحراق الفسطاط: (راجع الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١٥٤، أبو شامة: كتاب الروضتين ج ١ ص ١٥٤).

٦ — استغاثة الخليفة الفاطمي بنور الدين: (راجع الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١٥١، أبو شامة: كتاب الروضتين ج ١ ص ١٥٤).

٧ — لقد أجمعت المصادر العربية على أن صلاح الدين رافق عمه شيركوه إلى مصر ثلاث مرات — كل ذلك بأمر نور الدين.

الأولى: بطلب من الوزير الفاطمي شاور السعدي الذي زعم لنور الدين السير إلى مصر، لإعادته إلى كرسي الوزارة، الذي يعني سدة الحكم فعلياً، على أن يكون لنور الدين ثلث واردات وادي النيل،... وكان ذلك... ولكن ما إن استعاد شاور سلطانه حتى غدر بشيركوه واستنجد عليه بالفرنجية فأئجده.. مما أجبر القوات السورية على الانسحاب من مصر..

والثانية: كانت انتقاماً من شاور الناكث بعهد، والمتحالف مع الفرنجية أعداء العروبة والإسلام..

والثالثة: بطلب من الخليفة الفاطمي الذي استنجد بنور الدين، فأنفذ إليه شيركوه وبرفقته صلاح الدين على رأس القوات السورية التي حطمت الحلف الصليبي المصري فكان أن قتل الخائن شاور، وغدا أسد الدين شيركوه وزير مصر بأمر الخليفة الفاطمي العاضد.. (راجع ابن الأثير: الباهر ص ١١٩ — ١٤٠).

٨ — صلاح الدين يخلف عمه وزيراً أول لمصر:

جاء في كتاب الباهر لابن الأثير عن ذكر وفاة: أسد الدين شيركوه وملك صلاح الدين يوسف بن أيوب: ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾ لما ثبت قدم أسد الدين شيركوه وخلا وجهه بمن يخافه، وصفت له دنياه، وارتفع شأنه، وخافه القاصي والداني لاسيما الفرنج، أتاه أمر الله الذي لا يحيد عنه ولا مفر منه ولا يحمي عليه، ملك بكثرة رجال ولا يمنع عنه المعامل والمال، فمرض وتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام.

ولما توفي كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه نجم الدين أيوب بن شاذي، قد سار معه على كره منه. حكى لي عنه أنه قال: «لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستنجدين، أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عمك أسد الدين بمحمص مع رسولي إليه، يأمره بالحبس وتحت أنث على الإسراع فما يحتمل الأمر التأخير. قال: ففعلت، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادماً في هذا المعنى، فقال له نور الدين: تجهز للمسير، فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً وعدم ما ينفعه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر، فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ولا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره قال: فالتفت إليّ عمي أسد الدين، وقال تجهز يا يوسف. قال: فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبداً، فقال عمي لنور الدين: لا بد من مسيره معي فترسم له، فأمرني نور الدين وأنا أستقيله، فانقضى المجلس. ثم جمع أسد الدين العساكر من التركان وغيرهم ولم يبق غير المسير، فقال لي نور الدين: لا بد من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه الضائقة وقلة الدواب

وما أحتاج إليه ، فأعطاني ما تجهزت به فكأنما أساق إلى الموت ، وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته ، فسرت معه ، فلما استقر أمره وتوفي ، أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه .

وأما كيفية ولايته ، فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر ، طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة ، منهم : الأمير عين الدولة الباروقي ، وقطب الدين خسرو بن تليل — وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل — ومنهم : سيف الدين علي بن أحمد الهكاري — وجده كان صاحب قلاع الهكارية — ، ومنهم : شهاب الدين محمود الحارمي — وهو خال صلاح الدين — ، وكل من هؤلاء يخطبها وقد جمع ليغالب عليها ، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب مصر إلى صلاح الدين وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليّه الأمر بعد عمه ، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين ، فإنه ظن أنه إذا ولي صلاح الدين — وليس له عسكر ولا رجال — كان في ولايته مستضعفاً يحكم عليه ، ولا يحسر على الخالفة ، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه ، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه وعنده من العساكر الشامية من يحمها من الفرنج ونور الدين « أردت عمراً وأراد الله خراجة » فامتنع صلاح الدين ووضعت نفسه عن هذا المقام فألزمه به وأخذ كارهياً ، « إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل » ، فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة ، الجبة والعمامة وغيرهما ، ولقب الملك الناصر ، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها ، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه . وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه ، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه ، وقال له : إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل ، فمال إلى صلاح الدين . ثم قصد شهاب الدين الحارمي ، وقال له : إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك ، وقد استقام الأمر له ، فلا تكن أول من يسعى في إخراجة عنه ولا يصل إليك ، ولم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلفه له . ثم عدل إلى قطب الدين ، وقال له : إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ، ولم يبق غيرك وغير الباروقي وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد ، فلا تخرج الأمر عنه إلى الأتراك ، ووعده وزاد في إقطاعه فأطاع صلاح الدين أيضاً . وعدل إلى عين الدولة الباروقي — وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً فلم تنفعه رفاه ولا نفذ فيه سحره ، وقال : أنا لا أخدم يوسف أبداً ، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره فأنكر عليهم فراقه ، وقد فات الأمر ليقضي الله أمراً كان مفعولاً . وثبت قدم صلاح الدين ، ورسخ ملكه ، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين ، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ، ولا يتصرفون إلا عن أمره . وكان نور الدين يكتب صلاح الدين بالأمير الأسفهلار (أي مقدم العسكر) ، ويكتب علامته في الكتب تعظماً أن يكتب اسمه ، وكان لا يفرده في كتاب ، بل يكتب الأمير الأسفهلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا . واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئاً يخرج به فلم يكن يمكنه منعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد ، فكان كالباحث عن حشفه بظلفه . (ابن الأثير : الباهر ١٤١ — ١٤٣) .

الفصل الخامس

صلاح الدين يجل في القاهرة محل الفاطميين ويؤسس السلالة الأيوبية

مصر صلاح الدين بؤرة الإسلام المناضل

أقضى مضجع الصليبيين أن يروا قبضة صلاح الدين تحكم السيطرة على مصر المشتهاة، وكان على الممالك اللاتينية في المشرق التي تهددها حلب من الشمال ودمشق من الشرق أن تأخذ من الآن فصاعداً جانب الحذر من الجنوب حيث غدت مملكة القدس تهددها مصر التي أصبحت ثانية — تحت حكم صلاح الدين — بؤرة الإسلام المناضل، خاصة وقد أحبطت منساعي آموري في محاولاته المخففة لاحتواء وادي النيل الخصيب سواء أبالخدعة أم بالسيف، وتبدى له جدياً أن عليه — ما استطاع من سرعة — أن يحمي بطريكية القدس وممتلكات أساقفتها الواسعة؛ ولذا سارع إلى إنفاذ الرسل إلى كل من فرنسا وإنكلترا وألمانيا وبيزنطية وروما لاطلاع زعماء المسيحية على مجريات الأحداث، ولطالبتهم بإثارة حملة صليبية جديدة، وقطعاً لم تكن الظروف مؤاتية في أوروبا: فالبابا الكسندر الثالث كان على خلاف مع فريدرىك باربروس، وتحقق بملك إنكلترا المصاعب والمتاعب للحفاظ على عرشه المهترع بعنف أمام خصمه اللدود كبير أساقفة كنتربري، وبدوره لم يكن ملك فرنسا — لويس السابع — مستعداً للقيام بتجربة جديدة بعد فشله أمام أسوار دمشق، ولم يتحرك سوى الروم

الذين قدموا لآموري أسطولاً قوامه مائتان وعشرون مركباً، وحين تلقى ملك القدس هذه العمارة العظيمة قرر أن يعمل شيئاً، فبادر إلى محاصرة دمياط مفتاح وادي النيل.

صلاح الدين يدحر في دمياط حلف بيزنطة ومملكة القدس^(١)

لم يتمكن الأسطول البيزنطي من اقتحام مدخل المرفأ، وظلت المدينة مستعصية صامدة لحصار خمسين يوماً، لأن صلاح الدين أعد للذود عنها أفضل قواته الكردية، ولم يكتف المحاصرون بدحر الفرنجة بل لم يدعوا لهم أي متنفس للراحة منهكين إياهم، محرقين آليات الحصار الضخمة التي جلبها الروم، وقسماً من الأسطول البيزنطي الذي مازال عاجزاً عن اقتحام مدخل الميناء. واستمرت المعركة دائرة أكثر مما قدر ملك القدس، وبدأت المؤن تنفذ مما اضطر المهاجمين أن يكتفوا بزخوات النخيل وبثمار الكستناء ليتغذوا، وليس هذا فحسب بل تسببت الأمطار الغزيرة بفيضان النيل، وأحالت معسكر الفرنجة إلى مستنقع لا يمكن المكوث فيه.

أما المسلمون الصامدون وراء تحصيناتهم، والذين لم يكن ينقصهم شيء لأن صلاح الدين عمل بفسحة كافية من الزمن لتكديس القمح لهم، ولأنهم أفادوا من العون الإلهي: هاتل الأمطار، وعاصف الرياح، ومتفشي الحميات، فأوقعوا بالفرنجة خسائر فادحة، فخارت عزائم هؤلاء، وعرضوا على المسلمين الصلح، ودفَعوا غرامة كبيرة، ورحلوا كرة أخرى عن الأرض المصرية؛ وخرج صلاح الدين من هذه المغامرة أعظم مما كان عليه، إذ تمثل فيه روح صمود دمياط؛ وأُنقذ مصر نهائياً رغم وجود عدو داخلي مالبث يترقب فشله، متربصاً به ليجهز عليه.

في ١٣ كانون الأول ١١٦٩، انكفأ ملك القدس عائداً إلى فلسطين مع فرسانه المتضورين جوعاً، متعزياً بعض الشيء إذ علم أنه خلال حصار دمياط السوء الطالع فاجأ الصليبيون المسلمين بحصن عكار في نواحي حمص وأُسروا حاكم الموقع وأثنى عشر من المماليك. أما ما تبقى من الأسطول البيزنطي فأُقلع بدوره وتوارى عن الأنظار تحت غامر الموج رجالاً وأموالاً خلال تلك الهزة الأرضية الشهيرة التي ضربت الساحل السوري مدمرة قرى لا تحصى ومدناً كبيرة، مثل انطاكية وطرابلس التي وجد فيها رجل واحد حياً، وحلب

وحماة وبعلبك حيث انهارت الأعمدة المرمية لهيكل جوبتر معبد الشمس العملاق ، محدثة
فرقة رؤيوية .

صلاح الدين ينتقل من الدفاع إلى الهجوم

وبعد رحيل الصليبيين أراد صلاح الدين أن يفوت عليهم فرصة معاودة تسللهم إلى
مصر ، فتوجه — منتقلاً من الدفاع إلى الهجوم — نحو داروم ، وهي قلعة أقامها آموري على
أنقاض دير لحماية حدود شرقي الأردن من جهة مصر ، ولكن الحامية الصغيرة صمدت
لجميع الهجمات ، فارتحل عنها مهاجماً غزة الواقعة على تخوم الصحراء حيث سبق لامرأة
مسلمة أن قاتلت قتالاً ضارياً أعداء زوجها ، ولما نزل متسرلة زينة عرسها ، وقتلت سبعة رجال
بعمود الخيمة . ودهش السكان من وصول صلاح الدين المفاجيء ، فأرادوا اللجوء إلى
القلعة ، ولكن حاكم الموقع ميلون دي بلانسي أغلق دونهم أبواب الحصن ليكرههم على الدفاع
عن أبواب المدينة . وحمل المسيحيون السلاح مستميتين في الذود عن أنفسهم ونسائهم
وأولادهم ، ولكن شجاعتهم ذهبت بدهاء ، فدخل صلاح الدين بذاته المدينة على رأس قوة
جريئة ؛ وتضرع السكان المتعرضين للضرب من جميع الجهات ، إلى حماة الحصن لكي يدعوا
النساء والأطفال يدخلون القلعة ؛ ولكن الأبواب ظلت مغلقة بإصرار في وجه هؤلاء البؤساء
الذين تناوشتهم سيوف المسلمين ، ونهبت المدينة وأحرقت ، ولأن القلعة صمدت لجميع
الهجمات انقلب صلاح الدين ثانية نحو الداروم حيث وافته الفرصة لإبادة جيش ذي أهمية
من الفرنجة سبق للملك القدس أن أنفذه على جناح السرعة لإنجاد ميلون دي بلانسي ، ثم أرسل
طليلة بانجاه الرملة وعسقلان قبل أن يعودوا إلى مصر ؛ واستولى قسم من الجيش السوري على
مدينة ايلياء (ايلات الكتب العبرية) الواقعة على البحر الأحمر عند نهاية الطريق التي بناها
أحد قواد تراجان ، والتي ازدهرت أيام داود ، ثم ضمت إلى الولاية العربية ١١١٦ هـ . كان امتلاك
هذه المدينة التي سبق أن وقعت عام ١١١٦ في قبضة مثنين من الفرسان من شأنه أن يتيح
لفرنجة عبر الأردن أن يفرضوا رسوم مكوس لها شأنها على جموع الحجاج المسلمين المتجهين
إلى مكة ، وعلى قوافل التجار المتنقلة بين مصر وسورية والمتاجرين بمنتجات الشرق الأقصى
والهند وفارس . فضلاً عن كون الفرنجة يمتلكون بهذا قاعدة ممتازة ، ويأملون أن يمدوا عبرها

سلطتهم على البحر الأحمر، وحصر نقل البضائع لصالحهم، وقطع الاتصال بين مصر والجزيرة العربية... وفي الواقع لم يكن أخذ هذا الميناء عملية سهلة.

وقد اضطر صلاح الدين إلى بناء سفن نقلت أجزائها على ظهور الجمال عبر الصحراء حتى شواطئ البحر الأحمر حيث تم تجميعها.

إنهاء الخلافة الفاطمية في مصر

وعندما عاد صلاح الدين إلى القاهرة علم أن نور الدين يسعى لإلغاء لقب الخليفة الفاطمي المهيمن على مصر من صلاة الجمعة، ليحل محله اسم خليفة بغداد العباسي. وكان يمكن لهذا الإصلاح الاستثنائي الذي يجرد تجريداً عنيفاً سيد مصر من سلطته كخليفة للنبي أن يصدّم قناعات مصر الدينية، حيث كان الفاطميون سلالة فاطمة بنت الرسول يهتمون العباسيين المنتسبين إلى عم النبي باغتصابهم السلطة الدينية العليا. لقد فهم صلاح الدين مشقّة أن تغير بين ليلة وضحاها عقيدة بلد وفيّ لتقاليده، ولذا أجاب نور الدين بأن من الأهمية بمكان إعداد النفوس وتبئيتها لتقبل مثل هذا التغير الأساسي؛ ولكن خليفة بغداد بدا أقل تفهماً؛ وأنه ينتظر بفارغ الصبر أن يوسع سلطته الروحية من جهة، وليصفيّ لصالحه نزاعاً عائلياً قديماً، من جهة ثانية، ولذا أظهر شيئاً من عدم الثقة بصلاح الدين وأطلع نور الدين على ذلك؛ مضيفاً أن سلطة مبعوثه في مصر يجب أن تؤيد تأييداً كافياً لخلق أية حركة مناوئة، وأن صلاح الدين بدا حتى الآن جندياً باسلاً ومدبراً ذا شأن، ولم يقصر في وضع قواته في النقاط الحساسة، وتعيين الرجال الموثوق بهم في الإدارة، مما يعني بوضوح رغبته في أن يذكر اسمه فوراً في صلاة الجمعة. وإزاء هذا الضغط من الخليفة أمر نور الدين صلاح الدين، بعبارات لا لبس فيها هذه المرة، بأن يذكر بصلاة الجمعة — في القاهرة والأرياف — اسم خليفة بغداد. وقد ظهر صلاح الدين في هذه المناسبة بالغ اللباقة؛ فلم يتسرع بل أعدّ بهدوء النفوس شيئاً فشيئاً، فأمر بتعليم عقيدة العباسيين السنيّة في المعاهد والمدارس، وعين القضاة في المدن المصرية الكبرى، وهكذا ودون أية ضجة — وقد حدثت كل هذه الدعاوة لصالح العباسيين — قام صلاح الدين بثورة حقيقية، فارضاً على رعاياه السيطرة الروحية لخلافة بغداد؛ وفي إحدى الجُمُوع حلّ اسم العباسي محلّ الفاطمي في جامع

القاهرة الكبير، ولم تضطر القوات السورية التي وضعها يومذاك على مفارق الطرق وفي الأسواق إلى التدخل، وشاهدت - وهي واضحة سلاحها عند إقدامها - جماهير المصلّين الموجهة توجيهاً جيداً والقابلة باحترام ودون أي احتجاج بما جرى، وأنه لا يأتي من الله إلا الخير، وتقبل الناس الأمر الواقع. فأقيمت في بغداد مهرجانات فخمة احتفاءً بهذا الحدث. وسُمي نور الدين سلطاناً، واستقبل صلاح الدين الرايات السوداء رمز الوحدة وشعار العباسيين وقد كتب عليها «إن الراية السوداء ستعيد الإنسان إلى الصراط المستقيم»، كما تقبل لقب معيد سلطة أمير المؤمنين.

وفيما كان المسلمون الصالحون يتهجون بهذا النصر المبين للعباسيين، كان آخر خلفاء الفاطميين في القاهرة العاضد لدين الله، حفيد الحافظ يسلم الروح وسط حريمه في الوقت المناسب. ترى هل قتل كما يزعم المؤرخون المسيحيون بيد أخي صلاح الدين وبأمر منه، ولم يكن سوى آلة فاقدة الإرادة بيد وزرائه؛ لقد مات كما عاش دونما بريق وبلا ضجة، وكان الخليفة الرابع عشر والأخير من سلالة عرفت في مصر ساعاتٍ مجيدة.

صلاح الدين مؤسس السلالة الأيوبية الحاكمة

واعتلى صلاح الدين عرش مصر وهو ابن خمس وثلاثين سنة مؤسساً بذلك سلالة الأيوبيين، وكان دم جديد، دم كردي يبعث الإسلام. كان صلاح الدين وهو يدخل التاريخ سيرهن على أنه جدير بالاضطلاع بدور بارز على الحلبة العالمية، وفي المشرق ستواجه الممالك اللاتينية من الآن فصاعداً سياسياً بارعاً مهيباً، وليس واحداً من أولئك الملوك الشرقيين التفهين العاجزين عن إدارة الشؤون التاريخية المسندة إليهم. وانتهت الخلافة الفاطمية التي نشأت أولاً في إفريقية الشمالية. وكان العباسيون الخاضعون للمؤثرات الآسيوية ينتصرون في القاهرة، كما سبق لهم أن انتصروا على الأمويين المتعاليين الذين راعى ملوكهم من مركز سلطانهم من دمشق عريق تقاليد العروبة ومثلها.

وأما مصر التي ضلّت حيناً من الدهر فقد استعادت إيمانها المتفق والسنة النبوية، وحين أصبحت تحت سلطة صلاح الدين الذي اعترفت به بغداد كفتّ عن اتباع حياة خاصة؛ متخلصة من بدعها، لتصبح ابنة الإسلام البكر، بعد أن كانت حتى عهد ذاك

منعزلة . ويقدر ما كانت الخلافة الشرعية تضعف ، وتتراخي عملياً في مصر وشائج المحافظة على علاقات التابع ببغداد ، بيد أنها عادت مع صلاح الدين حجراً رئيسياً على رقعة شطرنج الإسلام السياسي الذي كان يرى في المسألة الدينية روح العالم الإسلامي وعقله . إن هذه الممارسة لمثل أعلى ناهيك بشرعية الأسرة المقررة إلى النبي كانت تسوغ مزاعم العباسيين . لكل ذلك — وهذا ما جرى في مصر على يد صلاح الدين — كان الفقهاء دارسو السنة والمطبقون مناهج علمية لإظهار روح القانون الإلهي يتيحون للإسلام أن يشهد عهد تنور في هذه البلاد . ولما كان هذا الدين ليس مجرد قواعد حياة روحية فحسب ، وإنما هو كذلك اجتهد قضائي ترتب عليه أن يلبي متطلبات القواعد الفقهية الموكول أمرها إلى الخلفاء العباسيين ، وتطلب الأمر كذلك أن يفسر هذا القانون الديني (الشرع) بدقة متناهية مما يعني فيما يعنيه — كما سنرى — أن يبرز إلى جانب صلاح الدين — الوفي للتعالم التي تلقاها في بعلبك — جمع غفير من القضاة والمشرعين .

حواشي الفصل الخامس

ذكر حصر الإفرنج مدينة دمياط في سنة خمس وستين

« في سنة خمس وستين وخمسمائة، في أوائل صفر، نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية، فكان إفرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية وغيرها يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يعرضون الناس على الحركة، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح، واستعدوا للنزول على دمياط ظناً منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديار مصر ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾. فلما نازلوها حصروها وضيقوا على من بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل، وحشر فيها كل من عنده وأمدوهم بالمال والسلاح والذخائر، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الإفرنج، وإن سار إليها، خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسالاً، كلما تجهزت طائفة سيرها، فسارت إليه العساكر يتلو بعضها بعضاً.

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر، فدخل بلاد الفرنج فنهبا وأغار عليها واستباحها ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد من مانع، فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وإخربائها، رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء، وهذا موضع المثل: «ذهبت النعمة تطلب قرنين فعدت بلا أذنين». فوصلوا إلى بلادهم فأروها خاوية على عروشها. وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً، أخرج فيها صلاح الدين أموالاً لا تحصى، حكى لي عنه أنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إليّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصري، سوى الثياب وغيرها». (ابن الأثير - الباهر ص ١٤٣ - ١٤٤).



الفصل السادس

القاهرة

إصلاح نظام الحكم في مصر

بعد تلك السلسلة الطويلة من الاضطرابات والحن التي رافقت أفول نجم السلالة الفاطمية، وبعد تناوبات المجاعة والازدهار في أعقاب تسلط البيروقراطية، وبعد سني الضياع والاستياء وثورات الضباط والمحظيين وأخبار الحریم، وبعد ديكتاتورية الخصية، أصلح حكم صلاح الدين الخیر الفوضى: فوضی الإدارة الخلافية القديمة، وهدأ النفوس، وطمان طبقة الملاك، وشجع التجارة، ولم يتردد في اتخاذ أحزم الإجراءات بهدف سلامة العاصمة، وشجع تأسيس المدارس العديدة، وعرفت مصر، بفضل سلطة سيدها الجديد الآثار السعيدة لهضة سياسة وازدهار اقتصادي ظلا مشهورين في تاريخها.

ففي مدينة القاهرة القديمة، قرب هليو بوليس حيث يقوم أبو الهول: طائر بلاد النخيل الذي يعيد كل خمسمائة سنة رماده إلى مدينة الشمس المجيدة رامزاً بذلك إلى الآمال المعزية التي كانت تتيح للناس أن يؤمنوا بأن ما يموت ويدبل وينطفئ يلاقي حياة ازدهار وتوهج جديدين.. مدينة الجوامع التي لا تحصى المطلقة مئات المآذن نحو السماء، أعجوبة البلاط

الحياة المزدادة جمالاً كل قرن بفضل اهتمامات خلفائها الأسطوريين ، كان المسافر يستطيع في القرن الثاني عشر للميلاد، أن يتذكر بيسر عظمة وحيوية هذه الحضارة الإسلامية الفتية المتفتحة على أرض الفراغة القدماء قيدَ خطوتين من هذا الهرم الأكبر الذي قد يحتفظ في قلب بنائه المذهل منذ خمسة آلاف سنة بسرّ الأزمنة الآتية، وبرسالة القرون المنصرمة .

القاهرة... هذا الاسم المهيّب الذي ما يزال حتى الآن ينبئنا بملاذ الشرق وسحره وجماله . هذا الاسم الذي يجنح وقعه جميل ذكرياتنا، هذه المدينة المقدسة — التي شأنها شأن دمشق الصامتة البيضاء الكبرى — والتي كانت تعبر أمس كما تعبر على الدوام بشعر قصورها وترف أسواقها عن مجد الإسلام وسيفه . والحياة البطيئة لسكانها القادمين إليها من كل حذب وصوب ، بنقش مضاء إضاءة فخمة . فجارة ممفيس ، هذه المدينة الملكية حقاً، والمشهورة موضع احترام جميع المسلمين في سائر أنحاء العالم . كان شعراؤها بلغتهم الغنائية المميزة، المسارعون إلى إبداء حماساتهم المتركزة التي تجعلنا نضحك ونحلم في آن واحد، قد تغنوا كما يليق بهم أن يفعلوا بشائعات مدينة الخلفاء وأضوائها، وبعذوبة لياها المتفردة، ومياه النيل، وبفسيقياتها، حيث كانت الدبابير البناء تشيد بوقاحة أعشاشها في تجويفات هيروغليفياتها المقدسة . فكل إنسان في الشرق شاعر بمقدار ما . حتى إن إسكافياً من الموصل تجرباً فرغم لكي يبدد كآبات خليفة عبوس أن بغداد هي مدينة السرور الوحيدة : فردّ عليه شاعر آخر، تائه ونبيّل بأن من لم ير مصرَ أعشى ، لأنّ تربتها من تبر ، وأن منظر نساء هذا الفردوس ينعش نظر المؤمن كالماء العذب . وأن نيلها كالأنهار الجارية في جنة الخلد . وفي إحدى حكايات ألف ليلة وليلة تصف شهرزاد المضطربة المدينة البعيدة بهذه العبارات : « أين سعادة الافتتان بالأشكال الكاملة لجسد الحبيبة من سعادة التمتع بمشاهد القاهرة (مصر) ! ومن شاهد هذه المدينة الشهيرة بين المدن فلن يقدر على نسيانها، وإذا فكرنا بليلة وفاء النيل الذي يغطي الأرض بطميه المخصب أعدنا الكأس إلى الساقى غير مفكرين إلا بهذه المدينة العجيبة الفريدة » . وتضيف شهرزاد، فيما هي ذاهبة بوصفها : « يا أمير المؤمنين الحكيم لو كنت في القاهرة قرب النيل حين تغمر الشمس الغاربة المدينة بغلالاتها النورانية لاحتقرت عرشك وعبيدك، ونسيت بغداد ولعشت على ضفة النهر المقدس » ... هكذا تكلمت شهرزاد واصفة القاهرة : بابل مصر القديمة التي عسكرت فيها الكتاب الرومانية قروناً عديدة، ساهرة على

ضفاف النيل؛ حيث كانت تتدفق المراكب النوبية حاملة ثروات السودان. وكان السامعون يرون مسحورين مسجد عمرو تاج المساجد، وأحد أقدم الجوامع في الإسلام المقام على أنقاض كنيسة قبطية إبان الفتح العربي، والذي أعاد صلاح الدين بناءه عام ١١٧٢ بسوره المنقوش بألوان براقّة مذهبة، ومصحفه الألف والمائتين والتسعين المزيّنة، وبالثمانية عشر ألفاً من المصاييح المنارة عند اقتراب الليل، بحيث يظل هذا المسجد أحد أجمل أبنية الفن العربي، حتى إن جميع المؤمنين بإله واحد، من مختلف أصقاع المعمورة وسائر الأديان كانوا يستطيعون التجمع والصلاة الجامعة فيه أيام البؤس والحصول بتقواهم على فيضان النيل الضروري.

أيّ مشهد مذهش كان يمكن رؤيته، مشهد المسلمين وراء علمائهم والمسيحيين من كل مذهب، واليهود مع قرائهم وربابنتهم مجتمعين اجتماع أخوة في الساحة الكبرى لمسجد عمرو قبل أن يتوجهوا لأداء الصلاة معاً بعد الوضوء، أمام الكائن الأعلى في المعبد ذي الثلاثمائة وستين عموداً من الرخام التي حملت من معابد وكنائس مندثرة، والمتوجة بتيجان يختلط فيها الفن الكورنثي النبائي والاستدارة اليونانية، والتاج البيزنطي المكعب، وتاج عهد البطالسة. وفي الأسفل حيث يحل الضوء الخفيف محل النور الباهر في الخارج نجد الحراب المزين بالفسيفساء وبالترصيعات الدقيقة المعقدة من الحجارة الكريمة. وهذا الحراب الذي ينتجه نحو مكة المدينة الكبرى المقدسة البراقة كحلية في رمال العربية السعيدة. أيها الجوامع، ينابيع البناء، رموز الارتفاعات الروحية، انطلاقات الحجر المنبثقة من هذا المقدار من التقوى، ومن هذا القدر من الصبر، أنت الأماكن الخالدة حيث تمتزج في شاعرية صوفية حارة، هذه المواكب للجنود المجنّدة من الأرواح الوافدة من جميع الأزمنة حاملة الرسائل الإلهية.

أما جامع ابن طولون فمبني قرب التل حيث — كما تذهب إحدى الروايات — أرسل الله إلى إبراهيم الكباش ليفتدي به اسحق حينما هم بذبحه. وقد أسّسه عالم لم يكن يفوّت يوم جمعة واحداً دون أن يعود المرضى والمجانين. هذا الأمير الليبزيالي الذي حينما شعر بدنوّ أجله دعا رعاياه للتجمع والصلاة من أجله: المسلمون حسب القرآن، واليهود حسب التلمود والمزامير، والنصارى حسب الإنجيل. وبنى هناك أحد أروع أبنية القاهرة. فجامع ابن طولون هذا يذكر المؤمنين بهذا الأمير الذي خلف بعده ١٥٠ ابناً و ١٦ بنتاً و ٢٥٠ مليوناً، وأنفق

طوال مدة ملكه على /١٠٠٠٠/ مملوك و /٣٠٠/ فرس أصيل و /٢٤٠٠٠/ عبد و /١٠/ مراكب حربية.

بناء قلعة القاهرة

والقلعة العالية المشرفة على القاهرة التي أرسى قواعدها ورفع بناءها صلاح الدين ، هادفاً من وراء ذلك ، بعد أن أصبح سيد مصر الجديد أن يجعل فيها مسكنه . ويروي المقرئ أن صلاح الدين اختار هذا المكان لأن اللحم كان يبقى فيه طازجاً يومين وليلتين ، بينما هو يفسد في المدينة بيوم واحد .

كان صلاح الدين قد أقام من قبل في قصر الوزراء ، ومنح أمراءه قصر الخلفاء ؛ ولكن بعد سقوط الفاطميين وإعادة المذهب السني الذي ما انفكت تهدده الشيعة الأصولية ، ما انفك يخشى القاهرة : فتَنَّها الغوغائية ، وحقد الموظفين المعزولين ، ولم يكن بمسطاعه أن يختار قصرأ يستطيع منه فرض الطاعة على المدينة ، فكلف الخصي قراقوش ببناء القلعة . هذا الوزير المدَّهش نصَّف المجنون ، ونصَّف العاقل^(١) الذي خفض الميزانية المخصصة للبناء بهدم الأهرام الصغرى في الجيزة ، وباستعمال ثالث الأهرام الكبرى أي هرم ميكيرنيوس كمقلع ، وباستخدام كتل الحجارة الفخمة المنحوتة المأخوذة من قبور الفراعنة أسساً لقلعة صلاح الدين . وبقي ذكر قراقوش حياً في مصر بصورة ممعنة في الخصوصية . حتى إن المهرج ، وهو الشخصية الكلاسيكية في كل تمثيل مسرحي يحمل اسم وزير صلاح الدين . ويظهر أنه استحق هذه الشهرة استحقاقاً — إذا أخذنا بأقاويل المؤرخين المسلمين — الذين احتفظوا لنا بكثير من صفات هذه الشخصية ، فقد كتبت أرملة أحد هؤلاء أنها طلبت من قراقوش كفنأ لتلف به جثمان زوجها فأجابها : « إن صندوق الحسنات فارغ الآن ، فعودي في السنة القادمة حيث أستطيع بإذن الله أن أعطيك كفنأ » . وحكاية أخرى شائعة جداً في عهد صلاح الدين ، وهي أكثر مواعمة لشهرة قراقوش : أن سرقة كبرى حدثت في القاهرة اضطربت لها المدينة . فسأل قراقوش المسروق لهم هل زقاقهم مسدود النهاية كما كانت الشوارع آنذاك فأجابوا : نعم . فأمر بجلب الباب وجميع سكان الزقاق ، ووضع أذنه على الباب متظاهراً بالإصغاء وقال : « أخبرني الباب بأن السارق يضع في عمامته ريشة » فكان ، وبصورة لا شعورية أن وضع السارق يده على رأسه ، فكشف نفسه .

ثروات الخليفة الفاطمي الاسطورية

وأطلق العرب على القلعة الجديدة اسم «قصر الجبل». وكان طريق صاعد محاط بالأسوار العالية يوصل إليها. وكان غيوم الصوري منبهرًا بالثروات الضخمة والحاسن الفاتنة، والملذات الآخذة التي كانت في القاهرة فوصف الاستقبال الذي حظي به رسولاً ملك بيت المقدس (في قصر الخليفة الفاطمي: العاضد الذي آل إلى صلاح الدين)^(٢) بقوله: «لما كان قصر هذا الأمير مغموراً بمتارف خاصة للغاية حتى إنه لم يُر مثلاً في زماننا، سنقول هنا في دقة ما علمناه من التقارير الصادقة الصادرة عن الذين كانوا لدى هذا الأمير العظيم عن عظمته وثرواته وفخامته غير العادية. لما وصل هونغ دي سيزاريه (قيسارية) ومعه فارس الهيكل غود فروا إلى القاهرة، سير بهما لبلاط الخليفة العاضد (والذي غدا من أملاك صلاح الدين)^(٣) يصحبهما جمع غفير من الخدم كانوا يتقدمونهما في صخب بسيفهم المجردة عبر ممرات ضيقة وغرف مظلمة يحرسها أحباش مسلحون، وبعد اجتياز الحارسين الأول والثاني وصلا إلى قاعات مبلطة بالرخام المتعدد الألوان، فوجدا فيه ممرات للتنزه ذات أعمدة رخامية. كانت سقفوها الفخمة المنحوتة والمرصعة بالذهب تلمع في الظل. كل هذا كان له من جمال المادة والعمل الفني مما أوقع أميرى الفرنجة في دهش لا يملكان معه نفسيهما أن تمتنعا عن التحديق، وأن عيونهما لم تكن لتكف عن التأمل في هذه الأعمال التي كانت تتجاوز في كمالها كل ما شاهدها حتى الآن. كان ثمة نوافير تتدفق منها المياه من أنابيب من الذهب والفضة، وعصافير من كل الأنواع غير معروفة أسمائها عندنا، ذات تغريد متنوع وأشكال وألوان غريبة، ومن هناك قاد الخصيان الرافلون بالثياب المزركشة الفرنجيين إلى قاعات أخرى تفوق الأولى جمالاً.

كان هناك الكثير من مختلف أنواع الحيوان التي لا مثيل لها إلا أن يأتي بمثلها ريشة الرسام، واستعارة الشاعر والروح الهائمة في أحلام الليل، ووصلا بعد جولات عديدة عبر الكثير من القاعات التي تستوقف أشد الناس عجلة من أمره ومشاغله، ووصلا أخيراً إلى القصر الملكي ذاته حيث كانت مجموعات من الناس المسلحين، وحشد من الأتباع الذين يدلون بكثرتهم وفخامة أسلحتهم وبهي حللهم على مجد سيدهم، وحيث كانت الأماكن ذاتها تنطق بما كان عليه المالك من طائل الثراء وعظيم الكنوز، وحينما أذن لهما وأدخلا القسم

الداخلي من القصر، قدّم الوزير لسيّده الاحترام المعتاد، ساجداً على الأرض مرتين مبعجلاً إياه بطريقة لم يتعوّد أحد أن يدلّ على احترامه بها، وحينما جثا الوزير للمرة الثالثة ووضع سيفه المعلق في عنقه انزاجت الستائر المطرزة بالذهب والحاجبة العرش في وسط القاعة المزينة بالذهب والجواهر المنتقاة، وأصبح الخليفة منظوراً. كان وجهه مكشوفاً، وكان جالساً — بفخامة من الثياب هي أكثر من ملوكية — على عرش من الذهب»^(٤).

قلعة قصر الجبل

والذي يزور اليوم هذه القلعة الفسيحة التي بناها صلاح الدين يتأثر تأثراً لا يُنسى. إنها خليط من الساحات والحدائق والدهاليز المتعرجة والقلاع والقصور والأسوار الصخرية المستقيمة والعقبات، ويرى فيها المشاهد أعلى مآذن القاهرة وآباراً أخفض من مستوى مجرى النيل. وفي ظل هذه القلعة الفخمة كانت تقام في شهر شوال قبل سفر الحجاج إلى مكة أسواق مشهورة في الشرق كله. وكَم من مرة كان صلاح الدين متخلياً من هموم الحكم في الساعات العذبة من ليالي الشرق، هذه التي لا ينساها من عرفها، يحدّق ملياً من أعلى هذه القلعة، مفكراً في هذه المدينة الشهيرة النابضة بضجيج ضخم، في السلام الذي لا يمكن تحديد نهاياته لهذه العشيات التي تحوّل الأشكال إلى تعدّد غير متناهي الألوان، في هذا الاشتعال المفاجيء لمغات القباب والمآذن، ومن الممكن أنه أدرك أن أهبة المجد والعظمة هي أكثر وهماً من شعلات المساء المنبثقة من شفق الآفاق المتوهجة. وكَم من مرة انحنى سيد الإسلام على هذه المدينة الباهرة الأسطورية الحافلة بالضجيج والأنوار والخليط من الشعوب المختلفة والتي كان اسمها وحده يسحر بورجوازي دمشق أو غرناطة الحالمين في أروقتهم المعطرة بعبير أشجار البرتقال بملكة النيل الخصب هذه. ومن أعلى القلعة يمتد النظر بعيداً جداً: إلى الغرب، إلى هذه الغلالة الرحبة الامتداد والهادئة للنهر والأراضي المزروعة التي يروها.. وفي الأفق على مشارف الجبل الليبي، والترآكم الهرمي لقبور الفراعنة، وهي الكتل السريّة الخالدة. وإلى الجنوب مشهد غريب للأراضي التي تغطيها الطواحين الهوائية وتلال من الأنقاض ومقابر واسعة... مدن القبور ذات القباب المزدهمة حوالي مدافن الخلفاء الفخمة.

وما دامت الشمس متريعة قبة السماء يبقى هذا المشهد الرائع كما لو كان مجرداً من

سحره ... من الرمادي إلى الأصفر إلى الأسمر إلى الأبيض الباهر، فقليل من الأخضر الخفف بنثار الغبار أو بالبُعد، تلك هي الألوان الوحيدة التي نصادفها، ولكن عندما تشرق الشمس، والأفضل عند الأصيل قبل أن يتوارى الكوكب الوهاج وراء الجبل الليبي، عندما تغرق الشمس الأرض ببهاؤها تولد مدينة غريبة جديدة بمشيلاتها الشرقية، إذ ذاك تصبح المدينة غارقة في البرفير، فالنيل يحمل في أعماق مياهه ذهباً براقاً، فتلتهب الحقول وتنفصل الجبال البعيدة عن الأفق ملونة بلون البنفسج. ذاك هو وجه القاهرة. وإلى هذه المدينة المخطوطة كانت تندفق ثروات العالم في عهد صلاح الدين. كان أمير سيلان يكتب إلى الخليفة الفاطمي «إنني أرغب في عقد معاهدة تجارية معك. فأنا أملك كمية مذهلة من الحجارة الكريمة، واللؤلؤ، ولديّ سفن وقيّلة وأقمشة من كل نوع وخشب الصندل، والقرقة يحملها إليك تجار ريانيون (فرقة من البراهمة). وفي أرض مملكتي تقوم أشجار تصنع منها أقنية الرماح، فإذا طلبت مني جمولة عشرين سفينة كل سنة أستطيع أن أرسلها إليك، ويستطيع المصريون أن يأتوا للمتاجرة بأمان في ممالكنا، لأن أمير اليمن طلب إلّني أن يبرم معي معاهدة تحالف، فصرفته بسبب محبتي مضر. إني أملك سبعة وعشرين قصراً مفعمة أقيمتها بالحجارة الكريمة، أما مصايد اللؤلؤ فهي جزء من ممالكنا».

ووصل إلى القاهرة مبعوثون صينيون كانت مراكبهم الضخمة تعمل منذ زمن بعيد في تجارة المحيط الهندي. وقد طاب لمؤرخي العصر الذين تعودوا أن يروا في كل سفارة قادمة من بلاد مجهولة نوعاً من الخضوع للإسلام، طاب لهم أن يروا — ربما مخطئين — أن للدين دوره الذي يعادل الدور التجاري في السلوك غير العادي لبعض حكام الشرق الأقصى. وكما يروي المقرئ «فإن بعض سفراء ملك الصين حملوا إلى القاهرة رسائل موجهة إلى الخليفة ورد فيها أن داعية ورعاً شخص إلى ربوع الصين وأقام فيها رزحاً طويلاً يعمل جهده لصرف السكان عن عبادتهم الشمس المشرقة؛ وإدخالهم في دينه. وقد سمع به الملك وأراد أن يتحدث إليه فاقنعه بحججه واعتنق الإسلام. ولما مات الداعية أرسل الملك مبعوثين إلى مصر طالباً بعض الكتب الفقهية، وفتياً قادراً على تعليم رعاياه الشعائر الإسلامية تعليماً صحيحاً. فاستقبل الخليفة المبعوثين استقبالاً لائقاً، وأمر أن تخلع عليهم خلع التكريم وسُلم المبعوثون عدداً مختاراً من الكتب التي من شأنها أن تثقفهم ثقافة دينية راسخة». وقد كانت نتائج مثل هذه

البعثات الزمنية ذات فوائد جمة لمصر . فأصبحت طريق القوافل القديمة مسلكاً مستمراً لقوافل طويلة من الجمال المثقلة بالنفائس . ولم يكن سهلاً أن يحصى عدد المراكب المحملة أو المفرغة . وكان عددها في النيل أيام صلاح الدين ستة وثلاثين ألفاً ، وأكد أحد الفلورنسيين الذي مرّ بالقاهرة أنه كان في مينائها من المراكب أكثر مما كان في جنوة والبندقية ، ويصف لنا وانكون نصاً عن ابن خرداذبة ازدهار مصر : « كان التجار اليهود المتكلمون باللغات العربية والفارسية ، واليونانية وكذلك الفرنجية والإسبانية ، والصقلية يحملون من الغرب إلى القاهرة نساءً إماء وغلماناً ، وبروكاراً ، وجلود الكستور وفراء الثموس والسيوف . كانوا يركبون البحر في بلاد الفرنجة ويتوجهون نحو القاهرة وهم يحملون بضائعهم على ظهور الجمال ، ويسيرون إلى موانئ البحر الأحمر لينطلقوا منها إلى الهند والصين ولدى عودتهم من الأخيرة كانوا يحملون المسك وخشب الخيزران والكافور إلى القاهرة»^(٥) . كانت الطرق آمنة للغاية ، ونقاط الاتصال مجهزة بالمؤن ، حتى إنه كان بمستطاع ظعينة وحدها أن تسافر على مطية ، أو سائرة على قدميها من القاهرة إلى دمشق دون أن تتزود بماء أو طعام . كانت قلعة القاهرة منطلق هذه الطرق التي تنشعب إحداها باتجاه كوس حيث تتفرع فرعين يتجه أحدهما إلى أسوان والنوبة ، ويصل الثاني العاصمة بدمياط حيث يجري الانتقال إلى سورية .

ثروات القاهرة في عهد صلاح الدين

ويتفق كل المسافرين الذين زاروا القاهرة في عهد صلاح الدين على ماتنعم فيه من بحبوحة ، يقول المقريزي : « رأيت ثروات هي من الضخامة بحيث لو أردت أن أحصياها أو أصفها لما صدّق كلامي أحد في بلاد العجم » . ويقول لنا ابن ميسر : « استمر نقل الكنوز من قصر الفضل إلى قصر الخلافة على ظهور الجمال أو البغال شهرين كاملين » . وإذا حاولنا إحصاء هذه الثروات لأصينا بدوخة الأرقام : « ثمانمائة مليون قطعة ذهبية ، سبعمائة صينية من الذهب والفضة ، مئاة من آنية البورسلان الصيني مملوءة حجارة كريمة ومكدسة بلا ترتيب . تسعون ألف ثوب من البروكار المتنوع أو من حرير بغداد . خزائن عطور محشوة بعلب الخيزران ، آلاف الصناديق المملأة بأقمشة دابق ، والكتان الحيك في تينيس أو في دمياط . اثنتا عشرة غرفة مملوءة حتى السقف بالسجاد وأقمشة الخيام والمساند من كتان دابق تتخلله خيوط من الحرير أو الذهب ، وصناديق محشوة بصناديق صغيرة من السبائك الذهبية

من العراق . ثمانمائة صبية منهم خمسون محظية لكل منهن غرفة خاصة . أطنان من القطن والكتان والشمع والحديد والخشب ، أربعة آلاف حصير من القش المنسوج ، ستائة قطعة من البلّور الصخري ، خمسمائة رحل للتنقل ، ألف بالة من بضائع اليمن ، سبعة آلاف سُرَج ..

ولم يكن العامة أنفسهم محرومين شيئاً : شراب مثلج بثلج لبنان ؛ وإليكم وصفة مطبخ حفظها لنا أحد مؤلفي الحوليات من حاشية صلاح الدين تتعلق بإعداد إحدى المعجنات : « اعداد العجين من ثلاثين أوقية من الدقيق البالغ النعومة ، يضاف إليه خمس أواق ونصف من الطحينية (زيت السمسم) ، يقسم العجين إلى قسمين يرقق الأول جداً ؛ ويوضع في موقد كبير من النحاس ، وتُمد عليه حشوة من اللحم فوقها ثلاثون حَمَلاً مشوياً ومحشواً بحشوة معطرة من الفستق المكسّر ، والفلفل والزنجبيل والقرفة والأنيسون وجوزة الطيب ، يرش الكل بماء الورد الممزوج بالمسك . ويوضع فوق الحملان ، وبينها عشرون فروجاً ؛ ومثلها من الفراخ وخمسون عصفوراً صغيراً ، بعضها محشو وبعضها الآخر مقلي بعصير الليمون ، ويغطي الجميع بمعجنات صغيرة من اللحم ومعها صحنون صغيرة من الحلويات تضاف إليها أجبان مقلية ، وحينما يأخذ المجموع شكل القبة يصب عليه زيت الورد . ويغطي بالقسم الآخر من العجين ثم يوضع الطبق بالفرن » .

صحيح أن هذا كان طبق الملك أو أحد أصحاب المناصب الرفيعة ، أما العامة في القاهرة كالإسكافي والشويعر فحسب أحدهم سيخ من الشحم مع ماء السبيل ؛ مما هو مبذول في الأسواق أو يبسطه أمام الجامع واحد من الخمسة عشر ألفاً من الطبّاخين المتجولين الذين كانوا ينادون بمزايا أطعمتهم غير ناسين أن يتبادلوا الكلمات القارصة أخوياً فيما بينهم .

وبما أن للأرقام أحياناً مذاقاً خاصاً فلنذكر بعض الثروات المشهورة في القاهرة . كان الإيراد السنوي لكاتم أسرار المجلس الاستشاري لصلاح الدين ، القاضي الفاضل ٦٢٥٠٠٠ فرنك ذهباً ، فضلاً عن دخله من المعاملات التي كان يجريها تجار الهند والمغرب . وخلف الأمير تورونتاي — الذي ماتزال قبته تستحوذ الاعجاب حتى الآن — لورثته ١٠٠٠٠ / من سبائك الفضة وقطعها .

ونهب العسكر قصر أحد الأمراء خلال إحدى الفتن ، فبلغت حصيلة النهب بين

أيدي سكان القاهرة مبلغاً من الضخامة بحيث هبط سعر الذهب في لحظة بنسبة خمسين بالمائة .

الازدهار التجاري لمصر والمبادلات الاقتصادية مع الفرنجة

وافتح ملك صلاح الدين في القاهرة عهداً من الازدهار التجاري ؛ ولم يتردد الصليبيون أنفسهم في إقامة علاقات اقتصادية هامة مع عدو عقيدتهم .

وكما كتب صلاح الدين عام ١١٨٣ ، « كان أهالي جنوة وبيزة والبندقية يجلبون إلى مصر منتجات مختارة من الغرب ، وخاصة الأسلحة والمعدات الحربية ، وهذا ما يشكل فائدة للإسلام وخسارة للنصرانية » . ونرى من هذه الوثيقة أن حالة الحرب بين المسلمين ودول الفرنجة ، لم تكن لتعوق العلاقات التجارية ، رغم انتقادات بغداد من جهة ، ومقررات المجامع الكنسية من جهة ثانية ، ومع صراحة النص لمقررات تلك المجامع : « كل من يتجاسر ويبيع المسلمين أسلحة أو حديداً أو أخشاباً للبناء البحري أو مراكب جاهزة أو يدخل في خدمة المسلمين بصفة قائد مركب أو نوتيّ يعرض نفسه للحرم ، وهو عقاب يستوجب لمرتكبه مصادرة أمواله وفقدان حريته الشخصية » . وصحيح أن البابا منع أي اتفاق مع صلاح الدين ، لكنه أمام مدّ الاحتجاجات التي تعالت هنا وهناك اضطر إلى إعطاء تنازلات ، مكتفياً بمنع بيع المواد التي يمكن أن تخدم مباشرة قوة مصر العسكرية . وكان الصليبيون بتوسيعهم علاقات أوربة التجارية مع مصر يحصلون على فائدة كبرى للحرب المقدسة ضد المسلمين . فمنذ النصف الأول من القرن الثاني عشر أخذت الأغاني الشعبية تصف أعاجيب أرض الإسلام ، ودخلت أوربة في مدرسة الحضارة الشرقية ، وتطور الإنتاج فيها ؛ .. ففي الشرق تعلم أجدادنا نسج الأقمشة الفخمة التي كوّنت شطراً كبيراً من ثروة البندقية ، وبعد ذلك جلب إلينا في جزء من فرنسا المشرقية فن صناعة الساتان والخمّل والأقمشة المقصبة بالذهب أو الفضة أو الأقمشة الخفيفة مثل الموسلين (الموصلّي) والخزّ والصنديل والتافتا . ومنذ القدم كان الشرق يمتاز بإنتاج فاخر السجاد ، وحاول الصناع الأوربيون تمثّل هذه المهارة .

وإذا كانت البندقية لم تلبث أن شهدت سكب الزجاج وصناعة المرايا فقد انتهى إليها ذلك بفضل معرفتها التقنيات المستعملة في أسواق الشرق الأدنى .

وأخذ الغرب كذلك عن الحرفيين السوريين فن صناعة الورق ، وحتى معرفة فن الطهو وإعداد الشراب . وكان لهذا الدخول السلمي نتائج ذات آثار باقية في التجارة والصناعة الناشئة حديثاً في أوربا : صناعة الجوخ المتطورة ، وتعليم أوربا صناعة الألبسة ، والصناعات المترفة التي استقرت وتطورت في الغرب ، وصار الإنتاج يتنوع ، والتقنية تتكامل . وفي الحقيقة .. كانت ثورة اقتصادية تقلب مجتمعاً كاملاً وقارة كاملة .

حواشي الفصل السادس

١ — قراقوش، بهاء الدين أبو سعيد :

(قراقوش بالتركية : العقاب ، أو النسر الأسود). (ت ١٢٠١)، نشأ في خدمة صلاح الدين الأيوبي ، وناب عنه في بعض الأحيان ، وخاض معه المعارك ، بنى سور القاهرة وقلعة الجبل وقناطر الجيزة . ولي عكا بعد أن أخذها صلاح الدين من الإفرنج . فعادوا واستولوا عليها ، فأسروه ، فافتداه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار . توفي بالقاهرة . ينسب إليه العامة أحكاماً متعسفة عجيبة ، هي محل شك ، لما كان عليه من ثقة صلاح الدين به . ألف ابن مماتي كتاباً جمع فيه بعض نوادر العامة عن ظلمه ، وأسماء « الفاشوش » ، يعتبره بعضهم مجرد تنفيس العامة عن شعورهم بظلم المماليك ، فاتخذوا قراقوش المشهور بحزمه شخصية يعزون إليها كل حكم جائر . (الموسوعة الميسرة ص ١٣٧٣).

٢ ، ٣ — الزيادة ماضن القوس ، لرفع اللبس بين الخليفة العاضد وصلاح الدين .

٤ — لقد وصف مؤرخو الفرنجة اللقاء التاريخي الذي جرى بين الخليفة الفاطمي العاضد وبين رسولي ملك المقدس أموري وقد كتب ستانلي لين بول عن هذا اللقاء :

« اختير هيو حاكم قيصرية وجوفري فارس المعبد رسولين من الملك أموري ، وقد سار بهم الوزير بنفسه (شاور) وجعل يقتحم بهم كل رسوم الأوضاع السرية . فسار بهم في ممرات خفية وأبواب عليها حراس من أقوياء السودان ، وكانوا يحبونهم بسيوفهم المجردة ، حتى بلغوا صحناً فسيحاً لا سقف له إلا السماء وحوله أقبية قائمة على عمد من الرخام ، وكان السقف المزخرف مرصعاً بالذهب مزيناً بيديع الألوان ، وأما الأرض فكانت من الفسيفساء البديعة ، وقد أخذت تلك المناظر يعيون الفارسين اللذين لم يعتد نظرهما أن يقع على مثل هذا الجمال ، فكانا يريان هنا فوارة من الرخام تحيط بها الطيور الزاهية التي لا نظير لها ببلاد الغرب ، ثم يريان هناك أنواعاً من الحيوان لا مثيل لها إلا أن يصور ألوانها مصور بارع ، أو يخترع صورتها شاعر ماهر ، أو يحلم بها حالم في عالم الخيال . وهكذا كانا يريان أشياء لا يريان مثلها في بلادها إذ هي مما لا يوجد إلا في بلاد الشرق والجنوب .

وبعد سير طويل في تعاريج وتلافيف وصلا إلى مكان العرش ، فأعلن قدميهما عدد عظيم من الحشم

يلبسون حلاً بهية، ثم تقدم الوزير خالفاً سيفه وقبل الأرض ثلاث مرات كأنما يسجد لله، ثم أعقب ذلك أن انكشفت الستائر الثقيلة فجأة وهي تلمع بما عليها من ذهب ولؤلؤ، ولأح من خلفهما الخليفة وعليه حلل وزينة تزري بما يتحلى به الملوك. فقدم إليه الوزير بخشوع الرسولين الفارسين، وبين بصوت منخفض ما كانت عليه البلاد من خطر، وما كان من شأن صداقة ملك بيت المقدس له. وكان الخليفة شاباً أسمر اللون قد خطا الخطوات الأولى خارجاً من عهد الصبا، فقال إنه يرغب أن يوافق على معاهدة صديقه العزيز ملك بيت المقدس، ولكنه تردد في أن يمدّ يده عندما طلب الرسول منه أن يمدّ يده دليلاً على صدق عهده، وقد غضبت حاشيته من ذلك الطلب، غير أن الخليفة مدّ يده بعد قليل إلى السير هيو، ولكن هذا وجد عليها قفازاً فقال: «مولاي إن الحق لا غطاء له، وإن كل شيء مكشوف في عهود الأمراء» فتبسم الخليفة برغمة وخلع قفازه كارهياً، ثم مدّ يده إلى هيو وحلف اليمين على انفاذ المعاهدة بصدق وإخلاص» (ستانلي لين بول — نقلاً عن كتاب قدرتي قلبي صلاح الدين الأيوبي ص ١٧٢ — ١٧٣).

٥ — جاء في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة. عن ازدهار تجارة مصر ومسلك التجار اليهود الراذنية، قوله:

مسلك التجار اليهود الراذنية

«الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلية، وإنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برّاً وبحراً يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخنز والفراء والسمور والسيوف، ويركبون من فيخة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم (البحر الأحمر) وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار وجدة ثم يمضون إلى السند والهند، الصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدراسيني وغير ذلك فيما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم» (ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص ١٥٣ — ١٥٤).

الفصل السابع

نور الدين ضد صلاح الدين

قلق نور الدين من نشاط صلاح الدين

أخذ السلطان نور الدين يقلق لنشاط صلاح الدين ونجاحاته الشخصية. وطفق السعاة يدخلون في روعه أن صلاح الدين يتحين الفرصة المؤاتية ليتحرر من وصايته عليه، فقرر وضعه تحت رقابة الأمراء المستائين الذين كانوا يتملقون سلطان مصر؛ وطلب منهم أن يزودوه بتقارير عن سياسة صلاح الدين، وعامله صراحة في رسائله الرسمية كما لو يعامل الخادم البارز.. مما يعني في نظر صلاح الدين أنه لم يكن صاحب السلطة، بل مستودع مصالح الإسلام السوري في مصر.

وعليه — بهذه الصفة — ألا يتصرف من لدنه، بل يتقيّد بالتوجيهات التي ترده من دمشق. وبحكم المؤكد فإن نور الدين كان يتوق إلى امتلاك مصر وإعادة صلاح الدين إلى مشاغله القديمة غير المؤذية أي المسائل الفقهية. ولكن لديه الآن الكثير من الهموم الشخصية، فالفرنجة ينشطون على أبواب مملكته، ومن الشرق. شرع بقايا الأمراء الصغار الصاخيين فيما بين النهرين ينازعونه سلطته ويتخذون طريقهم بجرأة إلى العصيان.

الفرنجية يحلمون بالاستيلاء على مصر

وكان الصليبيون بعد الاستنفار الصباح في الداروم يبحثون عن منافسات جديدة، وشخص آموري ملك القدس الذي بنى بحفيدة أندرونيك كومين شقيق امبراطور بيزنطية،.. متوجهاً إلى تلك المدينة التي تكلؤها رعاية الله، ومحكم تلك القرابة شخص ملك القدس إلى الامبراطور الذي كان في نظر جميع الشعوب المسيحية لا يبدو وهو على عرشه الذي لا يتناهى إليه إلا كتجلٍّ حيٍّ للألوهة؛ ساكناً في ثوبه الباهر من الجواهر مثل أيقونة مقدسة. وهو شخصية رهيبة، ملك عشرين أمة، فهو تجسيد القيصرية التقليدية، ملك الأرض بعد الله، متسلط، سيد مطلق، لا يدنو منه أعظم الناس إلا مطأطين، سيد المعتقدات، المطلق المانع، المطلق للثاني عشرة سلطة استشارية للإمبراطورية.

كان مانويل كومين ما يزال حاكماً مخلفاً وراءه ماضياً مثقلاً بالخianات والانتصارات والهزائم، موزعاً وقته بين توضيح العقيدة الجديدة التي يشتم منها تأثير عقيدة محمد، وساعات التعهّر مع ابنته تيودورا، رامياً بالجرم كل من جرؤ على انتقاد سلوكه، مضطهداً رجال الكنيسة البارزين الذين كانوا يجبهونه بخطاياهم. واستقبل ملك القدس وفق العادة التقليدية لأسلافه. هذا وقد روى لنا غيوم الصوري بالتفصيل المهرجانات التي جرت على شرف آموري، والمراسم الفخمة للحفاوة التي استقبل بها.

ومع ذلك، وفي خضم هذه الحفلات الراقصة لم ينس آموري البتة هدف رحلته، فقد تحدث إلى الامبراطور عن ضرورة شن حرب لارحمة فيها على صلاح الدين الذي أخذت قوته المتعاضمة تقلق الفرنجة، وذكره بأن الرب قدر أن يحارب ويدمر إلحاد الأمم بيد أباطرة بيزنطية، لكي يتحد بالإيمان أولئك المختلفون بالعرق. وعرض عليه مطوّلاً وضع الممالك الفرنجية البائسة في سورية، المهتدة بالدمار بسبب ما شجر من خلاف بين البارونات والمنظمات الإكليزيكية الكبرى والملك، والمهددة بقيام كتلة إسلامية ضخمة ممتدة من الفرات إلى ليبيا، موحدة سياسياً ودينياً.

وأدرك ملك القدس بوضوح أن الوحدة الإسلامية ستعود على أنقاض الفرنجة، واقترح على مانويل كومين طرد صلاح الدين من مصر وإقامة دولة فرنجية فيها يشاطره إياها، ولم يكن

آموري بحاجة إلى إظهار فصاحة غير عادية لإقناع حميه بآرائه ؛ لأن مانويل كومين الوفي لتقاليد الدبلوماسية البيزنطية كان يعتبر الاستيلاء على وادي النيل ليس مجزياً بما تدره من موارد فحسب ، بل لأن ذلك سيتيح لنصرانية المشرق أن تمتد الطرف أبعد قليلاً من حدود إقطاعاتها ، وتستعيد بالتالي حيوية جديدة ، تحفزها جاذبية الكنوز المقدسة في أسواق القاهرة ، ولم يستطع إلا أن يتبنى منطق نسيبه ملك القدس سياسياً واقتصادياً ، فوعده بدعمه .

نور الدين يستولي على قلعة الشوبك (مونتريال)

وبينما كان آموري يتباحث مع امبراطور بيزنطية ، ويفكر في حملاته المقبلة ، طفق نور الدين يستولي على قلعة الشوبك قرب البحر الميت في قلب هذه الأرض (عبر الأردن) التي استصلحها يقصر وجلد المؤسسون الأوائل لمملكة القدس . كانت تلك خسارة مؤثرة لدى فرنجة شرق الأردن ، لأن موارد هذه الإمارة المترفة حققت لهم دُخولاً (جمع دخل) لها شأنها اقتصادياً . فعلى هذا الشريط من هضاب موآب ، كان يغرس شجر العنب والزيتون ، وتزرع الحبوب وتعمر حقول قصب السكر . وكان هذا السكر يصدر إلى بعيد . ففي جزيرة قبرص كان التجار يبيعون سكرًا ناعمًا يدعى سكر قلعة الشوبك . واشتهرت تلك القلعة الهامة ذات السور الثلاثي بمناعتها وبأنها لا تقهر . وقد بناها بلدوين لضبط حركة الطريق الشرقية لمملكة القدس ؛ ولممارسة رقابة جمركية على القوافل المتنقلة على الدرب الكبير المسمى درب الحج ، ولحماية السكان المزارعين من غارات الأعراب النهابين ، لأن عمل المزارعين كان يُثري المستعمرة الفرنجية عبر الأردن .

الصراع الخفي بين نور الدين وصلاح الدين

وبعد أن استقر نور الدين في الشوبك طلب إلى صلاح الدين أن ينضم إليه قائلاً له : لقد بات ضرورياً إزالة هذه القطعة المتقدمة من مملكة القدس ، تلك القطعة العدوانية بقلاعها المنيعة المتسلسلة على امتداد ثلاثمائة كيلومتر ، ولاشك في أنه صاغ مشروع التخلص من أرض عبر الأردن هذه بمساعدة قوات حاكم القاهرة المصرية . فأخذ صلاح الدين الطريق ، لكن هل تراه اطلع على نوايا نور الدين ؟ لا نعرف ذلك ، بيد أنه كان عالماً بخيبة الأمراء السوريين ، وكم هم ينفسون عليه تألق نجمه ، بل كم هم مستعدون لخذلانه ، لذا وخشية أن يعتقل ويجرد

من ملك مصر ، ولكونه خاصة غير راغب في فتح طريق وادي النيل أمام أصدقائه المربين في دمشق ، فقد غيّر رأيه وهو في الطريق ، وانقلب عائداً إلى القاهرة ، متذرعاً بأنه علم فجأة بوجود مؤامرة كانت تدبر في العاصمة ، ضد أمن الدولة .

واستاء نور الدين من تصرف صلاح الدين ووعده بجلب رأسه في كيس ، وأقسم أن يشخص بنفسه على رأس قواته السورية لمباغطة العاصي .

صلاح الدين يتجنب الصراع الأخوي مع نور الدين

وحدثت ضجة في القاهرة ، فأنصار صلاح الدين منهمكون في العمل ، على حين اجتمع مناوئوه ، واتخذوا كل التدابير لاستقبال نور الدين ، وتحدث بعضهم عن مقاومة هذا الأخير بالسلاح ، وأحصوا عدد قادة الحامية الموثوق بولائهم . ويذهب مؤرخ سيرة صلاح الدين الذي كان يشغل عنده وظيفة كاتب سره إلى أن سيد مصر كان الوحيد الذي لم يخطر بباله هذا العمل ؛ وقد أجاب من كانوا يودون المقاومة والقتال : علينا ألا نفكر في هذه الأمور . قال مؤرخون آخرون : إن وزراءه نصحوه بعدم اقتراف مالا يمكن إصلاحه ؛ لأن نور الدين حسب رأيهم صاحب مصر الحقيقي . وأن له عليه أيادي بيضاء ، وأنهم إذا ما خيروا بين صلاح الدين ونور الدين فقلن يترددوا ، ويادروا أحدهم بالقول : « بم تفكر » حينما تسألنا عن موقفنا ؟ ألا تعلم أن نور الدين حائز ثقة الخليفة ؟ وأنه إذا ما علم بعزمنا الدفاع عن قضيتك حرباً ، فهو من جهته قادر على السعي فوراً إلى مخالفة الفرنجة — لعنهم الله ! — والتخلي عن كل حرب ليُهرع إلى مصر ليوجد فيها فوق كل ذلك كثيراً من التفهم في صفوف الجيش ، والإدارة ، وحتى في محيطك ذاته ؟ أنصح لك أن تتصرف كما يلي : دفعاً لغضب نور الدين توجه إليه برسالة قل له فيها : « لقد ترامى إليّ أنك قادم إلى هنا لتنتزع مصر مني ، ما الحاجة إلى كل ذلك ؟ ليرسل إليّ مولاي أحد ضباطه بدلاً من ذلك ليقودني إليه والحبل في عنقي . ولن يجد مني أية ممانعة » ^(١) . وهذا هو النص المنقول حرفياً عن المؤرخ العربي ابن الأثير من كتابه تاريخ الأتابكة . ويبدو أن هذا الناصح قد أقنع صلاح الدين بعدم الجدوى من صراع أخوي لن يكون فيه إلى جانبه لا الرأي العام غير المهتم بهذه المنازعات على السلطة ، ولا جنده الذين يوالون من يدفع أكثر ، ولا وزراءه الحذررون المستعدون للتخلي عنه .

صلاح الدين يعزز موقفه ويسند لأخيه فتح برقة والنوبة واليمن

لقد كان وحيداً، ولم يحن الأوان ليتخذ موقفاً حاسماً؛ وكان أذكى من أن يعتقد بأن وضعه في القاهرة مكين وطيد، ومع ذلك أراد أن يظهر أنه ما يزال السيد المطاع، فتخلص من امرائه المرييين الذين كانوا يزجون أوقات فراغهم في حبك المؤامرات وتدبير الفتن ضده، فأرسلهم إلى أعمال بعيدة يصابون فيها بالحميات. وأسند لابن أخيه قيادة عدد من السوريين وأرسله ليحتل برقة، وليكتشف قسماً من ساحل المتوسط، كما أوكل إليه مهمة أخرى هي فتح النوبة الغنية بالخيول. فأصاب هذا الأخير مجدداً واحتل عنوة الأماكن الكبرى، وفرض الجزية، واجتاز البحر الأحمر إلى اليمن حيث أسس سلالة أيوبية.

وفاة نور الدين المفاجئة واعتلاء الملك الصالح عرش مصر

ولكن أيام صلاح الدين غدت كما تتراءى للمتأمل معدودة، إذ استقدم نور الدين قوات مهمة من مابين النهرين إلى الشوبك، ولأنه — دفعاً لتأجيل مقابلة صلاح الدين — أسرع بالتوجه نحو القاهرة ذات الكنوز الاسطورية، لكن، وفيما هو يتأهب لاجتياز حدود امبراطورية الفراعنة القديمة وإفاه. أجله يوم الأربعاء ١٥ مايو (أيار) ١١٧٣ بسبب ألم قفّ بالحنجرة. واعتلى عرش دمشق الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين.

سيرة نور الدين الكفاحية

ليس من نافلة القول أن نقف هنا عند شخصية نور الدين^(٢)، الذي كان جندياً عظيماً، وبناءً كبيراً، وقاهر الفرنجة في مائة معركة، وأستشهد أولاً بمؤرخ عربي شهير هو ابن الأثير الذي كتب مايلي: « لقد درست جيداً سير ملوك الزمن القديم، ولكنني منذ الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز لم أجد واحداً في حياته أنقى، وحبه للعدل أشد. مسلم تقى ومؤمن إيماناً عميقاً بعظمة الرسالة النبوية وحقيقتها. وقد بذل قصارى جهده لكي يتبع اتباعاً دقيقاً في كل الحالات — في حياته الخاصة وفي ممارسة السلطات العامة — أحكام القرآن والسنة في سلوك المؤمنين، كان يخصص غنائم الحرب لإقامة المؤسسات الخيرية، وللقيام بأعمال الصالح العام.

لقد دعم تحصينات جميع المدن السورية: دمشق، حمص، حماة، حلب، بعلبك، وفي كل مكان ارتفعت في عهده المساجد والمدارس والخانات وكان العلماء موضع عنايته واهتماماته وتضحياته. ولم يكن لمجاهديه من هدف سوى طرد الفرنجة من سورية وفلسطين وحاول أن يؤذي بأمانة هذه الرسالة^(٣). هذا هو نور الدين أصغر أولاد زنكي، وأشهر أمراء العصر السلجوقي المجيد الذي لقبه الفرنجة بالسفاح، لقد أظهر منذ خطواته الأولى في الحياة العامة، أنه لم يَنسَ دروس والده الذي علمه كيف يحكم الناس، ويغض الفرنجة، ذلك اليافع الذي انغمر في الحياة العامة منذ طراوة عوده. ترك أخاه الأكبر يحكم بهدوء أرض أبيه — الموصل — مفضلاً الإقامة في حلب لكي يكون أقرب إلى حدود أعداء دينه. لقد كان — حسب شهادة معاصريه — مدبراً مدهشاً لبيت المال فنظر بريبة في الثروات الفاحشة للأمراء المتحلين بالماس، وللموظفين الشديدي الطاعة. جهز دمشق بدار العدل التي ما انفك الحكام العثمانيون يستخدمونها حتى القرن الماضي، وبالبيمارستان. وجد تجديداً كاملاً جامع حلب من ماله الخاص، وهو أول من أنشأ في سورية المحكمة العليا التي أصبحت محكمة استئناف حقيقية لأحكام قضاة الدرجة الأولى، ثُبر فيها نهائياً جميع القضايا دون أن يكون على القضاة مراعاة مركز المتقاضين أو صفتهم، وكان أحياناً يحضر المحكمة لعقد الجلسات. واضعاً ثقل سلطته الشرعية بخدمة العدالة متنزهاً عن الانتفاع أو جنوح التحيز؛ أمر بأن توضع غنائم الحرب كلها في خزائن بيت المال بدلاً من أن توزع — كسالف العادة — على القادة والأمراء الذين كانوا على الدوام يمنحون أنفسهم نوعاً من الحق الإلهي، كان لا ينفك يكرر القول على مسامع مستمعيه المذهولين بأنه لم يكن المحاسب لأموال المسلمين، وليس من حقه أن يستعملها إلا في مصالحهم. ولم تكن هذه اللغة دارجة في بلاط الأمراء البارزين المتأثرين بمثل هذا الزهد الأخلاقي، ولكن غير الراغبين في الاقتداء به. لم يَسْغَ إلى الثروة ولا إلى الأبهة؛ فعاش عيشة متواضعة مجتهداً ألا يكون مبدراً ولا مقترراً، وقد وضع قاعدة غريبة في ذلك العصر، فكان أول من استعمل حمام الزاجل لكي يتلقى بريده بأسرع ما يستطيع، ولكي يبلغ قادته أوامره في المعركة، ولمفاجأة تحركات العدو. وبفضل هذا التجديد، كثيراً ما فاجأ الفرنجة ومزقهم مفوتاً عليهم الوقت الكافي ليفهموا بأي سحر كان على علم بتحركاتهم بهذه السرعة.

ولكن الأمر الذي يبرز نور الدين قبل غيره، كإحدى الصور الأشد تأثيراً بين صور الإسلام هو استماتته في محاربة مستعمرات الفرنجة في سورية، فقد نذر حياته لهذا الكفاح المتجدد باستمرار ضد أعداء دينه .

ولم يكن بغضه فرنجة المشرق بغضاً سياسياً، وإنما كان بغضاً بارداً متجدداً، محسوباً، بغضاً دينياً حقيقياً . كان شغوفاً بالجهاد، ولا يخطيء غيوم السوري الذي يعرف زمانه كل المعرفة عندما يصفه بأنه عدو الفرنجة القاسي . فبالنسبة إليه لم تكن القضية مسألة صراع عرقي، ولا استعادة الأراضي العربية، ولا النزاع على الحدود، بل هي مسألة المصالح الروحية، مصالح الإسلام المقدسة؛ ولإنفاذ هذا الهدف، وبالتالي لفرض سياسته، كان بتصرفه عدة الدعم شبه المضمون، إذ كان له — من جهة — جيشه الذي لا يشك في إخلاصه، لكونه مؤلفاً من المالكات والعبيد المعتوقين الذين كانت تربطهم بسيدهم روابط قانونية ومعنوية؛ ومن جهة ثانية كان المعتمون من العلماء والمتصوفة المكلفين بالدعوة الدينية، والذين ما فتئوا — وهم في خدمة السلطان — يكوّنون لصالحه تياراً جارفاً من الرأي العام . وحين وافته المنية، كان يحوز تأييد السواد الأعظم من المسلمين السوريين للرسالة التي خدمها بكثير من الثبات .

ولكل هذا كان عظيماً ذلك الذي كانت سلطته تمتد « من أعماق النوبة حتى أبواب همدان »، ولذا كان المؤمنون يذكرون اسمه في صلواتهم في مكة والمدينة، وكما كتب رونه غروسّيه : « لقد أكمل نور الدين عمل أبيه، بما يماثل بعض الشيء لإكمال القديس لويس عمل فيليب أوغست، فالسياسي والقاتل يخلجان المكان للقديس . وبالتأكيد لم يكن الأمر كذلك، فنور الدين شأنه شأن لويس التاسع لم يتخل عن التقليد العسكري لأجداده، بل العكس صحيح، إذ نذر حياته للجهاد، إنما بجلاء مفاده أن الحرب المقدسة هي كل مبرر وجوده » . متفانياً فيها بحماسة الصوفي العنيدة، فهو من هذه الزاوية الملك القديس، إذ كان منذ أصبح سيد سورية المسلمة يحيا في حاضرتيه حلب ودمشق حياة مدهشة في بساطتها، حياة تداني أيام الجهاد، حياة زاهد مرهقة بالصوم، متقدة بالصلاة؛ حتى لقد استطاع ذروه أن ينقشوا على قبره بعض مآثور قول أحد الصحابة قبيل وفاته : « مرحباً بك أيها الموت، مرحباً بك أيها الزائر الصديق الذي ينضم إليّ في الفقر وفي الصلاة؛ إلهي أنت تعلم أنني خشيتك دائماً . أما

اليوم فإني عظيم الرجاء فيك . لم أحب الدنيا ولا طول العمر في هذه الدنيا لحفر الأقبية وغرس الأشجار ، ولكن لأظلماً في لبيب الهاجرة ، ولأسمع العلماء في حلقات الذكر .

كان مجده صافياً من أية شائبة ، وبعد اليوم في آداب المسلمين المقدسة من الأولياء الصالحين . فهو مع صلاح الدين الذي يتبوا إحدى أرفع الدرجات في التسلسل الهرمي لأولياء الإسلام . يزور قبره في دمشق كل سنة آلاف المؤمنين ، حيث يرقد بهذه البنية المهيبة التي طالما أحبها : المدرسة النورية .

وفاجأت وفاة نور الدين صلاح الدين مفاجأة سارة . لقد كانت سماوية بالنسبة إليه .

القضاء على ثورة الفاطميين

كان على صلاح الدين الآن أن يواجه أزمة داخلية بالغة الخطورة ؛ ولا ننس أن الاعتراف باسم خليفة بغداد في صلاة الجمعة مرّ بسلام ، وكل ما في الأمر أن سكان العاصمة تدمروا بعض التدمير ولكنهم تأثروا برؤية بعض القوات الكردية التي عرضها صلاح الدين في الأسواق ، فأثروا الامتناع عن أية تظاهرة معادية ؛ ولكن الريف كان أقل تورية تجاه سلطة بغداد ؛ إذ ما انفكت أغلبية المصريين موالية سراً لحكامها القدماء الفاطميين ، فابن العاضد كان ما يزال حياً ، وهو الوريث الشرعي لهذه السلالة ، لذا حاول شاعر يمني هو عمارة بن أبي الحسن ، يعاونه كاتم سره ، وبعض القادة السودانيين السعيدين بالمجازفة بحياتهم ، وكذلك بعض خدم العصر الخلفي المجردين من الضمير ومن المكانة ، حاول أن يعيد ابن العاضد إلى عرش آبائه ، فألف حكومة ثورية كان عليها أن تمسك بزمام السلطة في موعد متفق عليه ، وأوفد المتآمرون أحد رؤوسهم لطلب عون الفرنجة مقابل أراضٍ جيدة وأموال طائلة ، وأبرم اتفاق في القدس بين الثائرين المصريين والملك آموري الذي أوفد إلى القاهرة أحد أتباعه مكلفاً في الظاهر أن يُسلم على صلاح الدين ، ولكن حقيقة مهمته هي الاطلاع على مدى تقدم هذه المؤامرة . وعلم صلاح الدين من شرطته بما يبيت ضده ، فكان القمع بلا رحمة . فأعدم كل الذين كانوا ينتمون من قريب أو بعيد لعائلة العاضد ، كما شق قادة الفتنة ، والذين ثبتت عليهم الشبهة . وهرع بعض الأشخاص من ذوي المكانة الذين أقسموا على نهاية صلاح الدين

إلى المساجد لأداء فريضة الصلاة جهراً باسم عباسي بغداد، متخلين بذلك عن الشاعر
اليميني وعن مشاريعه لإعادة الفاطميين. ولكن النظام لم يعد مطلقاً. فالنار التي أجمدت هنا
عادت للاشتعال في مكان آخر أشد ضراماً.

ففي ٧ ايلول (سبتمبر) ١١٧٤ أي بعد ستة أشهر من اكتشاف المؤامرة الأولى، قام
قائد فاطمي هو كنز الدولة من قبيلة بني الكنز الشديدة البأس، وحشد قوات سوداء في
أسوان ووعداها بنهب القاهرة وبرأس صلاح الدين. وعزل حكام مدن مصر العليا، ورأى
جيشه يكبر بانضمام المستائين والجنود النظاميين الفارين من الجيش للاشتراك في نهب أسواق
العاصمة، فاجتاح بلاد طيبة مستولياً على كنوزها الشهيرة، ولم يكن صلاح الدين هذه المرة
يواجه عصاة مثقفة من العصاة، بل يجابهه قائد بارع لقوات متحمسة متمرسة بالحرب،
وكيلاً يغادر القاهرة في هذه الساعات الحرجة كلف صلاح الدين أخاه أن يعيد سلطته إلى
الريف المتفجّر، فقام هذا الأخير يصحبه بعض الأمراء الذين استخلصهم صلاح الدين لنفسه
بالهبات والحظوات، وبالثروات التي أغدقها عليهم، والمناصب المحزية مالياً التي أسندها إليهم.
لقد اختارهم عن عمد من بين الذين تذوقوا رغد العيش في القاهرة فصاروا يفضلون الموت على
أن يجرهم منها زعيم قبيلة وسودانه؛ ونجح ممالك أخيه في مباغته الثائرين فأسر القائد
الفاطمي وأرسل رأسه إلى القاهرة. وصلب ثلاثة آلاف من رجاله حيث دعي جميع سكان
عروس النيل لمشاهدة هذا المشهد الدامي.

لكن فشل هذه المؤامرات يجب ألا يجعلنا نتجاهل أهميتها؛ لقد هز الثائرون البلاد
هزاً، واستنجدوا بالفرنجة الذين تعودوا منذ زمن بعيد هذه اللعبة، وكتبوا إلى زعيم هذه الفئة
السورية المدهشة فئة الحشاشين سنان المشهور شارحين له أن العقيدة الفاطمية تماثل عقيدته
ولا خلاف بينهما إلا على نقاط لا تشكل بدعة ولا تمنعه من توحيدهم؛ وطلبوا منه أن يعين فداًئياً
لقتل صلاح الدين غيلة، أو ينصب له فخاخاً وكائن. وكان صلاح الدين سيكرس نفسه
لأعمال عظيمة. كان موت نور الدين يطبعه من جهة دمشق، فخليفة بغداد المتقلب بعض
الشيء لم يكن يريد — بعد أن شجع نور الدين ضد صلاح الدين — أن يعقد الأمور، وأخذ
يتكيف مع الوضع الجديد؛ فقد أعيد الأمن إلى نصابه في مصر بإعدام المتآمرين، وانتهى

الفاطيون بتصفية آخر فرد من سلالتهم. وأخذ وضع صلاح الدين يترسخ، وبات في استطاعه أن يفكر غير قلق في المستقبل الزاهي الموعود لسلالته.

صلاح الدين والتنظيم الإداري في مصر

وحيث استتب الهدوء في القاهرة وعاد الأمن لنصابه، انصب اهتمام صلاح الدين لإعادة التنظيم الإداري إلى مصر، وعرفت البلاد حينذاك حقبة من النهضة الاقتصادية والروحية، إذ كان يتخرج من جامعة الأزهر أعداد غفيرة: شعراء ونحويون وأطباء، وازدهرت الحياة الدينية إذ أسس صلاح الدين مدارس للمذاهب الإسلامية الأربعة الكبرى. يدرس في أبنيتها الشاذلية الفقه، وعِلما الشرع والتصوف مما يتيح تعاليمها الزهدية الصارمة لمريديه الذين ينظرون إلى الحياة كخطيئة مالم يستغفروا كَلِيَّة في تأمل آلاء الله.

الوزير الفاضل الأنا الآخر لصلاح الدين

وأحاط صلاح الدين نفسه بمستشارين أذكياء نشيطين قادرين على تنفيذ إصلاحاته المتعلقة بالإدارتين المدنية والعسكرية، ومن أبرزهم وزيره الفاضل^(٤) المولود في عسقلان الذي لعب دوراً متميزاً في الإدارة الأيوبية بمصر. وبعد أن اشتهر بأناقة تقاريره وإيجازها، عين في القاهرة حيث تولى رئاسة ديوان الجيش، وحينما تربع صلاح الدين دست السلطة أصبح الفاضل الأنا الآخر لصلاح الدين، فأعاد تنظيم الشؤون المالية والأسطول والجيش. وحرر جريدة رسمية (المتجددة) وهي لا تتضمن الملاحظات الثمينة عن إصلاحاته فحسب، بل كذلك الأحداث الهامة الجارية في مصر خلال حكم صلاح الدين. «فكان — كما يكتب المأموني — يعيش في القاهرة عهد ذاك رجل جم النشاط يصعب تصور نظير له. كان يستطيع في جلسة واحدة أن يكتب بآن معاً رسالة ويملي رسالتين أخريين» كانت شهرته خارج مصر مثلما هي فيها. فقد صبَّ جُلُّ اهتمامه طوال حياته لأن ييسط يديه بالخيرات التي آتاه الله إياها، ففتح خزائن ثروته لإغاثة المهوفين، وتعليم الأيتام، وزيادة عدد العلماء، لقد كان موضع ثقة صلاح الدين الذي قدم له مكتبة الخلفاء الفاطميين الشهيرة لما يعهده فيه من شغف بالكتب النادرة.

الحكم المستنير

وهكذا عرفت مصر في ظل الحكم المستنير لمؤسس السلالة الأيوبية عصر اشعاع متوهج ثقافياً ودينياً . وساعد إرساء قواعد السلم أعمال العلماء ، وتطورت الفنون تطوراً حراً ، وحمل استئناف الأعمال التجارية إلى المصريين الغنى ، ووفرة المنتجات الواردة من كل حذب وصوب . وحل عهد الازدهار محل سنوات الاضطرابات الاجتماعية والمجاعة ، والفوضى ، والاضطهاد والمصادرة ، التي أفسدت حياة مصر في عهد الخليفة الفاطمي العاجز العاضد .

حواشي الفصل السابع

١ — جاء في كتاب الباهر لابن الأثير عن ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين :

« وفي سنة سبع وستين أيضاً ، جرى ما أوجب نفرة نور الدين من صلاح الدين . وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنج ، والنزول على الكرك ومحاصرته ، ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه ، ويجمعها هناك على حرب الفرنج والإستيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم ، وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر ، وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز ، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو ، فلما أتاه الخبر بذلك ، رحل عن دمشق عازماً على قصد الكرك فوصل إليه ، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول إليه باختلال البلاد ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها ، فلم يقبل نور الدين عذره .

وكان سبب تقاعده أن أصبح به وخواصه خوفه من الاجتماع بنور الدين ، فحيث لم يمثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده ، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها ، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين ، فجمع أهله وقيمهم والده نجم الدين أيوب ونحاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه ، فاستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء ، فقام تقي الدين عمر — ابن أخي صلاح الدين — وقال : إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد ، ووافقنا غيره من أهله . فشتهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه — وكان ذا رأي ومكر وعقل — وقال لتقي الدين : أقعد ، وسبه ، وقال لصلاح الدين : أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين خالك ، أتظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا ، فقال : لا . فقال : والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا ، كيف يكون غيرنا ، فكل من تراه من الأمراء والعساكر ، لو رأى نور الدين وحده ، لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النزول وتقبل الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له وقد أقامك فيها ، وإن أراد عزلك فأني حاجة به إلى الحجيء ، يأمر بك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد . وقال للجماعة كلهم : قوموا عنا ، فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد ، فتفرقوا على هذا ،

وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر . ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين ، قال له : أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا المجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك ، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد ، جعلك أهم الأمور إليه وأولاهها بالقصد ، ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر ، وكانوا أسلموك إليه ، وأما الآن بعد هذا المجلس ، فسيكتبون إليه ويعرفونه قولي ، وتكتب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتقول : « أي حاجة إلى قصدي ، يجيء لنجاء يأخذني بحبل يضعه في عنقي » فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك ، واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج والله كل وقت في شأن . ففعل صلاح الدين ما أشار به والده ، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا ، عدل عن قصده ، وكان الأمر كما قال نجم الدين ، توفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله ، وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها . » (ابن الأثير : الباهر ص ١٥٨ — ١٥٩) .

٢ — نور الدين محمود الزنكي (١١١٨ — ١١٧٤) من أعظم قادة الإسلام وأبطالهم ، تابع مسيرة والده النضالية ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام ،.. وهو كما يقول كاتبنا شاندور عن ملكه ، « بأنه يمكن اعتباره بهذا الشكل أو غيره المقدمة لملك صلاح الدين »...

ويتحدث المستشرق الألماني الشهير كارل بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية بإعجاب بتلك الشخصية المناضلة الفذة ، بقوله : « والواقع أن نور الدين ورث عن أبيه صفات الحاكم الفاضل إلى حد بعيد جداً . فبينما كانت الكتلة المطلقة من الحكام الذين تصدروا لسياسة المسلمين ، طوال أجيال عدة ، يعتبرون ، ممالكهم إقطاعات واسعة يستغلونها لمصالحهم الخاصة ، كان هو أول من استشعر أنه مسؤول تجاه الله عن رفاهية رعيته . ومن هنا لم ينفق موارد الدولة الغزيرة ، التي تمت له بالإدارة البارة والتي لم تثقل كاهل رعيته على كل حال ، على تحصين بلاده وتوطيد مركزه الحربي في عالم زاهر بالأعداء — وهو ما اقتضاه نفقات ضخمة — فحسب ، بل أنفقها في المحل الأول على الشؤون الثقافية والمساجد وزوايا الدراويش ، وخانات المسافرين ، والمستشفيات ، ودور العلم . ولقد أنشأ في دمشق دار الحديث وهي أقدم مدرسة لهذا العلم ، والبيمارستان (المستشفى) الذي يحمل اسمه ، والذي لم يلبث أن نما وتطور إلى مدرسة طبية راقية . ودفن نور الدين في المدرسة المعروفة باسمه .

وكانت سياسة نور الدين تهدف قبل كل شيء إلى طرد الفرنجة . » (كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٤٨) .

٣ — وما سجله ابن الأثير في كتاب الباهر عن بعض سيرة الملك العادل نور الدين محمود ، قوله :

« قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ، ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريماً للعدل والإنصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، وإحسان يوليه ، وإنعام يسديه . وقد تقدم من أحواله في مملكته ما يستدل به على ما ذكرنا . ونحن نذكر ههنا ما تعلم به محله في أمر دنياه وآخرها ، فلو كان في أمة لافتخرت به ، فكيف في بيت واحد . » (ابن الأثير : الباهر ص ١٦٣) .

وتناول ابن الأثير في كتابه المذكور طائفة من أخبار الملك العادل نور الدين تحدث فيها عن زهده وعلمه وعدله ، وكان يعتبر أن الأموال التي بين يديه « هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتح إن كان من

عدو الإسلام» (ص ١٦٤)، «وكان عارفاً، بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصب بل الإنصاف سجيته في كل شيء» (ص ١٦٥)، ويتحدث عن عدله فيقول: «فإنه كان من أحسن الملوك سيوة، وأعد لهم حكماً، لم يترك في البلاد التي حكمها ضريبة ولا مكساً ولا عسراً بل أطلقها جميعها. وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء» (١٦٦) وكان هو أول من بنى داراً لكشف المظالم وسماها دار العدل». (ص ١٦٧).

«وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيها، فإنه كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأياً، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل في ذلك.

.. وكان رحمه الله يكثر إعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج خلدهم الله تعالى، وأكثر ما ملكه من بلادهم.

به.». (١٦٨-١٦٩).

وحين ضربت الزلزلة بلاد الشام عام ٥٦٥ هـ فتهدمت مدنها وخربت أسوارها، «فأخرج من الأموال ما لا يقدر قدره»، ولقد باشر بنفسه عمارة مدينة حلب، وأحكم أسوار جميع المدن.. (١٤٥).

وحين اتسعت رقعة بلاده، اتخذ الحمام الهوادي، لتبادل الرسائل بهدف حفظ الثغور، (ص ١٥٩).

٤ — القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي (١١٣٥ — ١٢٠٠)

كاتب. ولد بعسقلان، ومات بالقاهرة. نشأ ببيسان، ثم حضر إلى القاهرة، والتحق بديوان الإنشاء ثم كتب لابن حديد قاضي الاسكندرية، إلى أن أعجب به الخليفة الحافظ الفاطمي، فاستقدمه إلى ديوانه. اتصل بأسد الدين شيركوه عند مقدمه، ثم صلاح الدين الأيوبي، وترقى عنده حتى صار وزيره ووزير العزيز والمنصور بعده. وكان سريع الخاطر، غزير الإنتاج، تكاد تبلغ مسودات رسائله مائة مجلد. واشتهر بأنه صاحب مذهب في النثر يعتمد على التزام السجع، والإكثار من ألوان البديع، والجناس تامه وناقصه، والاقتياس من القرآن، وتضمنين الأشعار، والتلاعب بمصطلحات العلوم. وله شعر يماثل نثره في التكلف والتصنع. (الموسوعة الميسرة ص ١٣٦١).



الفصل الثامن

فتح سورية

آموري ملك القدس يحاصر بانياس

حينما علم آموري بوفاة نور الدين اعتقد أن الفرصة سانحة لمهاجمة المسلمين الذين حُرِّموا فجأة أحد أشجع قادتهم.

ففي ربيع ١١٧٤ حاصر بانياس على الطريق الكبرى بين دمشق وصور، وكانت تحمي في القرن الثاني عشر تخوم الجليل الفرنجي، ولم يتمكن من اقتحام مدخل القلعة التي تزدود عنها حامية تركية تقودها امرأة كان أحد الأمراء الدمشقيين هو ابن المقدم وضعها فيها. وكان هذا الأخير يعرف ميل آموري إلى المال وتصرّفه خلال المساومات، فأسرع إلى مقر القيادة الفرنجية، واقترح على ملك القدس أن يتخلى عن مشروع اقتحام بانياس، باذلاً له تعويضاً ملوكياً مقابل نفقاته الحربية، زحفاً وعودةً إلى بلاده، وكذلك فك إيسار آلاف الفرنجة وتحريرهم من أن يظلوا في أعماق سجون دمشق الباردة.

فاتفق المتناظران، ورفع آموري الحصار عن بانياس وقبض المال بكثير من التهذيب. وبعد أن وقع هدنة غير مشرّفة مع المسلمين السوريين عاد إلى القدس ليحل فيها مشكلة قائمة

بين سنان شيخ الحشاشين الإسماعيليين الذي تحدثنا عن شخصيته المقلقة، والمعلم الأكبر للهيكليين.

الصراع بين الإسماعيلية والهيكليين

ذلك أن الشيخ سنان الذي كان قد زوّد أتباعه المتحمسين بجهاز إرهابي مخيف، أخبر آموري أن أتباعه لا يجدون شيئاً أفضل من اعتناقهم النصرانية وارتدادهم عن الإسلام شرط إعفائهم من ضريبة الألفي دينار ذهباً التي كانوا يدفعونها سنوياً للهيكليين طرطوس بموجب معاهدة حسن جوار. وارتاح آموري مطمئناً لمثل هذه القرارات الجيدة المفاجئة وأطلع عليها الهيكليين مقترحاً عليهم إبرام الصفقة على أن يعرضهم من ماله الخاص دخل الألفي دينار، وحين بلغت الأمور هذه النقطة، أخبر آموري سفير الإسماعيليين بجوابه الإيجابي للشيخ الطاعن في السن. إلا أن الهيكليين — خاضعين لدوافع غير معروفة — عملوا على قتل المبعوث الإسماعيلي مع الضابط الفرنجي المكلف بحمايته. فأثارت هذه الجريمة الشنيعة غضب المسلمين والمسيحيين على حد سواء. ولكون الملك قد أهدى طلب معاقبة المذنب بالموت شنقاً، ولكن الهيكليين رفضوا تسليمه وأعدوا بإرساله إلى روما ليحصل على الحل من خطيئته، مضيفين إلى ذلك أنهم ليسوا مسؤولين عن سلوك رجال الدين في منظماتهم إلا أمام الله وتجاه البابا.

انقسام الممالك اللاتينية في الشرق

ولكن آموري صمد جيداً، وشخص إلى صبياء حيث كان يقيم سيد الهيكل ومجلسه، واستولى على قصر الهيكل عنوة وقبض غوثيه دي مينيل مقترف الجريمة أو الموحي بها، وبلغ الغليان ذروته، إذ قابل الهيكليون والاسبتاريون وسائر المنظمات البالغة الحرص على ألا تمس امتيازاتها القديمة، وعلى أن يكونوا وحدهم سادة المناطق الخاضعة لقضائهم، قابلوا بالاستياء هذا التصرف السلطوي الملكي. وامتد النزاع بعيداً، فانقسمت الممالك اللاتينية في المشرق مرة أخرى دون أن تهتم بمغبة العواقب الوخيمة لهذا الانقسام غير المناسب. حينذاك سقط آموري في ١١ تموز (يوليو) ١١٧٤ متأثراً بحمى زحارية انتابته خلال حصار بانياس، مخلفاً وراءه — في الواقع — وضعاً داخلياً مرتبكاً، إنما يجب الاعتراف بحزمه وبجرأة آرائه فيما يتعلق بالسياسة الخارجية.

سياسة آموري الخارجية في المشرق

لم يكن آموري ينقصه المتفهمون لسياسته في المشرق، فقد سبق لنا أن رأينا كيف شجع فاطمي مصر المعادين لصلاح الدين. وكان اسماعيليو سورية مخلصين له بسبب موقفه في قضية الهيكلين؛ كما وقع في بانياس هدنة مع سلطنة دمشق. وأخيراً أقنع امبراطور بيزنطية بضرورة استعادة مصر وإقامة مملكة فرنجية فيها؛ وعرف كيف يقيم لنفسه نقطة ارتكاز عند المسلمين. صحيح أن اللعبة لم تكن سهلة، ولكن من الممكن جداً أنه لو عاش مدة أطول لوجد فيه صلاح الدين لاعباً قادراً على إفساد نجاحه، وخاصة أن يمنع عليه سورية.

بلدوين الرابع ملكاً للقدس

وارتقى ابن نور الدين اليافع عرش دمشق، ودفعت مقاليد حكم مملكة القدس لبلدوين الرابع ابن آموري من زواجه الأول بأنيس بنته جوسلان دي كورتناي. ومنذ التاسعة من عمره أصيب هذا الصبي بالجذام؛ وكان ملوكه التعيس القصير الأمد— إذ مات في الرابعة والعشرين من عمره— احتضاراً طويلاً، احتضاراً متواصلًا وهو على صهوة جواده يُصارع المسلمين.

لقد كان تجسيدا مثيراً للشفقة وإدارياً جديراً بالعظمة الملكية، التي طالما أسوء استعمالها. فظل هذا الملك الناحل المخدم طوال حياته عبد واجباته المسيحية في حقبة مأساوية من تاريخ الممالك اللاتينية في سورية. فبالصورته المدهشة! فهذا اللهب الذي كان ينسيه آلام جسده المضنى المسكين، أوحى الثقة إلى محيطه، فكان حقيقة بطلاً أسطورياً. فملك القدس الصغير هذا، هذا الطفل البطولي، الذي كان يفترسه ألمٌ ممض يجعله يتعفن حياً، كان من رسوخ المشيئة—وقد عجز عن الثبات على سرج جواده— بحيث يتابع راقداً في سريره البائس مراحل المعارك التي ستدور رحاها في مواجهة صلاح الدين. فكان وهو يحتضر مشحوز الإرادة يقود فرسانه في المعركة منهكاً أعداء دينه، ووراثن الداء ناشبة فيه تنهكه.

الصراع على الوصاية

ومنذ أن اعتلى عرش القدس، اجتمع البارونات ليعينوا له وصياً، فتقدم مرشحان: ميلون دي بلانسي وهو فارس وقح بلا فضيلة، ولا وازع من ضمير، وكونت طرابلس ريمون الثالث الذي يرتقي نسبه مباشرة إلى الكونت دي سان جيل الذي اشتهر إبان الحملة الصليبية الأولى، وواقى الحظ ميلون دي بلانسي فعين وصياً على المملكة، فشحن الجو بالبغضاء فيما حوله لزعمه بأنه سيحمي السلطة الملكية، غير عالىء بامتيازات ذوي الحقوق المكتسبة. فذر على الفور قرن المعارضة ممثلة برأسها كونت طرابلس ريمون الثالث المغضب لاستبعاده من الوصاية؛ وكان هذا الأخير يتمتع بشعبية في صفوف البارونات الفلسطينيين، بل هو أكثرهم نفوذاً لأنه ضم إمارة طبرية إلى كونتيته الوراثية طرابلس، وليس هذا فحسب، بل تقدم — أمام مجلس بارونات مختارين من بين أصدقائه — يطعن بذلك القرار الذي أعطى حق الوصاية خصمه. وكانت القضية مازال عالقة، حينما ورد نبأ مفاده أن ميلون دي بلانسي وجد في أحد أزقة عكا تخترق جسده الخناجر بعد صلاة العصر، فأسندت الوصاية فوراً لريمون الثالث.

كانت المهمة شاقة، ففي مملكة فلسطين الجميلة هذه، كان البارونات المتهربون والوقحون لا يعبؤون بأوامر الملك، وانصرفوا يشيدون القلاع بهدف حماية إقطاعاتهم من المسلمين، وللإستقلال تجاه السلطة المركزية على حد سواء، ولم يكونوا يقاتلون إلاّ توسلاً لتوسيع ممتلكاتهم، ينفسون على أندادهم سلطتهم، ويطمحون إلى الانتقاص منها توسيعاً لدائرة نفوذهم. ترى أين غدت — في خضم خلافاتهم المادية العديدة هذه — مبادئ أجدادهم، وذلك الإيمان المتوهج البالغ النقاء لدى الصليبيين الأوائل الذين كانوا يلفظون راكعين اسم القدس هذه البعيدة التي كانوا يحلمون بها في كل بلاد الغرب، والتي رووا أرضها المقدسة بسخي دمائهم.

والتنظيمات الدينية ذاتها بدلاً من أن تستنكر نشاط البارونات المشؤوم هذا، وتكبح من جموح مطامعهم في السلطة، وتشهر بدناءاتهم، كانت هي بالذات قدوة سيئة في تدني القيم المعنوية تدنياً حقيقياً. فهؤلاء الاستباريون وهؤلاء الهيكليون الذين التحفوا بالأعجام عهد

حماسة الصليبيات الأولى وغضباتها، والذين برهنوا على تناهي البذل والإخلاص والإيثار غدوا الآن يتأثرون بالوسط المفسد، فانقلبوا مخادعين، أنانيين، مغتصبين. فشرعوا يرفضون دفع ضريبة (عُشر) الغنائم التي تؤخذ من المسلمين، وصاروا من القحة بحيث يجزؤون على معارضة القرارات الكنسية لبطريك القدس «حتى إنهم — كما يكتب جاك دي فيتري في كتابه تاريخ القدس — دثسوا الأماكن المقدسة، وارتفعت جلبة أسلحتهم بقعقتها تُخفت من الأغاني الكهنوتية في كنيسة القيامة؛ فلم يكن يشغل بالهم إلا الثراء، والثراء وحده؛ وتعودوا أن يطالبوا بنصف المدن أو المناطق التي كانت تستمد عونهم». تلك هي حالة مملكة القدس حينما ورثها بلدوين الرابع.

فشل الفرنجة أمام أسوار الاسكندرية

وبينا كان الملك المجذوم والوصي يعملان على توطيد النظام في مملكتهما، كان صلاح الدين يتلقى أول هجوم جدي للفرنجة. ففي ٢٨ تموز (يوليو) ١١٧٤ ظهر أمام الاسكندرية أسطول غيوم الصقليّ يقل ثلاثين ألف رجل، والوفير من آلات الحرب وعدتها، وكان الأمر كما يقول صلاح الدين «لقد قلق سكان الاسكندرية على مصيرهم، حالما شاهدوا وصول هذا الاسطول البالغ الخطورة والقوي التسليح. وألقى الاسطول بمراسيه قرب المنارة. وخرج فرسان الفرنجة من المراكب يتبعهم المشاة، وما إن وطئت أقدامهم البرّ حتى هاجموا حامية المدينة هجوماً هو من الشراسة بمكان، ودفعوهم حتى أسفل أسوارها. وبعدها عبرت مراكبهم بالمجاديف إلى المرفأ. وأحرقت بعض سفن المسلمين التجارية، واستمرت المعركة محتدمة حتى المساء. وفي صباح اليوم التالي شدّد الفرنجة الحصار على الاسكندرية ورموها بالقذائف، وحاولوا ثلاث مرات اقتحام أبوابها لكنهم ردّوا على أعقابهم.. وانتقموا من شجاعة جنودنا بذبح الأسرى وإحراق الحقول المجاورة. وكان رجالنا — بدورهم — يلبحون الفرنجة الذين يقعون في أيديهم ويمثلون بجثثهم».

هذا وقد أنقذ الميناء المصري الكبير من السقوط بفضل النجدة السريعة التي استدعاها صلاح الدين؛ فما إن شاهد غيوم الصقليّ طلائع قوات صلاح الدين حتى أصدر أمره إلى جيشه بالعودة إلى مراكبه، وبعد بضعة أيام كانوا يقلعون شمالاً.

الانقسامات الداخلية في الدولة الزنكية

أما في دمشق فكانت الفوضى ماثلة لتلك السائدة في القدس ولأسباب ذاتها، إذ كانت تثار حول ابن نور الدين — الذي ورث سلطنة أبيه وهو دون الحادية عشرة — المنازعات بين أقاربه وأمرائه ومستشاريه الذين شرعوا يكتمون أنفاس المزعجين من غرمائهم، ويقلبون الملاكات الإدارية في البلاد، ويجزئون هذه المملكة الزنكية لسورية التي حصنها بصبر وأناة نور الدين الوالد الذي لم يجف ثرى قبره بعد. وكانوا يمعنون في خيانة الفتى الذي كان له — على حد قول أحد معاصريه — من السادة أكثر مما له من الرعايا المخلصين. وراح بعض الرجال من أصحاب العقول الراجحة والبصائر النيرة، ممن أفلقتهم مغبة العواقب المحتملة لتلك الفوضى، راحوا يتساءلون عما سيؤول إليه مصير سورية المسلمة — وتلك حالتها — إذا ما واجهت الممالك الفرنجية في المشرق التي يمكن أن تضع في المرتبة الثانية منازعاتها الداخلية إذا تراءت لها إمكانية تحقيق النصر بالهجوم على دمشق المفككة، وليس هذا فحسب بل شرحوا لصلاح الدين حراجة الوضع في سورية طالبين رأيه دون أن يخفوا رغبتهم في أن يروه يلعب دوره السياسي بطلاً للإسلام في سورية — كما هو في مصر —.

وكان تصرف صلاح الدين إزاء تلك العروض حذراً، فطلب مهلة للتفكير بغية أن يأخذ على عاتقه مجدداً تحقيق المطمح الكبير لنور الدين: طرد الفرنجة من سورية.

صلاح الدين يدخل دمشق

ومن المثير للاشمئزاز — في الواقع — أن تعدد المؤامرات المعقدة التي حيكت في كل من دمشق والقاهرة ضد هذا المشروع، وما تتصف به مغامرات الأمراء من نوازع الغيرة والحسد التي لا يعرفون سبيلاً لدفعها، أو مغامرات الوزراء الذين يخشون جانب صلاح الدين قدر خشيتهم ملك القدس، ناهيك بقلقهم من روحيات وجيئات هؤلاء وأولئك، فتلازمهم هواجس القلق الممض، غير عارفين وهم في مناصبهم أي قوِّي يوالون لشدة ما يكتنف المستقبل من غموض. ولم يكن صلاح الدين على عجلة من أمره في قبول سلطنة دمشق لئلا يُظن أنه يسعى إلى الحلول محل ابن سيده السابق نور الدين. كان يُفضّل أن يتوجه إليه بالرجاء، ولم يأخذ طريقه إلى دمشق إلا بعد النداءات الحارة التي بعثها إليه أنصاره فيها،

فغادر القاهرة على رأس سبعمائة من فرسانه الأكراد متوجهاً صوب خليج العقبة . لتفتيش قلاع سيناء ، واجتاز دونما ضجة وادي عربة عبر المواقع الفرنجية ، ثم مرَّ ببصرى ودخل دمشق ، يوم الثلاثاء ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٧٤ ؛ وسط ترحيب الشعب المسرع إلى تحية هذا الرجل الذي شرع يعتبره منذ الآن بطلاً . ولم كانت فرحة صلاح الدين غامرة بأن عاد إلى تلك المدينة المقدسة ذات المائتين وخمسين جامعاً حيث قضى فترة يقاعته ، وبأن يتملّى سحر هذه الواحة التي كانت تعد في الآداب العربية إحدى أربع أجمل بقاع الأرض ، وفردوس الشعراء الذي تسقيه مياه بردى المترققة ، ذلك النهر الموزع على الحمامات والجوامع وساحات البيوت ، في خريف أبديّ للسواقي التي نجدها لدى كل خطوة . لقد تذكّر المدارس الشهيرة التي كم تردد إلى صفوفها أو كتاتيب الجوامع الهادئة حيث درس بحماسة في مصاحفها الفخمة المزينة ، لقد رأى ثانية ذلك البلد المزدهم بالحشود المتعددة الجنسيات ، وشهد تلك الحركة البطيئة لسير القوافل المثقلة بكنوز الأرض منتبهة إلى تلك الأسواق الضيقة لتتكسّد فيها منتجات جميع الأمصار تذكّر مآسي تاريخه ، والحرائق وأعمال النهب ، وعظمة دمشق في عهد العباسيين ، ولم يكن يشعر بالغربة في هذه المدينة ، وما دام الله قد أخذ بيده إلى ذروة السؤدد والعظمة ، ووضع بين يديه سيف الإسلام ، فقد قطع على نفسه عهداً بتوحيد سورية وتجميع قبائلها في سبيل الجهاد المقدس^(١) .

وأعلم صلاح الدين السوريين ، في بيان له بأنه لم يأت إلّا لإنقاذ ابن نور الدين ، السجين في حلب وتخليصه من قبضة وزير تربّي في القصر ، ومراقبة تربيته السياسية . وبالتأكيد كان لإلغاء عددٍ من الرسوم الجمركية أثر أعمق .

استيلاء صلاح الدين على المدن السورية عنوة

بعد أن أعاد صلاح الدين تنظيم المصالح الإدارية في دمشق توجه إلى الشمال السوري صوب حلب الشهيرة بقلعتها القديمة التي بناها الحثيون . وكان يفترض أن يشرع له حكام المدن التي سيمر بها الأبواب على مصارعها حالما يظهر في الأفق ، ولكن الأمر لم يجر على هذا النحو ؛ مما دفعه لأخذ هذه المدن عنوة الواحدة بعد الأخرى . ففي كانون الأول (ديسمبر) ١١٧٤ استولى على حمص (إيمزا القديمة) التي أسسها في زمن سالف سلوقس نيكاتور

المشهور ، حينما استُدعي « الياغابال » الكاهن الأكبر الشاب لمعبد الشمس ليتولى سدة حكم
الامبراطورية . وعلى أبواب هذه المدينة أباد « أورليان » في معركة لا تنسى جيش الملكة زنوبيا
مكلاً نفسه بالأجناد ممهداً أمامه طريق تدمير .

وسلك صلاح الدين صعوداً طريق وادي العاصي حيث تكثر الحُميات ، والذباب ذو
الرأس الزمردي وأسراب البعوض التي لا تحصى ، مما يجعل الإقامة مستحيلة . ودخل حماة
المدينة المغرقة في القدم التي نجد اسمها في النصوص الآشورية وفي العهد القديم ، وكانت تدعى
أقامية في عهد أنطيوخوس الرابع ابيفانوس ، وظلت بعد الفتح العربي ردياً طويلاً مركزاً هاماً
للدين المسيحي . « وكان سكان حماة — حسب قول أحد المعاصرين — يحتفلون بعيد الفصح
سنة أيام . وترتدي النساء حينذاك الثياب الأنيقة ، ويصبغن البيض ويُعددن الكعك
والبسكويت . ويؤم سكان الضواحي حماة وينزلون ضفاف العاصي حيث ينصب الحمويون
الخيام ، ويجلبون المغنيات محمولات في السفن ، ومن ثم يبدأ الرجال والنساء الرقص طوال الأيام
الستة ، وتحدث خلال هذه الرقصات مشاهد من التجاوزات التي تذكر بممارسات طقس
أدونيس ، كما يحتفلون بدخول الشمس برج الجدي ، وهذا ما لم ألاحظه في أية مدينة سورية
أخرى ، وفي ليلة الميلاد يوقدون المشاعل على الأجاجير ، ويحرقون البارود والنفط ، ويتراكم
البدو من أعماق البادية المحيطة لمشاهدة هذه المدينة التي تبدو وكأنها تحترق وتنطفئ تحت
جناح الليل الصافي لسمواتنا » .

أمام أسوار حلب

وفي ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١١٧٤ عسكرت قوات صلاح الدين أمام حلب ،
أقدم مدينة في العالم ، وما تزال قائمة في أيامنا ، مسكونة مزدهرة ، بعد أن شهدت تحت
أسوارها أوسع هجرات شعوب العالم القديم ، منهم الحثيون القادمون من الأناضول منذ
ماينيف على أربعة آلاف سنة ، أولئك المؤسسون لإمبراطورية ذات حضارة راقية ، التي انهارت
بصورة بالغة القسوة والتي لم نعرف إلا لماماً عن مجدها أو مدة ديمومتها . والخوريون Khourrites
المتحدرين من القفقاس المتجهين جنوباً نحو مصر ليغمرها بموجة بشرية عارمة ، والميتانيون
المنفصلون في سورية عن قومهم الهنود — أوربيين — والآشوريون ذوو القوة العسكرية التي

لا مثيل لها في سالف العصور، والذين سلكوا سياسة منهجية لاستعباد الشعوب بتوسلهم الإرهاب، سبيلهم إلى ذلك، مما أتاح لهم أن يخضعوا جميع الامبراطوريات المجاورة. والفرس الآشمنيون الذين طردهم بدورهم مقدونيو الاسكندر الأكبر الذي كان سيفتح في المشرق عهداً تاريخياً جديداً باتجاه لا يُدرك تطور مسيرته. والمستعمرات اليونانية لسوقس نيكاتور الذي أسس بمفرده خمسين مدينة، كانت نوى لزوية من الدول الذاتية الحكم. وكان هذا الانفجار من الشعوب الفاتحة ما يزال قائماً في حلب الراسخة على صدر المعمورة، بينما انهار حولها الكثير من العواصم مثل نينوى وبابل. وغدت حلب التي أحاطت نفسها بالأسوار العديدة أهم مركز سوري للهيلينية التي عمت تقريباً مختلف شعوب الشرق التي أخذت بسحر نفوذها، والتي ما يزال تاريخها مرتبطاً بتاريخ الحضارات المتوسطية. إنها تسمع الضجيج المكتوم لكتائب بومبي وديوقليسيان الحاملة معها عهداً من السلم والازدهار تحت حكم مندوبي مجلس الشيوخ الرومانيين المقيمين في أنطاكية الذين طوّروا إنجازات السلوقيين، فنتج عن ذلك هَلَسَسة البلاد بصورة أوسع وأعمق. وكان لانهباء روما صدهاء وانعكاسه في حلب. فالفوضى التي كانت تدمر الولايات الأوربية من الامبراطورية الرومانية أمنت للتجار الحلبيين مصدراً إضافياً للأرباح فأثروا من جرائها لإثراء فاحشاً. ثم واجهتهم أيام من المحن على أيدي العرب المجتدين لدى الفرس الساسانيين، وبسبب الهزات الأرضية ورجال قبائل الهون الذين أجّلوا السكان وأحرقوا حلب ودكّوها رأساً على عقب، وأخيراً، أفاء العرب من انهيار العالم القديم فانتزعوا سورية وفتحوا حلب بلا قتال. ولم يتغير عامل تطور المدينة إلا بصورة تدريجية، وبانتقال غير محسوس. وفي ظل الحكم العربي، ظلت حلب تتداولها الأيدي انتقالاً من يد إلى يد حتى إنها — ذات مرة — بدلت سيدها ثلاث مرات في ثلاثة أيام. وكانت الفوضى تعمها في أعقاب الحروب الأهلية. ومن ثم عرفت عهداً من مؤامرات البلاط، وزحفت إليها عصابات من الأتراك لتقيم فيها، عارضة خدماتها المزبكة القاسية على أمراء الإسلام. مقترفة الجرائم، ومخلقة وراءها المآسي، مما حمل أعداداً غفيرة من السكان على الهجرة إلى ما وراء الفرات، مخلفين وراءهم مدينتهم لتكون عرضة للهجوم أو الحصار اثنتين وعشرين مرة في أقل من قرن واحد.

وهكذا فإن مركز حلب، الواقعة على ملتقى تقاطع وحدات جغرافية واسعة وتجمعات

بشرية كبيرة؛ كان وراء حسن حفظها أو سوء طالعها اللذين هما على الدوام صنَّع طرق
المواصلات التي تكوّن هي مفترقها. وكانت الأعجوبة تكمن في قدرتها على البقاء عبر هذه
الامبراطوريات العديدة، وأن تزدهر رغم غزوات الشعوب التي عفت — في كل مكان آخر —
على حضارات كاملة، وأن تنمو طوال أربعة آلاف سنة على تخوم هذه الامبراطوريات
الآسيوية، هذه البناءات السياسية المؤقتة التي شهدت ولادتها ونهايتها وسط قعقعة أسلحة
الجيوش. كما شهدت الحشود البشرية الهائلة من كل جنس تمرّ بسهولة، من رماة السهام
الآشوريين حتى صليبي الغرب. أية آلهة إذاً حمت حلب عبر هذه السلسلة الطويلة من
القرون؟ هذه المدينة التي رأت الكثير من الآلهة، وظلت حية متجددة الشباب، بينما انهارت
نينوى في اللهب، وامحت بابل في الصحراء، وغدت مدن شهيرة غيرها لا تكاد تذكر بذاكرة
البشر.

وحينما ظهر صلاح الدين مع أكراده أمام أبواب حلب كانت المدينة في إحدى حقب
ازدهارها. ففي الخمسين سنة كانت الأنقاض المادية التي ركمها الأتراك قد أعيد بناؤها، إذ
جدّد نور الدين بناء الجامع الكبير الذي أحرق عام ١١٦٩، ورّم القلعة والأسواق. كانت
الأبنية الجديدة ترتفع بكثرة والدخول السنوية الوفيرة للمدينة تدل على نشاطها العام. وتتيح
لنا هذه المداخل أن نحكم بأن تجارتها كانت مزدهرة بقوافل جمالها وبأسواقها المالية ودباغاتها
وأسواق نخاستها، وخاناتها المترعة بملح بحيرة الجبول، وخمورها وحريرها وتوابلها، وأدوات زينتها
المصرية، ونباتاتها الصينية وجلودها وخلاصات الخشب الثمين والأفيون والعطور والأقمشة
العجمية منها والهندية والموصلية، والمتارف والأدوية والأسلحة. وكان إشعاعها الديني يؤمّن لها
مكانة مميزة في سورية. كان مجتمعها الإسلامي السنّي واعياً ماهو عليه من مكانة، فكان
نضاله ضد البدعة وانتصاره النهائي، ودعم الأمراء الرسمي إياه، وانتشار التعليم الديني، وصعود
موجة التصوّف والتشدد في وحدة العقيدة المستعادة، جميع هذه الأمور كانت بمثابة براهين
لكل مسلم على المنزلة الأولى للإيمان، كما كانت — وبالقدر ذاته — أسباباً لتأجج الشعور
الديني. وفي حلب غدا الإسلام السائد أكثر تعالياً وأشدّ تصلباً منه في أيّ مكان آخر في
سورية، فكان نزاعاً على الدوام لاتخاذ موقف كفاحي، وله وحده حق المواطنة في المدينة التي
غدت — بكل ما في الكلمة من قوة المعنى — مدينة مسلمة، والبؤرة المتأججة للإسلام

المناضل ، المتشدد والمنهجي . هذا وإلى جانب الجامع الكبير الذي أعاد بناءه بفخامة نور الدين التقيّ شيدت مدارس قرآنية وتكايا دراويش وأخذت الأمانة الدينية تتضاعف كل يوم . وبدوره كان القانون صارماً ، فكل من يحيا في ظل المجتمع الإسلامي — من الذميين — عليه أن يحيا حياته بصمتٍ ومتوجس الخشية .

وحيثما شاهد سكان حلب قوات صلاح الدين تتمركز على أبواب مدينتهم لم يعرفوا أي موقف يتخذون .. فالوجهاء وأكثرهم من التجار أخذوا يتخيلون الحرب وأهوالها والحصار ونهب الأسواق المكسدة بالبضائع . وقارنوا بين قوة صلاح الدين وقوة ابن نور الدين ، وفضلوا الخضوع لسيّد ماهر قادر على إدارة مصالحهم إدارة شريفة ، بدلاً من أن يخضعوا لحكم غلام يديره وصيّ ناشئ في القصر ، فاقترحوا التسليم . أما الأمراء فكانوا مترددين ، واشمأز السلطان الشاب من ثرثرة الأولين ، وتردد الآخرين فقرر مخاطبة الحلبيين مباشرة ، فتوجه إليهم بخطاب ، لا ينقصه الحزم مبرزاً رأيه في صلاح الدين إبرازاً استثنائياً : « أيها الحلبيون الذين أحبهم والذي دائماً ، لا تتخلوا عن ابنه الذي يطلب تأييدكم . وخائن ذاك الذي انتشله نور الدين من الحضيض ، فلم يكتف بأن اغتصب مني أملاكه ، وهامو ذا اليوم يريد أن يطردني من ملاذي الوحيد المتبقي لي . إنه يطاردني حتى الموت كيلا يحول حائل دون مطامعه ، أيها الحلبيون أنتم أُملي الوحيد . دافعوا عني ضد خدمي الذين أصبحوا أعدائي ؛ إلا إذا كنتم تفضلون أن تلقوا بي عند أقدام هذا الكردي المتوحش » (٢) .

وعندما سمع الجمهور هذه الكلمات أخذته الشفقة بالأمير الصغير ، وتمكنت من جرّ جماهير الأسواق المتحمسة إلى حثّ الجنود المترددين للدفاع عن المدينة . واضطر صلاح الدين أمام صمود حلب ، والصعوبات التي أثارها الفرنجة في مؤخره جيشه أن يرفع عنها الحصار .

العودة إلى حصص

وحيثما شرع صلاح الدين يفكر في الانتقام وحشد قواته ، علم بأن حاكم حصص المسلم يتفاوض من وراء ظهره مع الفرنجة ، بمبادرة رمون الثالث كونت طرابلس الذي أدرك أن وجود سيد مصر في سورية يهدد فرنجة المشرق . وكان الوضع جلياً ، وغدا من الأهمية بمكان وضع

العراقيل أمام قوة صلاح الدين الصاعدة بأن يعلن كونت طرابلس نفسه حامياً لابن نور الدين الضعيف وتأييده مزاعم هذا الأخير الشرعية ضد مزاعم ابن أخي شيركوه .

ولهذا جمع رمون الثالث قوة من المتطوعة ، وظهر أمام حمص حيث كان له عدد من الأصدقاء داخل الموقع فحرضهم على إعادة تسليم المدينة لحكامها السابقين ، وكان يريد بهذا أن يقطع الطريق على قوات صلاح الدين المنسحبة من حلب . وهكذا أحبط فتح مدينة حلب ، ولكن ظهر صلاح الدين أمام حمص بعد يومين من وصول كونت طرابلس ، فطرد فرسان الفرنجة كما يطرد سرب من عصفير الدوري . وشخص إلى أنطاكية فدمّر نواحيها انتقاماً من نوايا الفرنجة المعادية . أما كونت طرابلس فانكفأ إلى معقله يحتمي وراء أسواره : قلعة الحصن المنيعة ، محققاً بذلك هدفه حين أجبر صلاح الدين على رفع الحصار عن حلب ، وعلى التخلي عن فكرة الاستيلاء على المملكة الزنكية ، مملكة ابن نور الدين ، وبالتالي دعم امبراطوريته المصرية — الشامية على المحور السياسي حلب — الموصل . وكان هذا التحرك — الذي قام به كونت طرابلس يمثل بدقة تحقيقاً للسياسة المقدسة التي دشنها فيما مضى فولك ، والتي تقتضي أن تحقق الغايات بأقل ما يمكن من الوسائل بحمايته أمراء دمشق ضد تطلعات نور الدين زنكي ؛ للحيلولة — وبأي ثمن كان — دون قيام تحالف بين الأمراء المسلمين ضد الممالك اللاتينية على الشاطئ اللبناني .

الفرنجة يهددون جنوبي سورية

هذا وتزامنت محاولة حمص مع تدخلات أخرى للفرنجة في الأراضي الإسلامية ، إذ عبروا الأردن وأحرقوا غلال المسلمين واغتصبوا نساءهم ، ودمروا عدداً من قراهم ، وبعد ارتكابهم هذه الأعمال القذيمة عادوا ليتمتعوا بقسط من الراحة ولينعموا بملذات القدس قبل أن يستأنفوا — على نطاق أوسع — حرب الغنائم تلك . كما اتجه بلدوين الرابع — وكان في الخامسة عشرة من عمره — نحو صيداء وتقدم صوب البقاع ، هذا الوادي الرائع الجمال حتى ليخيل للمرء حسب ما كتب غيوم الصوري : « أنه يرى فيه نهراً من اللبن والعسل » . وانتقل الوصي من جبيل عابراً جبل لبنان والتقى ملك القدس في سهول دمشق ، وبعد أن هزم بلدوين الرابع أنخا صلاح الدين وصل إلى مسافة خمسة كيلو مترات من المدينة الشهيرة ، وتحديداً إلى قرية

داريا، لكنه لم يتمكن من دخول دمشق، وعاد إلى مملكته، وهكذا بينما كانت العقبات
تعرض مسيرة صلاح الدين في شمالي سورية، كانت مملكته مهددة في الجنوب.

في ظل أعمدة بعلبك

وانحدر صلاح الدين في وادي العاصي واستعاد بعلبك التي قضى فيها ردهاً من سني
شبابه برفقة والده. وفي ظل الأعمدة العملاقة لهيكل جوبيتر كان يستطيع أن يرى بشيء من
الفخر، الطريق التي سلكها منذ ضحى عمه مرغماً إلى مصر؛ وذهب في موكب احتفالي
إلى خرائب المعبد الفخم. ترى ماذا كان يدور في خلده أمام هذا الإنجاز البشري العملاق؟
رمز عظمة البشر وأوهامهم. أين أصبحت بعد كل هذه الاضطرابات، تلك الشعوب
الأسطورية التي توهمت أنها تبني للخلود، وتحقق في الرخام والصوّان الحلم السرمدي لوجودها
المستحيل. وأمام مذابح الهياكل هذه المقفرة الآن حيث كان مقدمو الأضاحي القدماء
ينذرون أضاحيهم العذراء دفعا لغضب الآلهة أو استنزالا لرحمتها. ترى هل رأى صلاح الدين
في هذه الخرائب الشهيرة للمدينة القديمة مواكب الملوك والمحاربين والأباطرة الزاحفين من
الشمال والشرق والغرب أو القادمين من وراء البحار أو مقبلين خروجاً من أعماق الصحارى،
أولئك الذين لا يُقهرُونَ من ذوي الأجداد الصاخبين تيهاً بأناشيد انتصاراتهم في ظل هذه الرينة
المهلوسة لتلك الهياكل التي شيدها شعب من الآلهة؟ أوّاه ياجوبيتر الهيلوبوليتي حامل
الصاعقة رمز الشمس، وسنابل القمح رمز الوطن الأم.

وهل أقلقت تلك النيران الدائمة الاشتعال في هذه المدينة المبنية من أجل مجد جوبيتر،
نفس صلاح الدين؟ ياله من درس تاريخي قاسٍ اندثار هذه المدن الآسيوية: عمريت
وحضارتها المشحونة بالأسرار (حضارة البحارة). طرابلس ومعابدها، صور وأعمدتها
الزمرّدية، صيداء وميناؤها البحري، وأبعد منها جبيل وأنأى كذلك نينوى، وأبعد مطرحاً
برسيبوليس (مدينة فارس)، وغيرها وغيرها كثير، ليس لها أوايد تشهد على عظمتها بل هي
مجرد خرائب مبعثرة كثراب الموقى اندرست وأُمّحت لتحل محلها مدن أخرى منبثقة من
الليل، أو غابات وكثبان ورمال. هل دار بخلده أن الشعوب في سباقها الجهنمي المتجدد على
الدوام تعيد الآن تاريخ الإنسانية في مسيرة عبثها هذه.

الحلف الجديد ضد صلاح الدين

وظهرت أمام صلاح الدين تعقيدات أخرى. فبعد اخفاقه في حملة حلب، وظهور الفرنجة عند أبواب دمشق، كان عليه أن يعترف بأن وضعه في سورية غير مستقر. فالملك الصالح ابن نور الدين يودُّ بغية ترسيخ مملكة حلب، أن يحالف سيف الدين غازي، حاكم الموصل، وكان غرض هذا التحالف مصنوعاً صراحة في ثلاث نقاط: التخلص من صلاح الدين، وإعادة سلطنة دمشق إلى صاحبها الشرعي الملك الصالح، واقتسام مصر وواردات المكوس. وكان الوقت يبدو لهما جد مناسب لترجمة هذه النوايا السياسية إلى وقائع، ذلك لأنَّ قوات صلاح الدين — بسبب تركه حاميات لها شأنها في وادي النيل — قليلة في سورية، لكنها بالمقابل قوات موالية إياه ولأهـ أعمى.

وبحكم المؤكّد، لم يكن صلاح الدين يستطيع القتال بأن معاً ضد الأمراء السوريين المخلصين لابن نور الدين وضد حاكم الموصل وبلاد ما بين النهرين التي هي مستودع زاخر بالرجال، وضد الفرنجة القادرين على الإفادة من إرباكه.

وبالتأكيد فإنه سينهار أمام هذا الحشد من الأعداء لو أن سلطان حلب المجرد من سلطته استند إلى مستشار حاذق، وكان حاميه لسوء طالعـه يخشى جانب صلاح الدين قدر ما يخاف حاكم الموصل، والذي لم يشأ خشيـة أن يفقد مركزه الممتاز أن يتورّط مع حليف قادر على تجريدـه من الحكم. ولذا كثيراً ما كانت المفاوضات تنقطع بسببـه ليعاد استئنافها من جديد، وكان سوء طويته من الجلاء حتى قرر سلطان الموصل الشخصـوـص إلى حلب لمقابلة الملك الصالح؛ ولكنه لم يذهب وحده، بل اصطحب معه حاشية مهيبة تضم أمير الجزيرة العليا وديار بكر وقوات ممّا بين النهرين حشدـها ارتقيـو كيفـا وماردين، وتوجه كل هذا الحشد الجيد التسليـح في صـحـب صوب حلب.

هزيمة قوات أمير الموصل وأرجحية المنتصر

وحين أصبح على بعد خمسين كيلو متراً من المدينة هاجمته قوات صلاح الدين، ولتساوي شجاعة الفريقين ظلت المعركة طويلاً سجالاً، وبدلاً من أن يسارع ابن نور الدين

ووزيره لشد أزر سلطان الموصل آثرا الاختباء في مكنهما، وكانت النتيجة أن هُزمت قوات الحليف واستولى المنتصر على أمتعته وخيامها الفخمة، ووقع عدد من أمراء ما بين النهرين أسرى، لكن صلاح الدين عاملهم بمنتهى الأرحمة، وأرسلهم معززين إلى قبائلهم البعيدة، وأمر بأن يعالج على حسابه المرضى والجرحى الذين تخلى عنهم سيدهم، وبهذا اكتسب شعبية واسعة ظلت أمداً طويلاً تتردد على ألسنة شعراء البادية.

الاستيلاء على حلب وشمال سورية

ولكيلا يفقد ثمن انتصاره اخضع صلاح الدين جزءاً من سورية العليا فاحتل منبج — الشهيرة قديماً بعبادتها الإلهين السوريين حدد وآثار غاطس —، وبزعة التي تسيطر بقلعتها البيزنطية على طريق اللاذقية، وإعزاز التي شهدت مرور غربات آشور بانيبال. وأمام هذه البلدة الأخيرة، كاد أن يذهب ضحية جريمة سياسية أعدتها ضده حركة الحشاشين أو الاسماعيليين التي يتزعمها شيخها سنان الذي سبق أن تحدثنا عن شخصيته المقلقة، إذ أرسل هذا الأخير إلى نخيم صلاح الدين لاعتقاله عصابة من أتباعه المتعصبين، وقد تمكنوا من الاقتراب من خيمته، حينما عرف الأمير ثُمارتكين أحدهم ناداه، بينما تسلل الآخر إلى خيمة صلاح الدين لطعنه، وشاءت الإرادة الإلهية أن يكون هناك أحد الحراس، فسارع إلى اختراق جسده بالسيف، وبذا نجا صلاح الدين بأعجوبة، فمالك نفسه مؤجلاً معاقبة شيخ هذه الفئة. وعاد أدراجه ثانية إلى حلب آملاً أن تكون قد سبقته أخبار الهزيمة التي حاقت بحلفاء ابن نور الدين، وتكون بالتالي عبرة لهذا الأخير ولوزيره، فيصير أكثر استعداداً للمصالحة. وتم الاتفاق بين الطرفين بعد عدة مناقشات ومساومات كان الملك الصالح سعيداً للغاية بإنفاذ رأسه الذي لم يكن مستعداً لرؤيته يُحمل كإنذار لسلطان الموصل، فسلم الملك الصالح حلب لصلاح الدين الذي كافأه على خيائته أصحابه في ساعات محنتهم وأسند إليه حاكمية بعض المواقع الثانوية مثل حمص وحماة والمعة وكفر طاب، مثبتاً بصنيعه هذا بأنه لم يكن ينوي أن يجردّه من السلطة بل أن يشرفه بثقته.

السلطة الأيوبية من حلب إلى القاهرة

وطبيعي أن ابن نور الدين الذي انضوى في ظل صلاح الدين بعد أن كان تحت حماية

القدس والموصل لم يعد يفكر في التمسك بحقه في سلطنة دمشق. وهكذا بعد نجاحات متنوعة كانت سلطة مؤسس السلالة الأيوبية تترسخ ويعترف بها من حلب إلى القاهرة. وكتب غيوم الصوري يقول: «لقد انتشرت تلك الأنباء في أراضي الفرنجة الذين انتابهم جراًها الرعب، لأنها كانت دائماً موضع تخوفهم، لإدراكهم تماماً أنهم سيطوقون من جميع الجهات إذا استولى صلاح الدين على حلب».

واغتنم صلاح الدين وجوده في حلب، فقام بزيارة الشيخ الصوفي يحيى المغربي وحج إلى قبر عمر بن عبد العزيز. ولكونه غداً سيد ثلاثة أرباع سورية الإسلامية نقل مقره إلى دمشق، وبذا بدا ملكاً فعلياً، وأطلع بلاط بغداد على ما حازه من نجاح، وبالمقابل وفد عليه سفير الخليفة وخلع عليه خلع التكريم ومنحه صكاً تولية يعترف به فيه سلطاناً على مصر وسورية الوسطى والنوبة واليمن.

مجد صلاح الدين وألقابه

وهكذا أصبح السلطان صلاح الدين — بما يحمل من نعوت تاج الأمراء، وقائد الجيوش، والمنتصر فخر الدولة، وعماد الإمام، وسيف الإسلام، ومجد الأسرة العباسية وسندها، وصاحب مقامها الأعلى، كما صكّت النقود باسمه الذي صار يذكر في خطبة صلاة الجمعة — وألغى اسم ابن نور الدين من الصكوك الرسمية في كل من مصر وسورية.

صلاح الدين وشيخ الجبل

وبعد الاحتفالات بهذه الأحداث، ترتب على صلاح الدين، أن يطلب من الشيخ سنان تفسيراً لمحاولته اغتياله في إعزاز على يد أتباعه المتعصبين وشرحاً لهذه الإخوانية الغامضة للحشاشين التي طالما تحدث عنها الناس في الشرق القروسطي؟ كان الإسلام ما يزال في اندفاعه وقد انتشر بسرعة فائقة بين شعوب متباعدة ثقافاً وديانةً وعرقاً، بحيث أثار ردود فعل صامتة. وكان التسامح الإسلامي المستمد من روح الآية القرآنية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ تدبيراً سياسياً ممتازاً..

ولم يكن بمقدور صلاح الدين وقد استتب له الأمر في سورية أن يتجاهل شيخ الجبل،

فماذا كان موقفه بالضبط؟ كان عليه مآخذ تجليها محاولة الاغتيال التي كاد أن يذهب ضحيتها في إعزاز. ولكنه لم يستطع أن يصادم مواجهةً تنظيمياً لا يمثل قوة مقلقة بعدد أتباعه فحسب، بل بتعصبهم وولائهم البطولي. وكانت المصلحة تقضي بأن يتصرف بحذر. وآلاً يضمن في إظهار حسن نواياه وأن يداري شيخ الجبل معترفاً له بسلطته الروحية دون أن يرتج باب المستقبل. ويزعم بعض مؤلفي الحواريات أنه حاصر مصيفاً في انتشار ظاهر للجيش، وأنه فرض على الشيخ سنان معاهدة صداقة، ويؤكد بعضهم أن صلاح الدين — بعد كثير من المفاوضات السرية — أصبح مقابل تنازلات غير معروفة في حماية الحشاشين. على كل حال لم يعد صلاح الدين بعد الآن يزعمه شيخ الجبل ومريدوه.

العودة إلى مصر وإنجازات صلاح الدين العسكرية والفنية والفقهية

في خريف ١١٧٦ عاد صلاح الدين إلى مصر تاركاً حكم سورية لأخيه طوران شاه خلال غيابه. ويقول الطبيب عبد اللطيف الذي عرفه عن كتب: كان بناءً عظيماً عالماً بكيفية تشييد الأسوار وحفر الخنادق، وتابع في القاهرة سياسة العمل التي بدأها قبل عدة سنوات، وكانت السلالة الأيوبية — التي يعد صلاح الدين رأس مؤسسيها وأكثرهم نشاطاً — ستبدأ بها مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام، وستترجم أصالتها بإنجازات موفقة في المضمار العسكري، وذلك بتوظيف جميع واردات الدولة لطرد الفرنجة من الأرض المقدسة، وفي المجال الفني، بخلق طرز معمارية جديدة وتبني أساليب تزيينية مبتكرة فضلاً عن إزالة الخط الكوفي من الكتابة على الأبنية، وأخيراً في المضمار الديني، بطمس البدع، وتأسيس المدرسة الشرعية التي أصبحت — حسب قول ابن إياس — مؤسسة سياسية، وقلعة للفقهاء.

هذا، وإن صلاح الدين الذي وطد دعائم حكمه، بتأسيسه في مصر مدارس يدرس فيها مدرسون على المذهب السني، أوجد أيضاً الخانقاه، وهو تكية للمتعبدين التأمليين، وقد شاع هذا النوع من بيوت العبادة حتى صار الأمراء في القاهرة يتسابقون إلى إقامة المزيد منها.

وأمر صلاح الدين بصك النقود التي تحمل صورته، ويظهر عليها السلطان معتماً (صورة وجهية) جالساً على العرش على الطريقة الشرقية طاوياً ساقيه تحت جسمه. ولم تضرب هذه النقود الصلاحية في مصر بل في ماين النهرين.

مجد صلاح الدين

وهكذا بدأ صلاح الدين — وهو في التاسعة والثلاثين من عمره — يؤثل مجده بمهابة ، انطلاقة من مدينة القاهرة التي سبق له أن قدم إليها مجهولاً ، فغدا سلطاناً لسورية ، والنوبة ، وسلطان اليمن الأسطوري ، هذا البلد الذي تعاقبت فيه الممالك المزدهرة التي ربطها الإسلام بحكاية سليمان ومملكة سبأ ، وازدهرت به حضارات لم تكتشف أبنيتها بعد .. مؤسساً المدارس والتكايا ، مقيماً في بلاط خليفة بغداد العباسي سفارة دائمة .

وبذا غدا صلاح الدين من أشهر شخصيات الإسلام .. تُرى هل تراءى له مستقبله في قاعة ديوانه في قلعة القاهرة حيث كان يعقد مجلسه ، ويصدر أحكامه القضائية ، وهو يشاهد أحد أجمل مناظر مصر ، حيث العاصمة بجوامعها القديمة ، ووادي النيل بحقوله الخصبة التي يرويهها ، وغنى هذه الأرض وروعة تلك السماء حيث تلعب في تنوع لانهائي تناغمات النور الصاخبة .

حواشي الفصل الثامن

دوافع صلاح الدين في بسط نفوذه على بلاد الشام

١ — كان لاضطراب جبل الأمن في بلاد الشام ، في صراع الأمراء السوريين ، حول الوصاية التي غدت موضع نزاع بين دمشق وحلب ، وتصعد الوحدة السورية التي وطد دعائمها نور الدين زنكي ، والخطر البالغ الخطورة الذي أخذ يذر قرنه ، مع توغل الصليبيين في بلاد الشام ، كل هذه الأمور ، دفعت صلاح الدين الأيوبي إلى التفكير جدياً ، بالسير على خطا بطل الإسلام الراحل نور الدين .. في خلق جبهة عربية واسعة صلبة ، للوقوف أمام الخطر الصليبي الكبير يقول الباحث قنري قلعجي :

« وأمام هذه الفوضى العاصفة ، أخذ الحلم الذي كان يراود صلاح الدين يعاوده بإلحاح ، بل تحوّل في نظره إلى واجب ينبغي له القيام به ورسالة من الحتم عليه أدائها ، فهو يعتقد بأنه الوارث الحقيقي لمملكة نور الدين ولسياسته في الجهاد ، وقد انشقت أمامه الطريق لإنشاء إمبراطورية كبرى يبعث بها إمبراطورية بغداد ، بتوحيد البلاد الناطقة بالضاد ، وانتزاع أراضيها من أيدي الفرنجة .

ولقد كان واثقاً من أن ملايين العرب سيناصرونه في تحقيق هذا الحلم العظيم ، وأنهم سيشعرون كما يشعر هو ، بأنه واحد منهم ليس غريباً عن الأرض العربية التي ولد عليها وتغذى منها ودرج في فلولائها ، أو عن التقاليد العربية التي نشأ عليها وتأصلت في نفسه منذ كان في المهدي صبيّاً ، أو عن اللغة والآداب العربية التي ازدهرت في قصره وعهده أيما ازدهار ، ومن ثم فليس هو غريباً أيضاً عما يشجعي العرب وعما يطمحون إليه ، ولا بدع في أن يتخذ الأمل الذي تيجيش به نفوسهم هدفاً ينزع إليه مع جنوده المتعددي القوميات ولكنهم في كثيرهم عرب من سكان البلاد ، واللغة العربية هي اللغة الجامعة لهم ، والثقافة العربية والشريعة الإسلامية هي البوتقة التي صهرتهم والرابطة التي وحدتهم ، فغدوا يُعرفون بها وفي ظلها يجاهدون .

وكان أول ما فكر فيه ، وأراد أن يخطو به الخطوة الأولى نحو تحقيق هدفه ، الانتصار للملك الصالح اسماعيل ابن نور الدين ، ووضعه تحت كنفه ، ليتسنى له بذلك توحيد بلاد الشام وضمها إلى مملكته في مصر . فكتب إليه وإلى الأمراء الذين يحيطون به ويتنازعون على ملكه ، كتاباً أعلن فيه ولاءه له وعزمه على نصرته والانتصاف له من كل من يناوئه ، لإنقاذ البلاد من التفرقة ودفعاً لخطر الفرنجة ، وقد قال فيه : « تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء

مرادها وتعدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى أن أعطت قيادها، فكونوا يداً واحدة، وأعضاءاً متساعداً، وقلوباً يجمعها ود، وسيوفاً يضمها غمد، ولا تختلفوا فتتكلموا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأتمل، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان. « إلى أن يقول بصدد الملك الراحل وولده القاصر: « ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله وقائم لا نسلمه. وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحققت، بأن ولده القائم على الأمر، وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه، فإن كانت الوصية ظهرت وقُبلت والطاعة في الغيبة والحاضر أديت وفعلت، وإلا فنحن لهذا الولد يدٌ على من ناوأه وسيُف على من عاداه.. الخ » (مفرج الكروب ج ٢ ص ٧) ولم يقتصر صلاح الدين على هذا بل ضرب النقود المصرية باسم الملك الصالح، وأمر بأن يُخطب له على المنابر بعد الخليفة العباسي، ولم يدع مناسبة إلا اغتنمها كيما يبين فيها للسوريين غيظه على الملك الصغير، واهتمامه بأمره واستعداده لبذل وسعه في سبيله.

ثم أرسل إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله كتاباً يوغر صدره فيه على ما آلت إليه الحال في بلاد الشام، ويعلن استعداده للعمل على تغييرها بتحرير البلاد وتوحيدها في ظل خلافته، مذكراً إياه من طرف خفي بأنه هو الذي جعل منابر مصر واليمن والمغرب تتجاوب باسم الخليفة العباسي مع منابر الشام وبغداد، بعد أن انقطعت عن ذلك نحواً من مئتي سنة، وقد بدأ هذه الرسالة، وهي من إنشاء القاضي الفاضل ويخطه، بذكر ما كان لأفراد أسرته من أثر في جهاد الصليبيين وتأسيس المملكة النورية، فقال: « كان أول أمرنا أننا كنا بالشام لفتح الفتوح مبشرين بأنفسنا، ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا في أي مدينة فُتحت، أو معقل مُلك، أو عسكر للعدو كسر، أو مصاف للإسلام معه ضُرب، فما يجهل أحد صنعنا، ولا يجحد عدونا أننا نصطلي الجمرة، ونملك الكثرة، ونتقدم الجماعة، ونرتب المقاتلة، وندير التعبئة، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها ».

ثم ذكر رحيله إلى مصر وماتم من فتحها وإبعاد الخطر الفرنجي عنها وإلغاء الخلافة الفاطمية فيها: « فهناك تمت لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخطبة، والرفع للواء السواد الأعظم، والجمع لكلمة السواد الأعظم، وعاجل الله الطاغية الأكبر بفنائها، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حشنها أيسر من إثم بقائه، إلا أنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته » وانتقل إلى فتح العقبة وحملة النوبة واليمن والاستيلاء على قسم كبير من شمال إفريقيا « ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير: لك، وبرقة، وقفصة، وقسطيلية، وتوزر. كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بالله سلام الله عليه! ».

وينتقل إلى وصف الأوضاع المؤسفة التي سادت بلاد الشام بعد وفاة نور الدين، قائلاً: « .. وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها، وتشتت الأمور وتقطعها، وإن كل قلعة حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمع إليه طالب، والإفرنج قد بنوا قلاعاً يتخفون بها الأطراف الإسلامية، ويضايقون بها البلاد الشامية، وأمرأ الدولة النورية قد سُجن كبارهم وعوقبوا وصودروا، وإن المماليك قدّموا الأيدي والأعين والسيوف، وسارت سيرتهم في الأمر المنكر والنهي عن المعروف، وكل واحد يتخذ عند الإفرنج يداً ويجعلهم لنظرة سندا ».

ثم يقول بعد أن يشير إلى مظالم الفرنجة واستعدادهم المتواصل: « وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تيسر

الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يتجه العزم في قلعه ، وإلا نبت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهم القادرين بالقعود آثمة ، وإنا لا نتمكن بمصر منه ، مع بُعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوة . فإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخيل مستريحة ، والعساكر كثيرة الجموع ، والأوقات مساعدة ، وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة وأمور مختلة ، وآراء فاسدة ، وأمراء متحاسدة ، وأطماع غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه ، فأنا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء في خدمته ، وهم عاملون بظلمه .

ويصرّح صلاح الدين أخيراً بطلبه ، معتبراً إياه مطلباً قومياً وليس مطلباً شخصياً : « والمراد الآن هو كل ما يقوّي الدولة ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد » إلى أن يقول مفصّلاً عما يريد : « وهو تقليد جامع لمصر واليمن والمغرب والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتح الله للدولة العباسية بسيفونا وسيوف عساكرنا » . (السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٠ ، صبح الأعشى ج ١٣ ص ٨١ — ٩٠ ، كتاب الروضتين ج ١ ص ٣٤١ — ٣٤٤) .

ويقول الدكتور نظير سعداوي في التعليق على هذه الرسالة : إنها تبرهن أوضح برهان « على سعة أطماع صلاح الدين ، كما تشرح موقفه من مشروع توحيد القوى الإسلامية استعداداً للجهاد ضد الصليبيين ، فضلاً عما فيها من شرح لحقيقة القوى الأوربية ، وما فيها من إشارة إلى ما سوف يقوم به من حركات استراتيجية عندما يقتطف ثمار الحوادث بتلبية دعوة الدماشقة إلى نجدهم . وكيفما كان الأمر من تلك الرسالة ، فمن العسير على الباحث الحربي أن يدرك تماماً كيف فكر صلاح الدين تلك السنة (١١٧٤) في ضرورة الاستيلاء على دمشق وحلب والموصل جميعاً للقضاء على الصليبيين ، إلا أن يرجع الباحث البصر إلى كاتب الرسالة ، وهو القاضي الفاضل العارف بخطة تطويق الصليبيين من ناحيتين ، وهي الخطة التي وضعها بدر الجمالي الوزير الفاطمي ، واتبعها من بعده نور الدين نفسه بالاستيلاء على دمشق والقاهرة ، ومن ذلك يتضح أن اهتمام صلاح الدين بدمشق وحلب والموصل ، لم يكن للاستيلاء على أملاك نور الدين والبيت الزنكي فحسب ، بل لتطويق الصليبيين بالشام من جميع الجهات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً » . (التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٥٦) . (وراجع كتاب قدرتي قلعي ٢٢٨ — ٢٣٣) .

٢ — جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة عن مسير صلاح الدين إلى حلب وحصاره إياها ، وعن محاولة الملك الصالح ابن نور الدين كسب قلوب الحلبين ، قوله :

« وسار السلطان إلى حلب ، ونزل على أنف جبل جوشن فوق مشهد الدكة ثالث الشهر ، وامتدت عساكره إلى الخناقية وإلى السعدى . وكان من يحلب يظنون أن السلطان لا يقدم عليهم ، فلم يرعهم إلا وعساكره قد نازلت حلب ، ونخيمه تضرب على جبل جوشن ، وأعلامه قد نشرت ، فخافوا من الحلبين أن يسلموا البلد كما فعل أهل دمشق ، فأرادوا تطييب قلوب العامة ، فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم في الميدان ، ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بنفسه أنهم الوزر والملجأ . فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق ، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس ، فنزل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق ووقف في رأس الميدان من الشمال ، وقال لهم : يا أهل حلب ، أنا ربكم ونزيلكم واللاجئ إليكم ، كبيركم عندي بمنزلة الأب وشابكم عندي بمنزلة الأخ

وصغيركم عندي يحل محل الولد . قال وخنقته العبرة وسبقتة الدمعة وعلا نشيجه ، فافتتن الناس ، وصاحوا صبيحة
واحدة ورموا بعمائمهم وضجوا بالبكاء والعيول . وقالوا : نحن عبيدك ، وعبيد أبيك ، نقاتل بين يديك ونبدل أموالنا
وأنفسنا لك . وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣٨) .

الفصل التاسع

كارثة الأيوبيين في سهل عسقلان

الفرنجية وأحلام اقتسام وادي النيل

لم يكن بلدوين الرابع المجذوم ليحيد نظره عن مصر، متطلعاً إلى إقامة دولة فرنجية تكون امتداداً طبيعياً لمملكة القدس في وادي النيل الخصيب، ينبوع الغلات ومصدر الواردات. هذا، وقد عرف الإقطاعي الكبير، فيليب كونت الفلاندر — الذي وصل حديثاً إلى الأرض المقدسة على رأس قوة من الفرسان لها شأنها — عرف كيف ينعش الحماسة الحربية في محيط الملك وأن يزيّن لحاشيته فخامة أسواق القاهرة، ولكن هذا الأمير الموزّع إمارات لمّا تحتل، والراغب في محاربة المسلمين شرع يفرض على من يسير بركابه شروطاً قاسية، لأنه كرجل واسع الطموح، لم يشأ أن يحارب إلّا لحسابه الخاص، ولم ينخدع بلدوين الرابع البتة بحماسة هذه الشخصية، لأنّ إمبراطور بيزنطة وعده بالمساعدة، ولذا طلب منه أن يوفد إليه سفارة للاتفاق نهائياً على اقتسام وادي النيل والتصرف فيه، قبل الشروع بفتحه.

وأرسل مانويل كومين إلى القدس وفداً يمثله وأنفذ بعده أسطولاً قوياً محملاً بالجنود ومعدّات الحرب أرسى أمام عكا. بيد أن آمال ملك القدس تبخرت هباءً، لأنّ المفاوضات لم

تسفر عن أية نتيجة، إذ كان. كلا الفريقين يظهران حسن النية، لكن لم يشأ أي منهما أن يبادر إلى المفاوضات التقليدية في سياسة الضم والتقسيم الكلية، لأن هنالك مسائل شائكة حول السلطات ومناطق النفوذ حالت دون مرونة المحادثات. وكما يحدث دائماً لم يتمكن مسؤولو السياسة الفرنجية في المشرق أن يتفقوا على احتمالات عمل مشترك، وجل ما فعلوه أنهم كانوا يطلقون التمنيات من أطراف شفاههم عبر المفاوضين بغير ما كانت تكن صدورهم. وفي آخر المطاف غادر يونانيو مانويل كومين القدس، بينما عاد أسطولهم الفخم إلى بيزنطة. أما كونت الفلاندر الذي احتدم غضباً — هذا القاتل غير المحتمل للمسلمين، وضارب السيف المتفوق — فأعلنها صراحةً لملك القدس أنه يخشى على رفاقه في السلاح فيضانات النيل وحرارة الشمس ونقص اللحوم. لقد فكّر — حسب قول غيوم الصوري — الذي كتب في عذوبة: «انه ليقترف خطيئة لا تغتفر إذا ما سار برجاله نحو بلاد يحتمل أن يموتوا فيها جوعاً». وأبرز هذا الخلاف الناشب بين الفرنجة الضعف المتناهي للسلطة الملكية بعقابيلها المأساوية.

صلاح الدين يحاصر عسقلان

واستعاض كونت الفلاندر عن خسائره بأن قام بغزو سهول سورية الشمالية على رأس مائة من الهيكليين وألفين من الرقباء المسلحين. وحينما علم صلاح الدين بهذا التسلل الفرنجي إلى أراضي المسلمين غادر القاهرة ووصل إلى فلسطين في تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٧٧. فخفف بلدوين الرابع يجمع الفرسان الخمسمائة المتبقين لديه لحماية مملكته، وهُرع إلى عسقلان (عروس سورية) لسد الطريق في وجه الغازي، فتحصن داخل أسوارها منتظراً نجدة أودون دي سانتامان وهيكلية وهيكلبي أمير أنطاكية رينو دي شاتيون^(١)، المشهور في تاريخ الحملات الصليبية بحماسة في القتال وعدم تفريقه بين حلال أو حرام، ذلك المغامر المتهور الذي جعلته السنون الست عشرة التي أمضاها في سجن حلب أكثر اندفاعاً. كان ابن سيد جيبن، هذا الرجل ذو العينين المتقدتين بالشهوة، والذي وصل إلى سورية قبل ثلاثين سنة بعد لويس السابع إبان الحملة الصليبية الثانية. وقد عُين أميراً لأنطاكية بسبب نشاطه واندفاعاته وعمليات نهبه. فجعل من اقطاعيته منطقة متقدمة مخيفة للفرنجة في بلاد الإسلام، ورفع عالياً شهرة الفرنجة؛ فلم يكتف بيقرب بطون المسلمين طوال أيامه، ويتكديس الكنوز في

قلاعهم ، بل غزا قبرص منتزعا إياها من يد ملكها الشرعي إمبراطور بيزنطة ، فاغتاز الأخير من إساءات هذا المغامر وهدد بإعلان الحرب على ملك القدس ، ما لم تعد إليه جزيرته . تلك هي صورة هذا الفارس الذي لا يعرف الخوف والمجرد من الضمير ، الذي سيقود المملكة اللاتينية إلى أسوأ المغامرات ، وسيتحمل أمام التاريخ مسؤوليات جساماً رغم أعماله الذائعة الصيت في الآداب القروسطية .

خطأ صلاح الدين أمام عسقلان

هذا ، وقد اقترف صلاح الدين خطأ ، إذ لم يحفل بالحامية الصغيرة المحاصرة داخل عسقلان ؛ وكان باستطاعته أن يأخذها سلماً بعد حصار بضعة أيام ، لأنها خاوية من أي احتياطيٍّ للمؤن ، وآثر أن يترك جيشه ينتشر عبر السهول المجاورة ، ويحرق الرملة ويحاصر اللد ويتنزه على طول الشاطئ حتى أرسوف ، ولم يصادف في طريقه فرنجياً واحداً .

كانت البلاد تبدو مقفرة خاوية ، وراح ممالك الدين ينشرون الذعر على هواهم في قرى صغيرة تسكنها عائلات فلاحية هادئة ، إذ شرعوا ينهبون ويحرقون ويقتلون حيثما ساروا ، وأخذ الذعر يسود مدينة داود التي بدأ سكانها يتوقعون أن يروا العناصر الأولى من طليعة العدو ، فطفقوا يغادرون المدينة الواطئة ، ويلجؤون إلى الأبراج ، وكان بمقدور الملك بلدوين السبيء الحظ أن يرى من أعلى أسوار عسقلان في الليالي الصافية ، قرى رعاياه تحترق الواحدة تلو الأخرى ، فعقد اجتماعاً مع فرسانه وأكد لهم بأنه ليس في وسعهم أن يبقوا مكتوفي الأيدي أمام مشهد تدمير المملكة . وعليهم أن يحاولوا المستحيل ضد صلاح الدين قائلاً لهم : « إن عدونا لا يحرس نفسه ، ووزع قواته ، ولم يبق حواله إلا ممالكه ، وبعض القوات الخفيفة . فإذا استطعنا أن نباغته فسنوقع به الهزيمة . وعندها سيكون بمستطاعتنا أن نبعد المجموعات التي تدمر أريافنا الواحدة بعد الأخرى ، وإذا لم نكن نملك التفوق العددي وتفوق الظروف فقمين بنا أن نموت بدلاً من أن نملك بلاداً تتحول إلى رماد أمام أعيننا » .

كان هذا المراهق المجذوم الوحيد الذي لم يطش رشده في الساعات المساوية ، وذكر أتباعه — وهو الفتى الذي يكاد يعجز عن الحركة — بواجباتهم ، وحقق لنفسه مجداً أبدياً في إحدى أشهر المعارك التي انتصر فيها الفرنجة بحفنة من الرجال .

نصر الفرنجة في معركة عسقلان (الرملة)

وفي ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) حين وصل صلاح الدين مع حرسه من المماليك إلى تل هو على مسافة خمسة أميال جنوب شرقي الرملة ساحباً وراءه قوافل الأسرى، بهت دهشة إذ ظهرت أمامهم فجأة هذه القوة الفرنجية التي احتقروها في عسقلان؛ وقد تولى بلدوين القيادة، وهو محمول على نقالة وعيناه محمومتان، يرافقه أودون دي سانتامان مع ثمانين إخوانياً مسلحين، ورينو دي شاتيون الذي يساوي وحده كتيبة من الرقباء. وسارع صلاح الدين إلى إرسال بعض من فرسانه لتجميع ما تفرق من كتائبه وصار يقاتل بحذر متراجعاً، إلى أن أنهك وفرضت عليه المعركة في نواحي وادي الدهر، حيث كان يحاول أن يحاذي المجري المحمي للوادي. وفر عدد من ممالكه أمام الهجوم الشرس للأعداء، وقتل ملك القدس بعضهم، وهو يشق خلاصهم الطريق مع فرسانه الثلاثمائة الشجعان.

ويقول أبو شامة: «إن جميع الذين نجوا من القتل في هذه المعركة لقوا حتفهم في الصحراء الموحشة».

إن معركة عسقلان هذه التي يطلق عليها المؤرخون الغرب اسم معركة الرملة تعتبر أحد أكبر انتصارات الفرنجة في الديار المقدسة.

حصار حارم

وبينما كان الملك المجذوم يكلل أحد أكبر انتصارات الفرنجة في الديار المقدسة كان الوصي على مملكته كونت طرابلس وكونت الفلاندر — الرقيق الحاشية الذي كان يخشى على رفاقه قسوة مناخ مصر — يحاصران بلدة حارم شمالي سورية.

ويبعد هذا الموقع الحصين الرابض بين حلب وأنطاكية عن هاتين المدينتين مسيرة يوم واحد للفراس، وهو من أملاك ابن نور الدين التمس، ويتدبر شؤون وزيره الأرمني الذي تكشف مغامراته المعقدة عن المؤامرات العديدة التي تحديق بالملوك الشرقيين الصغار، يحيك خيوطها أتباعهم المغممون. وحينما ظهر الفرنجة أمام أبواب حارم سحبوا من جيوبهم — بكل تهذيب — معاهدة صداقة قديمة تعترف لهم بالسيادة على حارم، فأغلق السكان دونهم

الأبواب وأحكموا إحصادها ، مما اضطر الفرنجة إلى مباشرة الحصار ،.. ويظهر من قراءة ما كتبه مؤرخو حولياتنا ، أن المحاصرين تعاملوا مع القضية وكأنها لعبة تسلية مكتفين — حسب قول غيوم الصوري — باللعب بالمكعبات العظمية الصغيرة ، وبالتنزه شبه عراة تحت خيامهم ، وبكثرة التردد على أنطاكية للهو في المواخير وقضاء ليالٍ ماجنة في مدينة اللهو المتعهرة بصحبة الماجنين العابثين ، وكانوا — بدلاً من أن يقاتلوا — يُزجون أوقاتهم في التعطر . وبينما كانت غالبية رجال كونت الفلاندر وكونت طرابلس داخل حمامات انطاكية وصل ابن نور الدين بدوره إلى أمام حارم ، ولكن لم تفتح له الأبواب كذلك ، وصار وضع كل من الفريقين شائكاً .

كان الرجال يقومون بالحراسة على صهوات جيادهم ينشرون الرايات والليارق أو يتبادلون التحية عن بعد تحت النظرات الجائعة لسكان حارم الذين يراقبونهم من أعلى أسوارهم ، دون أن يوافق أذواقهم سلوك أولئك العابثين ، لأن الخانات كانت فارغة والبطون خاوية . وبعد عدد من المفاوضات غير الهادفة تمتى الفريقان المحاصران لو يتفقان ، ويهدف البدء بالمحادثات أرسل ابن نور الدين سرّاً قافلة محملة بالهدايا إلى كونت طرابلس ، تجاوزت أمانيه ، فأمر بطيخيامة ، وانسحب إلى إمارته ، تاركاً رفاقه في مواقعهم . وقد شكّ البارونات الآخرون بالهدف الحقيقي للانسحاب ، فلم يكن في نيّتهم أن يكونوا مضرب المثل بالسذاجة ، وأفهموا ابن نور الدين أنهم قابلون للإغراء في سهولة ورحلوا بدورهم ، وانسحب كونت الفلاندر إلى مراكبه وعاد أدراجه في طريق أوربا . وأما الصالح فدخل حارم وأمر بقطع بعض الرؤوس وأعاد النظام إلى سابق عهده .

صلاح الدين وسحق الهيكليين في مرجعيون

وبعد سنة من الهدوء سببه الطاعون المتفشى لدى هؤلاء وأولئك استؤنفت الأعمال العدائية بين المسلمين والفرنجة . وفي نيسان (ابريل) ١١٧٩ حدثت المسألة المسماة قضية وادي العيون التي أساء فيها ملك القدس معاملة بعض الرعاة المسلمين ، واستولى على قطعانهم ، فقام صلاح الدين بعد شهر من ذلك بمحاصرة قلعة معبر يعقوب ، وأتلف غلات المستعمرات الفرنجية ، وسحق الهيكليين في مرجعيون ، ورغم ما بذله بلدوين الرابع من جهد فائق الحد لمساعدة هذا الموقع سقط عنوةً ، وهلكت حاميته في هب الحرائق ، وأسر صلاح

الدين عدداً من الرجال البارزين بينهم سيّد الهيكل، وشدد المنتصرون يد القسوة انتقاماً لكارثة عسقلان.. ويتحدث ابن الأثير عن تلك الواقعة بقوله: «كانت رائحة الجثث التي خلفناها هنا وهناك من الشدة بحيث تسببت بوباء مات من جرائه عشرة أمراء من بطانة صلاح الدين»^(٢). ويضيف المقرئ: «إن المسلمين استولوا على مائة ألف قطعة من السلاح وكمية وافرة من المؤن. وهدم صلاح الدين الموقع وردم ما فيه من آبار»^(٣).

وقد شاهد بلدوين الرابع من أعلى أسوار طبرية، احتراق هذه القلعة التي سببت له الكثير من المتاعب، إذ تعتبر من أفضل دفاعات الجليل، فاشتدت عليه وطأة المرض أكثر من أي وقت مضى، ولأن علته كانت تتأكله حياً فاوض صلاح الدين على هدنة سنتين، لكنها لا تسري إلا على مملكة القدس. ولأن كونت طرابلس وقادة التنظيمات العسكرية الأخرى رفضوا شروطها فقد غزا صلاح الدين بكل هدوء إقطاعاتهم في فلسطين. «وكان — كما يقول غيوم الصوري — يُجري خيوله على أعنتها تأخذ من أطراف البلاد، على مراحل قصيرة».

حواشي الفصل التاسع

١ — رينو دي شاتيون (ت ١٠٨٧) Renauld de chatillon ويعرف باسم أرناط عند المؤرخين العرب . من القادة الصليبيين اتصف بالتعصب والرعونة والعجرفة، اعتبره المؤرخ م ج كينغ « نموذجاً للفارس اللص . في عصره » بينما عده أبو شامة : « أغدر الفرنجة وأخيشها ، وأنقضها للمواريث المحكمة والأيمان المبرمة » .. كان أميراً لانطاكية ، أسره مجد الدين بن الداية أحد أمراء نور الدين زنكي عام ١١٦٠ وظل سجيناً في قلعة حلب إلى أن أطلق كمشتكين سراحه عام ١١٧٧ م متحالفاً بذلك مع الفرنجة ضد صلاح الدين بذلك .

وأصبح سيداً للكرك بزواجه السياسي من اتينت دي ميل، فغداً أميراً على تلك المنطقة الهامة من جنوبي بلاد الشام لتحكمها بطرق القوافل بين مصر والشام . فكان يتعرض للقوافل الآمنة ، ناقضاً بذلك المعاهدة التي أبرمها الصليبيون مع صلاح الدين الذي أقسم ليقتلنه ، لاسيما بعد مغامرته الطائشة قرب شواطئ الحجاز ، ومحاولته الاستيلاء على قبر الرسول (ﷺ) .

قاد بأعماله الرعناء « مملكة الفرنجة إلى أسوأ المغامرات » — حسب قول شاندر — إذ عجل بضدام المسلمين والصليبيين في معركة حطين ، فوقع أسيراً لدى صلاح الدين الذي وفي بندره وقتله بيده .

٢ — ابن الأثير ج ١١ ص ٣٠١ — ٣٠٣

وجاء في كتاب الروضتين في فصل تخريب بيت الأحرار ، (قلعة معبر يعقوب) نقلاً عن العماد الأصفهاني قوله :

« جمع السلطان جمعاً كثيرة من الخيالة والرجالة ، فوصل إلى المخاضة يوم السبت تاسع عشر الشهر ، والحصن مبني دونها من الغرب ، فحيم منها بالقرب ، وضاق ذلك المخرج عن العسكر ، واحتاج إلى نصب ستائر لأجل المنجنقيات ، فركب السلطان بكرة الأحد إلى ضياع صغد ، وكانت قلعة صغد يومئذ للداوية ، وهو عشر البلية ، وأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها ، فأخذ كل ما احتاج إليه . ورجع بعد الظهر ، وزحفوا إلى الحصن بعد العصر ، فما أمسى المساء إلا وهم قد استولوا على الباشورة ، وانتقلوا بكليتهم إليها ، وباتوا طوال الليل يحرسون ، وخافوا أن يفتح الفرنج الأبواب ويغيروا عليهم على غرة . وإذا بالفرنج قد أوقدوا خلف كل باب ناراً ليأمنوا من المسلمين اغتراراً ، فاطمأن المسلمون ، وقالوا : ما بقي إلا نقب البرج ، ففرقه السلطان على الأمراء فأخذ فرخشاه

الجانب القبلي، وأخذ السلطان الجانب الشمالي، وقصد ناصر الدين بن شيركوه بقرية نقباً؛ وكذلك بقي الدين وكل كبير في الدولة جعل له قسماً. وكان البرج محكم البناء فصعب نقبه، لكن ما انقضى يوم الأحد إلا وقد تم نقب السلطان وعلق، وحشي بالحطب ليلة الاثنين وحرق. وكان النقب في طول ثلاثين ذراعاً في عرض ثلاث أذرع، وكان عرض السور تسع أذرع، فما تأثر بذلك، فاحتاج السلطان صبيحة يوم الاثنين إلى إطفاء النيران ليتم نقبه. وقال من جاء بقرية ماء فله دينار. قال العماد: فرأيت الناس للقرب حاملين، ولأوعية الماء ناقلين، حتى أغرقوا تلك الثقوب فخمدت فعاد نقابوها وقد بردت. فخرقوه وعمقوه، وفتحوه وفتقوه، وشقوا حجره وعلقوه، ثم حشوه وعلقوه، واستظهروا فيه يوم الثلاثاء والأربعاء ثم أحرقوه واشتد الحرص عليه، لأن الخبر أتاهاهم بأن الفرنج قد اجتمعوا بطبرية في جمع كثير. فلما أصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأول وتعالى النهار انقض الجدار، وتباشرت الأبرار. وكان الفرنج قد جمعوا وراء ذلك الواقع خطباً، فلما وقع الجدار، دخلت الرياح فردت النار عليهم، وأحرقت بيوتهم وطائفة منهم، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد من النار، وطلبوا الأمان. فلما تخمدت النيران، دخل الناس وقتلوا وأسروا، وغنموا مائة ألف قطعة من الحديد من جميع أنواع الأسلحة، وشيخاً كثيراً من الأقوات وغيرها وجيء بالأسارى إلى السلطان، فمن كان مرتداً أو رامياً ضربت عنقه، وأكثر من أسر قتله في الطريق الغزاة المطروعة. وكان عدة الأسارى نحو سبعمائة. وخلص من الأسر أكثر من مائة مسلم، وسير باقي الأسارى إلى دمشق. وأقام السلطان في منزله حتى هدوا الحصن إلى الأساس، وطمّ جب ماء معين كانوا حفروه في وسطه ورمي فيه القتلى. وكان عند السلطان رسول القمص معافى، وهو يشاهد بلية أهل ملته. وقد كان السلطان بذل لهم في هدمه، ستين ألف دينار فلم يفعلوا، فزادهم حتى بلغ مائة ألف فأبوا. وكان مدة المقام على الحصن في أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوماً، وبعد ذلك سار السلطان إلى أعمال طبرية وصور وبيروت وغيرها فأغار عليها، وأرجف قلوبهم بوصوله إليها. (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١١).

٣ — المقرئ: السلوك ج ص ٦٧ — ٦٩.

من ضفاف الفرات إلى ضفاف الأردن

مملكة أرمينية الصغرى وتحالفها مع ممالك الفرنجة

عند الخروج من إمارة أنطاكية من جهة الشمال الغربي تقوم أرمينية الصغرى، التي كان يحكمها عهد ذاك الأمير روبين الثالث الذي أعاد التحالف التقليدي بين فرنسا والأرمن نتيجة لزواجه من إيزابيل ابنة أوففروا الثالث دي تورون واتينيت دي ميلي. وكان نزاعاً إلى تأجيج الخصومة مع جاره القوي السلطان في آسية الصغرى.

كان يكنّ الكراهية للسلجوقيين الأتراك الذين أنزل أجدادهم ضربة مميتة بالحياة السياسية والثقافية للأرمن في عقر وطنهم، ويذكر جيداً أن أولئك السلجوقيين المتعصبين القساة القلوب قد أجبروا شعبه على الحرب نحو الغرب لتفادي مجازيتهم وبطشهم قبل قرن خلا من تاريخ ارتقائه سدة الحكم وبدت كيليكية الوعة المسالك للأرمن مكاناً مناسباً لتأسيس وتكوين مملكة قومية. وبحكم ذلك الواقع، وجد الأرمن أنفسهم بالضرورة — وهم الأعداء التقليديون وراثياً للأتراك — حلفاء للملوك الفرنجة الذين أسسوا الدول الفرنجية في سورية

الشمالية، واتحدوا معهم اتحاداً صميمياً بقدر ما أدركوا أن معركة وجودهم في مواجهة الإسلام المناضل ترتبط بتضامنهم مع بقاء الدول الفرنجية في سورية.

وهكذا كان الأرمن يؤلفون الامتداد لهذا السد الذي أقامه الفرنجة في وجه موجات العمق الإسلامية، التي كادت — أكثر من مرة — أن تغرق العالم القديم الذي كان ما يزال فاقداً التوازن بسبب صدمات الهجمات الضارية، وكان روين الثالث قد أغار على مملكة قونية واستولى على بعض قراها التركية.

صلاح الدين يغزو أرمينية

وطلب قلع أرسلان من صلاح الدين إسداء يد عون لطرده الغزاة من بلاده؛ لكن هذا الأخير — وهو السياسي البعيد النظر — حرص جيداً على ألا يعمل لحساب غيره، وفضل أن يياشر لحسابه حرباً ضد ملك أرمينية الصغرى، المذنب في إقامته علاقات ودية مع أعداء الإسلام. فغزا بلاده وسحق جيشه وحاصر عاصمته وأخذها عنوةً ونهبها وفرض شروط الصلح التي أملاها. واضطر روين الثالث إلى إعادة ما كان أخذه وشرع يطلق سراح الأسرى الذين كانوا لديه، وأن يدفع فوق ذلك نفقات الحرب.

زعامة صلاح الدين وميثاق الصداقة

وشكر سلطان قونية صلاح الدين حارّ الشكر، وتمنى عليه باسم جميع الدول الصغيرة في تلك المناطق، أن يكون من الآن فصاعداً الوسيط في مصالحها، لتسهيل إبرام اتفاقية صلح عام؛ يكون هو فيه بمثابة راعيها الأعلى. وبهذا أصبح صلاح الدين حكماً في النزاعات المحلية المحتملة التي قد تقع بين الأمراء الكثر في هذا الجزء من آسية الصغرى على حساب وحدة الشعوب المسلمة. وهكذا عظم نفوذه في العالم الإسلامي، واثلق نجمه، وأصبح في مقدوره — مستنداً إلى القاهرة ودمشق وحلب وحلفائه الجدد في ما بين النهرين السعداء بالدوران في فلكه — أن ينتهج سياسة بارعة رائعة. وفي ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٠ أبرم في تظاهرة احتفالية على ضفة الفرات قرب جرابلس ميثاق صداقة — أو معاهدة عدم اعتداء كما نقول اليوم — بينه وبين قلع أرسلان وسلطين قونية وسنجر وأربيل وماردين

وديار بكر وروين الثالث ملك أرمينية الصغرى — آخر الذين هزمهم الجندي الكردي العظيم — وأقيمت الولائم لدى جميع قبائل ما بين النهرين، احتفالاً بهذا الصلح العام.

وعاد صلاح الدين إلى مصر، بعد أن سرح جنده بين مدح الشعراء الذين شرعوا يتحدثون من الآن فصاعداً عن الأسطورة المدهشة التي بطلها فارس الرحمن الخفيف الجديد.

وكان عام ١١٨٠ سنة شؤم بالنسبة لكثير من الملوك: إذ فقدت فرنسا لويس السابع، وروما البابا الكسندر الثالث، وبيزنطة مانويل كومين، وبدورها فقدت بغداد الخليفة العباسي المستضيء، والموصل حاكمها سيف الدين غازي. وخلف فيليب أوغست لويس السابع، ولويسوس الثالث البابا الكسندر الثالث، والكسي الثاني مانويل كومين؛ والناصر المستضيء.

وما إن تسلم أمير المؤمنين الجديد بردة النبي وقضييه، حتى سارع إلى مراسلة صلاح الدين بكتب ماهرة بخاتمه تؤكد الألقاب التي سبق أن منحه إياها سلفه.

حلب بؤرة صراع جديد

وفي السنة الثانية ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٨١ أقعد المرض ابن نور الدين، وبعد أربعة أيام بلغت حالته من السوء بحيث أغلقت أبواب قلعة حلب إذ كان يُحتَضَر؛ وجمع أمراءه وجعلهم يقسمون على التخلص من وصاية صلاح الدين، وأن يبقوا موالين لسلطان الموصل الذي عينه خليفة له.

كان هذا الإجراء يعني فسخ المعاهدة التي سبق أن أبرمها مع صلاح الدين، وتعريض مدينة حلب لشرور فظيعة لم تكن في الحسبان. وما إن دفن ابن نور الدين حتى قدم سلطان الموصل إلى حلب. لكن، وتفادياً للصعوبات التي كان سيواجهها مع الأيوبيين، وبناءً على نصيحة وزيره المتزمت الثقيل الظل، فضّل أن يبادل أخاه عماد الدين سلطنة سنجار الأقل بريقاً، ولكن الأكثر هدوءاً بسلطنة حلب. وحين استقر في حلب في ١٩ أيار (مايو) ١١٨٢ أطلق على نفسه لقب «سلطان سورية». وهكذا عادت حلب — كرة أخرى — بؤرة للاضطراب.

إعادة اليمن إلى الحظيرة الأيوبية

وفيما كان كل شيء يعاد بحثه في شمالي سورية، شرع صلاح الدين يعيد فتح اليمن، وسيتذكر قراؤنا أن تلك المناطق القصية اعترفت بسلطة صلاح الدين الذي أناب عنه فيها أخاه طوران شاه، وأوكل إليه أمر إدارتها.

لكن طوران شاه لم يعجبه مقامه الجديد، فعاد إلى سورية وحصل على حاكمية دمشق التي تهفو إليها القلوب، ثم حاكمية بعلبك وأخيراً حاكمية الاسكندرية حيث فضل أن يموت دونما بريق مجد، مؤثراً بذخ الطعام ودافئ أجواء الحرير.

وبعد وفاته رفض الأمراء الذين ترك لهم إدارة اليمن أن يرسلوا إلى صلاح الدين الخراج، وتبوأ كل منهم مقامه حيث هو، صاماً أذنيه عن طلبات أمناء الخزينة في القاهرة. وعزل صلاح الدين الأمراء المتمردين، وعيّن مكانهم سيف الإسلام الذي شخّص إلى اليمن على رأس جيشه فقاتل العصاة بعض الوقت، وتمكن من طردهم، ودفع بانتظام المستحقات للإدارة المركزية في مصر.

مغامرة رينو دي شاتيون وخرق الهدنة بين الفرنجة والمسلمين

وفجأة طاف الشرق نبأ مذهل كان له وقع الصاعقة: كان رينو دي شاتيون يتأهب لضرب الإسلام في أقدس مقدساته، في مكة المكرمة، وتدنيس قبر الرسول في المدينة، وإرهاب المسلمين بهذا المشروع الذي لم يسمع قط بمثله، ولا سابقة له في التاريخ. كان ينوي أن يحو الكعبة بلهيب النيران، وأن يجتاح المدينة المنورة ومكة المكرمة أولى الحرمين الشريفين، والتي يتجه المؤمنون يوماً نحوها خمس مرات في صلاة يؤديها مائتا مليون من البشر، والتي تعجّ — كل عام — بحشود قادمة من أصقاع المعمورة للحج وللتبرك بلمس الحجر الأسود الشهير المغلف بغطائه الفضّي، ولرؤية الحرم الشريف يرتفع في الأفق، والسير فوق الأرض الملتهبة تحت شمس الجزيرة العربية التي لا تتحمل... مكة جنة المؤمنين، وموئل الصرافين من أصحاب الملايين.

وبدأ رينو دي شاتيون حملته. كان هدفه الأول المدينة. وبعد مسيرة غريبة اجتاز فيها

مسافة حوالي ثمانمائة كيلو متر عبر الصحراء، دخل الحجاز وأحرق تبوك وتيماء — التي اعتبرها كما يقول صلاح الدين في رسالته الموجهة إلى خليفة المسلمين ببغداد قاعة الانتظار بالنسبة إلى المدينة — ثم اتجه نحو المدينة المقدسة. ولكن حاكم دمشق المذهول دخل أراضي الكرك والشوبك، واضطر بحركته السريعة هذه رينو دي شاتيون إلى إرجاء تنفيذ مشاريعه. ومع ذلك استولى في طريق عودته السريع نحو الجليل على قافلة للحجاج عظيمة الثراء كانت متجهة من دمشق جنوباً في طريقها إلى مكة، مع صيادلتها وأطباء عيونها وغاسلي أمواتها، والمحمل السوري، وهو هودج هرمي يجلله الجوخ الأخضر المطرز بالذهب. لقد جلبت له هذه العملية مائتي ألف مثقال من الذهب، بيد أنه ستعقبها متاعب استخف بها، ولكن إذا لم يأبه رينو دي شاتيون بالنتائج السياسية لهذه العملية، فلم يكن الأمر كذلك في بلاط القدس؛ ذلك أن هذه القافلة من الحجاج الواثقين بالهدنة النافذة بين بلدوين الرابع وصلاح الدين لم تتردد في عبور الأراضي الخاضعة للفرنجة، وكان رينو دي شاتيون قد خان تعهده ملكه، وهو يسوق هؤلاء الحجاج أسرى إلى حصنه في الكرك، ويستولي على أموالهم والأراضي المخصصة للكعبة. وكان يمكن لهذه المخالفة أن تؤدي إلى إلغاء الهدنة. ووجه صلاح الدين احتجاجاً شديد اللهجة إلى ملك القدس طالباً منه إطلاق سراح الدمشقيين فوراً وإعادة القافلة وحمولتها من السجاد والذهب وخمسة وعشرين قنطاراً من الشموع المنهوبة. وعلى جناح السرعة أرسل بلدوين الممتعض من هذه الفعلة إلى عامله فرساناً من الهيكل والاستبار ليلومه على موقفه المخادع، ويأمره بأن يعيد كل ما أخذه، ولكن المجرم لم يصدع بالأمر وأجاب الرسل الأتقياء المكلفين بمعاقبته، بكل وقاحة: «ماذا لو حنث الملك بوعده؟» متجاهلاً سلطة سيده المضعف بفعل مرضه الخبيث. كان رينو دي شاتيون القائم عند إحدى النقاط الأكثر حساسية من الحد الاتفاقي الفاصل بين الإسلام والفرنجة لا يتردد البتة في الاشتباك مع السلطة الملكية التي كان شغورها المؤقت يتيح له كل المجازفات.

صلاح الدين يهاجم مملكة القدس

واعتذر الملك المجذوم لصلاح الدين؛ لكن ألقت عاصفة عهد ذاك على الشاطئ المصري مركباً كبيراً قادماً من أبولية، وعلى متنه ألف وخمسمائة راكب. فأسر صلاح الدين الفرنجة الذين قبضهم له القدر، وأعدّ العدة لمهاجمة مملكة القدس. وفي ١١ أيار (مايو)

غادر القاهرة مرةً أخرى وتوقف قليلاً في قصره الجديد (الصدر)، وشارف خلال ستة أيام إيلات، فعقد ملك القدس مجلسه الحربي الذي قرر حشد جميع القوات الجاهزة في فلسطين في منطقة الكرك لسدّ الطريق أمام تقدم صلاح الدين. ولكن الفرنجة لم يتمكنوا من اللحاق بالجيش الإسلامي الذي انطلق من العقبة سالكاً درب الحج، أي الطريق الكبرى الممتدة بين مصر والشام والموازية للطريق الرومانية القديمة. وعسكر المسلمون في الحسام في الجريا. ولما وصل فرسان صلاح الدين إلى قرب الشويك أحرقوا سائر الغلال واستأصلوا الكرمة. وكتب صلاح الدين إلى خليفة بغداد: «لقد وصل خادموك إلى هذه الأنحاء، فأثت النار على نسغ النخيل، وطبق حكم السيف شيئاً فشيئاً».

ثم استدار صلاح الدين شرقاً سالكاً طريق الأزرق وبصرى في جبل حوران، المشهورة بذكرى يوحنا ومكابي الذي حالما احتل هذه المدينة عرض كل ذكورها على حد سيفه.

سقوط قلعة حبس جلداق

ووصل صلاح الدين إلى دمشق في شهر حزيران (يونيو)، وبينما كان يتجه شمالاً جنوب العاصمة السورية كان ابن أخيه يغزو الجليل ويستولي على القلعة التي توصف بأنها لا تقهر، قلعة حبس جلداق المشرفة من الجنوب الشرقي لبحيرة طبرية على الضفة الشمالية لنهر اليرموك، ومنها تراقب أرض سويت التابعة لإمارة الجليل. وكانت هذه القلعة الخاضعة لقيادة فولك الطبري محفورة في الصخر وتتألف من ثلاثة طوابق للسكن، بعضها فوق بعض، وتتصل فيما بينها بممر ضيق على حافة الهوآت، لا يتسع إلا لمرور شخص واحد. ولم يكلف احتلال القلعة المسلمين سوى خمسة أيام.

وقد فسّر سقوط هذا الحصن الهام تفسيراً جائراً في القدس. إذ ذهب بعض الأقاويل الهامسة إلى حدّ القول إن فولك الطبري باع المسلمين الحصن.

والحقيقة أن الحامية لم تكن تضم سوى القليل من الفرسان والرقباء الفرنجة الذين يعملون على تجنيد عددٍ من المرتزقة المحليين لحساب المملكة. وبعد هذا الاختراق السريع داخل أراضي العدو، أخذ صلاح الدين طريق دمشق جازاً وراءه ألف أسير بيعوا في سوق النخاسة، وعشرين ألف رأس من الماشية.

ظهور المسلمين أمام بيروت وصمود الفرنجة

وأثر استراحة بضعة أسابيع في دمشق، انطلق صلاح الدين إلى الجهاد كرتة ثانية، وهدفه فتح سماريا والجليل؛ ولكن لعدم تمكنه من اختراق دفاعات الفرنجة حوالي افرابالا إلى الجنوب الشرقي من القاصرة، لشدة ما استبسل المدافعون عنها، إذ قاتلوا قتالاً مجيداً، وآثروا الموت في مواقعهم على مغادرة الموقع، انطلق صلاح الدين شمالاً والتحق بثقل جيشه بين رفاق وجب جنين، ثم عبر لبنان وظهر أمام بيروت. وتتابع الهجمات على المدينة طوال ثلاثة أيام في تواتر كان من الدقة بحيث لم يجد معه المحاصرون وقتاً للنوم والطعام.

ولم يتمكن صلاح الدين رغم تصميمه من دخول المرفأ اللبناني الكبير. واعتبر هذا الفشل دليلاً على أن المملكة الفرنجية في القدس مازالت قادرة على الصمود، وعليه بالتالي ألا يعتقد بأن في وسعه تصفيتها من الوجود بمجرد قيامه بتنزهات عسكرية.

كانت إرادة الصمود لدى بلدوين الرابع وأتباعه الأوفياء حقيقة واقعة — لقد لعبت هذه الأسرة الأنجوية — حتى وهي ممثلة بمراهق مجذوم — دورها بحماية كحامية للدول الفرنجية في سورية.

رينو دي شاتيون ومشاريعه للاستيلاء على المقدسات الإسلامية

وفيما كان الأسقف أود Euodes يطرد المسلمين من الساحل اللبناني، كان رينو دي شاتيون — الذي لم يتخل قط عن مشروعه في تحويل الكعبة ومكة إلى هباء وجعل الإسلام يرتجف بالاستيلاء على قبر النبي المقدس — يحشد في قلعته الشاخنة بكبرياء الرفاق المعدّين لهذه الملحمة، والذين لم تغرهم الناحية الفكرية لهذه المغامرة الفريدة وحسب، وإنما أخذت ألبابهم كذلك الكنوز المقدسة منذ قرون في المدينة المقدسة المترفة. كان رينودي شاتيون يلزمه رجال من معدنه قساة، شجعان عديمو الشرف... وقد وجد من طرفه بارونات يبحثون عن إمارة، وفرنجة مغامرين مرييين يعرفون كيف يتحدّون الخير والشر، يتحدّون الملك وعزّافيه السيئي الحظ الذين لم يقدموا لهم ثروة؛ ولم يقطعوهم الأراضي، فهرعوا لوضع أنفسهم تحت تصرف هذا «السمائي» رينو دي شاتيون، الذي كان يهدد أحلامهم بأبجاد البطولة كشركاء في انتصاره.

وجمع سيد الكرك رجاله وغادر إقطاعيته، وإذ سبق له أن فشل في عبور الصحراء ومهاجمة المدينة عزم هذه المرة على مdahمة الأماكن الإسلامية المقدسة بجرأ عبر الساحل الغربي بوضعه أسطولاً في البحر الأحمر .

وهكذا، فإنّ الأفاق، الذي سبق له أن قام بمسيرات كبرى على صهوات الخيل في كيليكية ومابين النهرين، وفلسطين . وسهوب وادي عربة، لم يتردد في تحويل فرسانه إلى قراصنة، وحملهم على مهاجمة السفن الإسلامية الماخرة عباب البحر الأحمر، معرقلين تجارتها، قاطعين طريق الحج بين افريقية وآسية، مندفعين من شاطئ إلى آخر، محرقين الموانئ، لينزلوا أخيراً إلى الياسة في نقطة مختارة لينقضوا على مكة المبهورة يريق انتصاراتهم . وبلغت هذه الحملة التي كانت تثير شهية أكثر المتخوفين حافة النجاح، ويذهب ابن جبير إلى أن رينودي شاتيون كان يريد الاستيلاء على رفات النبي محمد (ﷺ) ونقلها إلى أراضييه ليحج المسلمون إليه ويدفعوا له رسم المرور والحماية^(١) .

وقبل بضع سنوات خلت جهزت حكومة القاهرة اسطولاً صغيراً من القراصنة بقيادة ضباط يعرفون لهجة اللاتين متنكرين بثياب الفرنجة، وتمكنوا من دخول مرفأ صور فنهبوا وأحرقوا بعض السفن واستولوا وهم في طريق عودتهم على بعض المراكب الشراعية المحملة بالحجاج الذين يبعوا كعبيد . أما رينو دي شاتيون فقد تخيل ما هو أفضل . إذ بنى، في الكرك (بلاشك) خمس سفن كبرى للنقل ومراكب خفيفة وسريعة، حُملت أجزاؤها على ظهور الجمال إلى شواطئ البحر الأحمر، وهناك جمعت وشحنت بالذخائر والمؤن والرجال، وبعد أن سلحت بدأت أعمال الصيد . فطوال عدة أشهر كان القراصنة يندفعون عبر البحر الأحمر على متن أسطولهم الشبح، محرقين موانئ الحجاز واليمن وسفن المسلمين، مكدسين الغنائم والهذي المخصص لمكة، قاتلين الحجاج وهم في لباس الإحرام... لقد شوهدوا على طول الشاطئ النوبي، ونزلوا في عيذاب، ميناء عبور القوافل القادمة من أسوان وأدفو وكوس، وأحرقوا مافيه من سفن، ونهبوا أكداس الأغذية المعدة لتكوين المدينة ومكة . لقد شوهدوا في كل مكان، مُزبدن البحر، قاطعين كل ملاحه، بائين الذعر في نفوس القوافل المقدسة، التي كانت تسرع هرباً من الموانئ والشواطئ التي يرتادها الأسطول الفرنسي ..

وأخيراً، نزل رينو دي شاتيون ورجاله بين المدينة ومكة، في راينغ والحورة . هذا، ويلاحظ

أن سيد الكرك كان يعرف معرفة عجيبة طبوغرافية هذه الأماكن المحرمة على غير المسلمين ، إذ سلك برفاقه طريق قوافل الحجاج التي كانت تنطلق من رابغ ، وتعبّر وادياً قفراً يبعث على اليأس ، تحيط به الجبال والصخور البازلتية السوداء الصالحة للكمان ؛ ذلك الطريق الملهم بما تدل عليه القبور والعظام ، والذي يقود إلى الأماكن الإسلامية المقدسة ، حتى غدا على مسيرة يوم واحد للراكب الخيال من المدينة وواحتها .

وتطوّع بعض الأعراب المتسرعين إلى النهب ، ليدلوا الغزاة على المدينتين المقدستين . وقد قالوا لهم « نحن لا نزرع القمح ولا الدخن (الذرة البيضاء) غلتنا هي من عائذات الحج » ودُعر الإسلام وصار سكان المدينة ومكة يتوجسون خيفة من أن يظهر — في أية لحظة — الفرسان الملعونون . ووصف المؤرخون العرب الذعر الذي انتاب مصر وبلاد العرب كلها . وكما كتب أبو شامة : « لقد كانت رهبة سكان هذه المناطق رهبة مفاجئة ، لقد كانوا يرون ما يشبه بروق الشؤم المخاطفة نتيجة لهذا الغزو المباغت . ولم يسمع قط في ديار الإسلام مثل هذا النبأ ، وقطعاً لم يذكر أحد أن مسيحيين ما وصلوا إلى هذه الديار . واعتقد الناس في كل مكان أنه أرف موعّد قيام الساعة » (٢) .

تدابير الأيوبيين المضادة وسقوط المغامرة

ومع ذلك فالتدابير المضادة لم يطل انتظارها ، ففي القاهرة ، اتخذ الملك العادل أخو صلاح الدين قرارات حازمة ، آمراً أن تفكك فوراً السفن المائتان التي كانت تحمي مدخل ميناء دمياط ، وأن تنقل برّاً إلى القلزم (البحر الأحمر) حيث أعيد تركيبها وتسليحها ووضعت في البحر ، وجمع في الوقت ذاته بحّارة شديدي البأس بالغى الشجاعة من المغاربة بقيادة حسام الدين لؤلؤ ، وحالما تم تجهيز الأسطول المصري انطلق ، وأدرك السفن الافرنجية في الحورة ، ولم يبد الفرنجية أية مقاومة أو شجاعة تذكر ، فأكروها على مغادرة سفنهم واللجوء إلى الجبال الساحلية ، ثم حصروا في أحد الشعاب التي تقود إلى مكة . وهناك ألّفوا أنفسهم مرهقين ، بلاماء ، مصابين بالحمى وسط هذا المناخ الحار القاسي ، وتهاجمهم من الخلف القبائل البدوية — نفسها التي عرضت عليهم إصطلاحهم إلى الكعبة ؛ مدحورين بلا زاد ولا موارد ، فذبح أكثرهم ووقع من سلم بالأسر . ووحده رينودي شاتيون استطاع الإفلات

والهرب ، دون أن يعرف أحد كيف تستنى له ذلك ، واقتيد بعض الأسرى إلى المدينة ليرجموا يوم عيد الأضحى ، بينما سيق الآخرون إلى القاهرة أو الاسكندرية . ومن المؤثر أن تقرأ رواية ابن جبير في وصف وصول هؤلاء الأسرى إلى مصر . « بينما كنا في الاسكندرية في شهر نيسان (ابريل) ١١٨٣ شهدنا تجمع جمهور فائق الحد ؛ قادماً لرؤية الأسرى الافرنج الذين كانوا سيمرون في المدينة وهم مُعتلون الجمال ووجوههم إلى الخلف ، على نفخ الأبواق وقرع الصنج . وحينما سألنا أجبنا بحكاية تثير الشفقة أو الرعب في آن معاً . كان فريق من الفرنجة قد بنى في أرضه القريبة من بحر القلزم (البحر الأحمر) عدداً من السفن ، فككوها ونقلوها عبر الصحراء على جمال البدو ، إلى الساحل حيث أعيد تركيبها ، وأعدت للإبحار . لقد نخر هذا الأسطول عباب البحر الأحمر ، واقترب الفرنجة الكثير من الجرائم النكراء ، التي لم يسمع بمثلها قط منذ ظهور الإسلام ، وأسوأ ما ارتكبه من فعال — تأبى أسماعنا أن تلتقطه — هو التجرؤ على التقدم نحو مكة والمدينة ... »^(٣) .

وبعد أن عرض رجال رينو دي شاتيون الأسرى على الشعب جندلت رؤوسهم علناً يوم عيد الأضحى كيلا يبقى منهم أحد — كما نص قرار الإعدام — وليكونوا عبرة للفرنجة ، إذا خطر ببالهم أن يعاودوا الكرة ، على طرق البحر الأحمر والديار المقدسة . وهكذا انتهت تلك المغامرة التي قادت عدداً مغامراً من المسيحيين حتى أبواب مكة . ولكن رينو دي شاتيون لم يمت . ولن يجد صلاح الدين بعد الآن عدواً أعند منه .

الحلف الإسلامي الفرنجي غير المقدس

وحينما عاد صلاح الدين إلى دمشق علم نبأ فاجع ، وهو أن الموصل تتفاوض مع القدس ، لتنسيق جهودهما وسياستهما بهدف انتزاع سورية من الأيوبيين . وكتب صلاح الدين إلى خليفة بغداد : « لقد تأكدت أن أهل الموصل اتفقوا مع أعدى أعداء المؤمنين ، وقد حاولوا عبثاً إبقاء اتفاقهم سراً ، ولكن كتابات العصاة تشهد عليهم — فضلاً عن شهادة الذين حضروا كتابة المعاهدة — فقد تعهد سلطان الموصل بأن يسلم الفرنجة حصون المسلمين في تبين وبانياس ، وبأن يعيدوا لهم أسراهم ، ليس فقط في المدن الواقعة تحت أيديهم ، بل كذلك في المدن التي يأملون الحصول عليها بمعونة ملك القدس »^(٤) . وهذا الاتفاق ساري المفعول

لمدة إحدى عشرة سنة .. هكذا كان حاكم الموصل يعرض على بلديين الرابع ميثاق مساعدة متبادلة ، لأنه كان يخشى السيطرة السياسية التي يمارسها صلاح الدين — كما رأينا — على أمراء ما بين النهرين الثانويين ... وكان حاكم حلب ابن نور الدين بدوره — وهو آخر مدافع عن المصالح الزنكية في سورية — وفياً للوعود التي قطعها على نفسه وهو على فراش الموت ، فإذا هو يقطع علاقاته رسمياً مع دمشق ، ويضع نفسه تحت تصرف هذا الحلف الإسلامي — الفرنجي المذهل . كان هدف الحلفاء واضحاً : الانقضاض على دمشق في وقت واحد عبر وادي العاصي والأردن .

صلاح الدين يوجه ضربته الأولى للأعداء

ووجه صلاح الدين دون أن ينتظر نتائج المفاوضات القائمة بين الموصل وحلب والقدس الضربة الأولى إلى أعدائه ، فاخترق ما بين النهرين وعبر الفرات في بيرجق ، وانضم إليه عدد من مراكب بعض المماليك الذين مازالوا أوفياء له في ما بين النهرين .. وفتح الرها ، وهي القطب القديم للمشروع الروماني الاستراتيجي ، فسقط في يده موقع واحد قائم في حوض الخابور ، ودون أن يدع لقواته وقتاً للراحة سارع فأخذ الرقة ، وسار في الفرات حتى الخابور ذي المياه الجميلة الصافية ، وأخضع الحسكة وكل وادي الخابور الخصب ، وتعدّ هذه المنطقة أكبر منتج للقطن في العصر الوسيط ؛ وتحفظ طي ثراها بآثار الكثير من الحضارات المندثرة . وعمل صلاح الدين على تقسيمها اقطاعات عسكرية .

حصار الموصل

وفي ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) حط رحاله أمام الموصل التي تُشاهد من أعلى قلعتها خرائب نينوى المؤثرة . كان سلطان الموصل على أهبة الاستعداد لملاقاته ، إذ كدس — في هذه المدينة الشهيرة بالموسلين أو القماش المطرز بالذهب والحرير — الكثير من الأطعمة والأسلحة وكان في مستطاعه أن يصمد أكثر من صلاح الدين البعيد عن قواعد تموينه . والمضطر إلى الاكتفاء بموارد ضئيلة من جبل سنجار القاحل . كان في نيته — على الأكثر — أن ينهك عدوه بلا قتال ، وأن يتحدّاه على هواه وهو قابع وراء أسواره الصفيقة الجدران ، وأن يراه يستغيث يتأكله الحقد والألم . والواقع فإن الجيش السوري الذي أرهقته هذه المسيرات

المتابعة غير المنقطعة عبر هذا العدد من الصحارى أخافه أن يرى في الموصل معسكراً حقيقياً محصناً وآلات حربية مقلقلة كانت تقذف حمم النفط من أشداقها . فأيقظ صلاح الدين في جيشه روح الشجاعة ، وذكره بانتصاراته الماضية ، ولم ينس كذلك أن يعد رفاقه بنهب أسواق هذه المدينة المترفة وتتابع الأسابيع . وقرر مصير الحرب نعل وجد هناك نتيجة مصادفة مشؤومة ، فيما كان صلاح الدين يفتش المواقع المحصنة مع أمرائه غامر مقترباً أكثر من اللازم من أسوار المدينة ، إذ قام أحد المحاصرين الناقمين بقذف سيل من الشتائم ورمى بنعله المغطى بالمسامير نحو المتقدمين ، فأصاب به بطن أحد شيوخ بني أسد القبيلة العربية المشهود لها بالشجاعة . والتقط الشيخ النعل وأراه صلاح الدين قائلاً : « انظر بماذا يعتقد هؤلاء الناس أنهم سيصدوننا . إنهم يعاملوننا على ما يبدو كما لو أننا مجموعة من العبيد ، فأنا لم أتعود مثل هذه الإهانات . قدني نحو أعداء جديرين بشجاعتني ، وإلا فأفضل الانسحاب » .

وغادر تاركاً صلاح الدين هناك ، إلى خيمته حيث روى للشيوخ الآخرين الذين تبعوا صلاح الدين مع قبائلهم حتى أسوار الموصل .. روى لهم الحادث الذي لا يحتمل ... واعتبر النعل الذي كان ينتقل من يد إلى يد سبباً شخصية موجهة إلى كل من هؤلاء القادة الذين لا يشك في شجاعتهم . وكم ودوا ألا تنتقل الحكاية بعد تزيينها وتضخيمها على السنة شعراء البادية لتطوف جميع قبائل ما بين النهرين والعربية السعيدة ، وأن يشار إلى استقبال صاحبها أمام أسوار الموصل بصفق النعال وهو في صحبة صلاح الدين .. وإثر هذا الحادث رفع صلاح الدين الحصار متفادياً — بسبب هذا الحادث التفه — مجازر وحرائق وربما تدمير الموصل .

عودة حلب إلى سلطة الأيوبيين

وبعد فشل صلاح الدين أمام الموصل ظهر للمرة الخامسة وراء أسوار حلب ؛ لمعاقبة حاكمها على خيائته . فكانت المهمة سهلة ؛ إذ تعب التجار الحلبيون من هذه المعارك الداخلية ، والخصومات بين السلاطين التي ماتنفك تقطع مجرى الأحداث ، وتسقط أسعار الحرير والتوابل من يوم لآخر ، خاصة وأن ابن نور الدين مات على حين كانت شخصية صلاح الدين تترسخ ، ولم يعد في نظرهم ذلك التابع الجاحد الذي اغتصب السلطنة من صاحبها الشرعي الزنكي .. بل كان مجده يكبر في المشرق ، من وادي النيل إلى وادي الفرات ،

ومن حدود النوبة إلى جبال أرمينية ، كما برزت مآثره في القدس على وجه التحديد ، ولم يعد بمقدور أحد أن ينكر عظمته التي كان الإسلام — في آخر المطاف — المستفيد الوحيد منها . وكان عقم نزاعات العاملين للاستثمار بالسلطة قد أضّر حتى الآن بوحدة الإسلام السوري .

لكل ذلك قام الوجهاء الحلييون بالضغط على حاكم مدينتهم ، فأدرك أن الأجدى له أن يتخلى عن سلطته ، وكان قراره هذا بالغ الحكمة . خاصة وأن مبعوثين سريين من لُدُن صلاح سبروا له غور الحامية والشعب ، واشتروا جزئياً خضوعهما . ودخل صلاح الدين حلب دخول المنتصر ، وهتف له الجمهور ، وطفق الشعراء يدبجون قصائدهم بمدحه ، حتى إن قاضي دمشق محيي الدين بن الزكي امتدحه بقصيدة من الشعر العاطفي قال له فيما قال :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشّر بفتوح القدس في رجب



حواشي الفصل العاشر

١، ٣ — مما جاء في رحلة ابن جبير عن مغامرة رينو دي شاتيون وعزمه على دخول المدينة المنورة، وإخراج وفاته عليه السلام من ضريحه المقدس وكيف أخذ رجاله أسرى إلى الإسكندرية:

«وذلك أنّنا حللنا الإسكندرية في الشهر المؤرخ أولاً عابثاً مجتمعاً من الناس عظيماً بُروزاً لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنانها وحوهم الطبول والأبواق. فسألنا عن قصتهم، فأخبرنا بأمر تنفطر له الأكباد إشفافاً وجزعاً. وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب في أقرب المواضع التي لهم من بحر القلزم، ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه، فلما حصلوا بساحل البحر سمّروا مراكبهم وأكملوا إنشاءها وتآليفها ودفعوها في البحر وركبوا قاطعين بالحجاج، وانتهاوا إلى بحر النعم فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركباً. وانتهاوا إلى عذاب فأخذوا فيها مركباً كان يأتي بالحجاج من جدة، وأخذوا أيضاً في البر قافلة كبيرة تأتي من قوص إلى عذاب، وقتلوا الجميع ولم يُخَيروا أحداً. وأخذوا مركبين كانا مُقبلين بتجار من اليمن، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت مُتعددة لميرة مكة والمدينة أعزهما الله، وأخذوا حوادث شنيعة لم يُسمع مثلها في الإسلام، ولا انتهى رومي إلى ذلك الموضع قطّ.

ومن أعظمها حادثة تسدّ المسامع شناعة وبشاعة، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول (ﷺ)، وإخراجه من الضريح المقدس أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم، فأخذهم الله باجرائهم عليه وتعاطيهم. ما تحول عناية القدير بينهم وبينه. ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم. فدفع الله عاديهم بمراكب عمّرت من مصر والإسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد من المغاربة البحرّيين. فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم. وكانت آية من آيات العناية الجبارية، وأدركهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان تيف على شهر ونصف أو حوله. وقُتلوا وأُسروا، وُفرّق من الأسارى على البلاد ليُقتلوا بها، ووُجّه منهم إلى مكة والمدينة. وكفى الله بجميل صنعه الإسلام والمسلمين أمراً عظيماً، والحمد لله رب العالمين». (رحلة ابن جبير ص ٣٤ — ٣٥).

٢ — ذكر مطاردة القوات الإسلامية القوى الصليبية التي قادها رينو دي شاتيون (أرنات)، وكيف أن المسلمين

طلقوا يتحدثون عن اقتراب الساعة ؛ في رسالة بعثها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي في بغداد نقلاً عن كتاب الروضتين :

« كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكراً ، واقتضوا من البحر بكراً . وعمروا مراكب حربية شحونها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد ، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز ، وأنخنوا وأوغلوا في البلاد . واشتدت مخافة أهل تلك الجوانب ، بل أهل القبلة لما أومض إليهم من خلل العواقب . وما ظن المسلمون إلا أنها الساعة وقد نشر مطوي أشراتها ، والدنيا وقد طوي منشور بساطها . وانتظر غضب الله لفناء بيته المحرم ، ومقام خليله الأكرم ، وتراث أنبيائه الأقدم ، وضريح نبيه الأعظم (ﷺ) . ورجوا أن تشحذ البصائر آية كآية هذا البيت إذ قصده أصحاب الفيل ، ووكلوا إلى الله الأمر وكان حسبهم ونعم الوكيل . وكان للفرنج مقصدان أحدهما قلعة إيلة التي هي على فوهة بحر الحجاز ومدخله ، والآخر الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله . وانقسموا فريقين ، وسلكوا طريقين . فأما الفريق الذي قصد قلعة إيلة فإنه قدّر أن يمنع أهلها من مورد الماء الذي به قوام الحياة ، ويقاثلهم بنار العطش المشبوب الشبه . وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدّر أن يمنع طريق الحاج عن حجه ، ويحول بينه وبين فجه ، ويأخذ تجار اليمن ، وأكارم عدن ، ويلم بسواحل الحجاز فيستبيح والعياذ بالله الحرام ، ويبيع جزيرة العرب بعظمة دونها العظام . وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمر مراكب وفرقها على الفرقتين ، وأمرها بأن تطوي وراءهم الشقيتين . فأما السائرة إلى قلعة إيلة فإنها انقضت على مرابطي الماء ، انقضااض الجوارح على بنات الماء ، وقذفها قذف شهب السماء ، مسترقي سمع الظلماء . فأخذت مراكب العدو برمتها ، وقتلت أكثر مقاتلتها ، إلا من تعلق بهضبة وما كاد ، أو دخل في شعب وما عاد . فإن العربان اقتصوا آثارهم ، والتزموا إحضارهم . فلم ينج منهم إلا من ينهى عن المعارده ، ومن قد علم أن أمر الساعة واحده . وأما السائرة إلى بحر الحجاز فتبادت في الساحل الحجازي إلى رابغ سواحل الحوراء فأخذت تجاراً ، وأخافت رفاقاً ، ودلها على غوارب البلاد من الأعراب من هو أشد كفراً ونفاقاً . وهناك وقع عليها أصحابنا ، وأخذت المراكب بأسرها ، وفر فرنجها بعد لإسلام المراكب ، وسلكوا في الجبال مهاوي المهالك ومعاطن المعاطب . وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب يشلونهم شلاً ، ويقتنصونهم أسراً وقتلاً ، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلاً ورجلاً ، نهراً وليلاً ، حتى لم يتركوا عنهم خبراً ولم يبقوا لهم أثراً ، وسبق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، وقيد منهم مائة وسبعون أسيراً » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٣٧) .

٤ - ومن كتاب فاضلي : عند دخول صاحب الموصل حلب واستيلائه عليها وكانت داخلة في تقليد السلطان السابق جاء فيه :

« دخل حلب مستولياً ، وحصل بها معتدياً ، وعقود الخلفاء لا تحل ، والسيوف في أوجه أوليائهم لا تسل . وإته إن فتح باب المنازعة أدى من ندامه ، وأبعد من سلامه ، وخرق ما يعيى على الراقع ، وجذب الرداء فلم تغن فيه إلا حيلة الخالغ . وليس الاستيلاء بحجة في الولايات لطالبا ، ولا الدخول إلى الدار بموجب ملك غاصبها ، إلا أن تكون البلاد كالديار المصرية حين فتحها الخادم وأهله حيث الجمعة مسترية والخلافة في غير أهلها غريبة ، والعقائد لغير الحق مستجيبة . فتلك الولاية أولى من منحها من فتحها ، وكان سلطانها من أدخل في كان شيطانها ، وأما حلب فإن الكلمة فيها عالية والمنابر فيها بالاسم الشريف حالية ، فإنما تكون لمن قلدها لا لمن توردها ، ولن بالحق تسلمها لا لمن بالباطل تسنمها . ولو كانت حلب كما كانت مصر لدخلها الخادم ولم يشاور ، ولولجها ولم يناظر ، ولكنه أتى البيوت من أبوابها ، واستمطر القطار من سحبها » .

« ثم ذكر أن المواصله راسلوا الملاحدة الحشيشية واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين ، وواسطة بينهم وبين الفرنج الكافرين ، ووعدهم بقلاع من يد الإسلام تطلع ، وضياح من في المسلمين توضع ، ودار دعوة بحلب ينصب فيها علم الضلالة فيرفع . وباللهعجب من الخصم يهدم دولة حق وهي تبنيه ، ومن العبد يبني ملكها بنفسه وماله وذويه ، وهي تراقب أعلاه فيه . ودعواه في رسائلهم وغوائلهم ليست بدعوى لا يقوم شاهدا ، ولا هي بشناعة لا يهتدي قائدها . بل هذا رسولهم عند سنان صاحب الملاحدة ورسولهم عند القمص ملك الفرنج ، وهذه الكتب المواصله بذلك قد سرت ، ولاستيجاب الولاية طرق ، أما السبق إلى التقليد فللخادم السابق ، وأما العدالة والعدل فلو وقع الفرق لوقع الحق ، وأما بالآثار بالطاعة فله فيها ما لولا معونة الخالق فيه لقصرت عنده أيدي الخلق ومتى استمرت المشاركة في الشام أفضت إلى ضعف التوحيد وقوة الإشرار ، وترامت إلى أخطار يعجز عنها خواطر الاستدراك ، وأحوجت قابض الأعنة إلى أن يعلبها الجدد ، ويرسلها العراك ، وطريق الصلاح والمصالحات الأيمان . والمشار إليهم لا يلتزمون رقيتها ولا يوجبون صفقتها . وكفى بالتجريب ناهياً عن الغره ، ولا يلدغ المؤمن إلا مرة . وإذا اجتمعت في الشام أيد ثلاث ، يد عادية ويد ملحدة ويد كافرة ، نهض الكفر بثليلته ، وقصرت عن الإسلام يد مغيبه ، ولم ينفع الخادم حينئذ تصحيح حسابه وتصديق حديثه . وما يريد الخادم إلا من تكون عليه يد الله وهي الجماعة ، ولا يؤثر إلا ما يتقرب به إليه وهو الطاعة ، ولا يتوخى إلا ما يقوم به الحجة اليوم ويوم تقوم الساعة . » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣—٢٤) .

٥ — أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٤٦ .



الفصل الحادي عشر

سيد الكرك

استيلاء الفرنجة على حبس جلداق

بينما كان صلاح الدين على أبواب الموصل، لم يكن الفرنجة في موقف المتفرج بل ظلوا على عهدهم ماضين في سياسة الإنهاك، وغزو الأراضي الإسلامية، والإخلال بنظام طرق القوافل. واستأنفوا أعمالهم الهجومية مضاعفين الغارات حتى أبواب دمشق. مرهبين الشعب بل يردون كيل الصاع صاعين.

وفي ايلول (سبتمبر) ١١٨٢ نهبوا منطقة بصرى مفسدين مياه الآبار على طريق الحج بما راكموه فيها من مختلف أنواع الجيف وانقضوا كالجراد على أراضي السوتيين الخصبة التي سبق أن انتزعت منهم، والتي يصف غيوم الصوري وصفاً بليغاً كرومها وزيتونها ومروجها كمراعٍ خصبة للمواشي. واستعادوا قصر حبس جلداق الذي فقدوه قبل شهر.

وقمين بالذكر أن ننقل هنا المعلومات التي سجلها غيوم الصوري عن هذا الموقع الذي تبودل عدة مرات، قال: «وصل الفرنجة مع قاطعي الحجارة الذين حفروا قمة الجبل، وكان ثمة عمال آخرون يلقون في قعر الوادي كتلاً كبيرة من الصخور التي تقطع من مكانها بجهد

جهيد. وكان يعرقل العمل مكان من الصخر البلوري التي تقطع هذا السهل الكلبي، وذلك لأن معاول العمال كانت تثلم على هذه الصخور. بينما كان عمال آخرون إلى جانبهم يصلحون فوراً الآلات المعطلة، متناوبين العمل ليل نهار. وأقام قسم من المقاتلين المعسكر على قمة الجبل لحماية قطاع الحجارة؛ بينما رابط الآخرون في الوادي لمنع أية محاولة لخروج العدو. وغامر بعض الفرسان الشبان زحفاً إلى الممر الضيق، واقتربوا من مدخل الكهوف. بينما كان المحاصرون وعدتهم سبعون مملوكاً اختارهم صلاح الدين من بين خيرة جنوده منهكي القوى بالغى الإعياء لعدم تمكنهم من التمتع بأية نائمة استراحة تحت مستمر ضربات المعاول التي تدق الصخر فوق رؤوسهم، وقد شلّ الذعر تفكيرهم في أن يسحقهم انهيار القناطر، أكثر مما يزعجهم احتمال ظهور الفرنجة في أية لحظة. وليقينهم بعدم جدوى انتظار أية نجدة يمددهم بها صلاح الدين الذي ذهب بعيداً مع جيوشه، قرروا تسليم الحصن بعد حصار دام ثلاثة أسابيع».

صلاح الدين يهبط لملاقاة الفرنجة

ولما علم صلاح الدين بسقوط حبس جلدق أثناء عودته من حلب إلى دمشق التي وصلها في ٢٤ آب (اغسطس) ١١٨٣، استأنف مسيره لملاقاة العدو. فعبّر الأردن مرة أخرى ونهب وأحرق قرية بيسان التي سارع مستوطنوها فنزحوا عنها. وفاجأ بالقرب من عين جالوت قوة فرنجية بقيادة الجميل غير اللامع أونفروا الرابع دي تورون ابن إيتنيت دي ميلي أميرة أراضي عبر الأردن سيدة الكرك الشهيرة في مملكة القدس، وقتل المسلمون جموعاً غفيرة من الفرنجة وأسروا حوالي مائة بيعوا في سوق النخاسة بدمشق. ولم يفقدوا في هذه المعركة سوى رجل واحد خلّد اسمه بهاء الدين، مؤرخ صلاح الدين.

وعلم صلاح الدين في أول تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٣ بزحف الفرنجة على حصن الفولة المشرف على سهل أسدلرون فهاجم طلائعهم عند الينابيع المسماة عين الطباينة. واشترك رينو دي ساجيت — الذي كان يلعب دوراً مهماً في إدارة شؤون المملكة — في هذه المعركة الدامية. لقد قاتل الرجال في معركة التحامية مصارعة، الجسد على الجسد والعين بالعين^(١) كما يقول بهاء الدين^(٢). وكانت القرى تُمحى حيثما مر صلاح الدين حتى حاول أن

يدمر دير القديس ايليا اليوناني على جبل الطور. وبسبب اقتراب فصل الشتاء سرح من رجاله، أولئك الذين كانوا يريدون العودة إلى منازلهم للتمتع فيها بشمرات أسلابهم. وعاد إلى دمشق في ١٤ تشرين الأول (اكتوبر).

حصار الكرك

أما رينو دي شاتيون الشجاع المشؤوم، فبعد ملحمة المزرية أمام مكة، وتيه عدة أشهر كتعيس بائس، إثر نجاحه بفضل تطابق ظروف لم يسمع بمثلها، رجع إلى أراضيه واستعاد صحته وقواه وراح يقيم الحفلات الماجنة في حصنه الرهيب: الكرك، في حاشية كثيرة العدد متربصاً بقوافل المسلمين الطائلة الثراء التي كان يمكر بها إذا ما جازفت ومرت قرب ممتلكاته ولكونه غداً سيداً عظيماً، أسطورياً عرف كيف يستقبل بهذا البذخ القروسطي الذي يسحر ألبابنا؛ وشرع الناس يفدون إليه من بعيد لمشاهدة ذلك الذي تصوّر أن بمستطاعه تغيير كل شيء في الأماكن الإسلامية المقدسة. وما أسرع ما كان يُنسى — إلى جانب ذلك — ما اتخذ من مواقف وقحة حيال بودوان لي ميسل، هذا الأمير التاعس الحظ الذي أعماه الجذام.

وقرر رينو دي شاتيون آنذاك أن يحتفي بعرس صهره أونفروا الرابع دي تورون وإيزابيل أخت ملك القدس. وحين علم صلاح الدين بالأمر وجد مناسباً أن يشارك في الحفل لأنه لم يتسنّ السجاجيد الجميلة المسروقة ولا الإهانات التي كالحا له سيد أراضيه عبر الأردن، فضلاً عن أن حصن الكرك هذا أحد أهم ممتلكات ملك القدس لسيطرته على الشريان المصري — السوري الذي تسلكه القوافل. وكانت هذه الطريق سبب قلق صلاح الدين الدائم، وذلك لأنه منذ أن تولى رينو دي شاتيون حكم الكرك تأثرت حركة التجارة بين دمشق والقاهرة نتيجة حالة فقدان الأمن المستمرة على أيدي أسير حلب القديم، وغداً المرور عسيراً بالغ الخطورة مالم يصحب قوافل التجار حرس عسكري، وأضرّت تلك الفوضى بمصالح التجار السوريين والمصريين معاً. ولذا قام صلاح الدين يرافقه أخوه الملك العادل وقواته المصرية، وابن أخيه تقي الدين، وقوة من الأكراد الشديدي الشكيمة، وآلة حرب مهيبه بضرب الحصار على قلعة الكرك، حيث كان جمهور مبتهج من البارونات والنبلاء والسيدات، والمهرجين، والموسيقيين

والشعراء، وبالعبي السكاكين القادمين من القدس، يحتفلون بألعابهم وحركاتهم ومدح أقوالهم بعرس الأميرة.

وأسهم الفن والطبيعة معاً في جعل هذه القلعة منيعة (لا تؤخذ). فقد بنيت عام ١١٤٢ بصخور بركانية قاسية حمراء وسوداء، ولم يستطع بايان لوبوتيه Payan le Boteiller تشذيبها إلا بجهد جهيد. لقد كانت إحدى أفضل دفاعات المملكة، منتصبة على هضبة واسعة (جبل الثلج). بمنأى عن أي مركز، مشرفة على صحراء شرق الأردن، وأراضي البحر الميت القاحلة. كانت هذه القلعة المهيبة تتصل عبر دهليز واحد بمدينة الكرك التي يرق تاريخها إلى زمن متناهِ في القدم، فمن هنا انطلقت روث المؤابية إلى بيت لحم حيث تزوجت بوز Booz جد داود.

وإلى الكرك (كير مو آب أو كير حارسة التوراتية)، قدم داود بأهله ليحميهم من اضطهاد شاول. وفي قلعتها اختبأ ميسا Mesa ملك مؤاب وهزم حيرام ملك إسرائيل ويوث فاط ملك يهوذا، كما تحدث كل من أشعيا وإرميا عن الكرك في نبوءاتهما الخالدة.

ولما رأى كشافو رينو دي شاتيون الجيش الإسلامي يتبدى من بعيد، احتسى أصحابه في ملجأ منع أن يدخله أي من الفرنجة الفارين سواء سكان المدينة السفلى، أو الأطفال والنساء. واستطاع صلاح الدين وبعض المماليك أن يفتحوا مدخل الحصن عنوةً وأن يفتكوا ببعض الحرس والسكان، ولولا شجاعة فارس فرنجي واحد لبلغوا قلب القلعة فبينما خف المدافعون لرفع الجسر المتحرك تصدى ذلك الفارس وحده لهجوم المماليك الذين وصلوا إلى هناك؛ ويدعى الكونت ايفين الذي شرع يوجه ضرباته الموقفة ذات اليمن وذات اليسار متخبطاً في مشيته على جثث القتلى وأجساد المشرفين على الموت، دافعاً حياته ثمن عمله البطولي الذي أنقذ القلعة. ولقد كتب السيد بول ديشام في مؤلفه المدهش: «الدفاع عن القدس». كتب قائلاً: «هنا يجد مكانه عمل ساحر من أعمال العشق والفروسية، عمل يؤكد جيداً العلاقات الغزلية التي يمكن أن يقيمها الأمراء الفرنجة والمسلمون حتى في أزمنة الحرب.. فقد أرسلت إيتينيت دي ميلي العروس الصبية إلى صلاح الدين الذي كان يحاصر المكان شيئاً من ولجة العرس، وأبلغته سلامها مع مبعوثها مذكراً إياه بالزمن السالف أيام

طفولتها (وكيف كان يحملها بين ذراعيه وهي مع ذوبها سجيئة) وتأثر صلاح الدين بالغ التأثير بهذه الذكرى، وسأل عن البرج الذي يقيم فيه العروسان فدلوه عليه، فأمر بالامتناع عن قصفه بأي حال من الأحوال.

كان صنيع صلاح الدين هذا ساحراً، ولكنه لم يمنع الماليك من بقر بطون سكان مدينة الكرك الواطئة المزدحمين أمام باب الحصن وقطع رؤوسهم حتى كَلَّت أيديهم، ثم أمر بنصب ثمانية مجانيق ضخمة راحت ترمي ليل نهار قذائفها الثقيلة على القلعة، وحاول المحاصرون أن يقيموا قاذفة حجارة ضخمة لكي يُفشلوا مجانيق صلاح الدين، ولكن نبالته هاجموا العمال المكلفين بنصبها فاضطروا إلى العدول عن إتمام العمل. وكان المحاصرون مزودين بكميات من الذخيرة بلغت من الغزارة بحيث كان مستحيلاً أن يظل أحد برأسه من إحدى الكوى. دون أن يتلقى من فوره وإبلاً من القذائف. وكان لدى رينو دي شاتيون جمع غفير من المدعويين والمُسَلِّين داخل القصر، وسرعان ما أتت هذه الأفواه — التي لا فائدة منها إبان الحرب — على جميع الأغذية المخزونة. وصار الجائعون بشياهم المزرَكشة يشبطون الهمم بهاجس ولائهم الماضية وبكائهم، وهم يتضرعون إلى سيد الكرك بأن يتصالح مع صلاح الدين. ولكن رينو دي شاتيون الواثق بصلاية دفاعات قلعته الخائف من أية مقابلة مع صلاح الدين بسبب قضية قافلة حجاج دمشق، ومغامراته أمام مكة كان ينوي الصمود للنهاية حتى لو بقي وحده، وأرسل في الوقت نفسه بطلب النجدة من الخارج، وقد تمكن أحد عملائه من الإفلات فحَفَفَ إلى الملك يلتمس قوة غوث، كما أمر بأن معاً بإضرام نارٍ هائلة على أحد أعلى أبراج الكرك لعدة ليالٍ متتابة علامة المصيبة... نار يمكن مشاهدتها من بعيد رغم أن القدس تبعد عن الكرك مسافة ثمانين كيلو متراً على خط مستقيم (خط طيران العصفور).. وكان ممكناً إبان الصبح مشاهدة جبل الزيتون وراء امتداد زرقة البحر الميت. وحينما علم صلاح الدين باقتراب الجيش الفرنجي دَمَّرَ آلاته ورفع الحصار عن القلعة. واستقبل حماة الكرك الذين ظلوا على قيد الحياة ببلدوين الرابع الأعمى المشلول بابتهاج غامر. وأمر الملك بتموين القصر وإصلاح ما حصل فيه من أضرار ورجع إلى القدس.. وأما صلاح الدين «فعاد ظافراً إلى دمشق» كما كتب بهاء الدين، تماماً في الوقت المناسب إذ تلقى خلعة أنحف بها خليفة بغداد، بيد أنه عاد في الصيف التالي وضرب الحصار أمام الكرك مع التصميم هذه المرة

للاستيلاء عليها مهما كلف الأمر، إذ بدأت صيحات التذمر ترتفع في أسواق دمشق من عدم أمان طريق القاهرة الذي كان يهدد الأعمال. ولدينا معلومات كافية ودقيقة حول هذا الحصار الثاني، من خلال رسالة وجهها بلدوين الرابع إلى البطريرك هيراقليوس وكبار قادة الهيكل والاسبتار، الذين كانوا حينذاك في الغرب طالباً فيها القيام بحملة صليبية جديدة. ويقدم لنا المؤرخون العرب: ابن الأثير وبهاء الدين وأبو الفرج وأبو شامة تفاصيل كثيرة. واحتل صلاح الدين في ١٠ تموز (يوليو) ١١٨٤ مدينة الكرك السفلى. إذ تدفقت جيوشه من دمشق، ومصر، وحلب وآمد وماردين وسنجار، ولم يُر البتة مثل هذا الحشد البشري في المنطقة، وقد دافع الفرنجة عن أنفسهم بعناد أكثر من المرة الماضية، ولم يكتفوا بالبقاء وراء الأسوار بل بدؤوا عدوانيين مرهقين العدو. ودام الحصار شهراً دامياً. ولكي يضع صلاح الدين نهاية لرينو دي شاتيون بنى لإنشاءات عسكرية ومجانيق وأبراجاً متحركة وأهواء مغطاة تصل حتى خندق القصر. وتوضح رسالة بديعية سطرها القاضي الفاضل الأهمية التي كان المسلمون يعلقونها على سقوط هذا الموقع، يقول: «هو شجا في الحناجر، وقذا في المحاجر، قد أخذ من الآمال بمخنقها، وقعد بأرصاء العزائم وطرقها، وصار ذئباً للدهر في ذلك الفج، وعذراً لتارك فريضة الله من الحج، وهو وحصن الشوبك يسر الله الآخر كبيت الواصف للأسدين:

ما مَرَّ يومٌ إلا وعندهما لحم رجالٍ أو يولغان دما^(٣)

ويروي أبو شامة: «إنَّ الحجارة المنطلقة كانت تقع بمجموعة على قمة الأبراج وعلى رؤوس الأشرار، كانت تصيب الأفانيز وحماها. ولا يطل أحد برأسه إلا ويقع نصل حديدي في عينه ولا يمتشق سيف الإسلام من غمده إلا ليتخذ من عنق الكفار غمداً آخر، وكانت الحجارة تصل بسخاء ولا يعيقها شيء، وكان لمع الحراب يحدث بين غبار النقع المثار من ركض فرساننا فجراً في قلب الظلام. لقد دحرنا العدو حتى شفير الهاوية وبدأت أسوار الكرك تهتدم، وتنقض المصيبة على الكفار. ولم تعد دروعهم التي مزقت سيوفنا حلقاتها تغطي غير الجراح»^(٤).

ولكن الأسوار لم تهتدم، وظل المحاصرون صامدين، رغم حماسات أبي شامة الشعرية وتنبؤاته الفهلوية، وكما حدث في المرة الأولى ظهر جيش ملك القدس الذي تحرك بخطى حثيثة

صوب الكرك العسيرة. ومرة أخرى رفع صلاح الدين الحصار ليلالي بلدوين المريض المتحصن في تعرجات الطريق إلى الشمال الشرقي من البحر الميت. كان يريد أن يجره إلى ساحة قتال مؤاتية، إلى حَسْبَان ومَاعِينَ. ولكن الفرنجة لم يقبلوا التفرير بهم. وبقي الجيشان يراقب أحدهما الآخر من بعيد، ثم يتوارى كلاهما خلف الآفاق الجليلية.

الخلاف الشائك بين الدولتين الزنكية والأيوبيه

وفيما كان صلاح الدين يهرب سكان الجليل انتقاماً لفشله أمام قلعة رينو دي شاتيون، كان سلطان الموصل المُرِيب يتابع طرق أبواب الأمراء المجاورين رامياً إلى إثارة الخصومات العائلية القديمة وإقامة تحالف ضد سيد الإسلام الجديد.

ورغب الخليفة العباسي الناصر في التوسط بين الموصل ودمشق لحل الخلاف بينهما بالتّي هي أحسن. وحين أصر الزنكيون على عدم الاعتراف بشرعية صلاح الدين على سورية الشمالية وما بين النهرين أوكّل الخليفة إلى الطبيب المشهور بدر الدين مهمة إيجاد الحل المناسب؛ وكان هذا وحده القادر على الاضطلاع بحل هذه القضية الشائكة بفضل ما يتحلّى به من لباقة، وما كان له من عظيم التقدير لدى سائر الأوساط. وكان بهاء الدين يرافقه في مهمته هذه، واستقبل المبعوثان استقبالاً ترحيبياً في دمشق التي وصلها في ٢٤ شباط (فبراير) ١١٨٤، ولم يدخر صلاح الدين وسعاً في تكريمهما التكريم اللائق بمركزهما. وتمنى عليهما بعد عودتهما إلى بغداد أن يطمئنا الخليفة إلى احترامه وإجلاله شخص أمير المؤمنين. لقد خرج لاستقبالهما عند أبواب دمشق، وأعدّ لهما استقبالاً حاراً في العاصمة. وغمرهما بالتكريم والتجلّة خلال إقامتهما في قصره الخاص.

وحيثما انتهت مراسم الاستقبال والحفاوة تطرق القادمان لمناقشة بنود الصلح الذي سيستوى بموجبه الخلاف الشائك على مناطق النفوذ، وظل صلاح الدين حاسماً في موقفه، فيما كانت الموصل تتمسك بحقوق زنكية شرعية على سورية الشمالية ووادي الفرات. وهدف صلاح الدين إلى الاحتفاظ بحلب ووادي الخابور ومحمياته فيما بين النهرين، واشترط لفتح مباحثات الصلح أن يُحل سلطان الموصل أمراء المنطقة وعماها من يمين الولاة. كان يقدم نفسه بصفته مدعياً وليس مفوضاً فهل كان ينوي وهو يحرم سلطان الموصل من رعاياه أن

يُجرمه من جنده؟ أم هل كان يسعى فقط إلى إفشال وساطة الخليفة لعلمه بأن الشرط غير مقبول؟ فهو يعلم أن أغلب المدن الصغيرة فيما بين النهرين كانت إقطاعات للموصل، وأنها في حال استقلالها ستتنجذب حتماً إلى القطب السياسي لدمشق، وهذا ما أدركه مبعوث سلطان الموصل الوزير قيمان الذي قطع المباحثات قطعاً مهذباً، وعاد مفوضاً الخليفة المطلقاً الصلاحية إلى بغداد دون أن يتوصلاً إلى ثني إرادة صلاح الدين.

حواشي الفصل الحادي عشر

١ - ابن شداد: النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية ص ٦١ .

٢ - ابن شداد: بهاء الدين أبو الحاسن (١١٤٥ - ١٢٣٤)

مؤرخ معاصر لصلاح الدين الأيوبي، وعلم من أعلام علماء الموصل المرموقين، برز دوره السياسي في مساعيه لتقريب وجهات النظر بين الزنكيين والأيوبيين ..

يعد مؤلفه النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية، من أهم المصادر التاريخية وأوثقها التي درست سيرة صلاح الدين، وقصة نضاله لتوحيد بلاد الشام وأرض الكنانة في وحدة كفاحية ضد الوجود الصليبي في المشرق العربي؛ وذلك اعتماداً على مشاهداته الشخصية، ومتابعاته للأحداث الجارية وما سمعه شخصياً عن صلاح الدين الذي ولاه قضاء العسكر عام ١١٨٨ م ..

٣ ، ٤ - جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة عن مسيرة صلاح الدين للكرك وضرب الحصار حوله .. ووصف القاضي الفاضل ذلك الموقع كشجاً في حناجر المسلمين مانقلناه مباشرة عن النص العربي الذي ترجمه المؤلف للفرنسية. كتاب الروضتين ج ٢ ص ٥٥ .

1. The first part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee. The names are listed in alphabetical order, and the addresses are given in full. The list is as follows:

Name	Address
Mr. A. B. C.	123 Main Street, New York, N.Y.
Mr. D. E. F.	456 Elm Street, Boston, Mass.
Mr. G. H. I.	789 Oak Street, Chicago, Ill.
Mr. J. K. L.	101 Pine Street, Philadelphia, Pa.
Mr. M. N. O.	202 Cedar Street, San Francisco, Cal.
Mr. P. Q. R.	303 Birch Street, Los Angeles, Cal.
Mr. S. T. U.	404 Spruce Street, Portland, Me.
Mr. V. W. X.	505 Fir Street, Seattle, Wash.
Mr. Y. Z. A.	606 Willow Street, Denver, Colo.
Mr. B. C. D.	707 Ash Street, Minneapolis, Minn.
Mr. E. F. G.	808 Hickory Street, St. Paul, Minn.
Mr. H. I. J.	909 Maple Street, Des Moines, Iowa
Mr. K. L. M.	1010 Poplar Street, Omaha, Neb.
Mr. N. O. P.	1111 Sycamore Street, Kansas City, Mo.
Mr. Q. R. S.	1212 Walnut Street, St. Louis, Mo.
Mr. T. U. V.	1313 Chestnut Street, Cincinnati, Ohio
Mr. W. X. Y.	1414 Locust Street, St. Petersburg, Fla.
Mr. Z. A. B.	1515 Olive Street, New Orleans, La.
Mr. C. D. E.	1616 Elm Street, Mobile, Ala.
Mr. F. G. H.	1717 Oak Street, Montgomery, Ala.
Mr. I. J. K.	1818 Pine Street, Birmingham, Ala.
Mr. L. M. N.	1919 Cedar Street, Nashville, Tenn.
Mr. O. P. Q.	2020 Birch Street, Knoxville, Tenn.
Mr. R. S. T.	2121 Spruce Street, Chattanooga, Tenn.
Mr. U. V. W.	2222 Fir Street, Memphis, Tenn.
Mr. X. Y. Z.	2323 Willow Street, Jackson, Miss.
Mr. A. B. C.	2424 Ash Street, Little Rock, Ark.
Mr. D. E. F.	2525 Hickory Street, Fort Smith, Ark.
Mr. G. H. I.	2626 Maple Street, Fayetteville, Ark.
Mr. J. K. L.	2727 Poplar Street, Springfield, Mo.
Mr. M. N. O.	2828 Sycamore Street, Joplin, Mo.
Mr. P. Q. R.	2929 Walnut Street, St. Joseph, Mo.
Mr. S. T. U.	3030 Chestnut Street, Kansas City, Mo.
Mr. V. W. X.	3131 Locust Street, St. Louis, Mo.
Mr. Y. Z. A.	3232 Olive Street, St. Petersburg, Fla.
Mr. B. C. D.	3333 Elm Street, New Orleans, La.
Mr. E. F. G.	3434 Oak Street, Mobile, Ala.
Mr. H. I. J.	3535 Pine Street, Montgomery, Ala.
Mr. K. L. M.	3636 Cedar Street, Birmingham, Ala.
Mr. N. O. P.	3737 Birch Street, Nashville, Tenn.
Mr. Q. R. S.	3838 Spruce Street, Knoxville, Tenn.
Mr. T. U. V.	3939 Fir Street, Chattanooga, Tenn.
Mr. W. X. Y.	4040 Willow Street, Memphis, Tenn.
Mr. Z. A. B.	4141 Ash Street, Jackson, Miss.
Mr. C. D. E.	4242 Hickory Street, Little Rock, Ark.
Mr. F. G. H.	4343 Maple Street, Fort Smith, Ark.
Mr. I. J. K.	4444 Poplar Street, Fayetteville, Ark.
Mr. L. M. N.	4545 Sycamore Street, Springfield, Mo.
Mr. O. P. Q.	4646 Walnut Street, Joplin, Mo.
Mr. R. S. T.	4747 Chestnut Street, St. Joseph, Mo.
Mr. U. V. W.	4848 Locust Street, Kansas City, Mo.
Mr. X. Y. Z.	4949 Olive Street, St. Louis, Mo.
Mr. A. B. C.	5050 Elm Street, St. Petersburg, Fla.
Mr. D. E. F.	5151 Oak Street, New Orleans, La.
Mr. G. H. I.	5252 Pine Street, Mobile, Ala.
Mr. J. K. L.	5353 Cedar Street, Montgomery, Ala.
Mr. M. N. O.	5454 Birch Street, Birmingham, Ala.
Mr. P. Q. R.	5555 Spruce Street, Nashville, Tenn.
Mr. S. T. U.	5656 Fir Street, Knoxville, Tenn.
Mr. V. W. X.	5757 Willow Street, Chattanooga, Tenn.
Mr. Y. Z. A.	5858 Ash Street, Memphis, Tenn.
Mr. B. C. D.	5959 Hickory Street, Jackson, Miss.
Mr. E. F. G.	6060 Maple Street, Little Rock, Ark.
Mr. H. I. J.	6161 Poplar Street, Fort Smith, Ark.
Mr. K. L. M.	6262 Sycamore Street, Fayetteville, Ark.
Mr. N. O. P.	6363 Walnut Street, Springfield, Mo.
Mr. Q. R. S.	6464 Chestnut Street, Joplin, Mo.
Mr. T. U. V.	6565 Locust Street, St. Joseph, Mo.
Mr. W. X. Y.	6666 Olive Street, Kansas City, Mo.
Mr. Z. A. B.	6767 Elm Street, St. Louis, Mo.
Mr. C. D. E.	6868 Oak Street, St. Petersburg, Fla.
Mr. F. G. H.	6969 Pine Street, New Orleans, La.
Mr. I. J. K.	7070 Cedar Street, Mobile, Ala.
Mr. L. M. N.	7171 Birch Street, Montgomery, Ala.
Mr. O. P. Q.	7272 Spruce Street, Birmingham, Ala.
Mr. R. S. T.	7373 Fir Street, Nashville, Tenn.
Mr. U. V. W.	7474 Willow Street, Knoxville, Tenn.
Mr. X. Y. Z.	7575 Ash Street, Chattanooga, Tenn.
Mr. A. B. C.	7676 Hickory Street, Memphis, Tenn.
Mr. D. E. F.	7777 Maple Street, Jackson, Miss.
Mr. G. H. I.	7878 Poplar Street, Little Rock, Ark.
Mr. J. K. L.	7979 Sycamore Street, Fort Smith, Ark.
Mr. M. N. O.	8080 Walnut Street, Fayetteville, Ark.
Mr. P. Q. R.	8181 Chestnut Street, Springfield, Mo.
Mr. S. T. U.	8282 Locust Street, Joplin, Mo.
Mr. V. W. X.	8383 Olive Street, St. Joseph, Mo.
Mr. Y. Z. A.	8484 Elm Street, Kansas City, Mo.
Mr. B. C. D.	8585 Oak Street, St. Louis, Mo.
Mr. E. F. G.	8686 Pine Street, St. Petersburg, Fla.
Mr. H. I. J.	8787 Cedar Street, New Orleans, La.
Mr. K. L. M.	8888 Birch Street, Mobile, Ala.
Mr. N. O. P.	8989 Spruce Street, Montgomery, Ala.
Mr. Q. R. S.	9090 Fir Street, Birmingham, Ala.
Mr. T. U. V.	9191 Willow Street, Nashville, Tenn.
Mr. W. X. Y.	9292 Ash Street, Knoxville, Tenn.
Mr. Z. A. B.	9393 Hickory Street, Chattanooga, Tenn.
Mr. C. D. E.	9494 Maple Street, Memphis, Tenn.
Mr. F. G. H.	9595 Poplar Street, Jackson, Miss.
Mr. I. J. K.	9696 Sycamore Street, Little Rock, Ark.
Mr. L. M. N.	9797 Walnut Street, Fort Smith, Ark.
Mr. O. P. Q.	9898 Chestnut Street, Fayetteville, Ark.
Mr. R. S. T.	9999 Locust Street, Springfield, Mo.

2. The second part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee. The names are listed in alphabetical order, and the addresses are given in full. The list is as follows:

Name	Address
Mr. A. B. C.	123 Main Street, New York, N.Y.
Mr. D. E. F.	456 Elm Street, Boston, Mass.
Mr. G. H. I.	789 Oak Street, Chicago, Ill.
Mr. J. K. L.	101 Pine Street, Philadelphia, Pa.
Mr. M. N. O.	202 Cedar Street, San Francisco, Cal.
Mr. P. Q. R.	303 Birch Street, Los Angeles, Cal.
Mr. S. T. U.	404 Spruce Street, Portland, Me.
Mr. V. W. X.	505 Fir Street, Seattle, Wash.
Mr. Y. Z. A.	606 Willow Street, Denver, Colo.
Mr. B. C. D.	707 Ash Street, Minneapolis, Minn.
Mr. E. F. G.	808 Hickory Street, St. Paul, Minn.
Mr. H. I. J.	909 Maple Street, Des Moines, Iowa
Mr. K. L. M.	1010 Poplar Street, Omaha, Neb.
Mr. N. O. P.	1111 Sycamore Street, Kansas City, Mo.
Mr. Q. R. S.	1212 Walnut Street, St. Louis, Mo.
Mr. T. U. V.	1313 Chestnut Street, Cincinnati, Ohio
Mr. W. X. Y.	1414 Locust Street, St. Petersburg, Fla.
Mr. Z. A. B.	1515 Olive Street, New Orleans, La.
Mr. C. D. E.	1616 Elm Street, Mobile, Ala.
Mr. F. G. H.	1717 Oak Street, Montgomery, Ala.
Mr. I. J. K.	1818 Pine Street, Birmingham, Ala.
Mr. L. M. N.	1919 Cedar Street, Nashville, Tenn.
Mr. O. P. Q.	2020 Birch Street, Knoxville, Tenn.
Mr. R. S. T.	2121 Spruce Street, Chattanooga, Tenn.
Mr. U. V. W.	2222 Fir Street, Memphis, Tenn.
Mr. X. Y. Z.	2323 Willow Street, Jackson, Miss.
Mr. A. B. C.	2424 Ash Street, Little Rock, Ark.
Mr. D. E. F.	2525 Hickory Street, Fort Smith, Ark.
Mr. G. H. I.	2626 Maple Street, Fayetteville, Ark.
Mr. J. K. L.	2727 Poplar Street, Springfield, Mo.
Mr. M. N. O.	2828 Sycamore Street, Joplin, Mo.
Mr. P. Q. R.	2929 Walnut Street, St. Joseph, Mo.
Mr. S. T. U.	3030 Chestnut Street, Kansas City, Mo.
Mr. V. W. X.	3131 Locust Street, St. Louis, Mo.
Mr. Y. Z. A.	3232 Olive Street, St. Petersburg, Fla.
Mr. B. C. D.	3333 Elm Street, New Orleans, La.
Mr. E. F. G.	3434 Oak Street, Mobile, Ala.
Mr. H. I. J.	3535 Pine Street, Montgomery, Ala.
Mr. K. L. M.	3636 Cedar Street, Birmingham, Ala.
Mr. N. O. P.	3737 Birch Street, Nashville, Tenn.
Mr. Q. R. S.	3838 Spruce Street, Knoxville, Tenn.
Mr. T. U. V.	3939 Fir Street, Chattanooga, Tenn.
Mr. W. X. Y.	4040 Willow Street, Memphis, Tenn.
Mr. Z. A. B.	4141 Ash Street, Jackson, Miss.
Mr. C. D. E.	4242 Hickory Street, Little Rock, Ark.
Mr. F. G. H.	4343 Maple Street, Fort Smith, Ark.
Mr. I. J. K.	4444 Poplar Street, Fayetteville, Ark.
Mr. L. M. N.	4545 Sycamore Street, Springfield, Mo.
Mr. O. P. Q.	4646 Walnut Street, Joplin, Mo.
Mr. R. S. T.	4747 Chestnut Street, St. Joseph, Mo.
Mr. U. V. W.	4848 Locust Street, Kansas City, Mo.
Mr. X. Y. Z.	4949 Olive Street, St. Louis, Mo.
Mr. A. B. C.	5050 Elm Street, St. Petersburg, Fla.
Mr. D. E. F.	5151 Oak Street, New Orleans, La.
Mr. G. H. I.	5252 Pine Street, Mobile, Ala.
Mr. J. K. L.	5353 Cedar Street, Montgomery, Ala.
Mr. M. N. O.	5454 Birch Street, Birmingham, Ala.
Mr. P. Q. R.	5555 Spruce Street, Nashville, Tenn.
Mr. S. T. U.	5656 Fir Street, Knoxville, Tenn.
Mr. V. W. X.	5757 Willow Street, Chattanooga, Tenn.
Mr. Y. Z. A.	5858 Ash Street, Memphis, Tenn.
Mr. B. C. D.	5959 Hickory Street, Jackson, Miss.
Mr. E. F. G.	6060 Maple Street, Little Rock, Ark.
Mr. H. I. J.	6161 Poplar Street, Fort Smith, Ark.
Mr. K. L. M.	6262 Sycamore Street, Fayetteville, Ark.
Mr. N. O. P.	6363 Walnut Street, Springfield, Mo.
Mr. Q. R. S.	6464 Chestnut Street, Joplin, Mo.
Mr. T. U. V.	6565 Locust Street, St. Joseph, Mo.
Mr. W. X. Y.	6666 Olive Street, Kansas City, Mo.
Mr. Z. A. B.	6767 Elm Street, St. Louis, Mo.
Mr. C. D. E.	6868 Oak Street, St. Petersburg, Fla.
Mr. F. G. H.	6969 Pine Street, New Orleans, La.
Mr. I. J. K.	7070 Cedar Street, Mobile, Ala.
Mr. L. M. N.	7171 Birch Street, Montgomery, Ala.
Mr. O. P. Q.	7272 Spruce Street, Birmingham, Ala.
Mr. R. S. T.	7373 Fir Street, Nashville, Tenn.
Mr. U. V. W.	7474 Willow Street, Knoxville, Tenn.
Mr. X. Y. Z.	7575 Ash Street, Chattanooga, Tenn.
Mr. A. B. C.	7676 Hickory Street, Memphis, Tenn.
Mr. D. E. F.	7777 Maple Street, Jackson, Miss.
Mr. G. H. I.	7878 Poplar Street, Little Rock, Ark.
Mr. J. K. L.	7979 Sycamore Street, Fort Smith, Ark.
Mr. M. N. O.	8080 Walnut Street, Fayetteville, Ark.
Mr. P. Q. R.	8181 Chestnut Street, Springfield, Mo.
Mr. S. T. U.	8282 Locust Street, Joplin, Mo.
Mr. V. W. X.	8383 Olive Street, St. Joseph, Mo.
Mr. Y. Z. A.	8484 Elm Street, Kansas City, Mo.
Mr. B. C. D.	8585 Oak Street, St. Louis, Mo.
Mr. E. F. G.	8686 Pine Street, St. Petersburg, Fla.
Mr. H. I. J.	8787 Cedar Street, New Orleans, La.
Mr. K. L. M.	8888 Birch Street, Mobile, Ala.
Mr. N. O. P.	8989 Spruce Street, Montgomery, Ala.
Mr. Q. R. S.	9090 Fir Street, Birmingham, Ala.
Mr. T. U. V.	9191 Willow Street, Nashville, Tenn.
Mr. W. X. Y.	9292 Ash Street, Knoxville, Tenn.
Mr. Z. A. B.	9393 Hickory Street, Memphis, Tenn.
Mr. C. D. E.	9494 Maple Street, Jackson, Miss.
Mr. F. G. H.	9595 Poplar Street, Little Rock, Ark.
Mr. I. J. K.	9696 Sycamore Street, Fort Smith, Ark.
Mr. L. M. N.	9797 Walnut Street, Fayetteville, Ark.
Mr. O. P. Q.	9898 Chestnut Street, Springfield, Mo.
Mr. R. S. T.	9999 Locust Street, Joplin, Mo.

الفصل الثاني عشر

مسألة الموصل

الاضطرابات الداخلية في إمارة الموصل

دفع الوزير قيماز المسكين، الذي دافع جهد ما استطاع عن مصالح الموصل كما لو كانت مصالحه الخاصة، دفع من شخصه ثمن فشل مفاوضات دمشق.

فما إن رجع إلى الموصل حتى جُرد من منصب الوزارة ومن أملاكه ونسائه، وأثقل بالقيود دون أن يوجه إليه أي اتهام بذنوب.. إلا أنه كان ذا أنصارٍ مخلصين، وتكشف ظلمُ السلطان واضحاً للعيان ولم تلبث الموصل أن غرقت بالنيران والدماء، وامتدت الاضطرابات إلى مدن الإمارة الريفية، وأعلن الأمراء هنا وهناك العصيان، واستولى خليفة بغداد نفسه على إحدى اقطاعات الموصل؛ معلناً بذلك الحرب على أميرها، في حين كان يلتمس من صلاح الدين أن يصالحه. وأمام اتساع هذه الفتنة وخشية مغبة ذيوها السياسية، أصدر أمير الموصل عز الدين مسعود العفو عن وزيره، وأعاد إليه سلطاته، وأمر بتعذيب الأمراء الذين استقتلوا في المطالبة بنهاية قيماز.

ولم يلبث هذا الأخير أن انتقم من الأمراء الذين شقوا عليه عصا الطاعة من أولئك

الملوك الصغار الذين يعملون بالخفاء لخلق النزاعات السلالية، وحبك المؤامرات السرية للمحظيين، ولكي يشعرهم بغضبه أحرق أملاك أحدهم: مظفر الدين أمير أربيل الذي قام من فوره بتوجيه رسول إلى صلاح الدين طالباً دعمه بصداقته وتأييده بأسلحته؛ عارضاً عليه بالمقابل دفع مبلغ خمسة آلاف دينار مساهمةً منه في تمويل حملة جديدة على الموصل.

الجيش السوري في وادي الفرات

ولم يتأخر صلاح الدين عن أخذ طريق الفرات، مقدراً الفوائد التي يمكن أن يجنيها من الخلافات المزمنة بين الموصل والسلطنات الدائرة في فلكها. وفي ٢٥ أيار (مايو) ١١٨٥ بلغ حرّان؛ وبعد أربعة أيام أمر بتوقيف أمير أربيل بحجة أنه تفوّه بكلام مقذع بحقه وحق الأيوبيين. ولكن الحقيقة أن الخمسة آلاف دينار مهما تكن شدة إغرائها لم تكن أكثر من سراب السحاب الخلب الذي يكثر في تلك المناطق... فجردّه من سلطته ومن واردات حرّان والرها.. ولكن سرعان ما عاد فأطلق سراحه وغمره بالتكريم وربط مصيره بمصيره، وقد يكون الذهب وصله خلال تلك الفترة، ومن ثم صادف في رأس العين سفيراً من أحد محميه في بلاد ما بين النهرين، يعلمه بقلق أمراء الروم وفارس وكردستان وأرمينية ومدية من وجود الجيش السوري في وادي الفرات؛ وأنهم أقسموا على أن يزحفوا لملاقاته على رأس قواتهم المشتركة ما لم يتخلّ عن مشاريعه ضد الموصل.

أمام أسوار الموصل

كان الأمراء يخشون أن يكون سقوط هذه المدينة مقدّمة لغزو ديارهم، لكن تهديداتهم لم تكن ذات جدوى، إذ أحرق صلاح الدين المراحل ليظهر من جديد أمام أسوار الموصل. وحاول عز الدين مسعود أن يثير رحمة صلاح الدين فوجّه إليه أمّه تصحبها نخبة مختارة من الصبايا لاستدرا عطفه والحصول على السلام، فأظهر صلاح الدين الكثير من اللياقة، وغمر الوفد النسائي بمظاهر الترحيب واللفظ، لكنه لم يمنحه شيئاً مما كان يلتمسه. وحينما حاولت أم أمير الموصل أن تؤثر فيه بقولها: «نحن لا نطالب مطلقاً بحقوق في سورية أو مصر. وسّع حدودهما من جهة الفرنجة أعداء ديننا، ولكن لبيب الفرات حداً شرقياً لك على الأقل.. أعد إلينا مدن ما بين النهرين واسمح بأن يحكم الأمراء الزنكيون أسيادك فيما مضى، وأرباب نعمتك

في هذه المناطق». فبدأ صلاح الدين متصبلاً لا يتزعزع، فصرف هؤلاء النسوة ونصب آلات الحصار حوالي الموصل، ولكي يحرم سكانها الماء أراد أن يحول مجرى دجلة.

استغاثة ملك أرمينية بصلاح الدين

وفيما كان جنود صلاح الدين منهمكين بهذه الأعمال الضخمة حصل حدث غير مرتقب أمل من ورائه أن يستولي على أرمينية؛ ففي تموز (يوليو) ١١٨٥ مات ملك الدولة المسيحية، وخلفه على العرش أحد قواده المدعو بكتمور. ولكن ملك أذربيجان — إحدى أجمل ولايات فارس — طمع في إرث الملك بكتمور الذي وصفه بالغاصب وياشر زحفه نحو خلاط المدينة الأرمينية الصغيرة الواقعة على نبع الفرات، مستهدفاً عزل بكتمور والاستيلاء على أراضيه.. فاستنجد الأخير رغم مسيحيته بصلاح الدين، معلناً له بلهجة لابس فيها أنه يفضل تسليمه أرمينية، وأن يصبح هو أحد خدمه على أن يرى دياره تقع تحت نير الفرس.

وتأثر سلطان دمشق بهذا العرض، وحيث أنه غدا الحَكَم في النزاعات، وحامي مصالح العديد من الأمراء الصغار بيّت أن يستخدم كل هذه الخصومات التي اقتضتها الأقدار لصالح عمله السياسي.. وعلى ذلك بادر إلى إرسال الفقيه عيسى إلى عاصمة أرمينية يصحبه عدد من الكتبة، ليسجل خطياً هذه المقترحات الرائعة، ورفع بنفاد صبر الحصار عن الموصل لكي يتسلم هذه المملكة الجديدة، لكن ملك أذربيجان سبقه وبلغ أبواب خلاط قبل مبعوثي صلاح الدين. واضطر بكتمور الذي كان قد تزوج إحدى بناته أن يختار بين حميه (والد زوجته) وصلاح الدين، وكان هذا الأخير ما يزال بعيداً، ولذا لم يكن مجال للتردد، فالحمو هدد بقطع رأس صهره ما لم يستسلم. ولهذا أعطى بكتمور ملك أذربيجان كل ما طلبه. ولم يصل المبعوثون السوريون إلا بعد فوات الأوان، وقد وجدت أرمينية سيدها.

الصلح بين الزنكيين والأيوبيين

وعلم صلاح الدين بهذا الأمر في ميفارقين، التي أخذها بعد معارك طاحنة فرجع على أعقابها للمرة الثالثة، ورتب قواته أمام الموصل، والوقت إذ ذاك في منتصف الصيف والحرارة بالغة الشدة في تلك المناطق، فمرض صلاح الدين مرضاً خطيراً وأخذت حالته تسوء من يوم إلى يوم، فنصحته الأطباء الذين هرعوا إليه وقد عيسوا من إنقاذه بأن ينتقل من فوره إلى حرّان

حيث يمكن للمناخ المعتدل والهواء النقي أن يلطّف نهايته. وحمل على نقالة، وقد بدأ يهدي وغاب عدة مرات عن وعيه في الطريق، ولم يعتقد أصحابه بأنه سيصل حياً إلى أبواب المدينة. وسرعان ما انتشر خبر احتضاره في سورية والموصل، وبدهي أن يتهج سكانها واحتفلوا بهذا الحدث. لكن الوزير قيماز وحده الذي ظل يفكر تفكيراً مناسباً في مصالح الدولة، فأقنع عز الدين مسعود بالأبّه لتظاهرات الدهماء، ويجدر به أن يفيد من الصحوات الأخيرة للمحتضر، فينتزع منه التوقيع على الصلح. قال الوزير لسيدّه: «إذا مات صلاح الدين فلن يكون لتوقيع أية قيمة، لأنّه ما إن يوارى ثراه حتى يسارع الأيوبيون إلى اقتسام مملكته. وسيفترس الأخوة الأولاد، وسيهرع أبناء العمومة كذلك. وعند ذلك يمكنك الاستفادة من هذه النزاعات العائلية وتستعيد ما كنت مجبراً على التخلي عنه تحت ضغط الضرورات. وإذا لم يسلم صلاح الدين الروح إلى ربّه، وهذا ما يبدو مستحيلاً فلن تجد فيه عند ذاك عدواً متهاكاً على هلاكك، بل حليفاً قوياً يخطيء من ينكر مزاياه، وهكذا تحافظ على ما تبقى من ولاياتك وتؤمن لرعاياك — الذين أرهقتهم الحرب المستمرة — الراحة التي يتوقون إليها».

وحظي هذا الرأي بموافقة السلطان فأرسل سفارةً إلى صلاح الدين مهمتها التفاوض على الصلح في أقصى سرعة. وتغلب صلاح الدين على ضعفه الجسدي فاستقبل البعثة بحزم ووافق على الصلح وهو على عتبة الموت. بيد أنّ الشروط كانت من القسوة بحيث لم يكن في وسعه أن يفرضها حتى لو سيطر على الموصل، ووضع عز الدين مسعود في الأغلال.. إذ طالب بعاصمة كردستان وبلاد ما بين النهرين وبفرض السيادة الأيوبية على المناطق التي كان ينوي إبقاءها تحت الرقابة الإدارية للموصل. وأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة في الموصل. ووقع عز الدين هذا الصلح وهو واثق بأن صلاح الدين لن يلبث حتى يتوفاه الله، وأنه عند ذاك يحيل هذا الاتفاق إلى مجرد قصاصة ورق؛ هذا الاتفاق الذي جعل منه عاملاً لدمشق.

أمير حمص يدفع حياته ثمناً لقراره الاستيلاء على سورية

لكن صلاح الدين الذي كان المحيطون به لا يتحدثون إلّا همساً، تماثل شيئاً فشيئاً للشفاء أمام دهشة المقرّبين منه، وإن كان نبأ وفاته كان قد شاع في طرق القوافل قبل الأوان فاجعاً الشعب السوري، فبكاه الأبناء والأخوة، وصاروا يفكرون في ميراثه السياسي. فقرر

أمير حمص ناصر الدين محمد بن شيركوه الشهير الذي اصطحب ابن أخيه المشاكس في طريق مصر وسبيل المجد، قرر أن يستولي على سورية، وأن ينادى به سلطاناً. وحاول أن يضم إلى جانبه حكام المدن الرئيسية،.. فدفع غالياً ثمن قلة حذره، فقتل مسموماً بأمر من صلاح الدين الذي أوكل حكم حماة إلى أسد الدين شيركوه حفيد عمه، والبالغ من العمر اثني عشر عاماً. ويروي المؤرخون العرب أن صلاح الدين أحبه كثيراً. وقد سأله يوماً عن دروسه وخاصة معارفه القرآنية فأجابه الولد «ياسيدي إني وصلت الآن إلى هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أموال اليتامى ظلماً، إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلُونَ سَعيراً﴾ ويضيفون أن صلاح الدين ابتسم وتظاهر بعدم فهم مقاصد الفتى الذي كان يعبر عن رأي كل من كانوا يعتقدون أن ثروة صلاح الدين السياسية كانت سلباً من ابن نور الدين.

سيد المشرق الإسلامي وصراعات المستقبل

في ٢٣ أيار (مايو) ١١٨٦ عاد صلاح الدين إلى دمشق. وقد أصبح سيد حلب — التي أوكل إدارتها إلى ابنه الملك الظاهر — والموصل، وما بين النهرين، وسورية ومصر. كان قوياً أكثر منه في أي وقت مضى. واستقبل المنتصر وسط مظاهر الابتهاج العام. فلقد أعاد إلى الإسلام قوته. وكانت مجموعة من الدول العربية تحيط بثلاثة أرباع مملكة القدس الفرنجية. ومن الآن فصاعداً أصبح صلاح الدين — صانع هذا العمل — قادراً على استشفاف المستقبل وإكمال بناء هذه الإمبراطورية التي ستمتد من ضفاف النيل إلى ضفاف دجلة، وذلك بإنزاله الضربة القاضية بالولايات الفرنجية التي هزتها خصومات أمرائها الذين أمعنوا في غيهم، بل لم يشاؤوا أن يروا أن الأرض كانت تميد تحت أقدامهم.

هذا، وإن طاقات الدولة الإسلامية ستستنفز، والإرادات ستتحدر في أكثر الحروب المقدسة دموية، وستظهر حروب صلاح الدين الماضية بأزائها مجرد نزعات عسكرية. وسيكون هناك صراع يمكن اعتباره مقدمة لصراعات المستقبل بين الإسلام والغرب، بين عالمين لا يرحم أحدهما الآخر.



الفصل الثالث عشر

النقطة الحاسمة في الحروب الصليبية

الانقسام داخل صف الفرنجة

كيف كان وضع الفرنجة في المشرق في تلك المرحلة . لقد غدت غابرةً عهود البطولات الصليبية الشعبية التي قادها رجال من أمثال بطرس الناسك وغوتيه سانشافوار وجيرار دي مارتينيز وغودفروا وبلدوين وفولك الإنجوي الذي استطاعوا — رغم الصعوبات الجمة — قيادة الجماهير المتحمسة نحو المشرق التوراتي والإنجيلي . مشرق البطارقة والرسل ، نحو أرض فلسطين ، نحو القدس التي تتدفق منها الأنوار التي طالما حلموا بها ، وهم في أعماق الغرب .. لقد انطوى في الماضي الغابر (نحو قرن كامل) مجمع كليرمون وانضباط الحملات الصليبية الأولى .

والملك الشاب ، الذي بمقدوره وحده أن يفعل شيئاً في همة تكفي لحماية القدس ، كان يذوي شيئاً فشيئاً ، فداؤه العضال يتأكله ، فكان — رغم ما يتلظى به قلبه — يشاهد تفاقم الأمور حوله ، والتدميرات التي يحدثها مرض آخر غير مرضه ، فتجتاحه الرغبة في أن يكون على رأس جيشه في الساعات الحرجة المأساوية التي أخذ يشعر مسبقاً بانهاقها . لقد

اضطر إلى التخلي عن السلطة لتأمين ميراث عرش القدس فزوج أخته الكبرى غي دي لوزينيان دافعاً إليه بمقاليد الحكم وصاية، ولكن هذا الاختيار لم يحظ برضا ريمون الثالث كونت طرابلس فرأس حزب الناقمين زاعماً لنفسه حقوقاً في الوصاية أكثر من غي دي لوزينيان. وغادر البلاط وحمل السلاح ضده وانحاز إلى جانبه جمع غفير من الاقطاعيين العصاة. وسرعان ما تكشفت مناوراته عن عدم جدارة غي دي لوزينيان العسكرية، إذ عدّ هذا الأخير المسؤول عن نجاحات صلاح الدين وأخذت الأمور تتفاقم جدّاً، ولم يكن بلدوين الرابع، يريد بأي ثمن أن يكون صانع دمار المجتمع الفرنجي في سورية، ولذا رضخ أمام تحالف عماله، فجرد صهره من السلطات التي أولاها نازعاً عنه الوصاية، وفاسخاً زواجه بأخته.

وحينئذ جاء دور غي دي لوزينيان ليثور، فغادر ناقماً واعتصم وراء أبواب عسقلان، وسلّح حامية المدينة ضد الملك، فأنذره بلدوين الرابع ودعاه للمثول أمام مجلس من الفرسان وكبار الكهنة ليحاكم على خيانتته. وكان ردّ فعل غي دي لوزينيان تدمير منطقة الداروم وقتل البدو المسالمين الذين كانوا يرعون قطعانهم تحت الحماية الملكية، فزحف ملك القدس على عسقلان فوجدها موصدة الأبواب دونه، محكمة الأقفال، فنادى من في الداخل وأمرهم بأن يفتحوا له — حسب رواية غيوم الصوري — وطرق الباب الرئيسي ثلاث مرات، ولكن أحداً، لم يجب. بينما اعتلى بورجوازيو المدينة الأسوار وهم في حالة تأهب.

وكان حظ بلدوين الرابع أفضل في يافا التي انتزعها من صهره السابق، وجمع البرلمان في عكا ليحكم على الكونت الثائر الذي لاقت قضيته السيئة — على غير المتوقع — من يدافع عنها في شخصيات بطريك القدس وسيدي فرسان الهيكل والاستبار الكبيرين.

وكانت نهاية هذا الملك الكبير توشك على خاتمتها، ولكونه غير راغب في أن تتسبب وفاته باندلاع معارك عنيفة بهدف الاستيلاء على العرش أوكل الوصاية على المملكة إلى كونت طرابلس على أن يخلفه بلدوين الخامس، وهو طفل في الخامسة من عمره، وابن اخته سيبيلا من زوجها الأول المركيز دي مونفرّا الثاني. وتقرر أمام المحتضر أنه في حال وفاة الولد قبل العاشرة من عمره يحتفظ ريمون الثالث بالوصاية عشر سنوات، لكي يتاح للبابا وإمبراطور ألمانيا وملكى فرنسا وانكلترا أن يحكموا في الحقوق المتقابلة، حقوق إحدى ابنتي أموري،

سيبيل وإيزابيل . ومات الملك المجذوم في آذار ١١٨٥ بعيد اتخاذ القرارات الحاسمة فيما يؤمن الشرعية للسلالة الأنجويّة، وكان أوّل الأعمال التي قام بها الوصي — كسباً للوقت — توقيع هدنة لأربع سنوات مع صلاح الدين .

بعثة القدس إلى أوروبا والدعوة إلى صليبية جديدة

ولم يلبث الوصي أن وجّه بعثة إلى أوروبا مؤلفة من سيدي الهيكل والاستار الكبيرين ، وبطريك القدس لطلب المعونة ووصف الخطورة القصوى لوضع الدول اللاتينية في المشرق . وركب المبعوثون البحر من يافا ووصلوا بأمان إلى مرفأ برنديزي في إيطاليا .

وكان البابا لوسيوس الثالث وفريدريك باربروس في فيرونة حينذاك . ووعد الجرمانى بأن يرسل ما يطلب منه ، لكنه لم يرسل راحماً واحداً . أما خليفة المسيح فوزّع عدداً من صكوك الغفران وكتب التوصية ، بعد أن أقام جنازاً لسيد الهيكل الأكبر الذي مات في فيرونة ، مصاباً بأحد الأوثىة . ولم يفقد المبعوثان الآخرا شجاعتهما وسافرا إلى فرنسا التي كان يحكمها عهد ذاك الملك فيليب أوغست ، فقابلاه في باريس وقّدا له مفاتيح مدينة القدس وبرج داود ، والقبر المقدس مع رسائل الخبر الأعظم . وتأثر فيليب أوغست تأثراً حقيقياً بما سمع ، وأراد أن يتلفظ بنذر الصليبيين ويمم شطر الأراضي المقدسة ، بيد أن المقرين منه أشاروا عليه بعدم اتخاذ مثل هذا القرار المتسرّع . وسافر مبعوثا القدس بعد ذاك إلى انكلترا ليقابلا هنري الثاني ، فاستقبل هذا الأخير بطريك القدس ورفيقه بكثير من التكريم .

ولكن بطريك القدس هيراقليوس الثاني خطرت له السانحة السيئة بأن ينحى على الملك بقاسي اللوم ويقرعه على سلوكه تجاه الكنيسة الكاثوليكية ، ولدرجة تجرأ فيها على اتهامه باغتيال أسقف كونتربري ، كما لم ينس أن يلومه على القوانين الأساسية لكلارندون التي تحدّد من اختصاص المحاكم الكنسية . ولكون الملك بطبعه حاد المزاج ، فقد لفت نظر بطريك القدس بطريقة غير دبلوماسية إلى أنه دهش كثيراً لرؤيته ينشر مثل هذه الأفكار ، ولكنّ الخبر الوقح الذي أوصلته عشيقته إلى بطريكية القدس ، أجابه : « يمكنك أن تطلق عليّ حماقاتك العادية ، وأن تعاملني كما سبق أن عاملت أخي توماس بيكيت ؛ وفي محصلة الأمر سيان لديّ

بين أن أموت في القدس بأيدي المسلمين أو أن أقتل هنا بيدك أنت، فأنت الأسوأ من أيّ واحدٍ من أولئك البرابرة».

ويمكن أن نخمن دوغما كبير عناء أن ملك إنكلترا الذي لم يكن البتة قديساً لم يشعر مطلقاً أنه مستعد لمنح مثل هذا المبعوث المساعدات التي جاء يطلبها حسب توصية الرسالة البابوية. وهكذا عاد بطريرك القدس كما ذهب بعد أن كان يفتخر بأنه سيقود وراءه ملكي فرنسا وإنكلترا، عاد كما ذهب وفقدت مملكة القدس كل أمل بمعونة الغرب، باستثناء صكوك الغفران البابوية، وأذهل فشل سفارة البطريرك المجتمع الفرنسي في المشرق.

الاضطرابات الجديدة في مملكة القدس

ووقع حادث غير مرتقب أغرق فلسطين مجدداً في اضطراباتٍ عديدة: ففي عام ١١٨٦ مات بودينيه فجأة في عكا، ووري جثمانه قرب جثمان غودفروا، وكان قبره آخر قبر ملكي أسفل الجلجلة، وزعمت بعض الألسنة المفترية أن سيبيل دسّت السم لابنها، لكي تنصب زوجها الثاني غي دي لوزينيان على العرش. بينما اتهم آخرون كونت طرابلس باغتيال الطفل الملكي. ومهما يكن أمر هذه الشائعات فإن قضية واحدة كانت تطرح نفسها على فكر المرشحين الرئيسيين للتاج: من الذي سيصبح ملكاً؟. وتآمرت سيبيل، وسارعت من فورها بالانتقال إلى القدس حيث جلست على عرش آبائها، قاطعة الطريق على كونت طرابلس، الذي هرع بدوره مرخياً أعنة جياده، إلا أنه وبناء على نصيحة جوسلين الثالث دي كورتناي، عم بلدوين الرابع، والوصي على الملك الراحل، جمع صنائعه في نابلس، وناور للحصول على أصواتهم ليصبح ملكاً. وفيما كان البارونات يتذكرون وصل رسول سيبيل يعلمهم بأنها البنت البكر للملك آموري، وأنها أخت وأم الملكين الأخييين، وبذلك فإنها قطعاً الورثة الشرعية للعرش، مطلعاً إياهم على رغبة ملكة القدس المقبلة، التي ترجو منهم أن يحضروا احتفالات تنويجها، فأجاب كونت طرابلس بأنه هو والسادة الرئيسيون من حزبه يقبلون الاعتراف بها ملكةً إذا طَلّقت غي دي لوزينيان، وتزوجت بعد ذلك رجلاً قادراً على قيادة الجيش الفرنسي والدفاع جدياً عن مملكة القدس. فقبلت سيبيل الحاذقة هذا الشرط، وحلّفت السادة البارزين بأن يقبلوا ملكاً الرجل الذي ستختاره زوجاً لها. ولفظ هيراكليوس

الذي كان يعرف خبيء نواياها الحقيقية قرار الطلاق . فإذا غي دي لوزينيان مطلقاً . وراحت سيبيل التي حملت لقب ملكة القدس تعدّ للاحتفالات باعلائها العرش ، وتقبلت التاج ، في كنيسة القبر المقدس من يدي البطريرك الذي أقسم لها على الولاء والطاعة باسم الإكليروس والشعب ، وطلب إليها أن تقتسم شرف الملك مع الرجل الذي تعتبره الأجدر فقالت : « لقد تم اختياري » ، ورفعت التاج واضعة إياه على هامة غي دي لوزينيان ، وأضافت مخاطبة هذا الأخير : « إنني أختارك ملكي وسيدي ، وملكاً وسيداً للقدس ، لأن على الإنسان ألا يفرّق ما جمعه الله » . فأثار يوم الخديعة هذا فضيحة ، يمكن العثور على صدها في الجواب الذي تلفظ به أخو غي دي لوزينيان عندما أطلع على هذا النبأ : « هؤلاء الذين نصبوا أخي ملكاً كان يمكنهم أن يجعلوني إلهاً لو عرفوني » . ولم يتأخر كونت طرابلس في إظهار غضبه ، فانسحب إلى إمارته ، وباتت الحرب ، منذ الآن ، معلنة سراً بينه وبين غي دي لوزينيان العديم المواهب ، والذي لا يمتُّ بأية آصرة تربطه بالنبال السورية ، ومع ذلك يوضع في خط النار تجاه عدو مخيف وطموح استطاع أن يعيد لمشرق العالم الإسلامي وحدته ، بينما كان الفرنجة منقسمين إلى معسكرين حاقدين يستعد أحدهما للانقضاض على الآخر ، تحت أنظار المسلمين المبتهجين ، وغدا من حق صلاح الدين أن يعلن عن فرحه حينما علم بهذا الخبر الجيد ، وترتب عليه كسياسي بعيد النظر أن يحرص بالغ الحرص على بقاء هذا العداء مستمراً ، ولم يتوان في أن يعرض على كونت طرابلس التحالف معه واعداً إياه ، كئمن لخيانته ، بعرش القدس ؛ ولكي يقدم له الطعام وضع ابنه الأفضل على ضفة الأردن على رأس سبعة آلاف رجل . وأدرك غي دي لوزينيان أن من الأفضل وتحقيقاً للصالح العام ، الاتفاق مع عامله الخطر ، وبعث إليه يسأله الصلح وفق مشيئته هو ، وطال انتظار إبرام الاتفاق .

رينو دي شاتيون يتصدر الواجهة السياسية مرة أخرى

وسواء أكان فرنجة القدس مع غي دي لوزينيان أم مع كونت طرابلس ، فقد وجب عليهم أن يواجهوا هوماً أخرى ، ذلك أن رئيس العصاة الذي لا يُنسى : رينو دي شاتيون قام بأحد أعماله المشهورة ، وتصدر بالتالي الواجهة السياسية ، إذ عمل على تسريع الأمور التي كانت تتختم ، وذلك بموافقته على نهب قافلة شامية جديدة هامة مارة فوق أرضه ، في طريق عودتها من مصر . وذهب أبعد مذهب في الفظاظة وعدم اللباقة عندما أجاب التجار الأغنياء

الذين قادهم أسرى إلى وكره في الكرك، بعد أن احتجوا على موقفه متذرعين بالصلح القائم بين المسلمين والفرنجية بقوله: «لينقذكم الآن محمد». وكان في عداد الأسرى حسب رواية مُكمل تاريخ غُيوم الصوري، شقيقة صلاح الدين نفسها^(١).

وبعث صلاح الدين بموجب قاعدة الأخلاقية الإسلامية التي تقضي بالحكم على الخيانة حتى لدى غير المسلمين، بعث من فوره برسالة زاجرة إلى رينو دي شاتيون يأمره بإطلاق سراح تجار دمشق وإعادة أموالهم إليهم فوراً. وردّ سيد الكرك الذي كان ثملاً دونما ريب، بأنه سيحتفظ بأسراه حتى يخرج ذهبهم من أبدانهم عرقاً. فطلب صلاح الدين من ملك القدس إصلاح هذا الإخلال بشروط الصلح؛ فسارع الأخير إلى إلقاء الحرم على عامله الذي لم يكن يحفل بالله، ولا يهتم بالشيطان، ويدعي أنه سيد أرضه، كما أن الملك سيد مملكته؛ وهو من جهته لم يوقع على هدنة مع المسلمين.

الدعوة إلى الجهاد المقدس في دار الإسلام

ومع الأسف فإن نهب هذه القافلة — كما يقول مكمل تاريخ غُيوم الصوري فيما بعد — كان سبب ضياع مملكة القدس؛ لأن صلاح الدين دعا بناءً على أمر من خليفة بغداد، إلى الجهاد المقدس في جميع الديار الإسلامية. واعتبرت أراضي الفرنجة دار حرب. ومنذ إعلان الجهاد المقدس فكّ أمير انطاكية بوهيموند الثالث ارتباطه بالولايات اللاتينية في المشرق، كيلا يكون على علاقة بتدمير مملكة القدس، كما وقع اتفاقية حياد مع صلاح الدين، تلك الاتفاقية التي ظلّ وفياً لها. وحينما اطمأن سلطان دمشق إلى هذه الناحية، أعد أهبطه لغزو فلسطين.

أمارات انهيار الممالك اللاتينية في الشرق

وهكذا كان الوضع مؤسفاً لفرنجة المشرق في هذه السنوات المظلمة (بالنسبة إليهم طبعاً) من أواخر القرن الثاني عشر. لقد كان على عرش القدس امرأة هي سيبيل التي فرضت ملكاً أميراً تافهاً اختارته لمواهبه السريرية. بينما كانت إيزابيل الشقيقة الأخرى للملك ستزوج أميراً فاسداً سيء الرأي، وكانت الملكة الأم الطائشة، الجشعة، عاشقة البطريك

لا تتدخل إلا لصالح حاشيتها من رجال البلاط المعطّرين فاقدى الرجولة ، وكان رينو دي شاتيون الذي تشكل اقطاعاته أحد أفضل دفاعات المملكة لا يحلم إلا بالغنائم ، واختطاف القوافل المترفة . وأما كونت طرابلس . فكان — وهو في أعماق ممتلكاته في عسقلان ويافا — لا يفكر إلا بضربة الخنجر التي ستنتقذه من خصمه بوهيموند الثالث الأنطاكي الذي تخلى عن جماعته ونسي دينه ، وأسلم قياده لعاهرة هي سيبيل دوبرزي التي ما برحت تخون الفرنجة لصالح صلاح الدين فتطلعه على تحركات القوات الفرنجية ومعدّاتها وعددها . وكان العدو على أبواب المملكة ، وكل شيء ينذر بالدمار الوشيك لمملكة القدس التي أسستها حماسة الصليبيين الأوائل ، وشجاعتهم وتقواهم . إن امارات انهيار السلطة الملكية وفساد الأخلاق لم تتضاعف مجاناً فعدو الجنس البشري القديم — أي الشيطان كما كتب أحد مؤلفي الحوليات — قد حمل في تلك الحقبة روح الغواية إلى كل مكان ، وسيطر سيطرة خاصة على القدس . كانت جميع الشعوب التي قبست الدين عن بلاد النور هذه تتلقى منها الآن مثلاً على مختلف ضروب الظلم . ولهذا احتقر المسيح إرثه ، وسمح لصالح الدين بأن يكون عصا غضبه .



حواشي الفصل الثالث عشر

١ — لقد ذهب المؤرخون الغربيون وفي طليعتهم ، مكمل تاريخ غيوم الصوري ؛ إلى أن شقيقة صلاح الدين كانت في عداد الأسرى حينما استولى رينو دي شاتيون على القافلة المتوجهة من القاهرة إلى دمشق ، وأن من أسباب معركة حطين ما اعتري صلاح الدين من غضب شديد دفعه للانتقام ، لكن المصادر التاريخية العربية لم تشر — لا من قريب ولا من بعيد — إلى وقوع أخت صلاح الدين بالأسر ...

ولقد عرض أبو شامة في كتاب الروضتين ، نقلاً عن المصادر العربية الأساسية ، نقض صاحب الكرك دي شاتيون الذي يلقبه المؤرخون العرب بـ «أرناط» الهدنة حين نصب الكمين للقافلة المتجهة من القاهرة إلى دمشق ، ونذر صلاح الدين أن يهدر دمه جزاء فعلته :

« وكان لإبرنس الكرك أرناط أغدر الفرنجية وأخبثها وأفحصها عن الردى والرداءة ، وأجثها وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبومة ، وأنكثها وأحنثها . ومعه شرذمة ، لها شر ذمة ، وهي من شر أمة ، على طريق الحجاز ، ومن نهج الحج على الحجاز . وكنا في كل سنة نغزوه ، وبالبوائق نعروه . ويصيبه منا المكروه ، فأظهر أنه على الهدنة ، وجنح للسلم ، وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه وروحه ، وبقي الأمن له شاملاً ، والقفل من مصر في طريق بلده متواصلاً . وهو يمكن الجاني والذاهب ، حتى لاحت له فرصة في الغدر ، ففقطع الطريق ، وأخاف السبيل ، ووقع في قافلة ثقيلة ، معها نعم جلييلة ، فأخذها بأسرها . وكان معها جماعة من الأجناد فأوقعهم في الشرك ، وحملهم إلى الكرك . وأخذ خيلهم والعدة ، وسامهم الشد والشدة . فأرسلنا إليه وذمنا فعاله ، وقبحنا احتياله واغتياله . فأبى إلا الإصرار والإضرار . فنذر السلطان دمه ووفى في إراقة دمه بما التزمه . وذلك في السنة الآتية — كما سيأتي إن شاء الله تعالى — وأقام السلطان بدمشق بقية هذه السنة ، وهو في الاستعداد للجهاد . وقد أرسل في طلب العساكر من البلاد المشرقية والمصرية ، فانتظمت أموره على أحسن قضية . » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٥) .



الفصل الرابع عشر

حطين ..

النصر الأعظم للمسلمين على الفرنجة^(١)

تحت راية الجهاد

إنّ الجهاد المقدس الذي أعلنه الخليفة — خليفة رسول الله العباسي — فجّر الحماسة في سورية، وتجمعت القبائل حاملة بالغنائم التي تجمع مساء من ساحات القتال، فهرعت من أعماق الصحراء متألّبة تحت رايات الجهاد التي حملها رجال صادقو العزم. وانحدر البدو عقبان الصحراء في سهوب عبر الأردن المقيمون قرب الحضر. والذين يكسبون منهم موارد شبه مشروعة، انحدروا زرافات ووحدانا نحو فلسطين. وحمل الشعراء النبأ من قبيلة إلى قبيلة، ومن صحراء إلى صحراء، وهم يروون تحت الخيام في ساعات الغسق حكايات ملحمية من شأنها أن تثير مخيلات الفرسان، حتى انتهى البلاغ إلى أعماق العربية السعيدة فامتألت تخوم الجليل بسحب من القوافل شبيهة بزمان التجمعات العربية عشية فتح الشرق البيزنطي والساساني.

وفي آذار (مارس) ١١٨٧ تجمعت قوات صلاح الدين شمالي حوران بقيادة الملك الأفضل الذي كلفه أخوه بتأمين المؤن اللازمة لمعركة عسكرية طويلة الأمد.

الصليبيون والدعوة إلى الوحدة المقدسة

وبلغت أصداء هذه الاستعدادات القدس حيث نجح الملك غي دي لوزينيان في مصالحة خصمه كونت طرابلس بدعوته إلى الوحدة المقدسة، وبعد تبادل القبل المعتادة عقد مجلس في العاصمة لاتخاذ الإجراءات الكفيلة بالدفاع عن المملكة. وانتصر الرأي القائل بالتجميع الفوري للقوات المتاحة في الجليل، فاستدعي جميع الرجال القادرين على حمل السلاح وكل الميليشيات الهجينة وطلب من البارونات أن يحضروا إلى مكان التجمع، واستنفر البورجوازيون (سكان المدن). وأرسلت الحصون حامياتها. وهكذا استطاع ملك القدس أن يحشد ٢٠٠٠ فارس و ١٨٠٠٠ راجل في سهل صفورية. مسقط رأس يواكيم (عمران) والد مريم البتول على مسافة ثلاثة أميال ونصف الميل شمال الناصرة. وطلب إلى بطريرك القدس بدوره أن يحضر مع الصليب الحقيقي الذي من شأن وجوده بين المحاربين أن يثير أقصى الحماسة للدفاع عن المملكة التي يهدد المسلمون وجودها. ولم يكن البطريرك هيراقليوس ليأنس في نفسه تلك الشجاعة التي يتحلى بها أولئك الرهبان الجسورون القادمون من أعماق أديرتهم الهادئة لتسريل الدرع والموت في سبيل عقيدتهم، فأوكل إلى اثنين من أولاده الذين أنجبهم من علاقاته الآثمة، شرف حمل راية الدين في ساحة القتال... أولهما أسقف اللد والثاني أسقف عكا.. وبما أن هيراقليوس متملص من الاضطلاع بواجبات منصبه فقد فكر بما يتوسله من أسباب تحمله إلى أوروبا حيث ينعم بعيداً في ملاذّه بطائل ثرواته تصحبه سيدات نبيلات إذا ما آلت أمور المملكة إلى مصير سيء.

الاستنفار المرتجل وحشد جيوش الفرنجة في صفورية

والأمر الذي علينا تذكره عن هذا الاستنفار المرتجل للقوات الفرنجية، أنه لم يبق في مدن فلسطين أو حصونها سوى العاجزين عن القتال من النساء والشيوخ والأطفال، وكان بوسع ملك القدس الادعاء بأنه حشد في صفورية أحد أهم الجيوش على مدار الحروب الصليبية.

ولكن — في المقابل — لم يُستَبَق في المؤخرة أحد قادر على سدّ الطريق في وجه الفاتح الكردي عند مسيس الحاجة، إذا تمكن من هزيمة ملك القدس، وذاك هو الخطأ الفادح الذي ارتكبه هذا الأخير إذ لم يأخذ بعين الاعتبار ما قد يتمخض عن الأحداث من احتمالات.

كان خطأ لا يغتفر أن يتقرر في ساح القتال حصراً مصير مملكة الفرنجة المزدهرة هذه في المشرق .

تحركات صلاح الدين لتأمين حدوده الشمالية

وعرف صلاح الدين أن يؤمن لنفسه صداقات في معسكر العدو قبل أن يحضر لقيادة قواته . لقد سبق لنا القول إنه عقد اتفاقاً سياسياً مع أمير أنطاكية بوهيموند الثالث ، فضمن أمن حدوده في شمال سورية ، واستطاع بهذا أن يحصر كل اهتماماته بالمسائل الفلسطينية .

احتشاد القوات الإسلامية

وفي ٢٧ أيار (مايو) ١١٨٧ نصب صلاح الدين خيمته عند نبع عشترا شرقي بحيرة طبرية ، حيث انتظر قدوم حلفائه مهابين النهرين ، ومن مصر بقيادة الكثير من الأمراء ، نخبة المشرق كلها . وقد قام باستعراض قواته حال تكاملها ، فكانت — حسب قول المؤرخ العماد^(٢) — « قوة باهرة إذ عجت التلال والهضاب بفرسان الرحمن ، فكان معسكرنا يمتد عده فراسخ تعج بستين ألفاً استعرضهم السلطان صلاح الدين في ليلة عاصفة »^(٣) .

صلاح الدين يعبر أراضي كونتية طرابلس

وفي ذلك الوقت ، استطاع كونت طرابلس رمون الثالث ، الذي لم ينس أن صلاح الدين طلب أن ينضم إليه مقابل حصوله على مملكة القدس ، استطاع أن يقيس مدعوراً عمق الفخ الذي كان ينفغر تحت قدميه ، فراح يتساءل هل كان قد تبقى له بعض الشعور بالشرف ، وراح يلعن هدنة السنوات الأربع التي أبرمها لينقذ ممتلكاته في الجليل .

لقد لعب صلاح الدين معه لعبة حاذقة ، فطلب منه الإذن بأن يعبر أراضيه لكي يقوم حسب زعمه بمجرد تظاهرة فقط في الأراضي المقدسة . وأصاب رمون الثالث الهلع لكن بعد فوات الأوان من انتشار قوات صديقه الجديدة . فاضطر أن يأذن بهذا العبور مكتفياً — بغية إراحة ضميره — بأن يأخذ وعداً من المسلمين المسلحين باجتياز حدوده عند الفجر وبأن يعودوا منها في المساء ذاته . فكانت مساومة بلا معنى ، ودونما أية جدوى .

وعبر صلاح الدين نهر الأردن ، وسار نحو جبل الطور (الطابور) والناصرة .

عملية فرسان الهيكل الانتحارية

وقام مائة وخمسون هيكلياً استنفروهم اقتراب المسلمين ، دوغما علم منهم بالتدابير التي أنفذها كونت طرابلس ، قاموا بعمل جنوني بمهاجمتهم سبعة آلاف خيال مسلم ، وكان على رأس المهاجمين الفارس الفلامندي الشاب جيرار دي ريدفور ، فكان أن ذهبوا لملاقاة الموت بشجاعة انتزعت احترام أعدائهم وأشاد مؤرخو الحوليات بذكر هؤلاء الأبطال الذين قبلوا الموت ثابتين بمواقفهم بمعارك قاسية لا ترحم .

وحمل المسلمون رؤوسهم على أسنة رماحهم حينما عبروا نهر الأردن مساء . وأمضى صلاح الدين ليلة ٢٦/٢٧ حزيران (يونيو) في خسفين ، وعسكر خمسة أيام في السهل الواقع قرب مخرج نهر الأردن من بحيرة طبرية .

الاستيلاء على مدينة طبرية وحصار قلعتها

وفي ٣٠ حزيران تمركز صلاح الدين فوق تلة كان يستطيع منها رؤية مدينة طبرية الصاخبة ، عاصمة المنطقة الأردنية التي بناها هيرودس انثيمياس على شرف طيبيريوس المشهور بمدرسته الربانية التي صدر عنها تلمود القدس ، والماسورة المعدّة لحفظ النص العبري للتوراة نقلاً عن المخطوطات الأصلية . واغتنت من تجارة القوافل الضاربة ما بين دمشق وعكا ، حين غدت عاصمة لإمارة الجليل لمناصفتها المناطق المجاورة مواردها ، وأخذت أهميتها الاقتصادية تنمو باطراد تحت الإدارة الفرنجية . وكان على مقربة منها قرية عمواس الشهيرة بحماماتها الحارة المعروفة بحمامات تيبير التي يتدفق في بهو هيكلها الفخم اثنا عشر ينبوعاً كل منها مخصص لشفاء أحد الأمراض .

واستولى صلاح الدين على طبرية في ساعة واحدة ، ونهب ممالكه المدينة وأحرقوها . وعلى ضوء اللهب الساطع الذي أخذ يلتهم الأحياء الخارجية ، حاول صلاح الدين عبثاً الاستيلاء على القلعة التي دافعت عنها امرأة رمون كونت طرابلس التي رفضت الاستسلام واستطاعت أن تبعث رسالة إلى ملك القدس طالبة منه نجدة فورية ... وكان الفرنجة قد تجمعوا قرب ينابيع صفورية ، وعدتهم نحو ثلاثين ألف مقاتل .

ضجة في صف الفرنجة

وحين علم الملك بكارثة طبرية، عقد اجتماعاً، وكانت الجلسة صاحبة. فقد هب رينو دي شاتيون يريد الشخصوس فوراً لإنقاذ طبرية، على حين بدا ريمون كونت طرابلس أشد حذراً في ردود فعله، لأن طبرية هي من اقطاعه، لكنه ارتجل نداءً عاطفياً نوه فيه بما تقتضيه الحكمة من عدم التخلي، في هذا الطقس الخائق بشديد حرارته عن منطقة الينابيع، وعدم عبور الصحراء بلا ماء في جيش لن يلبث أن يرهقه الظمأ، وقال مستنثجاً «إياكم أن تبرحوا الآن ينابيع صفورية. ثقوا برعونة المسلمين الذين أعماهم نجاحهم السهل بحيث سيدفعهم إلى التقدم نحونا هنا، وهذا مايجب أن نتمناه، فبينما سنكون نحن نشيطين ومستعدين سيكونون هم منهكين ظمأ، مجهدين تعباً، إذا ما عبروا الصحراء التي تفصل ما بيننا وبينهم، وسنهاجمهم دون أن ندع لهم وقتاً لإرواء ظمئهم. ولسوف نسحقهم بالغأ ما بلغ عددهم، سنسحق أولئك الذين يدرون بلادنا ويحرقون مدننا...» بينما كان رينو دي شاتيون — الذي طالما وضعت أعمال نهبه وحنثه بعهوده الفرنجة في مأزق أكثر من مرة — على نقيض هذا الرأي، وتجراً على ريمون طرابلس متهماً إياه بالجبين، وتوجه إليه بالخطاب: «لقد أفضت بالقول لتخيفنا، ولاشك في أنك تحتفظ في سويداء قلبك ببعض الصداقة نحوهم، ولذا تهدف إلى منعنا من الزحف لمقاتلتهم». وتصاعدت بعد ذلك لهجة الحدة وطفق البارونات يتخاطبون مباشرة غير آبهين بالملك الذي لم يعد يجزئ على اتخاذ قرار. وأنحى أحد الهيكليين باللائمة والتفريع على ريمون كونت طرابلس لخمود حماسته متهماً إياه بالتفاهم مع العدو. ولكن الأخير ظل متمسكاً بعنيد موقفه، ينذر قومه بعواقب وخيمة ومصائب رهيبة، وتضرع إلى الملك ألا يغادر ينابيع صفورية، وعدم إلقاء جيش الفرنجة في كارثة محققة.

وصرخ محتنداً «إن طبرية ملكي، وماتزال زوجتي محاصرة في قلعتها ولكن لا يضيرني شيء لو استولى عليها صلاح الدين شرط أن يختفي من الأرض المقدسة. الحقيقة التي أصارحكم بها هي أنه سبق لي أن شاهدت عدداً من الجيوش الإسلامية، لكنني لم أر البتة جيشاً كهذا الذي يصطحب السلطان الآن، فإذا ما سترم إلى طبرية فسيكون في ذلك نهاية مملكة القدس».

وغادر مجلس الحرب منسحباً إلى خيمته، وقد هزت صراحته أغلب البارونات الحاضرين.

ملك القدس يزحف بقوات الفرنجة إلى حثفا

أما الملك الذي مازال متردداً فترك تدبير الأمور للعناية الإلهية وحدها. كان يود التريث بضعة أيام قبل اتخاذ القرار المناسب، وها قد انتصف الليل وانسحب كل إلى خيمته، بيد أن سيد منظمة الهيكلين الأكبر جيرار دي ريدفور، هذا الذي قاتل بمنتهى البسالة قبل أيام قلائل مع جاكلان دي مايي، رأى من الذل الشخصي أن ينضم الملك في نهاية المطاف إلى عدوه ريمون الثالث، ولذا قصد على غير ما هو متوقع غي دي لوزينيان بمفرده، وبذل قصارى جهده لكي يدفعه للعدول عن قراره، وقال مخاطباً إياه: «لا تحقد عليّ، إذا ما صارحتك الحديث، فكونت طرابلس خائن، وإنك تملك منذ زمن قصير، ولديك جيش جيد. أليس عاراً عليك أن تدع مدينة فرنجية تسقط دون أن تحاول نجدها؟ وكيف يمكن أن تسوّغ مثل هذا التخلي؟. لقد اتخذنا نحن الهيكلين خيارنا. وسنزع أرديتنا البيضاء ونبيع أملاكنا بدلاً من أن نتحمل العار الذي يراد سريلة شعب يسوع المسيح به... أيها الملك، دع قيادتك تستنهض الجميع ليكونوا على أهبة الزحف فجراً تحت راية الصليب المقدس». فانصاع الملك، وبعد بضع ساعات كان الجيش الفرنسي يتخلى مع أولى خيوط الضياء عن ينايع صفورية، والزحف للقاء الموت.

خطة صلاح الدين الحربية

لقد رمى صلاح الدين — حينما حاصر قلعة طبرية — إلى إكراه الفرنجة على التخلي عن المنطقة الغنية بينايع صفورية الثرة وخضرة مراعيها، وليحول بينهم وبين بلوغ بحيرة طبرية، وحصرهم في منطقة من الأراضي الملتهبة التي لا يمكنهم معها أن يجدوا أي مصدر للمياه.

وفي أول تموز (يوليو) أصبح الجيشان وجهاً لوجه، وقال صلاح الدين حينما رأى ملك القدس ينتهي إلى الموقع الذي اختاره هو للقتال: «إن الله يقدمهم لي»^(٤).

بدء المعركة

وفي اليوم التالي حصلت أولى المناوشات قرب لوبيا على مسافة تسعة أميال شرق صفورية . وكان القتال ضارياً بلا رحمة من الجانبين ، وكتب بهاء الدين قائلاً : « لم يحدث قط في تاريخ ماسلف من الأجيال أن سجّل مثل هذه الأعمال الحربية التي شهدناها ذلك اليوم »^(٥) .

وحين حلّ الليل بقي كل فرد شاكي السلاح في معسكره ، وشارف الموقف حد المأساة إذ أخذ الرجال والحيوانات يعانون وطأة الظمأ . وكان النهار شديد وطأة الحرارة ، وأوشك مخزون المياه على النفاد ، ومع إطلالة فجر اليوم التالي لم يبق للفرنجية سوى بارقة أمل وحيدة : فتح ممر لهم عبر الجيش الإسلامي ، والتخلص مهما كلف الأمر من قبضته التي لا ترحم ، ولكن المماليك الذين كانوا في منتهى الراحة أطاشوا أحلامهم وبددوا آمالهم ، تحت الشمس الجهنمية ومثار النقع ، فكانت هجماتهم تتلاحق طوال النهار ، على سحب الغبار ، ويتابع بهاء الدين قائلاً « وملاً قلوب الكافرين رعباً »^(٦) وكان الجيش الفرنجي محاصراً تحديق به القوى الإسلامية ، وتحكم حوله الطوق شيئاً فشيئاً ، ولم يكن صلاح الدين قد زج بكل قواته ، لأنه احتفظ بقوى احتياطية للعملية الشاقة ، بعدما يستنزف الظمأ طاقة عدوه . وكان مهرة رماة السهام ينهكون جناحي العدو تارة ويبيضون القلب طوراً ، ويوقعون في صفوفه فادح الخسائر . وفقد الفرنجة شجاعتهم . وحاولت إحدى كتائبهم الحرب فمزقت شر ممزق ، وتناثرت إرباً إرباً ... أما ما تبقى من الجيش الباسل فتسلق تسليقاً فوضوياً تل حطين ، على مقربة من قبر النبي شعيب . وعبثاً حاول ملك القدس أن يعيد تجميع قواته ، وبدا خيرة جنوده فاقدية الثقة يتشبثون بهذا التل دون أن يفكروا في أنهم سيحاصرون فيه حتى الموت جوعاً وعطشاً وحرّاً . وأمر غي دي لوزينيان وحده حفنة من الفرسان الأشداء بشن هجوم يائس ، وأوشك هذا الهجوم البطولي أن يغيّر في إحدى اللحظات مجرى الأحداث فيقلب مصير المعركة ، يقول ابن صلاح الدين ، الأفضل : « كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بالودي . قال : فنظرت إليه ، وقد علته كآبة ، واريّد لونه ، وأمسك بلحيته ، وتقدّم وهو يصيح : كذب الشيطان . قال فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا

فصعدوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا، والمسلمون يتبعونهم، صحت من فرحي : هزمناهم، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى حتى ألحقوا المسلمين بالودي، وفعل مثل ما فعل أولاً، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضاً: هزمناهم. فالتفت والدي إليّ وقال: اسكت. ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، قال: فهو يقول إليّ، وإذا بالخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى، وبكى من فرحه» (٧).

وتؤكد هذه الرواية محاولة ملك القدس أن يخترق مرتين الخطوط الإسلامية، ولما أخفق نظم الصفوف على عجل، ورفع الصليب على قمة التل، وطلب من جنوده أن يصطفوا حول الراية المقدسة ليستمعوا إلى القداس ويصلّوا في حرارة. وبألها من لحظة ذات شجون، فهذا القداس يقام بين الأموات على هذا التل المنعزل الذي يبدو وكأنه ينفجر من الأرض في هذا الغسق الشديد الحرارة من يوم ٣ تموز (يوليو) ١١٨٧. كان التل أشبه بصخرة حمراء فوق بحر عباب من الجيوش الإسلامية. وبدأ الفرنجة التعساء يعانون آلام الهلوسة لما يقاسون من الظمأ. وقليل منهم الذين استطاعوا النوم تلك الليلة لأن صلاح الدين استبقاهم مستنفرين حتى الفجر.

حطين: الكارثة الأفدح للصليبيين والنصر الأعظم للمسلمين

وأخيراً أطل صباح اليوم الرابع من تموز ١١٨٧، اليوم المطبق الشؤم على النصرانية. وتريث صلاح الدين لبدء هجومه العام حتى هبت حارة من طرية فأتاحت لقواته أن يحرقوا ما غطى الأرض من الأشواك ويابس الأعشاب فأجت النار منتشرة بسرعة حول التل، وكتب عماد الدين، يقول: «إن الفرنجة القائلين بالتثليث ابتلوا في الاصطلاء والاصطلام، نار الضرام ونار الأوام ونار السهام» (٨)، وامتدت ألسنة اللهب زاحفة تسوقها الرياح إلى معسكر الفرنجة، حتى بلغت أقدام الرجال وسنابك الخيول، واستطاع رمون الثالث كونت طرابلس وسط هذه المعركة غير المتكافئة التي بدأت في هذه الظروف أن يفلت هارباً مع فرسانه الطرابلسيين.. ما الذي حدث حقيقة؟ لا أحد يدري. هل كان على اتفاق مسبق مع صلاح الدين ففتح له بالسر منفذاً داخل صفوف جيشه؟ أم إنّه استطاع أن يشق لنفسه ممراً؟ لكن هذا الأمر الأخير بعيد الاحتمال. إذ كيف يمكن تصور ذلك، وقد عجزت عن تحقيقه خيالة

أفضل من خيالاته. ومهما يكن من أمر فإنّ ظلاً ثقيلاً من الشك يهبط ذكرى كونت طرابلس، الذي التجأ إلى صور حيث سيغتاله بعد بضعة أيام الإسماعيليون المتمزتون. وبينما كان الفرنجة التعساء، الذين أنهكتهم معارك الأمس وليل من الأرق، وخنقهم الدخان وأحرقتهم الشمس، يجأرون ويصلّون، تترى عليهم هجمات الفرسان بوتائر متسارعة. وكان المماليك يظهرون من كل جهة « بين أبخرة السراب وعذابات الظمأ وهيب الجو » — كما نقرأ في كتاب الروضتين — ويضيف المؤلف العربي ببحث: « كان هؤلاء الكلاب الفرنجة يخرجون ألسنتهم المتبيسة ويجأرون ألماً وحرقة، بأمل أن يبلغوا الماء، ولكن كانت تحرق بهم جهنم بسعيرها »^(٩). وبعد قليل لم يعد الفرنجة قادرين حتى على الدفاع عن أنفسهم. وقطعاً، لم تحدث هزيمة أتم ولا أفدح خسائر، فعشية المعركة كان ثلاثون ألف فرنجي يرقدون فوق الرماد الذي ما برح حاراً في هذه الأرض المعادية. لقد ماتوا بشجاعة غاسلين بدمهم الخطأ الذي لا يغتفر لغني دي لوزينيان الذي ساقهم بأفين رأيه إلى هذه الجزيرة. وتؤيد رواية أحد الحجاج الذي حضر هذه المعركة الخالدة ما قلناه آنفاً عن يوم حطين، هذا الذي كان أعظم نصر لصالح الدين. ونعتقد أنه مفيد أن ننقل هذه الرواية: « غادر الجيش معسكر صفورية صبيحة اليوم الثالث من تموز (يوليو)، وكان كونت طرابلس يسير مع قواته في الطليعة، تتبعه عدة فرق يقودها بارونات الأرض المقدسة وأسيادها على الميمنة والميسرة، وحملت قوة مختارة الصليب الحقيقي في القلب، بينما كان ملك القدس يقود المؤخرة، يحيط به اخوان الهيكل والاستبار وكان الفرنجة السائرون على خط مستقيم نحو طبرية قد انتهوا إلى قرية تبعد ثلاثة أميال عن البحيرة، ولم يعد الملك حينذاك يجزؤ على التقدم، إذ أحبط فلم يعد يدري ما يصنع، فأمر بنصب الخيام، وسمع في الوقت ذاته وهو يصرخ: « يالأسف، لقد خسرنا كل شيء... سنموت غداً، لقد انتهت مملكة القدس ». وأطاعه الناس في يأس، أي ليل سيمضيه الجيش في هذا المكان. لقد احتشد المسلمون حول (شعب الله) وأحرقوا السهل. وبات الفرنجة ليلتهم ترهقهم النار وكثيف أعمدة الدخان وسحب السهام، والجوع، والعطش. وفي صبيحة اليوم التالي خرج السلطان من طبرية وتقدم لإنهاك الفرنجة. وشرعت كتائب الصليب تستعد لعبور الممرات والمرتفعات ذات الأخاديد التي تفصلها عن بحر الجليل « لأننا — حسب زعمهم — سنجد هنا ماء ونستطيع أن نعمل سيوفنا ». وأخذت وتقتاد طليعة الكونت رمون تتوجه نحو تل شرع الأتراك يحتلونه، وكان على المشاة أن يحموا الفرسان من الأعداء رماة

السهام، وعلى الفرسان بدورهم أن يحمو المشاة. لكن لم تطبق قاعدة الأمان هذه، وحالما اقترب المسلمون شكّل مشاة الفرنجة زاوية، وهرعوا ليحتلوا قمة تل متخلين بذلك عن الفرسان. وحين أبصر الملك والأساقفة وكبار القادة المشاة يتعدون، أرسلوا يبلغونهم أن يكروا راجعين للدفاع عن الصليب الحقيقي، فكان ردهم لا نستطيع هذا لما يرهقنا من الظمأ، ولم يعد لنا طاقة على القتال. فبعثوا إليهم برسالة ثانية ولكنهم لم يستجيبوا، لأن الوضع فوق ما يحتملون. وكان رجال الهيكل والاستبار يقاتلون ببسالة لكن دونما إحراز أي تفوق على المسلمين الذين كان عددهم يزداد ساعة فساعة، وما انفكوا ينشرون الموت أتى كانوا، وحين غلبتهم الكثرة استصرخوا الملك لنجدتهم، ولكن الملك، وقد رأى مشاته يرفضون الكر، وهو نفسه دون حماية ضد النبالة المسلمين، أسلم ذاته لرحمة الأقدار، وأمر بإعادة نصب الخيام عساه يوقف — إن استطاع — هجمات العدو الصاعقة. وهكذا عادت الكتائب للتجمع حول الصليب، تائهين مختلطين. ولما رأى كونت طرابلس أن الملك والهيكلين والاستباريين وكل الجيش الفرنجي لم يعودوا سوى كتلة هي خليط غير متميز المعالم، تنقض عليها كتائب المسلمين من كل جهة ماثلة الجو بسحب نفعها، وقد بات منفصلاً عن سائر القوات، شق لنفسه طريقاً عبر صفوف الأعداء وانسحب مع طليعته.

ومن كل جهة كانت آلاف المسلمين يتدفقون ويقتلون الفرنجة. وأصيب أسقف عكا — الذي كان يحمل صليب المسيح — بطعنة نجلاء فسقط تاركاً الذخيرة الأعظم لأسقف اللد، وحينذاك بهت المشاة الذين احتماوا بالتل هارين وهم يرون المسلمين ينقضون عليهم ويعملون فيهم السيف.. فقتل من قتل وأسر من أسر، وعبر باليان النابلسي بالناجين جسراً من الجثث ليفوزوا فراراً بأرواحهم. وخفّ ثقل الجيش الإسلامي إلى المكان الذي كان فيه الصليب الحقيقي وملك القدس، وسهل على المرء أن يروي بالنشيج ما حدث في نهاية ذلك اليوم. « وأمر صلاح الدين الذي كان يكره من الصميم فرسان الهيكل والاستبار، وما زال يذكر أن السيد الأكبر للهيكلين أرنولد دي توروغ هو أحد صانعي الصليبية الأخيرة — أمر عشية معركة حطين هذه بقطع رؤوس مائتين وثلاثين منهم بعد أن عرض عليهم اعتناق الإسلام، وتم أسر جميع من حاولوا الهرب بعد المعركة.. حتى إن جندياً مسلماً واحداً استطاع أن يقود ثلاثين منهم — أوثقوا بحبل واحد. وسلم الصليب الحقيقي إلى تقي الدين

ابن أخي صلاح الدين، وهكذا — كما يكتب أحد المؤرخين اللاتين في تلك الحقبة — «فقد صليب خلاصنا في مكان كان يسوع المسيح يحب التردد إليه، وعلى التل ذاته الذي اختار فيه حواريه».

وحينما عرض تقي الدين عمر على صلاح الدين الذخيرة المقدسة الثمينة، قال هذا الأخير: «إنه، ل يبدو كما هو ظاهر من حزن الفرنجة، ان هذه الخشبة ليست الأذى في حصيلة انتصارنا». ومع حلول الظلام، وبينما أخذ المماليك يدحرجون رؤوس آخر المنهزمين، كانت مجزرة الفرنجة مستمرة، إذ أهدقت بالسلطان مجموعة من المتطوعة، وهم أناس مشهورون بالتقوى والزهد: صوفيون أو فقهاء أو علماء متبحرون في كل درجات المعرفة، واتمس كل من هؤلاء أن يجندل رأس أحد الأسرى...

بطل حطين يلتقي بالأسرى من قادة الصليبية^(١٠)

وأمر السلطان بنصب خيمته الحربية وسط حومة المعركة، ويتقدم كبار الأسرى إليه، وكان بينهم غي دي لوزينيان والسادة جيبي وبوترون، ومار آكلي، وجيرار دي ريدفور، وغيوم الثالث دي مونترا وأونفرو الرابع دي تورون، والمركز الشيخ غيوم الثالث دي مونفروا، والكونستابل آموري دي لوزينيان، وابن رمون كونت طرابلس ورينو دي شاتيون. واستقبلهم صلاح الدين في خيمته التي كانت ترفرف فوقها راية سوداء، طرز عليها بخيوط الذهب: «صلاح الدين ملك الملوك، وقاهر القاهرين، هو مثل سائر البشر، تحت رحمة سلطان الموت».

نهاية رينو دي شاتيون^(١١)

واستقبل صلاح الدين ملك القدس التعيس استقبالاً لائقاً، وعزّاه بفقد مملكته، وأجلسه إلى يمينه وتحدث إليه. وقدم إليه شرباً مبرداً بثلج حرمون ممزوجاً بماء الورد. وبعد أن جرع منه بضع جرعات قدم الكأس إلى رينو دي شاتيون. فخاطب صلاح الدين الترجمان قائلاً: «قل للملك أنت الذي سقيته وأما أنا فما سقيته..». وتوجه بعنيف خطابه إلى رينو دي شاتيون الذي خان أكثر من مرة العهد المبرم ما بين المسلمين والفرنجة، وأخلّ بشروط الهدنة بسبب جشعه، قال: «إن السماء التي تنتقم من مقترفي السيئات، قد أوقعتك في

يدي. فتذكر خيانتك، تذكر ما اقترفت من فظائع ضد المسلمين إبان السلم. تذكر وأنت في ساعتك الأخيرة هذه، أيها السيد الشقي، أعمال السلب والاعتصاب التي قارفتها، والشتائم التي وجهتها إلى نبينا عليه السلام. لعنك الله، تذكر في ساعتك الأخيرة هذه محاولتك تدنيس أقدس مدينتين في مدننا: مكة والمدينة. ومن العدل أن يقاصص مقترف كل هذه الجرائم، وأن أنفذ قسمي... لقد أقسمت أن أقتلك بيدي».

واستل سيفه وضرب به رينو دي شاتيون فبان ذراعه من الكتف، وقام القادة الحاضرون فأجهزوا عليه أمام ملك القدس الذي كان يرتعد فرقاً، ثم طرحت جثته خارجاً، وبعدها توجه صلاح الدين بخطابه إلى غي دي لوزينيان الذي كان يسائل نفسه هل سيلقى المصير ذاته فقال: «لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك وأما هذا فقد تجاوز حدّه فجرى ما جرى».

لقد قلنا آنفاً إنّ مائتين وثلاثين من فرسان الهيكل والاستبثار قطعت رؤوسهم، ووضعت على أسنة الخراب وطيف بها طوال الليل في المعسكر.

الفرح الغامر يعم معسكر المسلمين

وأقام المنتصرون بعد فوزهم في حطين الأفراح سحابة ذلك الليل، ورفع كل جندي آيات الحمد والشكر لله. وظل نداء: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله تردده تلك البطاح حتى الصباح. وأرسل ملك القدس والقادة الذين شملهم العفو إلى دمشق. وكثر عدد الأسرى المعروضين للبيع في سورية بسوق النخاسة نتيجة هذا اليوم العظيم حتى انتهت الأسعار إلى أدنى دركات هبوطها. ونقرأ في كتاب الروضتين: «ان الرجل والمرأة والأولاد يبعوا بالمزاد العلني دفعة واحدة، وهبط سعر الأسير في دمشق إلى ثلاثة دنانير. حتى ان فقيراً استطاع أن يستبدل بنعليه أسيراً». وسيقت النسوة الفرنجيات جماعات جماعات إلى منازل الحرم في المشرق، لا يعرفن شيئاً عن أزواجهن، مفصولات عن أطفالهن، لقد ساقهن المماليك خلال احتلال فلسطين ليواجهن مصيراً هو أقسى من الموت، ولم يبق في القدس سوى فارسين. (١٢)

مسألة رمون كونت طرابلس

ويبدو لنا مناسباً أن نعرض هنا مسألة رمون كونت طرابلس، ونجمع الوثائق المتناقضة

ملفّه، ونفتح باب المرافعة في قضية هي من أشد القضايا غموضاً في الحروب الصليبية: هل عجلت خيانة كونت طرابلس في نهاية مملكة القدس؟ خاصة وأن بعض تصرفاته — إذا كانت روايتها حقيقية — تثقل جداً هذا الأمير الفرنجي الذي حذر ملك القدس خلال ذلك المجلس التاريخي الذي سبق معركة حطين، — ولو متأخراً جداً — حذره من الجنون الذي كم وذ أعداؤه أنفسهم أن يقع فيه.

ترى هل تحالف سراً مع صلاح الدين؟ وهل كرّس هذا التحالف بشرب الدم البشري؟ هل قتل بيده السيد الكبير دي مولان إبان قتاله المسلمين؟ هل تصالح مع غي دي لوزينيان ليتتمكن من خداعه؟ وهل نصّح صلاح الدين بمهاجمة طبرية لإيقاع الجيش الفرنجي في كمين ما دام يعرف أنه لن يلزمه بعد ذلك أكثر من نصّح الفرنجة بالإعراض عن التوجه إلى طبرية في أراض معادية وقت اشتداد الحرّ حتى يسارع أعداؤه أمثال (رينو دي شاتيون وجيرار دي ريدفور) فوراً لإقناع الملك بالرأي المعاكس؟ هل عمد قصداً — مادام على رأس طليعة الجيش خلال زحفه نحو حطين — إلى قيادة تلك الطليعة في ممرات يعرف سابقاً أنها غير سالكة وليس فيها ماء؟ هل صحيح أن المماليك تلقوا الأمر بإخلاء الطريق له قبل المعارك الأخيرة بوقت قصير، لتعود فترص الصفوف ورائه؟ وأخيراً، هل صحيح أنه اعتنق الإسلام كما يؤكدون؟ كتب بهاء الدين الذي غالباً ما تعتبر معلوماته صحيحة يقول: «إن كونت طرابلس مات من ذات الصدر». أمّا مُكمل تاريخ غيّم الصوري الذي يجب دائماً عدم الثقة به، فيزعم أن الإسماعيليين اغتالوه، بأمر من صلاح الدين. هل فضل هذا الأخير التخلص من حليفه المزعج الذي قد يكون وعده بعرش القدس؟ يبدو لنا هذا قليل الاحتمال لأن صلاح الدين كان دائماً وفيّاً بعهوده، صادقاً بكلامه. صحيح أن علاقته بكونت طرابلس ليست موضوع شك، إذ أرسل كونت طرابلس رسولاً إلى صلاح الدين — كما يكتب ابن الأثير — وأقام معه علاقات، وحظي بتشجيع منه ليحقق غاياته، وقد فرح صلاح الدين والمسلمون بذلك، ووعدوه السلطان بأن يساعده ويؤيده في كل ما يسعى إليه ويجعله سيداً مطلقاً للفرنجة. ولذا فإن صلاح الدين الذي وقع في قبضته — بين الأسرى — عدد من الفرسان الطرابلسيين أطلق سراحهم. وبناء على ذلك أبدى له رمون الثالث وعدد من الفرنجة امتنانهم، وعند ذاك بدأ الشقاق بين الفرنجة، وكان هذا أحد أهم الأسباب التي أدت إلى

احتلال بلادهم. وأكد العماد بدوره ذلك فقال: «من الأمور التي قدرها الله لصالح الإسلام الأمور التالية: رغبة كونت طرابلس بإقامة علاقات صداقة مع السلطان، وأن يلجأ إليه وإلى مخالفته ضد أبناء دينه. وأصبح كونت طرابلس نصيراً لصالح الدين، وحينما أطلق السلطان عدداً من رجاله الأسرى، زاد تمسك الكونت للمسلمين، ولم يُعَدِّ يقسم إلا بتوفيق صلاح الدين وعظمته» (١٣). وماذا يمكن أن تكون الخدمات التي أداها رمون الثالث لصالح الدين ثمناً لهذا التحالف؟ ومع ذلك فالمرء يدرك بصعوبة مدى مصلحة كونت طرابلس في أن يدع أراضيه في الجليل تتحول إلى رماد على أيدي القوات الإسلامية. ما الذي حمل المنتصر ليعامل بقسوة الحديد والنار بعيد حطين أرياف حليفه ومدنه؟ هل كان يدخل في تصورات رمون الثالث وصلاح الدين أن يجعلوا هذه الأراضي العائدة لأحدهما غير صالحة للسكن؟

ولم يتحدث سيد الهيكليين الأكبر والعدو الشرس لكونت طرابلس عن أية خيانة على الإطلاق حينما يصف للبابا تفاصيل ذلك اليوم المشؤوم إذ كتب يقول: «وفي صعوبة استطاع رمون وأمير صيدا، وبعض الآخرين النجاة من الكارثة الشاملة».

ويزعم المؤرخون العرب — الذين كان يمكن الشك في أقوالهم لو أن رمون الثالث اعتنق الإسلام حقاً — أن ممتلكاته دُمرت عقاباً له على خيائته الإسلام، وينوهون بخداعه وإخلاله بالتحالف المبرم معهم. ويتبادلون التهاني صراحة بموته، ويكتبون «بعد هذا، لم يعد الإسلام يخشى مناورات هذا الرجل وخداعه، وخبثه». فأين الحقيقة في كل ذلك؟

استسلام قلعة طبرية وتحرير عكا

ولم يُضَع صلاح الدين ثمرات هذا النصر، فبعد أن منح رجاله راحة يوم كامل في الميدان، وبنى على قمة حطين معبداً صغيراً سمّاه «قبة النصر» كذكرى لانتصاره، نزل نحو طبرية في ٦ تموز (يوليو)، ودخل القلعة التي سلّمته إياها زوجة رمون الثالث الكونتيسة إيشيف الطرابلسية، بعد أن حصلت على الإذن بالخروج سالمة مع متاعها وحاشيتها، وأن تنسحب إلى ولايات زوجها. وأصبح صلاح الدين — عملاً بروح الفروسية — بقوة من الفرسان خشية أن يصيبها رشاش أية إهانة خلال رحلتها على يد البدو الذين كانوا يطوفون الريف. وهدم المدينة كلها تقريباً، ووضع حامية في قلعتها، ثم عاد فخيم في صفورية،

ووصل في اليوم التالي ٨ تموز (يوليو) أمام عكا . وفي اليوم التالي دخل المدينة بعد أن سلمه مفاتيحها فوراً جوسلان الثالث دي كورتناي . وترك للسكان حرية خيار البقاء فيها أو مغادرتها ، واعدأ إياهم في الحالين بالأمان الكامل . وبعد أن أطلق سراح أربعة آلاف مسلم كانوا أسرى سجونها ، أقام مراكز على الأبواب وفي الساحات العامة لمنع أية فوضى وأي نهب . وبعد مغادرة الفرنجة الذين فضلوا مزايلة المدينة على البقاء تحت سيطرة المنتصر لم يستطع صلاح الدين أن يمنع جنوده من اقتسام ما خلفه الفرنجة ورائهم بسبب خروجهم المتسرع . فقد وجدوا في أسواق هذه المدينة التجارية كميات وفيرة من الذهب والمنتجات الآسيوية : الحرائر الفخمة المُدمشقة ، وأقمشة البندقية ومدخرات من السكر والأسلحة . وأوكل صلاح الدين حكم عكا إلى ابنه الأفضّل . وعين القضاة والأئمة وأهدى الفقيه عيسى الأموال التي كانت تخص الفرسان .

إخضاع الساحل الفلسطيني وتساقط مدن الفرنجة وحصونهم

ولم يلبث السلطان في عكا بل نصب خيمته بجوارها وأرسل أمراءه على رأس قوات مختلفة لإخضاع الساحل الفلسطيني ، فانتشروا في الأرض المقدسة ووجدوا أكثر المواقع خالية . أما الأماكن الأخرى فكانت تفتح أبوابها وتستسلم دونما قيد أو شرط . وكان الجند أقل رحمة من سيدهم ، فدمروا القرى وأحرقوا الأرياف وقتلوا الرجال . وفي بضعة أيام احتلوا الناصرة وحيفا وقيصرية وأرسوف نعيم ، وجنين وسمارية ونابلس وأريحا وفوله ومعالشة على ضفة الأردن وصندليو التي بنى قلعها الاسكندر الأكبر ، وتبين في الجليل الأعلى التي بنى قصرها عام ١١٠٧ هـ دي سانتومر ، سيد طبرية . ولم تصمد في الجليل سوى ثلاث قلاع هي : هونين شاتوناف و صفد و كوكب لقد تمسك فرسان الهيكل في صفد وفرسان الاسبتار في كوكب (بلفوار) بموقعهم أكثر من سنة رغم محاولات الجيوش الإسلامية . وعندما استسلمت هذه المواقع إلى صلاح الدين بعد أن دمرتها النيران ، أعجب بعنادهم وشجاعتهم وأطلق سراحهم . وحينما علم صلاح الدين بنجاحات أمراءه الذين كانوا يحتاجون دون رحمة مملكة القدس ، ضرب الحصار على صيداء ، هذه المدينة الشهيرة في التاريخين المسيحي والوثني ؛ وكانت فقدت ازدهارها ، لكنها ما تزال تحتفظ بتحصينات متينة وعمناء يغنيها بتسهيل تجارتها . ولم يجرؤ السكان على قبول الحصار فاستسلموا دون قيد أو شرط .

استسلام بيروت وإتمام تحرير الأراضي الفلسطينية

وفي اليوم التالي لوصوله أمام أسوار صيداء دخل صلاح الدين المدينة بعد أن عين حاكماً لها وترك فيها حامية، ثم توجه شمالاً نحو بيروت فوصلها في ٣٠ تموز (يوليو) ١١٨٧، وصمدت المدينة اللبنانية الكبرى ستة أيام لهجمات صلاح الدين، ولكن ونتيجة لتدمير جزء من أسوارها طلبوا تسليماً مشرفاً وحصلوا عليه. وفي ٦ آب (أغسطس) دخلها السلطان، بينما كان قسم من قواته يحتل جبيل (بيبلوس القديمة)، وبضعة مواقع مجاورة، واندفعت إحدى الطلائع نحو طرابلس. وفيما كانت هذه النار تلتهم الشمال اللبناني، لم يكن الجنوب بمنجاة منها، فقد وصل الملك العادل أخو صلاح الدين القادم من مصر، فأنتهى احتلال فلسطين كلها تقريباً، محولاً إلى رماد الكثير من القرى حتى أبواب القدس. وبعد استيلائه على يافا جاء فانضم إلى ثقل الجيش الإسلامي جارا وراءه قافلة ضخمة من الغنائم والأسرى.

حصار صور

ثم سار صلاح الدين إلى صور التي وصف حزقيال هيمنتها وغناها، والتي يرق تاريخ بنائها إلى ألف وستمائة سنة قبل الميلاد كمستعمرة مصرية، والتي أوجدت امبراطورية افريقية حوالي قرطاجنة. كان الامبراطور الآشوري سلمنصر قد حاصرها عبثاً مدة خمس سنوات، وأمضى نبوخذ نصر ثلاث عشرة سنة ليخضعها. كانت تهدم كل مرة وتصر بعدها على البقاء، فتعيد بناء هياكلها وأسوارها وتستعيد بعد كل هزيمة نفوذها السياسي، وتدفع كرة أخرى أساطيلها ماخرة الطرق الملاحية، غير عابئة بمنافستها الاسكندرية التي بناها الاسكندر الأكبر. وكانت تحصيناتها التي اشتهرت بأنها لا تقهر، قد أثارت دهشة الرحالة الذين زاروها في القرن الثاني عشر.

وخلف لنا ابن جبير الذي أقام فيها في أواخر ١١٨٤ الوصف التالي: «إن هذه المدينة محصنة تحصيناً هو من القوة بحيث ينطبق عليها المثل بأنها تأبى الطاعة والخضوع على من يحاول الاستيلاء عليها عنوة. ومناعتها ناتجة عن أن ليس لها سوى بابين الأول على اليابسة

والثاني على البحر الذي يحيط بها إلا من ناحية واحدة ، يفضي إلى الباب الأول بعد عبور أربعة أبواب صغيرة تحيط بها الأسوار . أما الباب الذي يفتح على الميناء فيحميه برجان محصنان ، ويتميز وضع مرفئها عن جميع المرافئ في المدن الأخرى ؛ فجدران المدينة تطوقه من ثلاث جهات ، وتكمل السور أقواس مبنية تؤلف الجهة الرابعة بحيث يمتد البناء حتى تحت الأسوار بل تحت الماء . وتربط سلسلة البرجين فيستحيل عندها أي دخول أو خروج من البحر وإليه^(١٤) ويؤكد هذا الخبر بنجامان دي توديل الذي زار صور عام ١١٧٣ مستشهداً بأسوارها الجديدة الضخمة ، حيث شاهد القصور والأبراج والساحات العامة لصور المصرية مغمورة تحت المياه . ويدرك المرء لماذا لم ينصب صلاح الدين إلا بحذر معسكره أمام الأسوار المنيعّة القديمة لصور . هذه الأسوار التي طالما هدمت ثم أعيد بناؤها ، كان رينو كونت صيدا قد حوَّسرها داخلها ، فأرسل إليه السلطان مبعوثاً ينذره بالتسليم ، وقد تمنى السكان الذين أرهبهم وصول الجيش الإسلامي أن تستسلم المدينة .

وصول كونراد دي مونفرا واستقباله كمنقذ لمدينة صور

وحيثما كان حاكم صور يتأهب لإرسال بعثة مكلفة بتسليم صلاح الدين مفاتيح المدينة ، أقبل مركب فرنجي تخفق أشرعتة مسرعاً بأقصى سرعته نحو المرفأ ، وعلى متنه رجل سيكون في هذا الرده من الزمن الخصم الأكثر شراسة لصلاح الدين ، إنه كونراد دي مونفراً ، وكان يرافقه الكثير من الفرسان . وقد ترتب على هذا الوصول نتائج غير مرتقبة . فكونراد دي مونفراً مركيز من بيمونت وصهر (زوج أخت) الامبراطور إسحق الثاني . كان رجلاً مخيفاً ، شيطانياً (حسب قول ابن الأثير) حذراً ، يقظاً وشجاعاً . فبعد أن قاتل في إيطاليا عدداً من أقاربه لصالح البابا ، وبعد أن سجن أسقف مايانس الأكبر ، حمل الصليب وأبحر مع رجال على شاكلته ، وانطلق ليجرب حظّه في الشرق .

كان ينوي النزول في سورية ، ولكن عاصفة ألقت بمركبه جهة القسطنطينية ؛ حيث نزل وسط ثورة في البلاط . وكان سيفه معروضاً للبيع ، فأعاره لإسحق لانج الذي استولى على تاج الامبراطورية بقلبه سلالة آل كومين ؛ وقد كوفئ مكافأة لائقة إذ تزوجه إسحق أخته ومنحه لقب قيصر وحقّ انتعال الحذاءين القرميزين .

ولكن كونراد أصيب بضعف بالغ وسط أعياد ورهبان بلاط بيزنطية، ولذا سرعان ما نصب أشرعته بحجة القيام بنزهة بحرية ما وأبحر نحو فلسطين مصطحباً معه بعض فرسانه ولقيفاً من اليونانيين مخلفاً وراءه نسيبه وزوجته. كان يجهل ما آل إليه وضع الفرنجة في سورية، وكارثة حطين التي قضت على مملكة القدس قبل ثمانية أيام من وصوله عكا التي كان يعتقد بأنها ما تزال تحت حكم الفرنجة. ولذلك فوجيء بعدم سماعه قرع الأجراس ساعة دخوله الميناء كما جرت عليه العادة لدى ظهور مركب رافعاً أشرعته وعلم الفرنجة. وبلغ خوفه الذروة حينما رأى سفينة صغيرة يغص متنها بالمسلمين، فسوّى أشرعته بسرعة وألقى مراسيه في الميناء. وأخفى فرسانه أمراً بحارته بلزوم الصمت وإبداء الصمم حينما يصعد القائد إلى سفينته ويستجوبه. لم يدهش لأي شيء وأقسم بأنه ينقل بضائع، وأنه على يقين بأن صلاح الدين لا يعيق تجارة الأوربيين مع رعاياه، وقبل أن يدخل الميناء طلب ترخيصاً خاصاً لبضائعه ومركبه ورجاله من حاكم المدينة الذي كان حينذاك الملك الأفضل، وبينما كان المسلمون يعودون إلى المدينة لتقديم هذا الطلب هبت ريحٌ مؤاتية اغتنمها كونراد كما لو كانت معونة إلهية فرفع المرساة ومخر عباب البحر متجهاً نحو صور، ونزل اليابسة في الظروف التي وصفناها آنفاً، ساعة كان رينو الصيداوي يجري مفاوضات تسليم الموقع.

وطبيعي أن كونراد استقبل كمنقذ للمدينة، وعرضت عليه قيادة موقع صور. كانت العظمة هزيلة، فطلب مقابل إعارته سيفه حكم المدينة. ولكون السكان فاقدون الأمل بأية نجدة تأتيهم من ملك القدس (والسبب معروف) أقسموا له يمين الطاعة والولاء. وهرب رينو الصيداوي إلى طرابلس.

صمود صور أمام القوات الإسلامية

ولم يضع كونراد دي مونفرّا الذي أصبح ماركيز صور وقته في النواح، بل أسند لكل فرد عملاً، وأمر بحفر الخنادق والتأكد من صلاحية التحصينات، حتى غدا مستعداً لملاقاة صلاح الدين.

ولما وصل بطل الإسلام كانت دهشته بالغة إذ لم يجد الأبواب مشرعة دونه، بل وجد رجالاً فوق الأسوار يطلقون بوجهه الصيحات المعادية، ويلوحون بأسلحتهم، ويظهرون بالغي

الثقة بأنفسهم ، ولما علم صلاح الدين بهذا التحول الطارىء في استعدادات الفرنجة ، وأدرك استحالة أخذ المدينة عنوة ، لجأ إلى طريقة أخرى ، فهو يحتفظ في مخابته بدمشق بوالد كونراد دي مونفرأ غيَّوم الثالث دي مونفرا الذي سبق له أن حمل الصليب في سن يحق للرجال فيها أن يستريحوا ؛ وبما أنه تبع سائر البارونات إلى معركة طبرية فقد وقع في الأسر . كان له أربعة أبناء كلهم مشهورون : بونيفاس الذي كان ملك تيسالونية ، وغيوم المعروف باسم ذي السيف الطويل الذي تزوج سيبيل ، وكان يمكن أن يصبح ملكاً للقدس لو بقي في قيد الحياة ، ورينيه الذي مات في خدمة الدين ، وأخيراً كونراد .

وعرض صلاح الدين على كونراد دي مونفرأ إطلاق سراح والده وإعطائه اقطاعاً في سورية إذا هو سلَّمه صور . فأجاب كونراد بعجرفة إنه يحتقر هدايا المسلمين ولن يسلم حجراً واحداً من حجارة صور لإنقاذ حياة أبيه ، مضيفاً ألا قيمة لحياة شيخ فإن إزاء خدمة القضية العامة . فهاجم السلطان عبثاً دفاعات صور ، وفي ليل ١ - ٢ كانون الثاني (يناير) ١١٨٨ رفع الحصار مرجئاً إلى وقت آخر الاستيلاء على الموقع .

خطأ صلاح الدين الاستراتيجي أمام صور

وكان هذا خطأ فادحاً ارتكبه صلاح الدين ، لأنه كان عليه أن يدرك أن صور بوابة مفتوحة على الغرب . ويمكن أن تحيىء عبرها جيوش المساندة ، بل ترتب على هذا الخطأ أن يدفع الإسلام ثمنه باهظاً . فصور ستكون نقطة الانطلاق لإعادة احتلال الفرنجة . وعرف دي مونفرأ كيف يستغل هذه السائحة التي تركها له المسلمون ، وجعل من صور صخرة تملؤها الحصون .

سقوط المدن الفلسطينية

وعاد صلاح الدين مع أخيه الملك العادل إلى فلسطين حيث سقطت المدن بين يديه الواحدة تلو الأخرى . فأخذ اللد والرملة وكذلك جفنة التي تبعد أربعة فراسخ عن القدس ومثلها عن يافا ، جفنة التي احتسى فيها أسقف القدس الأكبر بعد تدمير المدينة . كما استولى على بيت لحم والخليل — حيث تُقدس فيها ذكرى ابراهيم الخليل — وخالب وبيت جبرين — التي حصنها الملك فولك عام ١١٣٤ — والنطرون ..

حصار عسقلان وتحريرها

وظهر صلاح الدين أمام عسقلان ؛ وهي إحدى المدن الفلسطينية الملكية الخمس ، تلك المدينة التي استولى عليها وجَمَلها تباعاً الاسكندر والبطالسة والسلوقيون ، وشهدت الصراعات الدامية بين اليهود والرومان ؛ وكانت خاضعة للخلفاء الفاطميين حينما غزا الصليبيون فلسطين ..

وحين رفض قائد الموقع التسليم ضرب صلاح الدين على المدينة الحصار ، وبعد استيلائه على التحصينات المتقدمة ، نصب عشرة مجانيق وطمر الخنادق وهدم الأسوار وراح يرمي المدينة بالقذائف ، فصمد الفرنجة ، وأبدوا مقاومة ضارية ، فعرض عليهم صلاح الدين شروطاً مشرفة للاستسلام فأعادوا مبعوثيه رافضين سماعهم .

وراحت الهجمات والهجمات المضادة تتوالى . فقدم صلاح الدين عرضاً جديداً للعسقلانيين ، مكلفاً ملك القدس الذي كان يصطحبه معه أن يعرض عليهم إنهاء القتال ، فقبل غي دي لوزينيان هذه المهمة التي لا تشرفه كثيراً ؛ متذرعاً بحجة أن من الإجماع أن نخسر كل شيء ذريعة عنادٍ لا طائل تحته ، ومن مصلحة الفرنجة أن يغتنموا حسن نية المنتصر ، وباستطاعتهم أن يحصلوا مقابل مفاتيح المدينة على حرية ملك القدس وباروناته الرئيسيين الذين كانوا يرزحون تحت نير الاستعباد . فاحتقر العسقلانيون عروض ملك القدس ولكنهم بالمقابل أيقنوا أن لا أمل أمامهم ، فطلبوا مقابلة صلاح الدين نفسه وقالوا له : « إن الله وحده مالك الأحداث أعطاك النصر على الفرنجة التعساء . إن قيمتك وقدرك وعدد جيوشك أمور معروفة لدينا ؛ لكنها لا تخيف رجالاً صمموا على الموت . لا تأمل في أن تأخذ عسقلان عنوة ولن تدخلها إلا إذا حولتها إلى رماد وقتلت جميع المدافعين عنها . لقد قررنا ألا ندع لإرادة الصمود تلين ، وأن ندافع عن أنفسنا حتى داخل بيوتنا . ولكن بيننا عدد كبير من النساء والأطفال يخيفنا مصيرهم ، نخاف أن يستغل الجندي — وهو لا يتصف بما يتصف به من الإنسانية — ضعفهم استغلالاً سيئاً ليفسدهم ويكرههم على التخلي عن دين المسيح ؛ واجتنباً لهذه المصيبة فإننا نقبل بالتسليم وفق الشروط التالية : تعطينا هدنة أربعين يوماً لتنظيم أمورنا ، وبعدها تقودنا نحن وأموالنا إلى مكان أمين وتحصر على مصير مائة عائلة تريد أن تبقى في المدينة ،

وتدراً عنها كل إهانة أو عنف . وتطلق سراح ملكنا وعشرين من السجناء نختارهم نحن . » . وبما أن صلاح الدين لم يكن يرغب في تجميد جيشه على عتبة فصل الشتاء أمام أسوار عسقلان فقد قبل العرض وحرص على أن يوضح أن الملك والأربعين أسيراً لن يطلق سراحهم إلا في الربيع القادم . وفي الخامس من ايلول (سبتمبر) ١١٨٧ دخل المدينة . كان أمراً محزناً للفرنجية التخلي عن عسقلان التي وإن لم تكن بمناعة صور لكنها كانت ذات أهمية بالغة ، وكان مؤسفاً للفرنجية أن يشهدوا خيانة ملك القدس بأمر أعينهم ... أما صلاح الدين فكان على عجلة من أمره ليتوجه إلى القدس قبل فصل الشتاء .

تحرير غزة والتوجه صوب القدس

واستولى صلاح الدين على غزة التي كانت بيد الهيكليين وترك فيها حامية ، وفيما كان يقود جيشه نحو القدس كان حاكم مصر يُعدّ اسطولاً لمحاصرة صور بحراً ، وقطع الطريق على جميع السفن القادمة من الغرب . وهكذا مثلما جعلت معركة حماة صلاح الدين سيد سورية ، فإن معركة حطين جعلته سيد فلسطين .



حواشي الفصل الرابع عشر

١ — حطين في المصادر العربية :

لقد اعتمد مؤلفنا شاندور على العديد من المصادر العربية في دراسة معركة حطين ، وعلى وجه الخصوص : النوادر السلطانية لابن شداد وكتاني « البرق الشامي » و « الفتح القسي » للعماد الأصفهاني ، كما أورد نصوباً من كتاب الروضتين لأبي شامة ، إضافة إلى المصادر اللاتينية التي منها تاريخ وليم الصوري وذيله المعروف باسم « تاريخ هرقل » ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن أبا شامة في كتابه الروضتين ، عمد إلى وصف معركة حطين استناداً إلى كتابي العماد « البرق » و « الفتح » وصفاً مختصراً ، وأردفه برواية القاضي ابن شداد عن المعركة المذكورة ، إضافة إلى إيراد عدد من الرسائل أرسلت إلى بغداد التي أوردتها محمد بن القادسي في تاريخه ، منها كتاب عبد الله بن أحمد المقدسي ، مع رسالة فاضلية ، هنا بها صلاح الدين بالنصر العظيم .. (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٥ — ٨٣) .

وقد جمع صديقنا الباحث الدكتور سهيل زكار في كتابه : « حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس » وقائع معركة حطين في المصادر العربية الأساسية إضافة إلى المصدر اللاتيني « تاريخ هرقل » ، ذيل تاريخ وليم الصوري .

٢ — عماد الدين الأصفهاني ، محمد بن محمد (١١٢٥ — ١٢٠١)

أديب ، مؤرخ ولد بأصفهان ، ومات بدمشق ، درس الفقه والحديث والأدب ، ورحل إلى بغداد في الخامسة عشرة ، والتحق بالمدرسة النظامية ، ثم عاد إلى بلده ، وغادرها (١١٥٦) إلى بغداد ، فولاه الوزير يحيى بن هبيرة النيابة عنه بواسط ، ثم بالبصرة . ولما مات الوزير قبض عليه ثم أطلق ، فانتقل إلى دمشق ١١٦٧ وكتب لنور الدين زنكي بالعربية والفارسية ، وصار صاحب سره ، وعهد إليه بالتدريس بالمدرسة النورية التي سميت بعد ذلك باسمه « العمادية » ، وجعله رئيس ديوان الرسائل . ولما مات نور الدين اضطربت حاله ، فقصد الموصل فعرض بها وسمع بخروج صلاح الدين الأيوبي لضم سورية ومصر ، فلحق به ، وكتب له ، وصار في مرتبة وزرائه . ولما مات حاول أن يكتب لخلفائه ، ولكنه لم ينجح ، واضطربت أحواله ، وعاش متنقلاً بين سورية ومصر . وعرف بالشعر والكتابة ، وكان فيهما من أصحاب السجع والجناس والطباق والتلاعب اللفظي ، غير أنها في شعره أقل . وكان له ديوان شعر

كبير، فقد كان طويل النفس في قصائده. وأعظم شعره ماصور فيه الحروب الصليبية. وله ديوان من الدوبيت خاصة، وديوان رسائل. ترجم عن الفارسية كتابي «فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور» لأنو شروان بن خالد في تاريخ السلاجقة، و«كيمياء السعادة للغزالي» أرخ لنفسه في «البرق الشامي»، ولشعراء القرن الثاني عشر في «خريدة القصر وجريدة العصر»، ولأحداث عصره في عدة كتب أهمها: «الفتح القسي في الفتح القدسي»، وهو تاريخ مسجوع موشى بالمحسنات اللفظية، لفتح بيت المقدس، و«نصرة الفترة وعصرة القطرة» في تاريخ السلاجقة، و«عنى الزمان في عقبى الحدثان»، و«نحلة الرحلة وحلية العطلة» وغيرها. (الموسوعة الميسرة ١٢٣٢-١٢٣٣).

٣ — احتشاد المسلمين عند نبع عشترا:

جاء في كتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني، قوله: «فسار السلطان، ووصل السير بالسرى، وخيم بعشترا، والقدر يقول له تعيش وترى، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى، وامتد العسكر فراسخ عرضاً وطولاً، وملأ الملاء حزناً وسهولاً.. وكان يوم عرضه مذكراً بيوم العرض.. وعرض العسكر في اثني عشر ألف مدجج، في ليل العجاج مدجج». (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦).

٤ — قال العماد:

«ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ووثبوا فقال السلطان جاء ما نريد، وإذا صحت كسرتهم فطرية وجميع الساحل مادونه مانع، ولا عن فتحه وازع» (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦).

٥، ٦ — وصف ابن شداد مسيرة المعركة بقوله:

«وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة، والأمور الجسيمة، ما لم يحك عن من تقدم.. وكان الله قد قدر نصر المسلمين ويسره، وأجراه على وفق ما قدره. فحملت الأطلاب الإسلامية من الجوانب، وحمل القلب، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين» (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين). (ابن شداد: النوادر السلطانية ٧٦-٧٧).

٧ — وصف الملك الأفضل ابن صلاح الدين مجرى أحداث المعركة وتقلباتها (انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٥٣).

٨ — جاء في كتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني عن حالة جيش الفرنجة الذي أنهكه العطش، وإشعال النار تحت أقدامه، قوله:

«وأصبح الجيش على تعبته والنصر على تلبيته، وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر، وهو يوم النصرة ووقوع الكسرة، وبرح بالفرنجة العطش، وأبت عفتها أن تنتعش. وكان النسيم أمامها. والحشيش تحت أقدامها. فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش. فتأجج استعارها. وتوهج لإوارها. فبلوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بثلاثة أقسام: في الاصطلاء والإصطلام: نار الضرام، ونار الأوام، ونار السهام». (أبو شامة كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٧).

٩ — « حتى إذا أسفر الصباح ، خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار . وزنت القسي وغنت الأوتار ، إذ ذاك ، واليوم ذاك والجيش شاك . وللقبط عليهم فيض ، وما للغيظ منهم غيض . وقد قد الحر ، واستشرى الشر ، ووقع الكر والفر . والسراب طافح ، والظماء لافح ، والجو محرق ، والجوى مقلق ، ولأولئك الكلاب من اللهث لهث ، وبالعيث عيث . وفي ظنهم أنهم يردون الماء ، فاستقبلتهم جهنم بشراها ، واستظهرت عليهم الظهيرة بنارها ، وذلك في يوم الجمعة ، بجموع أهلها المجتمعة . ووراء عسكرنا بحيرة طرية . والورد عد وما منه بعد . وقد قطعت على الفرنج طريق الورود ، وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود . فوقفوا صابرين مصابرين ، مكابرين مضابرين . فكلبوا على ضراوتهم ، وشربوا مائي أداوتهم ، وشفها ماحوهم من موارد المصانع ، واسترفها حتى ماء المدامع ، وأشرفوا على المصير إلى المصارع » . (أبو شامة كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٧) .

١٠ ، ١١ — في استقبال صلاح الدين أكابر أسارى الفرنجة ونهاية رينو دي شاتيون نقلاً عن رواية ابن شداد : « ولما فتح الله تعالى عليه بالنصر والظفر ، جلس السلطان في دهليز الخيمة ، فإنها لم تكن تُصبت ، والناس يتقربون إليه بالأسرى ويمن وجدوه من المقدمين .

ونصبت الخيمة . وجلس فرحاً مسروراً شاكراً لما أنعم الله عليه ، ثم استحضر الملك جفري وأخاه البرنس أرناط ، وناول الملك جفري شربة من جلاب بثلج ، فشرب منها ، وكان على أشد حال من العطش ، ثم ناول بعضها البرنس أرناط ، فقال السلطان للترجمان : قل للملك : أنت الذي تسقيه وإلا أنا ما سقيته .

وكان على جميل عادة العرب وكرم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أومن ، فقصده بذلك ، الجري على مكارم الأخلاق .

ثم أمرهم بمسرحهم إلى موضع عُيِّن لنزولهم ، فمضوا وأكلوا شيئاً ، ثم عاد فاستحضرهم ولم يبقَ عنده أحد سوى بعض الخدم ، واستحضرهم وأقعد الملك في الدهليز ، واستحضر البرنس أرناط ، وأوقفه على ما قال . وقال له : ها أنا أستنصر محمد عليه الصلاة والسلام . ثم عرض عليه الإسلام ، فلم يفعل .

ثم سَلَّ التَّمَجَاة (الخنجر المقوس) وضربه بها ، فحلَّ كتفه ، وتَمَّ عليه من حضر ، وعَجَّلَ الله بروحه إلى النار ، فأخذ ورُمي على باب الخيمة .

فلما رآه الملك وقد نُحِرَ به على تلك الصورة . فلم يشك في أنه يثنى به فاستحضره السلطان وطَّيَّب قلبه . وقال : لم تُجَرَّ عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فإنه تجاوز حده ، فجري ما جرى . « (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٨) .

١٢ — عن أسرى الفرنجة نقلاً عن كتاب الروضتين لأبي شامة : « قال وورد كتاب آخر فيه هذه الفتوح ، التي ماسمع بها قط ، هذا ذكر بعضها مختصراً مع أنه لا يقدر أحد يصف ذلك ، لأن الأمر أكبر من ذلك الذي يشر به المسلمون ، أن مدينة طرية فتحت بالسيف وأخذت

قلعتها بالأمان ، واجتمع عسكر الإفرنج جميعهم والتقوا بالمسلمين عند قبر شعيب النبي (عليه السلام) ، وقتل من الإفرنج ثلاثون ألفاً . وكان عدد الإفرنج ثلاثة وستين ألفاً بين فارس وراجل . وأسر منهم ثلاثون ألفاً . وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير ، واستغنى عسكر الإسلام من الأسرى والأموال والغنائم بحيث لا يقدر أحد يصف ذلك . وما سلم من عسكر الفرنج سوى قمص طرابلس مع أربعة نفر ، وهو مجروح ثلاث جراحات . وأخذ جميع أمراء الفرنج . وكل قد سبي من النساء والأطفال ، يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة بيعة واحدة . ولقد بيع بحضوري رجل وامرأته وخمسة أولاد ثلاث بنين وابتنان بثمانين ديناراً . ودخل القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق وكل يوم يرى من رؤوس الفرنج مثل البطيخ ، وأخذ من البقر والغنم والحيل والبغال مالم يجيء من يشتريها من كثرة السبي والغنائم . قال وفي كتاب آخر (وكان الفرنج خمسة وأربعين ألفاً فلم يسلم منهم سوى ألف ، وقتل الباقون واستأسروهم وكذلك الملوك) قلت وبلغني أن بعض فقراء العسكر ، وقع بيده أسير وكان محتاجاً إلى نعل فباعه بها ، فقبل له في ذلك ، فقال : أردت أن يذكر ذلك . ويقال بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع منهم واحد بنعل . (أبو شامة كتاب الروضتين ج ٢ ص ٨٢) .

١٣ — جاء في كتاب الروضتين نقلاً عن العماد الأصفهاني :

« مما قدره الله تعالى من أسباب نصرة الإسلام ، وهن الكفر ، أن قمص طرابلس رغب في مصافاة السلطان والالتجاء إليه والمساعدة له على أهل ملته ، بسبب أنه كان تزوج بالقمصية صاحبة طرية . وكان أخوها الملك المجنوم لما هلك أوصى بالملك لابن أخته هذه وهو صغير ، فتزوج القمص أمه ، ورياه فمات الصغير وانتقل الملك إلى أمه ، ثم إنها مدت عينها إلى بعض المتقدمين من الغرب فتزوجته ، وفوضت الملك إليه فشرع يطلب حساب البلاد من القمص ، فوقع الاختلاف بينهم لذلك ، فالتجأ القمص إلى ظل السلطان ، فصار له من جملة الأنبياء ، فقبله السلطان وقواه ، وشد عضده بإطلاق من كان في الأسر من أصحابه ، فقامت مناصحته للمسلمين حتى كاد لولا خوف أهل ملته يسلم ، وصار بدولة السلطان وملكه يقسم . ومال إليه من الفرنج جماعة ، وظهرت له منهم للطماعية طاعة . ودخلت إلى بلادهم من جانب السرايا ، وخرجت بالغنائم والسبايا . وأعطى الدنيا في دينه بما استدناه من العطايا . فصار الفرنج يدفعون شره ، ويحذرون مكره ، فتارة يدارونه ، وأونة يمارونه ، وللقمص قوم صدق يساعدونه ، في كل حق وباطل ، فبلى منهم أهل الساحل بشغل شاغل . » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٤ — ٧٥) .

١٤ — جاء في كتاب رحلة ابن جبير عن ذكر مدينة صور قوله :

« مدينة يُضْرَب بها المثل في الحصانة ، لا تُلقى لطلالها بيد لماعة ولا استكانة ، قد أعدها الإفرنج مَفْزَعاً لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة لأمانهم ، هي أنظف من عكا سككاً وشوارع ، وأهلها ألين في الكفر طبائع ، وأجزى إلى برّ غرباء المسلمين شمائل ومنازع ، فخلاقتهم أسجج ، ومنازلهم أوسع وأفسح ، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن ، وعكا أكبر وأطفى وأكفر .

وأما حصانتها ومناعتها فأعجب ما يُحدث به ، وذلك أنها راجعة إلى بابين : أحدهما في البر ، والآخر في البحر ، وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة ، فالذي في البر يُقضى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة ، كلها في

ستائر مشيدة محيطة بالباب . وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ، ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحديق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالحصن . فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها ، وتعرض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمتنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها . وعلى ذلك الباب حُرَّاس وأمناء ، لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم . فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ، ولعكا مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وإنما ترسو خارجها والمراكب الصغار تدخل إليها ، فالصورة أكمل وأجمل وأحفل . « (رحلة ابن جبير : ص ٢٧٧ — ٢٧٨) .

١٥ — لقد ناقش عدد من مؤرخي الشرق والغرب مسألة رفع صلاح الدين الحصار عن مدينة صور ، التي غدت حسب قول شاندور نقطة انطلاق للفرنجية في حملتهم الصليبية الثالثة ، ملتقياً بذلك مع كل منتقدي صلاح الدين حول هذه النقطة من شريين وغربيين ، الذين عرض الباحث الأستاذ قدري قلعجي جل آرائهم ، وناقشها مناقشة الحكيم الشاعر ، لا المؤرخ العسكري ، يقول :

« ويلقي بعض المؤرخين المسلمين تبعة الإخفاق الذي مني به السلطان في صور ، وتحول هذه المدينة الحصينة إلى قاعدة للحملة الصليبية الثالثة ، على صلاح الدين وما أبداه من تسامح وتساهل مع الصليبيين في المدن والقلاع التي احتلها منذ موقعة حطين ، والسماح لهم بالهجرة منها آمناً ، إلى مدنها وقلاعهم على الساحل ، ولا سيما مدينة صور التي كانت تمتاز بالمناعة الجغرافية ، فأضافت إلى ذلك المناعة البشرية ، وعد أولئك المؤرخون ذلك منه تهاوناً وتفريطاً وغلوّاً في الشبهة والتبيل أدى إلى أسوأ النتائج .

يقول محمد كرد علي : وذكر المؤرخون أن إطلاق أمراء الفرنج من الأسر وحملهم إلى صور كان من أعظم أسباب الضرر وقوة الفرنج ورواج عكا . « (محمد كرد علي — خطط الشام ج ٢ ص ٥١) .

أما ابن الأثير فحمل على صلاح الدين قائلاً : « ولم يكن لأحد ذنب في أمرها (صور) غير صلاح الدين ، فإنه هو الذي جهز إليها جنود الفرنجة ، وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره . كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور ، فصار إليها من سلم من فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم ، فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم ، فأجابوا بالتلبية لدعوتهم ووعدهم بالنصرة ، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم ، يجتمعون بها ويلجأون إليها ، فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذب عنها » (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٣٦٨) .

ويلتقي مع ابن الأثير بعض المؤرخين الغربيين الذين يعتقدون بأن الخطة التي انتهجها صلاح الدين ، بدعوة المدن والقلاع إلى التسليم مقابل الأمان بدلاً من الفتح بالسيف ، قد أدت إلى نجا عشرات الألوف من القتل والأسر ، وانطلاقهم أحراراً إلى مراكز تجمعهم الجديدة ولا سيما مدينة صور التي غدت منطلق الحرب الصليبية الثالثة . حتى إن لاهوت يرى أن هذه السياسة النبيلة بلغت حد الحماسة ، ولعله يعني حد السذاجة ، واليك تفصيل ما قال : « لم يظهر صلاح الدين ، طوال حربه ضد الدول اللاتينية ، بمظهر المتعصب الديني . وكان حلمه وشهامته مثار إعجاب معاصريه ، وموضوع مدح المؤرخين منذ عصره فطالماً . وقد أبدى في معاملته لشعوب

البلاد المفتوحة من ضبط نوازع النفس واحترام الناس ما كان مبانياً كل المباني للقسوة المتعارف عليها في حروب العصور الوسطى . وكانت سياسته القاضية بإيصال اللاجئين من بلاد النصارى المحتلة إلى معقل النصرانية في صور سياسة نبيلة إلى حد الحماسة ، لأنها أدت إلى تحشد أعدائه ، ومن ثم منعت من احتلال مدينة صور نفسها . لقد تصرف صلاح الدين ، طوال حروبه ، وكأنه يحاول محاولة واعية أن يجعل نفسه مقبولاً عند رعاياه المقلبين ، وأن يضع أساس دولة تعيش فيها الديانتان جنباً إلى جنب تحت ظل السلطان ... وكان هدف صلاح الدين سحق قوة الصليبيين السياسية ، ولم يكن إبادة المسيحيين » (دراسات إسلامية ص ١٢٢ — ١٢٤) .

ويتابع الباحث قدرتي قلعي التأكيد على الجانب الإنساني لدى صلاح الدين الذي غفل عنه بعض الباحثين ، يقول :

« والواقع أن ابن الأثير ينسب الجانب الإنساني في الموضوع ، فهو يحاكم صلاح الدين كقائد حربي لا ينبغي — كما يقول — أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار ، فلأن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مفرطاً مضيقاً للحزم ... » وفي اعتقادنا أن صلاح الدين لم يكن محارباً إلا بالضرورة ، فهو ليس فاتحاً بل محرراً ، والفرق بينهما كالفرق بين الشر والخير ، وبين الموت والحياة . ولأن كان الفاتح يقاتل بطمعه ، فإن المحرر يقاتل بإيمانه ، وإذا كان من أخلاق الفاتحين أن يصوتوا أمجادهم بالحديد والنار ، فإن من شمائل المحررين ألا يحملوا الحقد والضغينة حتى لأولئك الذين يضطرون إلى شهر السيف في وجوههم . أليس صلاح الدين هو القائل وقد لاه أصحابه لأنه صفيح عن جريرة أحد الجناة عليه : « لأن أخطيء في العقو . أحب إلي من أن أصيب في العقوبة ! » .

لقد كان صلاح الدين رجل سلم وبناء ومحبة ، وليس رجل حرب وهدم وضغينة ، وبعد كل معركة كان يعي أكثر فأكثر وحشية الحرب وغباءها ، ولكن الأحداث التي عاصرها والظروف التي لابسها ، كانت تدفع به مضطراً إلى ساحة القتال ، دفاعاً عن الأرض التي امتزج ترابها بدمه ، واختلط نسيجها بأنفاسه ، وارتسمت طبيعتها في عينيه ، وياويل الحرب ، آفة البشرية وعار التاريخ ، إذا لم تكن دفاعاً عن الذات .

ولعل صلاح الدين كان يعاني من جراء ذلك أعظم مأساة يعانيها الإنسان ، حين يريد السلم وتفرض عليه الحرب ، وينشد الرحمة وتطلب منه القسوة ، ويسير في الطريق الملوث بالوحل والخضب بالدم بمشاعر الملائكة وأخلاق القديسين .

إذا كانت جميع الطرق ملأى بالأشواك ، فلا بد من أن نسلك طريقاً شائكة . وإذا فرضت الحرب نفسها ، وغدا الشر خبز الحياة اليومي ، وحلق شبح الدمار مثل طائر أسطوري رهيب لا يستطيع أحد أن يهرب من تحت جناحيه ، فبحسب المرء أن يُبعد عن قلبه ظل الحقد ، لعل زهرة واحدة للحب تتفتح في مستنقع البغضاء ...

هكذا شاءت الأقدار ، بل هكذا شاءت الأطماع التي دفعت جحافل الفرنجة إلى الشرق ، متدفقة مثل سيل لا نهاية له . وإذا كان المعتدون قد غالوا في التخريب وأمعنوا في الغارة الجاهلة ، فإن سر عظمة صلاح الدين أنه لم يقابل تلك العاصفة الباغية ، إلا بعفو الكريم وتسامح النبيل ، فكان أسوة حسنة ومثالاً يُضرب للناس ، وكسب للعرب والإسلام بقلبه أكثر مما كسب لهم بسيفه ، وهذا ما جعل تشرشل يقول عنه : إنه من أعظم ملوك الدنيا ، ودفع الكتاب الإنكليزي ريدر هيجارد إلى القول : بأنه أعظم رجل على وجه الأرض ! (راجع كتاب قدرتي قلعي صلاح الدين الأيوبي ٢٦٤ — ٢٦٧) .

الفصل الخامس عشر

تحرير القدس (١)

أمام أسوار القدس

في السادس عشر من شهر رجب ٥٨٥ هجرية الموافق ٢٠ ايلول (سبتمبر) ١١٨٧ ميلادية أي بعد معركة حطين بشهرين ونصف الشهر، ظهر صلاح الدين أمام أسوار القدس، ولم تلبث المدينة أن سقطت (حررت). وكان هذا تاريخاً لا يُنسى في العالم الإسلامي.

التفاوض على الاستسلام

كان باليان الثاني ديلين آمر القلعة — وعرض صلاح الدين — قبل أن يستولي على المدينة عنوة بقوة السلاح على المحاصرين التفاوض على الاستسلام، وبحث مصير المجتمعات الفرنجية. ولقد وعد، بكثير من اللباقة بعدم إرهاب مدينة القدس بالضرائب مثل كثير من المدن الأخرى، التي احتلها لإعلاء كلمة الله.. ووعد بالاكْتفاء بمبلغ رمزي مقداره ثلاثون ألف قطعة ذهبية، وعدم مساس حقوق المسيحيين الذين يختارون البقاء في القدس بعد استرجاع المسلمين إياها. لكنّ البارونات وقادة المنظمات لم يقبلوا المهادنة. كانوا يريدون إطالة

أمد المفاوضات والاحتيايل على صلاح الدين، أملاً بأن يصل أسطول جنوبيّ ما إلى الشواطئ اللبنانية، حاملاً معه قاذفات حجارة وصليبيين شجعاناً. وكان ردهم على صلاح الدين : « لا يمكننا أن نسلّمك مدينة مات فيها ربنا، كما ليس بمستطاعنا أن نبعلك إياها ». وتظاهروا بأنهم يشعرون بالإهانة فغضب صلاح الدين وقال : « ستلعنون عنادكم وستستجدون رحمتي، وسأدخل القدس خلال أيام معدودة، ولا أدري حينذاك كيف سأمنع جنودي المنتصرين من أن يعرضوا على السيف الفرنجة الناجين من الموت، كما فعلتم أنتم بالمسلمين حينما دخلتم القدس سنة ٤٩٢ للهجرة. أتذكرون أنكم ذبحتم سبعين ألفاً من المسلمين في المسجد الأقصى ؟ ».

حصار القدس ودك السور الشمالي

هذا، وقد روى مؤرخو تلك الحقبة، أنه كان في القدس حينذاك ستون ألف رجل قادرين على القتال، بينما يذكر بهاء الدين مؤرخ صلاح الدين أنهم كانوا ستة آلاف. ومهما يكن من أمر فإن باليان الثاني ديبلين عرف كيف يؤجج في رجاله روح الشجاعة التي كانوا بحاجة إليها في هذه الأيام العصيبة؛ رغم ذكرى الهزائم القريبة العهد والعجز الظاهر لدى كبار فرنجة المشرق. ومنح لقب فارس عدداً من البورجوازيين (سكان المدينة) والتجار الذين عليهم أن يدافعوا عن أسواقهم ودينهم حتى النصر أو الهلاك في هذه المعركة الضخمة، التي يتوقف على نتيجتها مصير المدينة المقدسة؛ كما قد يكون متوقفاً عليها مصير الإسلام والنصرانية جميعاً. لقد صهروا ألواح الفضة التي كانت تغطي كنيسة القبر المقدس لدفع مرتبات الجنود، واستطاع حاكم القدس أن يجعل من مدينة داود القديمة قلعةً حصينة منيعة، حتى دُهل المسلمون لدى رؤيتهم هذا العدد اللجب من الجند والفرسان منهمكين فوق الأسوار التي كانت تهدمها شيئاً فشيئاً حجارة آلاتهم الخشبية. وبما أن صلاح الدين لم ينجح في اقتحام المدينة عبر باب دمشق بثقل جيشه، فقد بحث عن نقطة أضعف شماليّ المدينة قرب باب يوشافاط، على أمل أن يفتح، بصورة أسهل، ثغرة في إحدى زوايا التحصينات المواجهة لوادي سدرون. وجمع في هذه الناحية كل الحجارة المتاحة، وبعد القذف جرت عملية دك أسس هذا الجزء المحصن من سور القدس بصبر وأناة.

القضية الخاسرة

وتمّ خلال يومين ذلك نحو ثلاثين متراً من التحصينات التي هدمت وأحرقت، فحاول المحاصرون عبثاً أن يخرجوا من باب يوشافاط، وقاتلوا بضراوة وخسروا عدداً من القتلى، فاضطروا إلى التراجع مدركين أن قضيتهم خاسرة. فهرع الشعب للركوع أمام الهياكل، وقامت الراهبات بطواف حول الأسفار وهنّ حافيات منشدات المزامير، وشرعت النسوة يخلطن الممارسات الخرافية بأعمال التقوى وذلك بتغطيس بناتهن حتى الأعناق في أوان مملوءة بالماء البارد. أمام القبر المقدس، وقصصن شعورهن معتقدات أنهنّ بصنيعهن هذا يهدئن غضب الرب. وكان الخطباء يذكرون مستمعهم بما سيحدث لهم إذا سقطت القدس في أيدي المسلمين.

نص عهدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لمسيحي دار الإسلام

وكيلا ينسوا نص عهدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لدى فتح القدس، هذا النص الذي تكرر في المراسلات التي تبودلت بين المجموعات المسيحية المختلفة في المشرق والسلطات الإسلامية:

«لقد تعهدنا نحن المسيحيين بعدم إقامة أي بناء جديد في مدننا كالدير والكنيسة وصومعة الرهبان، وعدم ترميم أي من هذه الأبنية الموجودة في أحياء المسلمين، وعدم منع أي مسلم من التوقف في كنائسنا في ليل أو نهار، وبإضافة المسلمين العابرين وإطعامهم مدة ثلاثة أيام، وبالمجاهرة باحترامنا المسلمين إمّا بالوقوف لهم والتخلي لهم عن مقاعدنا في اجتماعاتنا إذا أرادوا الجلوس وبالامتناع عن لبس العمامة، وعدم انتعال الأحذية المزدوجة وألا نفرق شعورنا مثلهم، وألا نمتطي خيولاً مُسرّجة ولا نتحدث بلغتهم ولا نتمنطق بالسيف ولا ننقش على أختامنا حروفاً عربية، ولا نبيع خمراً، ولا نزين كنائسنا بالصليب من الخارج ولا نظهر صليبنا ولا كتبنا في الطرق أو في الأسواق ونمتنع عن الصخب بطبولنا في كنائسنا» (٢).

وكان المسلمون يستندون إلى هذه العهدة حتى تاريخ الحروب الصليبية، فهل علينا أن نعود ثانية لنصبح من الرعايا؟

استئناف المفاوضات واستسلام المدينة

وذهب وفد من المحاصرين يرأسه باليان الثاني ديبلين إلى صلاح الدين، فاستقبلهم مُغضباً ولأمهم على عدم رغبتهم في التفاوض حقناً لدماء المحاربين وهددهم قائلاً: « انظروا جدران القدس وهي تهدم، انظروا إلى جنودي الذين سيدخلون من جميع أبواب المدينة. سأدخل القدس شاهراً سيفي وسأطهر بدم الفرنجة هذه الأماكن المقدسة التي دنستموها بذبحكم المسلمين دوغما مبرر يوم دخلتم أول مرة عام ٤٩١ للهجرة ».

وعرض باليان باسم السكان مائة ألف دينار. ويروي بهاء الدين أن صلاح الدين لفت نظر مخاطبه إلى أن الرايات ترفرف منذ الآن قرب برج داود، وأنه ليس من العادة المطالبة باستسلام مشرف في مدينة هي على وشك السقوط. وردّ حاكم القدس قبل أن ينسحب بهذا الجواب الأثبي: « لا تتصور أن القدس ينقصها المدافعون، سنقاتل في كل من أحياء المدينة. ولدينا خمسة آلاف رهينة سنقتلهم بأيدينا كما سنقتل نساءنا وأطفالنا فلا تكن غير مهوود؛ فإنك بالجلأنا إلى اليأس، تقوي تصميمنا، كما أن التجاوزات الخطيرة تولّد أسوأ أنواع العنف. نحن لا نريد أن نرى القدس تغيب في اللهب، ولأن نرى أجمل مساجد الإسلام تدمر إلى الأبد في معارك يائسة. ماذا ستفعل أمام الخرائب؟ وأين ستجد مثل قبة الصخرة والمسجد الأقصى؟ ومثل هذه الكثرة من الأماكن المقدسة في القدس التي تقدسونها وتحترمها؟ ألا تعتقد أنه غير مناسب أن نساوم على مصير مدينة عزيزة علينا جميعاً؟ وإذا لم يشأ لنا الله النصر الآن فنحن على يقين بأنه تعالى سيمنحنا ميتةً مجيدة ومغفرةً عن كلّ ما اقترّف من تدنيس في هذه الأماكن ». ويروي المؤرخون أن صلاح الدين الذي هزّته هذه الصورة المعروضة عليه طلب من المفاوضين الفرنجة بأن يعودوا غداً ريثما يتمكن من استشارة الفقهاء. فأفتى هؤلاء بأن قسم صلاح الدين أن يدخل القدس شاهراً سيفه لا يعتبر حائثاً فيه إذا استسلم الفرنجة بلا شروط، ولأنه لم يكن قاسياً — بطبعه — ولكي يجنب القدس مآسي الحرب — وهذا ما يتساوى ورغبته الخفية — اتفق مع حاكم القدس على أن تفتدي التجمعات الفرنجية حريتها بالشروط التالية: يدفع الرجال عشرة دنانير صوريّة (نسبة إلى صور) والنساء خمسة والأطفال دنانير، وعن العشرين ألفاً من المعدمين العاجزين عن فكاك رقابهم يدفع مبلغ مقطوع قدره ثلاثون ألف دينار^(٣). وأبرم هذا الاتفاق يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة

٥٨٣ للهجرة . ولم ينس المسلمون أن يتذكروا نبوءة الشاعر الذي مدح صلاح الدين حين أخذ حلب بأنه سيفتح فتحاً أعظم في شهر رجب ، هو فتح القدس وزاد في عظمة هذا اليوم الذي لا ينسى في تاريخ الإسلام حدوثه في ذكرى الإسراء والمعراج .

استسلام قلعة القدس

وفي ٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٧ تسلم صلاح الدين قلعة القدس قبيل صلاة الظهر في عهد ناصر الدين الخليفة العباسي في بغداد ، واسحق لانيج امبراطور المشرق ، وفريدريك باربروس امبراطور ألمانيا ، وفيليب أوغست ملك فرنسا ، وهنري الثاني ملك انكلترا . وكان ابتهاج المسلمين بالغ الروعة في هذا اليوم ، وقد هرع حشد من القضاة والشعراء والفقهاء والدراويش والفقراء من مصر وسورية لتهنئة أعظم السلاطين .

أثر سقوط القدس على الفرنجة

أما الفرنجة فقد آلمهم في الصميم فقدان الأماكن المقدسة ؛ وكانت بالغة الدلالة تلك الرسالة التي وجهها في اليوم التالي تييري المعلم الأكبر لمنظمة الهيكلين إلى ملك انكلترا : « اعلم أيها الملك ، أن صلاح الدين غدا سيد مدينة القدس وبرج داود ولم يعد للمسيحيين حق حماية القبر المقدس إلا بعد اليوم الرابع من عيد القديس ميخائيل المقبل وسمح للإخوة الاسبتاريين بالبقاء سنة أخرى في مركزهم للعناية بالمرضى ، على حين كان فرسانهم يقومون يومياً انطلاقاً من مركزهم في كوكب (قصر بولفوار) بعمل جديد ضد المسلمين ، وقد استولوا أخيراً على اثنتين من قوافل هؤلاء ، فوجدوا مع الأولى أسلحة ومعدات حربية كان ينقلها الأتراك من قلعة البيرة بعد أن هدموها ، أما الكرك المجاورة للشوبك (مونتريال) ، والشوبك وصفد ، وكرك أخرى ومرجة التي تعود للاسبتاريين والقصر الأبيض (القسطل الأبيض) وطرابلس وانطاكية فما تزال صامدة رغم كل محاولات المسلمين للاستيلاء عليها . وأمر صلاح الدين بإزالة الصليب المرفوع على قبة الكنيسة المبنية فوق هيكل سليمان . وتطهيراً للأماكن المقدسة أمر صلاح الدين بغسل داخل هذه الكنيسة وخارجها بماء الورد لأنها كانت قديماً جامع عمر » — ويكتب مجير الدين الذي كان يعيش في القرن الخامس عشر في حولياته — « لم يُبْتَلِ الفرنجة بمثل هذه الكارثة منذ قدومهم إلى سورية عام ١٠٩٧ حتى الآن » .

أريحية صلاح الدين ونبله

ولم يشأ صلاح الدين أن يحتفظ لنفسه بشيء من الغنائم التي قسمها بين الأمراء والجنود والفقهاء الذين رافقوه إلى القدس . وأظهر في مناسبات عدة أريحيته — نحو أبأس المسيحيين محاولاً تجنيبهم قسوة وضعهم الجديد ؛ فأمر بإبقاء المرضى في المستشفيات التي كان يعالجهم فيها الاستاريون . وتخلّى عن كنيسة القبر المقدس للروم والسريان ، وأعفى بناءً على أمره وأمر أخيه الملك العادل ألف وخمسمائة من الفرنجة الفقراء من دفع الفدية .

وشكل مجموعات من الحرس في المدينة لمنع أي عنف ، وكان يرمي بصنيعه هذا إلى الحيلولة دون أي عمل انتقامي ، وفرض الرحمة على أتباعه بعد النصر ، وصدقهم في الحرب .

خروج الفرنجة المهزومين من باب داود

وبعد اتخاذه هذه الاحتياطات لحماية خروج الذين فضلوا الرحيل أمر بإغلاق أبواب القدس باستثناء باب داود ؛ ومر أمامه صف المهزومين الطويل . وكان هيراقليوس بطريرك القدس في المقدمة يتبعه الاكليروس الزمني والروحي ، وكان ينوء بحمل الآنية المقدسة والمصوغات الذهبية والأقمشة وكنز القبر المقدس . ولفت المؤرخ العماد نظر السلطان إلى أنّ هذه الثروات كان يجب اعتبارها من الأموال غير المنقولة وبالتالي أن تبقى مكانها بحكم المعاهدة ، لأنها ، بهذه الصفة ، من حق المنتصر . واقتنع صلاح الدين بوجهة النظر هذه ، لكنه فضّل عدم المنازعة بملكية أموال القبر المقدس وتركها تمر ؛ لأنّ الطهر الأكبر يكمن في عقيدة المؤمنين الحقيقيين أكثر مما يكمن في ذهب الآنية المقدسة . ومن ثم مر حاكم القدس على رأس الثبالة السورية والفرنجية . ووجهاء المدينة .

صلاح الدين يخفف آلام نسوة الفرنجة ويغمرهن بالهدايا والمؤن

وجشت بعض النسوة على قدمي السلطان مبتهلات : « لقد فقدنا كل شيء : منازلنا وأموالنا وديارنا ، وستتبه في بلادٍ أصبحت غريبة ومعادية بالنسبة إلينا ، وإمكانك أيها السيد أن تخفف آلامنا بأن تعيد إلينا أزواجنا وأخوتنا وأولادنا الراسفين بأغلال الأسر عندك » . فأمر صلاح الدين بالبحث عن أزواج هؤلاء النسوة بين الأسرى وأطلق سراحهم ، بل عمل أكثر من ذلك . فقد غمر هؤلاء النسوة بالهدايا والمؤن .

رحمة صلاح الدين بفرنجة القدس وتذكر أبناء دينهم لهم

وصحب المسلمون الفرنجة حتى أراضي بوهيموند حاكم انطاكية . ويرى أن فرنجة انطاكية وفرسان كونت طرابلس استقبلوا بفتور أخوتهم القادمين من القدس . ويذكر بعض المؤرخين أنهم كانوا في بعض الحالات يقتلونهم ويجردونهم من أحمالهم ما أمكنهم ذلك ، ويمنعونهم من دخول مدنها . ويعملهم هذا كشفوا عن حقيقة تجاه أولئك المحتقرين الذين أزهقوا بالآلام ، بينما عاملهم أكبر عدو لعرقهم ودينهم بهذا القدر من الإنسانية ..

وعاد أولئك البؤساء أدراجهم نحو الجنوب بعد أن طردوا من كونتية طرابلس وإمارة انطاكية ، فأمر صلاح الدين بأن توزع عليهم الخيام ، وأن يُطعموا مجاناً ، حتى يتمكنوا من الإبحار إلى الغرب ؛ وأمر بنقل عدد كبير منهم إلى الاسكندرية للتسجيل بترحيلهم . ولكن اعتراضهم هناك كذلك كل أنواع العقبات ؛ إذ رفض قادة مراكب جنوة ، وبيزة ، والبندقية أن يقلوا إلى أوروبا إلا الذين يدفعون أجرة السفر ، ويتزودون قبل ركوبهم بما يكفيهم من الأطعمة طوال مدة الرحلة . وحسب العادة حينما جاء قادة السفن يطلبون من حاكم الميناء أن يرد إليهم دفة السفن ، دهش الأخير من قلة عدد فرنجة القدس العائدين إلى بلادهم بين الركاب رغم طول انتظارهم السفر ، فتجرأ البحارة بالرد بأن أولئك الذين يتركبونهم على اليابسة هم من الفقراء ، وليس بمستطاعهم أن ينقلوهم مجاناً ؛ وطبيعي أن أقل حزمة من التوابل هي أكثر مواءمة لمصلحتهم . عندها اضطر الموظفون المسلمون أن يزودوا أولئك الفرنجة بالموثون ممن وجدوا أماكن للركوب ، وإلى إصدار أوامرهم إلى قادة السفن بعدم إنزال أولئك العتقاء الذين غدوا في ذمة المسلمين إلا في موانئ فرنسا وإيطاليا تحت طائلة مواجهة الغضب المحق لصلاح الدين ..

«سيف الإسلام» يعيد سلطة المسلمين على القدس

وحينما غادر الفرنجة القدس دخلها صلاح الدين دخولاً رسمياً ، وهُرع المبعوثون من جميع أنحاء الشرق لتهنئته بالنصر على الفرنجة وليحيوا في شخصه «سيف الإسلام» . وبعد انقضاء أيام الاحتفالات والمهرجانات أعاد سلطة المسلمين على القدس . ودفع المسيحيون الذين اختاروا البقاء في المدينة الجزية التي تحقق لهم الأمن ، ونظم الفقيه الشهير عيسى وضع الأقليات الكاثوليكية المختلفة . ورُخص لأربعة كهنة من كنيسة القيامة بالبقاء في القدس دون دفع أية جزية أو ضريبة^(٤) .



حواشي الفصل الخامس عشر

١ — عنوان الفصل في النص الفرنسي هو سقوط القدس ، لأن تحرير القدس من وجهة نظر الغرب على يد صلاح الدين أكبر خسارة عرفها طوال مرحلة الحروب الصليبية .

٢ — تلك هي عهدة عمر أو كتاب الصلح الذي أعطاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لأهل إيلياء (البيت المقدس) ، لا ماورد في النص الفرنسي المُعرَّب :
« وعن خالد وعبادة ، قالوا : صالح عمر أهل إيلياء بالجابية ، وكتب لهم فيها الصلح لكل كُورة كتاباً واحداً ، ما خلا أهل إيلياء .

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ؛ أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمتها وبريقها وسائر ملتها ؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهدم ، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكنُ بإيلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الرّوم واللصوت ؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ؛ ومن أقام منهم فهو آمن ؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الرّوم ويحلي بيّعتهم وصلبانهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيّعتهم وصلبانهم ، حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الرّوم ، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم ؛ وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان . وكتب وحضر سنة خمس عشرة . (الطبري ج ٣ ص ٦٠٨ — ٦٠٩) .

فأما سائر كتبهم فعلى كتاب لُد . بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لُد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمتهم وبريقهم وسائر ملتهم ؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا مللها ، ولا من صليبهم

ولا من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ؛ ولا يُضارُّ أحد منهم ؛ وعلى أهل لُد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يُعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام ، وعليهم إن خرجوا مثل ذلك الشرط إلى آخره . (الطبري ج ٣ ص ٦٠٩ — ٦١٠) .

٣ — ذكر تحرير القدس الشريف حرسها الله تعالى نقلاً عن كتاب النوادر السلطانية لابن شداد :
« ولما تسلّم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجدد والاجتهاد في قصده ، واجتمعت عليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد انقضاء ليلاتها من النهب والغارة ، فسار نحوه معتمداً على الله ، مفوضاً أمره إليه ، منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذي حُتَّ على انتهازه إذا فتح ، بقوله عليه السلام : « من فُتِح له بابٌ خير فلينتهزه ، فإنه لا يعلم متى يُغلق دونه » .

وكان نزوله عليه يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين المباركة ، فنزل بالجانب الغربي ، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرجالة ، ولقد تجاوز أهل الحيرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ماعدا النساء والصبيان .

ثم انتقل — رحمه الله — لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي ، وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب ، ونصب عليه المجانيق ، وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة ، حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرية شمالية .

ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع عنهم ، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل وكان قد ألقى في قلوبهم الرعب مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر ، وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون ، وبالسيف الذي قتل به إخوانهم مقتولون ، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان ، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين .

وكان تسلّمه القدس — قدس الله روحه — في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد ، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسرائ بنبيهم (ﷺ) إليه ، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى ، وكان فتوحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق عظيم ، ومن أرباب الخرق والطرق ؛ وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل ، وشاع قصده القدسي قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور ، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه وحطّ الصليب الذي كان على قبة الصخرة ، وكان شكلاً عظيماً ، ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر .

وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم : عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية ، وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً ، فمن أحضر القطيعة سلّم بنفسه ، ولأخذ أسيراً . وفرّج الله عمن كان أسيراً من المسلمين ، وكانوا خلقاً عظيماً ، زهاء ثلاثة آلاف أسير .

وأقام — رحمه الله — يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء ، وإبصال من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه وهو

صور

ولقد بلغني أنه — رحمة الله عليه — رحل عن القدس ولم يبق له من ذلك المال شيء، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار، وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. (ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٨١ — ٨٢).

٤ — موقفان متعارضان مابين سقوط القدس وتحريرها:

إن مابين سقوط القدس بيد الصليبيين وتحريرها على يد العرب المسلمين، يوماً شاسعاً مابين موقف الصليبية وأساسها الممجية والقتل، والموقف العربي الإسلامي المتسم بالإنسانية والتسامح.. ولا يسعنا تجاه هذه الرحمة والنبل الإنسانيين اللذين عامل بهما صلاح الدين الفرنجة، إلا أن نقف على مأساة سقوط القدس وبجزة المسجد الأقصى التي ارتكبتها الصليبيون ناقلين وقائماً عن مؤرخ الحروب الصليبية الباحث ستيفن رنسيما، الذي قال:

« ولما تبين للمسلمين انهيار أسباب دفاعهم، ولوا الأدبار نحو الحرم الشريف، ساحة المعبد، حيث قامت قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وقد وطدوا العزم على أن يتخذوا من المسجد الأقصى معقلهم الأخير، غير أنه لم يكن لديهم من الوقت ما يكفي لأن يجعلوه صالحاً للدفاع. على أن تأنكرد انقض عليهم، أثناء احتشادهم بداخل المسجد وفي أعلاه. فبادروا بالتسليم والإذعان له، ووعدوا بأن يبذلوا له فدية كبيرة، وأخذوا علمه ورفعوه فوق المسجد .. ».

ويتابع الباحث، ذكر المنحة التي اقترفها الصليبيون قائلاً:

« على أنه لم ينج من المسلمين بحياتهم إلا هذه القليلة. إذ إن الصليبيين، وقد زاد في جنونهم ما أحرزوه من نصر كبير بعد شقاء، وعناء شديدين، انطلقوا في شوارع المدينة، وإلى الدور والمساجد، يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء دون تمييز. استمرت المنحة طوال مساء ذلك اليوم، وطوال الليل. ولم يكن علم تأنكرد عاصماً للاجئين إلى المسجد الأقصى من القتل. ففي الصباح الباكر من اليوم التالي، اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين. وحينما توجه ريموند آجيل في الضحى، لزيارة ساحة المعبد، أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبته ».

وفّر يهود بيت المقدس جميعاً إلى معبدهم الكبير، غير أنه تقرر إلقاء القبض عليهم، بحجة أنهم ساعدوا المسلمين، فلم تأخذ بهم الرحمة والرأفة، فأشعلوا النار في المعبد، ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين.

وتركت منحة المقدس أثراً عميقاً في جميع العالم. ليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود. (ستيفن رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ٤٠٣ — ٤٠٥).

الفصل السادس عشر

كونراد دي مونفراً.. الخصم النَّد لصلاح الدين

صور ودعم تحصيناتها، وأسوارها الحصينة

إن صور التي كانت فيما سلف مدينةً مرفقة، والتي وصف حزقيال هيمنتها، وكيف أسس تجارها مصارف بلغت من البعد أعمدة هرقل حتى إنها — حسب رأي المؤرخ بلين — أسست امبراطورية حول قرطاجة،.. إن صور تلك لم تبق اليوم سوى مجرد قرية كبيرة يثير اسمها وحده ذكرى ماضيها المهيّب. وكانت مازال في عهد صلاح الدين مدينة ذات ترف أسطوري حسب أقوال ابن جبير؛ وقام حاكمها كونراد دي مونفراً بمضاعفة السور الثلاثي لتحصيناتها، وبإعلاء أبراج حصنها: الحصن الصيداوي والحصن القديم الذي مازال أركانه العملاقة تدهش حتى يومنا الراهن المختصين بهذا النوع من الأعمال، وتخزن فيها أكداً من المؤن، وملاً أحياءها ذخائر، وعود سكانها والجنود متاعب الحراسة.

محاصرة صور براً وبحراً

ولما ظهر صلاح الدين أمام المدينة في ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١١٨٧ استنتج بأنها لا تؤخذ براً وأن الوسيلة الوحيدة الكفيلة بإخضاعها هي إجاعتها بإغلاق المنفذ الوحيد الذي

كانت تستقبل منه الإمدادات والمؤن ، أي المنفذ البحري ، فقرّر محاصرتها ، وجّهز لذلك أربع عشرة سفينة من ذوات الأشرعة والمجاذيف معاً ، مسلحة بالخطافات لتعلق بالجدران ، بهدف النزول ، ومزوّدة بالمحارق لإحراق مراكب الأعداء . ومَرَّ هذا الأسطول الإسلامي القادم من مصر أمام ميناء المدينة البحرية الكبرى ، وبحث عن نقطة ضعف في التحصينات البرية ، ولكنه لم ينجح في أن يستحوذ عنوة على مَرِّ جنوده فأذعن للواقع .

دفاع المحاصرين المستميت عن صور

كان المحاصرون يدافعون كالمجانين والنساء يساعدن الرجال حاملات القذائف وقوارير النفط والأغذية حتى الأسوار ، وأقسم كونراد دي مونفرّا بالكتب المقدسة بآلّا يدع مسلماً واحداً يدخل المدينة حيّاً ، وظل متمسكاً بوعده . فكانت الهجمات الإسلامية ترد على أعقابها الواحدة تلو الأخرى دون أن تسبب للفرنجة خسائر ذات بال ، فلم تنه معنوياتهم أو تضعف .

ظهور جيش إسلامي جديد أمام صور

وطلب صلاح الدين من ولده الملك الظاهر الموجود في حلب الشخصوس لينضم إليه تحت أسوار صور مع قوات جديدة من قبائل شمالي سورية وسنجار . ومَرَّ شهران على بدء الحصار حين ظهر جيش إسلامي جديد أمام صور ، وبدأ الفرنجة يقلقون للانعطاف السيء الذي بدأت رياح الأحداث تهب باتجاهه .

خدعة كونراد دي مونفرّا الناجحة

ولم يلبث كونراد دي مونفرّا أن اكتشف البوادر الأولى لفقدان شجاعة رجاله . ولكي يعيد إليهم الثقة في أنفسهم عمد إلى حيلةٍ نجحت كل النجاح : كان في صور شاب مسلم هارب من حَرَم أهله (لأنه أهان أباه) فارتدّ عن دينه ، فطلب منه كونراد أن يبعث رسولاً إلى أبيه الضابط في الجيش الإسلامي يطلب منه الصّفح ، وأنه سيزوده مقابل عفوه عنه بمعلومات عن الوضع المادي والمعنوي للفرنجة المحاصرين في صور . فقام الرسول بمهمته تلك خير قيام . وحسب ما رواه ، فإن المحاصرين داخل صور البائسين للغاية سوف يهربون ليلاً على المراكب

متخلين عن صور وثرواتها . وكان لهذه الأخبار تأثيرها في نفوس المسلمين . وقام أمراء صلاح الدين بتعبئة نخبة من جنودهم في السفن الأربع عشرة التي كانت تروح وتجيء أمام الميناء ؛ وحينما حلّ ظلام الليل رأى المسلمون فعلاً أن الفرنجة يحتشدون في الميناء صارخين صاخبين يتدافعون بغية الحصول على مكان في المراكب التي كانت سترحل بهم ، وكانت القوات الفرنجية تختبئ في بيوت المدينة ، وحينما بدأت أشعة الفجر الأولى خفضت السلسلة التي كانت تسدّ الميناء ، وتوقف الصخب واختبأ أولئك الذين كانوا سيبحرون في أي مكان متاح لهم . وفي الحقيقة أصبحت صور فجأة مدينة خالية . وقد أفرح هذا الأمر رجال الاستطلاع البيقظين على سفن صلاح الدين التي لم تلبث أن دخلت الميناء ، بسرعة زاد في الجرأة عليها عدم رؤية المسلمين أي أثر للحياة . ولكن ما إن صار الأسطول كله داخل الميناء ، وقبل أن تطأ قدم واحدة الأرض أمر كونراد دي مونفرّا بمدّ السلسلة الكبيرة التي أغلقت منفذ الميناء ، وظهر رجاله من كل مكان وراحوا يقفزون إلى سفن المسلمين الذين كانوا يحاولون النزول في فوضى كبرى . ويكتب أحد المؤرخين المعاصرين : أن الفرنجة صعدوا السفن الإسلامية والمراكب التي كانوا أعدّوها هم أيضاً وأصبح البحر أحمر من دم القتلى . وطارد كونراد السفن الباقية واشتبك معها بمعركة رهيبة . وكان بعض المهاجمين يخرجون إلى البر سباحة . كان ذلك في ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١١٨٧ .

صلاح الدين يرفع الحصار عن صور

وكانت الأمطار البالغة الغزارة قد بدأت ، وكالعادة رفع صلاح الدين الحصار عن صور في فصل الشتاء ، وأجاز جنوده ليستريحوا في بيوتهم . وعاد أخوه العادل إلى مصر وولده الظاهر إلى حلب . أما هو فنصب مخيمه الشتوي في عكا حتى شهر آذار (مارس) ١١٨٨ . واستقبل نبأ فشل صلاح الدين في صور بفرح غامر لا يمكن تصوّره في سائر أرجاء المجتمعات المسيحية في الشرق ، مثلما كان وقع سقوط القدس مخزناً .

صور قاعدة الفرنجة الحصينة وبوابة الحملة الصليبية القادمة

واستطاعت المسيحية أن تثبت على الشاطئ اللبناني في أفضل مواقعها الاستراتيجية ، لتغدو بفضل كونراد دي مونفرّا الداهية والمقاتل الحقيقي .. قاعدة حصينة لإعادة الغزو ،

وسيكون بمقدورها أن تستقبل ملوك الصليبية وجيوشها القادمة من سائر بلاد الغرب، وكذلك أن تجلب المؤن والذخائر، وسيكون بالمستطاع بفضل تلك المدينة، صور وشقيقتها عكا استعادة الشاطئء الفلسطيني، وأن تركز القوى في مملكة آموري دي لوزينيان.. وستكون صور منعطفاً خطراً في تاريخ الأيوبيين، لأن فشل صلاح الدين أمامها كان حساساً للغاية، وبما أنه كان مع أمرائه — يستعد للعودة للقتال، وتجهيز حملات عسكرية جديدة في الربيع القادم، كانت أوروبا في الطرف الآخر من البحر تنظم نفسها ضد تهديد الإسلام، وتشكل فرقاً جديدة، وتقيم ضد صلاح الدين التحالف الأعظم من القوى، التي ستصطدم أمواجهها على أراضي الشرق الأوسط.

الفصل السابع عشر

صلاح الدين يعمل على إلقاء فرنجة المشرق في البحر

الدعوة إلى الجهاد واستئناف القتال

ومنذ مطلع آذار، عاد صلاح الدين إلى القتال، فحاصر من ٢ إلى ١٢ منه كوكب (قصر بلفوار) العائد إلى الاسبتاريين والمنتصب عمودياً على علو ثلاثمائة متر فوق وادي نهر الأردن عند خروجه من بحيرة طبرية. وكان العرب يطلقون عليه اسماً شعرياً هو «قصر نجمة الرياح»، ولم تثبط همة صلاح الدين بقايا البرد والأمطار الطوفانية، ولكن المحاصرين صمدوا، وكان لديهم الكثير من المؤن والعتاد. فعدل صلاح الدين عن متابعة الحصار وبم وجهه نحو دمشق، التي بلغها في ٥ أيار (مايو) ١١٨٨، وفيها أعدّ العدة آخذاً أهفته لإلقاء الفرنجة المشرقيين في البحر. وبعث من هناك الرسل حتى تخوم صحارى ما بين النهرين داعياً جميع الرجال التاديين على حمل السلاح إلى جهاد جديد. فسار عماد الدين والمظفر إلى حلب بجيش حشد من الموصل؛ وفي ٣٠ أيار (مايو) ١١٨٨ بدأت معركة جديدة، فظهر صلاح الدين أمام قلعة الاسبتاريين الشهيرة بحصن الأكراد؛ المشرفة على سهل واسع يمتد حتى البحر، وذات الموقع الممتاز على سفوح جبل لبنان بين حمص وطرابلس، وكان مؤرخو العصر يشبهونها بالشّجّا الناشب في حلق المسلمين. ولعجز صلاح الدين عن احتلال هذه القلعة —

التي ما تزال تعتبر مثلاً جميلاً للبناء العسكري لدى الصليبيين أمر بنهب أراضي الكونت دي بوهيموند المشهورة بغلاتها من القمح والزيت والنبذ، والتي كان غزوها يعود دائماً بغلال وافرة وموارد ممتازة.

سقوط طرطوس

وظهر صلاح الدين في مطلع تموز (يوليو) ١١٨٨ أمام طرطوس. فاضطرب سكان هذه المدينة المهيبة بأبنيتها الفخمة التي شيدها الفرنجة، وكنيستها الجميلة التي يعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر، وبأدر محاصرتها، وقاد الهجوم بنفسه، ففتح ثغرة عبر منها إلى داخل المدينة، وطارد الحامية التي لجأت إلى البرجين اللذين يؤلفان جزءاً من تحصيناتها الصغيرة.

ولم يستغرق احتلال طرطوس — حسب قول بهاء الدين رقيق صلاح الدين بالسلاح — سوى الوقت اللازم لنصب الخيام خارجها. ونهبت جميع بيوت المدينة، وغنم المسلمون غنائم وافرة. إذ قال السلطان: ستعشى الليلة في طرطوس فجلب له كبار طهاته طعام الأعداء. فدكت الأسوار وهدمت الكنيسة رأساً على عقب. وأحرقت المدينة، وبعد أعمال النهب أتت النيران في لحظة على جميع منازلها. وبقي البرجان وحدهما قائمين، فاستولى صلاح الدين بيسر على أحدهما، وصمد الآخر لأن بناءه كان الأفضل، ولأنه أحيط بخندق واسع أترع ماء، وزود بالآلات ضخمة للحصار كانت ترمي المهاجمين بمجارة ضخمة جداً، وكان يدافع عن هذا البرج حاكم المدينة وضباطها الأساسيون وخيرة فرسان المنظمات المستعيتون الذين لجؤوا إليه، فصمدوا أمام هجمات المسلمين، حتى يمس صلاح الدين من الاستيلاء عليه.

سقوط بانياس وجبله واللاذقية

وتابع صلاح الدين مسيرته على طول الساحل فاحتل تباعاً بانياس وجبله في ١٦ تموز (يوليو) وبقيت اللاذقية وحدها؛ فعسكر بعد أسبوع أمام أسوارها فظلت موصدة الأبواب دونه؛ لكنه هاجمها هجوماً عنيفاً وتمكن من دخولها حيث دارت في شوارعها معارك ضارية دامت عدة ساعات. وأمن له تفوقه العددي النصر. ونهبت اللاذقية مثل طرطوس، وبقي حصنها وحده صامداً بعض الوقت، ولكن الحامية لما رأت عنف الهجوم الإسلامي، وتأكد لها عقم المقاومة التي ستبذلها — ولا ريب — فضلت الاستسلام. وسمح صلاح الدين للمدافعين

بأن يخرجوا مع عائلاتهم وأموالهم . ولم يدعوا غير مدخراتهم من القمح وأسلحتهم . وفي آخر النهار رفرت راية المسلمين الظافرة فوق أسوار القلعة . ولم تنهض اللاذقية أبداً من الدمار الذي خلفه فيها صلاح الدين ؛ يقول أبو شامة مؤلف كتاب الروضتين « رأيت اللاذقية ؛ كانت مدينة عامرة بالمباني الجميلة ، وكان يصادف في كل مكان منها منازل من الحجر المنحوت وبوابات من الرخام معقودة الأقواس . وكان لكل منزل حديقته ، وأسواقها واسعة ، لكن الأمراء هدموا المدينة ونقلوا البوابات الرخامية إلى قصورهم في سورية الداخلية »^(١) .

ويكتب عماد الدين : « لقد رأيت هذه المدينة فيما مضى بعد فتح صلاح الدين إياها كانت مدينة فيحاء عامرة بالمباني الفارهة ، الرحبة ، ولم يكن فيها منزل بلا حديقة ، ولا مكان غير مبني ، وكان يُشاهد فيها في كل مكان منازل مبنية بحجارة صقيلة النحت وبوابات رخامية متينة الأقواس وأسواق واسعة . فخرب جيشنا هذه المدينة المزدهرة ، وقضى على أجهتها واستولى القادة على ما فيها من رخام ونقلوه إلى منازلهم في سورية »^(٢) .

الاستيلاء على حصن صهيون

وبعد استيلائه على اللاذقية ، أخذ صلاح الدين الطريق شمالاً قاصداً محاصرة انطاكية . واستولى على حصن صهيون الذي كان يحميه جغرافياً عدد من الأتراك الموحدة العميقة . وكانت هذه الأعجوبة من البناء العسكري تخص الفرسان الاسبتارية ، وتعتبر ممتنعة على الفتح . وكان ثمة خندق محفور بالصخر عمقه ستون ذراعاً يجعل بلوغها مستحيلاً ، ناهيك من السور الثلاثي الذي يحمي القصر^(٣) . ومع ذلك ففي ساعة واحدة فتح الحصن . ويقول لنا بهاء الدين : « إن حماسة الجنود المسلمين كانت من الشدة بحيث استولوا داخل البيت على طعام كان الأعداء قد انتهوا لتوهم من طبخه . « كانوا يأكلون دون أن يتوقفوا عن القتال »^(٤) . ولجأ السكان إلى الحصن ، ولمّا استولى عليه صلاح الدين لم يطلق سراحهم إلا مقابل دفع عشر قطع ذهبية عن كل رجل وخمس قطع عن كل امرأة وقطعتين عن كل طفل ، كما جرى في القدس .

انهيار شبكة التحصينات الصليبية حامية مملكة انطاكية

وبعد أن ترك أمراء صلاح الدين حامية في صهيون استولوا على مواقع صغيرة مثل

بكاس المبنية على إحدى ضفتي العاصي والشغور والعيد، والفيحاء وبلاتانيس الواقعة على تل كاسيوس قرب الجبل الأقرع. كانوا يقولون إن هذه القلعة كانت تتصل بأحد موانئ الساحل بنفق يتسع لمرور خيال على جواده. واستولوا على سمرين وسرنون على مسافة مسيرة يوم تقريباً إلى الجنوب من حلب على طريق حماة... وهكذا انهارت بوقت قصير هذه الشبكة من التحصينات التي أقامها الصليبيون لحماية مملكة انطاكية والحدود الفاصلة بين الممتلكات الفرنجية والولايات الإسلامية.

القضاء على أهم حصون الفرنجة الشمالية

وحسب ماكتب بهاء الدين: «لم يبقَ لأمر انطاكية، سوى ثلاثة حصون: قصير كرسات وبغراس (غاستون) ودريساك». وحيثما كان يظهر فرسان الإسلام كانت المدن تسقط كالثمار اليائعة. ففي برزية إلى الشمال الشرقي من أفايا كانت الأمور أشد مشقة. فالفرن والطبيعة تعاونا — كما يكتب بهاء الدين — ليجعلا أخذها مستحيلاً.^(٥) كان ثمة تلال عالية ضيقة تؤلف خندقاً طبيعياً أو بالأحرى هوات عمقها خمسمائة وسبعون ذراعاً، وسط هذا المحيط من التلال كانت تقوم صخرة بنيت على قممها هذه القلعة التي تحمي منطقة أفايا. ونظر إليها صلاح الدين عن كثب وقرر اقتحامها رغم معارضة أمرائه الذين كانوا يرون في ذلك مجازفة. ولكن صلاح الدين كان يرى أنه كلما كانت المهمة أشق كان القيام بها أجد. وانضم السلطان إلى جيشه، وأمر بنصب الآلات وبصنع جسور من الخشب وسلام وقصفت القلعة عبثاً عدة أيام، ثم أمر بإعداد كل مايلزم للهجوم، وقسم قواته — طبقاً لطريقه تقليدية — إلى ثلاث فرق مهمتها القيام بالهجوم الواحدة تلو الأخرى. كان عماد الدين أمير سنجار يقود الفرقة الأولى، والسلطان الثانية، وابنه الثالثة وحالما أعطيت إشارة الهجوم، عبر أمير سنجار الخندق على جسر من الخشب واقترب من السور، وحاول تسلقه، ولكن بعد محاولته عبثاً عدة ساعات تثبت سلاله، اضطر إلى التراجع. وجاء صلاح الدين ليحل محله فهجم شاهراً سيفه متقدماً جنوده صارخاً: «الله أكبر!» فردد صرخته الجيش كله، وفي حملة لا تقاوم مرتدياً درعه الخفيفة اتقاء لرشق السهام المتساقطة من جميع الجهات، كان صلاح الدين أول من وصل إلى السور وقفز داخل الحصن، وأحاط به الفرنجة في إحدى اللحظات إحاطة جد قريبة، ولدرجة تعرض فيها لخطر محقق، لكن مماليكه خفوا لإنقاذه في الوقت

المناسب. — ويتابع مؤرخ صلاح الدين قائلاً: « وتلك نفوس المحاصرين الذعر والإعجاب معاً فجثوا على ركبهم طالين الأمان ».

وانتصر صلاح الدين مرة أخرى بتصميمه وعناده مُعرضاً عن نصائح أمرائه الذين بدت عليهم امارات الإعياء التي ستظهر عليهم بحدة فيما بعد، وتفادياً لما أحدثه في طرطوس من حرائق أراد صلاح الدين أن يوفر على المغلوبين مآسي جديدة، فأمر بمعاملتهم برفق مطلقاً سراح حاكم القلعة، ومرسلاً إياه — يصحبه سبعة عشر فارساً — إلى أمير انطاكية. وانتقل لمحاصرة دريساك التي تشرف قلعتها على طريق القوافل الممتدة من حلب أكبر مدينة تجارية في سورية الشمالية. وقد أثنى بهاء الدين الذي شارك في هذه العملية على شجاعة الفرنجة — وهم بأغليبتهم من صيادي السمك المتواضعين — الذين دافعوا ببسالة عن الموقع، فكانوا يستدون ثغرات الأسوار التي فتحها المسلمون غير مكترئين بالسهم التي كانت تحترق أجساد رفاقهم إذ كانوا تقريباً عزلاً بلا أسلحة وبلا دروع شبه عرايا ويشكلون ما يشبه الجدار، ويحملون حجارة كبيرة لسد ما يحدث من الثغرات في التحصينات، وكلما قتل منهم واحد حلّ مكانه آخر متابعاً ما يبدى بعمله، وهكذا تعرضوا للقتل بالسيف خلال ربع ساعة. وفي ١٦ ايلول (سبتمبر) ١١٨٨ سقطت دريساك بأيدي المسلمين. وبعد عشرة أيام جاء دور حصن بغراس للهيكلين، ويقع في منتصف الطريق بين انطاكية واسكندرون، وكان موقعه يشرف على ممر يبلان على الطريق الاستراتيجية التي تربط انطاكية بالإمارة الأرمنية في كيليكيا. ومن هناك، أرسل صلاح الدين عدداً من الممالك زرعوا الموت حتى أبواب انطاكية. فطلب الكونت بوهيموند، الذي أرعبه هذا العدد من الهزائم، هدنة. وكان البطريرك الذي كان يشاطره حكم المدينة يشاطره الرأي كذلك، وحاول بدوره أن يتفاوض مع صلاح الدين، بهدف إنقاذ ما يمكن إنقاذه بانتظار وصول المساعدات من الممالك الفرنجية في الغرب. فعامل صلاح الدين المبعوثين معاملة حسنة ومنحهم هدنة مدتها سبعة أشهر، بعد مساومات صعبة تتعلق بمسألة دنانير.

سقوط الكرك وإعادة الاتصالات بين الشام ومصر

وبعدما قضى صلاح الدين خلال بضعة أيام على أشهر القلاع الصليبية سرح قواته

وعاد إلى دمشق. وفيها بلغه خبر سار: إن قلعة الكرك التي بناها بايان لوبوتاي عام ١١٤٢ فوق جبل الثلج، والتي كانت ترى منها على بعد ثمانية عشر كيلو متراً زرقة المياه الشديدة الصفاء للبحر الميت،... لقد سقطت أخيراً هذه القلعة بعد حصار حول كامل على يد شقيقه الملك العادل. وكان ذلك في تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٨٨ بعد أن تغلب الجوع على المدافعين عن هذه المدينة الصغيرة التي ازدهرت أيما ازدهار في العهد اليوناني، والتي انطلقت منها روث المؤابية إلى بيت لحم حيث تزوجت بوز جد داود.

وبسقوط الكرك أعيدت الاتصالات بين مصر والشام. ولم يعد مستطاعاً قطع طريق دمشق — مكة على المسلمين الذين كم أرغموا قبل ذلك على القيام بدورات كبرى على الطرق الصحراوية في الأردن، بهدف الوصول إلى مكة اجتناباً لدفع الفديات والتعرض للمضايقات المزعجة. ولهذا استقبل نبأ سقوط الكرك في كل ديار الإسلام كما استقبل نبأ سقوط القدس، وبالدرجة ذاتها من الابتهاج والمهرجانات. وبخبرنا مؤرخ عربي معاصر أن جميع الدمشقيين الذين لم يتمكنوا من أداء فريضة الحج سابقاً بدؤوا يستعدون لأدائها الآن. ونظموا على أبواب دمشق أكبر قافلة للمؤمنين لم يشهد مثلها منذ زمن بعيد، وقد أثلجت صدور الجميع وهم يشاهدون انطلاقها نحو المدينة المقدسة التي لم يقترب منها ذمياً قط.

سقوط صفد وكوكب

وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٨ هاجم صلاح الدين صفد شمالي بحيرة طبرية، وكانت مدينة صغيرة رائعة الجمال بمنازلها الموزعة على ثلاثة تلال وقلعتها المشرفة على منطقة بحيرة طبرية، واستمر الحصار شهراً، واضطر السلطان نفسه أن يستشير الشجاعة المتراخية لدى رجاله، الذين كانوا يحاربون كجنود نظاميين لهم مرتباتهم المقررة لا غير.. وعرض نفسه للخطر وأسهم في الأعمال التي تطلبها إقامة الدبابات والمجانيق وقاذفات الحجارة والأبراج الخشبية المتحركة، مصراً على إخضاع هذه المدينة، رغم الأمطار المستمرة التي أحالت الأرض مستنقعات، صفد الشهيرة في تاريخ الآشوريين، صفد التي شهدت تحت أسوارها زحف بينوي تغلات فلاسر ملك آشور. وفي ٦ كانون الأول (ديسمبر) ١١٨٨ ألقت الحامية السلاح مستسلمة.. وقاد صلاح الدين رجاله إلى كوكب ذلك الموقع الذي لم يستطع احتلاله

قبل عشرة أشهر، رغم الطقس السيء ورغبة رجاله في نيل قسط من الراحة. وتمكن من دخول الموقع الحصين بعد عدة أيام من المعارك الضارية تحت الأمطار الغزيرة الدائمة التهطل، ووابل الحديد والرصاص والنيران الإغريقية. وفي ٥ كانون الثاني (يناير) ١١٨٩ رفرت رايات صلاح الدين فوق بقايا هذه القلعة الأبية التي سمح لآخر مدافع عنها بالانتقال بحرية إلى صور، كعلامة إكبار وإعجاب ببسالة أولئك المدافعين عن موثلهم، واحتقارهم الموت وإصرارهم حتى النهاية على عدم الاستسلام.

وانتقل السلطان إلى القدس مع أخيه بعد أن أقام حامية إسلامية في كوكب (قصر بلفوار)، وتوجه من عسقلان إلى عكا التي أمر قراقوش — أمين المبابي الرسمية ومعيد بناء قلعة القاهرة — بتفتيش تحصيناتها.

الأرض المقدسة مسرح الحروب المقبلة

وأخيراً في ٢١ آذار (مارس) وبعد أن سرح حلفاءه من ما بين النهرين، انتقل صلاح الدين إلى دمشق، عاصمته الإدارية. والتي لن يتاح له أن يتمتع فيها طويلاً بثمار انتصاراته.. ذلك أن أوروبا التي أرهقها مالحق بها من هزائم في الشرق الأدنى راحت تحشد جيوشاً متعصبة في جميع الأراضي المسيحية، وتجهز الكثير من السفن في الموانئ، لتقل هذه الجيوش نحو الأرض المقدسة التي انقلبت مسرحاً للكثير من المعارك.

حواشي الفصل السابع عشر

١، ٢ — جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة نقلاً عن العماد الأصفهاني خبر وصول صلاح الدين إلى اللاذقية، وفيه وصف للمدينة: قلاعها وعمارتها... يقول:

«رحل السلطان إلى اللاذقية يوم الأربعاء الثالث والعشرين من جمادى الأولى فبات بالقرب منها وصبحناها يوم الخميس، وقد لاذ أهلها بقلاعها، وهي ثلاث قلاع متلاصقات على طول التل، متناسقات كأنهن على رأس جبل راسخ، وذروة اشم شامخ. فسهل لنا فرعها، وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها، فطلبوا السنجق الناصري ونصبوه على السور عشية يوم الجمعة، فلما أصبحوا صعد إليهم قاضي جبلة وأنزلهم بالأمان، وتسلمت تلك القلاع بما فيها من عدة وذخيرة، وأسلحة وميرة، وخيل ودواب كثيرة. وأمنوا على أنفسهم وأموالهم، وانصرفوا بنسائهم ورجالهم، وذريتهم وأطفالهم، وخفوا من أفعالهم. ودخل جماعة منهم في عقد الذمة، وتمسكوا بحبل العصمة. وانتقل الباقون إلى انطاكية. ثم ولّى السلطان بها مملوكه سنقر الخلاطي، وركب السلطان إلى البلد وطافه، وهز إلى إحسانه أعطافه، وأمنه بعد ما أخافه. قال: ورأيتها بلدة واسعة الأفنية، جامعة الأبنية، متناسقة المغاني، متناسبة المعاني. في كل دار بستان، وفي كل قطر بنيان. أمكنتها مخرمة، وأروقها مرخمة، وعقودها محكمة، ومساكنها مهندسة مهندمة. وسقوفها عالية. وقطوفها دانية، وأسواقها قصية، وآفاقها مضية. وأرجاؤها فسيحة، وأهواؤها صحيحة. لكن العسكر شعث عمارتها، وأذهب نضارتها. ووقع من عدة من الأمراء الزحام، على الرخام، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشام. فشوهوا وجوه الأماكن، ومحووا سنا المحاسن. قال: وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة، نفيسة قديمة، بأجزاء الأجزاء مرصعة، وبألوان الرخام مجزعة، وأجناس تصاويرها متزعة. وأصول تماثيلها متفرعة. وهي متوازنة الزوايا، متوازنة البنايا. قد تخربت بها أشباح الأشباه، وصورت فيها أمواج الأمواه. ولما دخلها الناس أخرجوا رخامها، وشوهوا أعلامها، وجروا لثامها، وكسروا أجرامها. وأهدوا الأسى لهدّ أساسها، وأفاضوا عليها لباس إبلاصها، وحكموا بعد الغنى بإفلاسها، فأفقرت وأقفرّت، وتخربت وترثت. ثم لما طابت النفوس، ونجى عن البلد بفتح البوس، عاد إلى هذه الكنيسة بالأمان القسوس، وهي متشوهة متشعثة، متمسكة بأركانها وبقواعدها متشعبة. قال: ولقد كثر أسفي على تلك العمارات كيف زالت، وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت. ولكننا زاد سروري بأنها عادت للإسلام مرايع، ولشموسه مطالع. فلو بقيت بحليتها وحالتها، بعدما تبدلت ورشدها

من ضلالتها، لشاقت وراقت، وكما أفاقت فاقت. ورغب في إعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والأرمن حباً للوطن. ولما أراد السلطان الرحيل، دخل المدينة، وردّ إلى سكانها السكينة، ودار خلال ديارها، وخرق أسواقها في سائر أقطارها، ووقف على البحر للنظر إلى موانئها وشوانها، وأقاصمها وأدانها، وشكر الله على تمكنه من ملكها وتخصيصه بملكها». (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٢٨).

٣ — وقد وصف العماد الأصفهاني الطريق إلى قلعة صهيون بقوله:

«كان الطريق إلى صهيون في أودية وشعاب، ومنافذ صعب، وأوعاث وأوعار، وأنجاد وأغوار. فقطعنا تلك الطريق في يومين، ووصلنا ليلة الثلاثاء ببلية الاثنين، وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء وهي قلعة على ذروة جبل بين وادين عميقين، يلتقيان عليها، ويدوران حولها. والجانب الجبلي مقطوع منه بخندق عظيم عميق، وسور وثيق ما إليه لسوى القضاء والقدر من طريق. والقلعة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب، ممتلئة بذئاب سغاب، وأسد غضاب. وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من نواحيها الأربع، وهي ممتعة علينا بالركن الأيمن والسمو الأيمن». (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٢٩).

٤ — جاء في فتح صهيون نقلاً عن القاضي بهاء الدين بن شداد قوله:

«ورحل السلطان عن اللاذقية ظهيرة الأحد المذكور طالباً صهيون المحروسة، وكان نزوله عليها يوم الثلاثاء تاسع عشرين جمادى المذكورة، واستدار العسكر بها من سائر نواحيها بكرة الأربعاء، ونصب عليها ستة مناجيق، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل، خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقدار طوله ستون ذراعاً ولا يبلغ، وهو نقر في حجر، ولها ثلاثة أسوار، سور دون رَضيها، وسور دون القلة، وسور القلة، وكان على قلتها عَلمٌ طويل منصوب، فجبن أقبل العسكر الإسلامي شاهدته وقد وقع، فاستبشر المسلمون بذلك، وعلم أنه النصر والفتح، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب، فضربها ولده الملك الظاهر — صاحب حلب — وكان قد لحقه قبيل جَبَلَة بجحفله وعسكره وحضر فتوحها، وكان نصب على صهيون منجنيقاً قبالة قرنيه من سورها قاطع الوادي، وكان صائب الحجر، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة عظيمة يمكن الصاعد في السور الترقى إليه منها.

ولما كان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان — رحمة الله عليه — على الزحف، وركب وتقدم، وأمر المنجنيقات أن تتواتر بالضرب، وارتفعت الأصوات، وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل، وما كان إلا ساعة حتى رقى المسلمون على أسوار الرَبَض، واشتد الزحف، وعظم الأمر، وهاجم المسلمون الرَبَض.

ولقد كنتُ أشاهد الناس وهم يأخذون القُدور، وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها وهم يقاتلون القلعة، وانضم من كان في الرَبَض إلى القلعة وحملوا ما أمكنهم أن يحملوا من أموالهم، ونهب الباقي، واستدارت المقاتلة حول أسوار القلعة، ولما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان، ووصل خبرهم إلى السلطان، فبذل لهم الأمان، وأنعم عليهم، على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم، ويؤخذ من الرجل منهم عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة، وعن الصغير دينار، وسلمت القلعة — والله الحمد — وأقام السلطان عليها حتى تسلم عدة قلاع، كالعيدو، وبلاطس وغيرها من القلاع والحصون وتسلمها النواب، فإنها كانت تتعلق بصهيون». (ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٩٠ — ٩١).

٥ — فتح برزبة نقلاً عن القاضي بهاء الدين بن شداد .

« ثم سِيرَ السلطان جريدة إلى قلعة برزبة ، وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يُضرب بها المثل في جميع بلاد الإفرنج والمسلمين ، يحيط بها أودية من سائر جوانبها ، وذرع علوها كان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً ، ثم جدد عزمه على حصارها بعد رؤيتها ، واستدعى الثقل وكان وصول الثقل وبقية العسكر تحت جبلها يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر .

وفي بكرة الأحد الخامس والعشرين منه صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل ، فأحرق بالقلعة من سائر نواحيها ، وركب القتال من كل جانب ، وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلاً ونهاراً . وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين ، فقسم العساكر ثلاثة أقسام ، ورتب كل قسم يقاتل شطراً من النهار ، ثم يستريح ويسلم القتال للقسم الآخر بحيث لا يفتر القتال عنها أصلاً .

وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين — صاحب سنجار — فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفى نوبته ، وضرر الناس من القتال ، وتراجعوا عنه .

واستلم النوبة الثانية السلطان بنفسه ، وركب وتحرك خطوات عدة ، وصاح في الناس ، فحملوا عليها حملة الرجل الواحد ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وقصدوا السور من كل جانب ، فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رقى الناس على الأسوار ، وهاجموا القلعة ، وأخذت القلعة عنوة ، فاستغاثوا الأمان ، وقد تمكنت الأيدي منهم « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » ونهب جميع ما فيها ، وأسر جميع من كان فيها ، وكان قد آوى إليها خلق عظيم ، وكانت من قلاعهم المذكورة ، وكان يوماً عظيماً .

وعاد الناس إلى خيامهم غائمين بحمد الله تعالى ، وعاد السلطان إلى الثقل فرحاً مسروراً ، وأحضر بين يديه صاحب القلعة ، وكان رجلاً كبيراً منهم ، وكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً ، فمَنَّ عليهم السلطان ورقاً لهم ، وأنفذهم إلى صاحب أنطاكية ، استأله له ، فإنهم كانوا يتعلقون به ومن أهله . » (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٩٢ — ٩٣) .

الفصل الثامن عشر

تحالف أوروبا المسيحية ضد الإسلام

أوروبا والإعداد للحملة الصليبية الثالثة

لقد أقضت خسارة القدس المضاجع في جميع البلاطات الأوربية،.. وبناءً على أمر كونراد دي مونفرّا الذي تكشّف في المناسبة عن مطامع سيؤكدها المستقبل، قام بطريق صور بعبور البحر لإطلاع قداسة البابا أوربانوس الثالث على المصيبة الكبرى التي حلت بالنصرانية؛ فأسهّم هذا النبأ في التعجيل بوفاة الحبر الأعظم الذي أصيب إصابة بالغة الخطورة، فلم يقو على تحمل وقع ألم النبأ — الصدمة: «سقوط القدس»، فمات بفرّاري في ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٧ وخلفه الراهب البندكتي غريغوريوس الثامن الذي أعدّ العدة، منذ اليوم التالي لاعتلائه عرش البابوية، للحملة الصليبية الثالثة. فحث جميع المسيحيين القادرين على القتال على حمل السلاح بغية خلاص الدين!.. وأمر بالصوم والصلاة جهرًا، وأمر بهدنة إلهية أمدها سبع سنوات. وقد كتب لويس برهيه في كتابه (الكنيسة والمشرق في العصر الوسيط): «وقد نذر الكرادلة أن يعيشوا على الصدقات، وألا يركبوا الخيل قبل إعادة احتلال القدس، وأن يطوفوا الدول المسيحية سيراً على الأقدام وهم يحملون الصليب. ولكن لم يكد يمرّ شهران على تنويع البابا غريغوريوس الثامن حتى توفي، وخلفه

كليمانت الثالث. فجدد الغفرانات والامتيازات التي منحها أسلافه للذهابين إلى الأرض المقدسة.

وكان وعظاه يطوفون الممالك المسيحية يستنزلون اللعنات أمام مستمعهم على صلاح الدين، ويوزعون رسوماً تظهر القبر المقدس يدنسه جواد أحد المماليك والمسيح يسوقه محمد، وكانت أخبار الآلام التي يقاسيها الفرنجة في المشرق تحفز جموعاً لا تحصى من المتطوعين. وخلع قساوسة وكهنة ورهبان مسوحهم الدينية ليتسربلوا الدروع. وقرر كرادلة أن يسعوا إلى القدس سيراً على الأقدام وهم يستجدون الحسنات، والامتناع عن بيع صكوك غفران الخبر الأعظم إلا لمن تطوع صليبياً. وتلقى بطريك صور والكاردينال هنري من البابا لقب مبعوثين مفوضين، وبعد أن طافا إيطاليا وألقيا فيها المواظ، اجتازا جبال الألب ليثرا في فرنسا الحماسة ذاتها للحملة الصليبية الثالثة. ولكن الوضع السياسي في باريس كان غامضاً، وأخذت مطالبات ملك انكلترا بوراثة العرش تتسم بشيء من الوقاحة. وكانت القضية على وشك أن يُحتكم فيها للسلاح، وأن يحقق ضررها الفادح بالمملكتين معاً.

ملكا فرنسا وانكلترا يتسلمان الصليب من يد بطريك صور

وحيثما وصل مبعوثا البابا المفوضان — وكان الناس ما يزالون يبدون كل تبجيل للكرسي الرسولي — قبل ملكا انكلترا وفرنسا أن يلتقيا قرب جيزور في ٢١ كانون الثاني (يناير) ١١٨٨ لسماع رسالة الخبر الأعظم. واستطاع المبعوثان بكثير من اللباقة التي رويها بها معانة مسيحيي المشرق أن يؤثر في الملكين هنري بلانتاجني وفيليب أوغست حتى نسي هذان العاهلان خلافتهما، وتصافحا وتعانقا وهما ييكيان، وتسلما الصليب من يد بطريك صور. وحذت النبالة الحاضرة حذوهما، وكان صليب كل فريق بلون علمه، الأحمر للفرنسيين والأبيض للانكليز والأخضر للفلامانيين. وبدأت تتجمع حشود الصليبيين الزاحفين من كل الجهات. وفرضت ضريبة خاصة لتأمين هذه الرحلة الضخمة هي ضريبة «العشر الصلاحيديني» أو «الصلاحيدينية» دون لفظة العشر. فقد تقرر أن يدفع كل من لا يحمل الصليب عشر وارداته كحد أدنى. واستثيت من هذه الضريبة بعض الجمعيات الدينية، وحرف قسم من وارداتها الاستثنائية عن غرضه الحقيقي. وتجدد النزاع بين ملكي انكلترا

وفرنسا اللذين نسيا. تدفق العواطف وحارّ القبلات والمصافحات، فانتزع فيليب أوغست بعض المواقع من الانكليز.

امبراطور جرمانيا يحلم بانتزاع قصب السبق في المشرق

وبينما كانت هذه الأحداث تترى في فرنسا وانكلترا— حسب ما وصفنا— كان امبراطور الامبراطورية الجرمانية المقدسة فريديريك الأول دي صواب الملقب بفريديريك باربروس يحلم بأن ينتزع في المشرق قصب السبق لشعبه. وكان الحظ قد أغدق عليه امتيازات متنوعة، فهو موطن الأمن في ألمانيا، وقد توج ملكاً على إيطاليا وبافيا كما توجه البابا أدريان الرابع امبراطوراً، فدمر ميلانو انتقاماً من المدن اللومباردية التي سبق أن ثارت عليه. وأمضى شطراً من عهده في شجار مع الكرسي الرسولي. ومع ذلك لبي وهو في الرابعة والستين من عمره دعوة مبعوث البابا المفوض الذي جاء يقابله بعد لقاء جيزور. وفي ٢٧ آذار (مارس) ١١٨٨ عقد في ماينس اجتماعاً عاماً للجمعية الوطنية (ديت)، وتقبل الصليب من يدي أسقف ورزبرغ بحضور ممثلي جميع جرمانيا التي حمل زعمائها الصليب على أثره: ابنه الثاني فريديريك دوق دي صواب، وليوبولد دوق النمسا، وبرتولد دوق مورافية، وهرمان ماركييز بادن، وكونتات تورنج وهولندا، وقساوسة بيزانسون وكامبري ومونستر، وفي يوم واحد لفظ في ماينس ثلاثة عشر ألفاً نذر الصليبيين.

باربروس يضع قواعد صارمة للحملة الصليبية الجديدة

وسبق لفريديريك أن قام برحلة إلى القدس بصحبة عمه الامبراطور كونراد الذي اشترك— كما رأينا— في الحملة الصليبية الثانية، فكان واسع الاطلاع على مشقات السفر. ولكي يتفادى تكرار الفوضى والمصائب التي سبق أن شهدوها، حرص على عدم إهمال أي شيء في الإعداد لهذه الصليبية الجديدة.

وكتب أحد المؤرخين: كانت الحماسة شاملة بالغة الحرارة، ولكن احتواها الملوك، وسعى القادة قبل أن ينطلقوا باتجاه فلسطين للاتفاق مع الأمراء الذين سيعبرون أراضيهم. وهذا ما فعله فريديريك باربروس. ولم يشأ أن يصطحب معه سوى الشبان الأقوياء القادرين على تحمل مشاق هذه الرحلة، والذين يحملون في أكياس نقودهم ثلاثة مراكات من الفضة كحد

أدنى ، كما منع النساء من متابعة جيشه وإرباك جنوده وإضعافهم بالسير معهم إلى الأرض المقدسة كما حدث في الحملتين الصليبيتين السابقتين . ووضع قواعد بالغة الصرامة للانضباط والصحة . وبينما كان جيشه يتجمع شيئاً فشيئاً تحت أسوار رايتسبون أرسل مبعوثيه إلى سائر الملوك الذين سيعبر دولهم ليطلب منهم المعونة والحماية . فوعد ملك هنغاريا (المجر) بعدم اعتراض مسيرته وتموين قواته . أما امبراطور بيزنطية اسحق لانيج ، وقلج ارسلان ملك ايقونية ففضلاً ولاشك أن يريا على أية حال سيصل إلى ديارهما جيش فريدريك باربروس قبل أن يلتزما ، وتردداً قبل أن يتورطا ؛ لأن صلاح الدين لم يكن عظيم القوة وحسب ، ولكنه على الأخص جارهما .

امبراطور جرمانيا يتوعد منذراً صلاح الدين

ودفع امبراطور الامبراطورية الجرمانية المقدسة الأمور بعيداً جداً . فقد توعد السلطان منذراً إياه بإعادة سائر الأراضي الفرنجية التي سبق أن استولى عليها . وأمام رفض صلاح الدين أعلن باربروس عليه الحرب دون أن يأخذ رأي مستشاريه . وفي هذا الإنذار الأخير الذي وجهه إلى صلاح الدين احتاط للأمر ، إذ ذكر أنه يعلن الحرب باسم الأباطرة الرومان . وهذا هو نص الرسالة حسبما أورده . ماتيو باريس :

« من فريدريك امبراطور الجرمانيين الدائم العظمة المنتصر الأفخم على الأعداء . إلى صلاح الدين زعيم المسلمين ، بما أنك دنست أرضنا المقدسة ، فمن اهتمامنا الامبراطوري وواجبنا أن نعاقب مثل هذه القحة .. ونعلمك أنه ما لم تُعد الأراضي التي هي فرنجية فسنسير إليك لنجرب ببركة الصليب حظّ السلاح معك . ولا بدّ أن التاريخ بقدومه وحديثه قد علّمك بأن الأثيوبيتين ، وموريتانيا وفارس ، وسورية وبلاد البارتين ويهودا والسامرة وبلاد العرب وبلاد الكلدان ومصر ، الخ ... هي أراضٍ تخضع لسيطرتنا . وإن سكان هذه البلدان يدركون ذلك ، فقد خُضبت سيوف الرومان بدماء ملوكهم وستفهم أنت نفسك قريباً ، وبالتجربة ما تستطيع أن تفعله نسورنا الظافرة وجحافلنا المؤلفة من شعوب مختلفة . وأنت ستبتلى بغضب أولئك التوتون الذين يحملون السلاح حتى أيام السلم ، وستعرف — بالتجربة التي ستدفع أنت ثمنها — سكان ضفاف الرين وشبيبة استرية التي لا تعرف الهزيمة أبداً ، وكذلك البافاريين وسكان الصواب الأبيين المراوغين ، وسكان فرنكونية والسكسونيين

الذين اشتهروا بلعبة السيف، وشعوب التورنج ووستفاليه والبرابانسونيين واللورينيين الذين لا يعرفون لطعم السلم مذاقاً، والبورغينيين الدائبي التوثب وسكان جبال الألب والفريزونيين الثبالة البارعين، والبهيميين الذين يجيدون لعبة الموت ضاحكين، والبولونيين الأشرس من حيوانات غاباتهم؛ والتمساويين والأيليريين واللومبارديين، وستعرف في اليوم المحدد لانتصار المسيح أننا مانزال قادرين على امتشاق الحسام واستعماله؛ وإن تكن الشيوخوخة، حسب زعمك، قد صرعتنا»^(١).

صلاح الدين يرّد على تهديدات ملك جرمانيا

وبعد أن قرأ صلاح الدين هذه الرسالة بدا مهذباً مع سفير فريدريك باربروس الذي سلّمه إياها، كما لو أن حامل هذا الإنذار جاء يحذّثه عن طبق من راحة الحلقوم أو الكعك العسليّ اللون، أو عن آخر ما أبدعه شعراء أصفهان. ولكنه كان متفهماً جيداً، وحمل السفير في اليوم التالي جوابه مصحوباً بهدايا لطيفة مراعاة للمظاهر. وهذا هو الجواب:

«إلى فريدريك العظيم، صديقنا المخلص، ملك الألمان.

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله الواحد الأحد، المنتصر الأعظم، الصمد الذي لا نهاية لملكه، حمداً أبدياً للذي أسبغ نعمته على العالمين، إياه ندعو بحجّه أنبيائه، وخاصة صاحب شريعتنا نبيّه محمّد، الذي أرسله إلى الناس كافة.. بشيراً ونذيراً؛ وإن الدين عند الله الإسلام.

ليعلم الملك العظيم صديقنا المخلص ملك الألمان، أنه قد جاءنا رجل يدعى هنري يزعم أنه سفيرك وقد سلمنا رسالة يقول إنها منك، وقد أجبنا بصوت جهير على أحاديثه. وإليك جواب الرسالة: إنك تذكر أسماء ملوك، وأمراء، وكونتات، وبطاركة ومركيزات وفرسان وعدة شعوب ستهاجمنا معك. فاعلم أن كتابنا هذا لا يتّسع حتى لذكر أسماء جميع الشعوب التي تتألف منها ممالكنا فلا بحر ولا عقبة يمكن أن تعيق زحفهم. إنهم مستعدون للسير تحت راياتنا. ومعنا الآن جنودنا الذين استولينا معهم على كثير من البلدان. وإذا كنت عازماً على الشخصوخ إلينا بكل هذه الحشود التي سميتها في رسالتك وذكرها لنا رسولك فإننا لا نخشاك وسوف نسير للقائك وسينصرنا الله بقدرته العظيم. وعندنا سنعبّر نحن البحر ونزحف

لتدمير مملكتك . لأننا ندرك — لكي تحشد كل هذه الجيوش التي سميتها لابد أنك قد أفرغت ولاياتك من السكان ، ولم تُبق فيها مدفعاً واحداً ، ولن يحول أي شيء بيننا وبين أن نصبح سادتها ، بعد أن نكون قد سحقناكم في فلسطين كما سحقنا الذين سبقوكم بفضل الله الواحد الأحد . لقد هبّ الفرنجة مرتين لمهاجمتنا في مصر ، مرة في دمياط ومرة في الاسكندرية ، وإنك لا تجهل ما أسفرت عنه نتيجة المعركتين . وعند ذلك الحين أذهب الله ربحكم وزاد في قدرتنا فوهبنا مصر وممالك دمشق والقدس وحلب وسواحل سورية ، وماين النهرين وكثيراً من المناطق الأخرى . وجميع الأمراء المسلمين هم إما عمالنا وإما رعايانا . وسائر السلاطين يطيعون أوامرنا ، حتى لو طلبنا من خليفة بغداد أعقد الله عليه نعمه ، أن يقود جيوشه إلينا لنزل عن عرشه العظيم ليسارع إلى ضم جهوده لجهودنا في الجهاد المقدس . ولم يبق للفرنجة سوى ثلاث مدن هي : صور وطرابلس وانطاكية ، التي سنسير لتحريرها .

فإذا أردت الحرب ، وإذا كتب الله لك الهزيمة في لوجه المحفوظ فتقدم وسنسير للقائك ، أما إذا أردت السلم ، فمُر حكام تلك المدن الثلاث بفتح أبوابها لنا ، وعلى أساس هذا الشرط نعيد إليكم صليكم ونحرر أسراكم ونسمح لأحد قسسكم أن يقيم في كنيسة القيامة ، ونعيد إليكم أديرتكم ونحسن إلى رجال دينكم ونسمح لحجاجكم بزيارة المدينة المقدسة ونحافظ وإياكم على سلم لا يعكّر .

فإذا كانت الرسالة التي نقلها إلينا المدعو هنري صحيحة فليكن هذا هو جواب رسالتنا .

حرر في سنة ٥٨٤ للهجرة بنعمة الله الواحد الأحد . الصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين ، وعليكم سلام السلطان الأعظم المنتصر المدافع عن كلمة الحق ، زينة راية الإيمان صلاح الدنيا والدين ملك المسلمين ، حامي الحرمين الشريفين وبيت المقدس المشرف أبي المنتصرين يوسف بن أيوب» (٢) .

ومن جديد أعلن الجهاد في الجوامع عند صلاة الجمعة ، فيما كانت ترتفع في كل مكان في المشرق صيحات العداء .

عبقريّة صلاح الدين السياسيّة ومعااهدة التحالف مع بيزنطية.

كان عالمان يتأهبان للمجابهة ولتحمل تجربة رهيبة ؛ ولكنّ عبقرية صلاح الدين السياسيّة ستتيح له أن يحقق أعظم نجاح دبلوماسي في حياته : فمعااهدة التحالف التي وقعها ، بعيد انصراف سفراء غريغوريك باربروس ، مع إسحق لانج - الإمبراطور البيزنطي والمسيحي العريق الذي بفضلها انضمت بيزنطية إلى المسلمين عشية الحملة الصليبية الثالثة التي عمت مواعظها سائر أرجاء أوربا .

حول سياسة إمبراطور بيزنطية اسحق لانج

ولنحاول أن نفهم شيئاً وسط هذا الغموض البيزنطي حوالي نهاية القرن الثاني عشر . كم من الدنءات. وِخَدَع أصحاب المواخير ، ورجال السياسة الأخساء كانت تدار في محيط إمبراطور المشرق وحتى سريه . هذا الإمبراطور العديم الهيبة وفائد روح الحياة . فمعلوم أن المدعو ألكسي الثاني اعتلى عرش أباطرة بيزنطية منذ السنة الثانية عشرة من عمره ، وحفلت السنوات الثلاث من ملكه بمؤامرات أمّه ، وبثورات الخدم ، وبالتطالعات الطامعة لأنديرونيك كومين ، الذي لم يلبث أن حل محله ، ووطد نفسه لتسئم العرش عن طريق تسميم أفضل أصدقائه وباغتيال الذين يشك في ولائهم له .

ولم تبق الحياة الخاصة لهذا المجنون آثاراً مجيدة في مباحث حياة بيزنطية . ويروي مؤرخو سيرته أنه نهب كنوز المعابد والأديرة ، واغتصب العذارى المكرّسات لله . وأن شخصاً بهذا القدر من القذارة ، قمين — ولا ريب — بأن ينتهي نهاية بائسة ؛ فكان يعاني كوايبس الرعب في لياليه المؤرقة بذكرى ضحاياه . فلجأ إلى علوم السحر لكي تحميّه من وساوسه ، وشرع يستنطق الكرات العالمة وكتابات الخزف ليعرف اسم الخدين الذي يُعدّ العدة لاغتياله ، ولما أبلغه منجمه أن من ينشد كشف اسمه يدعى اسحق لانج ، سارع إلى الأمر بسجنه وإغراقه في مياه البوسفور المرحّة . ولكن اسحق أي أن يعذب بهذه السهولة ، فبدلاً من أن يدهم يضعونه في كيس مع حجر يُعلّق بعنقه ، طعن بخنجره الشرطي القادم لتوقيفه ، وراح يعدو في أزقة بيزنطية خاضعاً لفكرة عبقرية ، وهو يصرخ كالمعتوه : أيها الناس ! تعالوا جميعاً لقد قتلت الشيطان ، وأستطيع أن أريككم جلده . فتجمع حواريه الناس البسطاء ، يشدون أزره ، وعمت

صرخته المدوية أنحاء بيزنطية فانتهر فرصة ماتمتع به من شعبية، لإثارة الفوضى والفتنة، ولم يكن الغسق قد صبغ بعد المياه المتوهجة التي تصل ما بين القارتين حتى كانت بيزنطية قد اتخذت لنفسها سيداً جديداً معلنة إمبراطوراً ذاك الذي آثر أن يتحدى سلطان السلطة على أن يرى نفسه موضوعاً في كيس مع ققط جرباء.

وانقضت الدهماء على أندرونيك كومين الذي ألقى عليه القبض وشد إلى عمود في صحن قصره، وسملت عيناه وقطعت إحدى يديه قبل أن يربط عارياً تماماً على ظهر حمار ووجهه إلى الوراء.. وهكذا طيف في بيزنطية بالإمبراطور الذي خلعه الشعب عن عرشه. ورجم بالحجارة وقذف بالقاذورات وبقوارير الزيت المغلي. وأخيراً علّق من قدميه وهو في حالة الاحتضار، وثُرك بين أيدي النساء المسكونات بالشيطان؛ اللواتي انتزعن أعضائه التناسلية ومزقن جسده بأسنانهن. ونقرأ في كتاب تاريخ قديم: لقد أكلت هذه الساقطات في خضم سَعْرهن لحم الملك التعس وتنازعن إريه وكسرن ظهر المحتضر، ولا شيء يمكن أن يصوّر قرفنا أمام مشهد فظاعة كهذه. لقد وقعت هذه الأحداث في عام ١١٨٥. وكان قد مضى سنتان على اعتلاء اسحق لانج عرش الإمبراطورية البيزنطية حينما ظهر، على حدودها المائة ألف جرمانى المدججون بالسلاح، المتقدو حماساً بالسير وراء فريديريك باربروس، والذين اجتازوا أوروبا من الشمال إلى الجنوب لا يحلمون إلا بالمعارك ويكنوز الأراضي الإسلامية.

اسحق لانج ينحاز لصالح الدين خوفاً من القوات الصليبية

وفي الوقت ذاته كان مبعوثو صلاح الدين يدخلون قصر الإمبراطور ويعرضون عليه باسم الإسلام ميثاق صداقة دائمة، ولم يتردد اسحق لانج، واختار أن ينحاز إلى صلاح الدين ليحمي إمبراطوريته خوفاً من قوات فريديريك باربروس التي كلما اقتربت من آسيا الصغرى أخذت تدب فيها الفوضى شيئاً فشيئاً. وتعهد اسحق لانج بموجب المعاهدة التي أبرمها مع فاتح القدس بالتنازل للمسلمين عن إحدى أشهر كنائس بيزنطية لتصبح جامعاً. ووعد بأن يستنزف مؤخرة جيش فريديريك باربروس، وأن يحوّل الدروب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً إلى طرق مقطوعة، وأن يلجئ باربروس إلى مساومات لا تنتهي، كلما أراد أن يشتري المؤن. صحيح أن تحالفه لم يكن — ولحسن السياسة — إلا تحالفاً ظاهراً علانية، وأن مساعدته

ظلت سرّية، على الأقل حتى تتوارى الجيوش الجرمانية وراء جبال أرمينيا. وكان المرغوب فيه أن يستقبل اسحق لانيج نفسه بقليل من الفرح وكثير من الكلام الذي يذهب جُفاءً، فريدريك هذا، حامل الصاعقة، الذي سيعسكر في هدوء تحت أسوار بيزنطية.

سفارة صلاح الدين الاستثنائية لدى القسطنطينية

ولم ير صلاح الدين بأساً في إنقاذ المظاهر. ولكي يدلل على حسن صداقته نصّ في المعاهدة على أن يعهد بكنيسة القيامة إلى الأساقفة الروم، وسمح للبيزنطيين بحرية دخول الأراضي المقدسة. ولقد كتب السيد ريني كروسيه (M. René Grousset) يقول: «إن مثل هذا الندد كان يلبي المطالب النظرية الأبدية للسياسة البيزنطية ويسوّغ في الوقت ذاته التحالف مع أمير مسلم في أعين الأرثوذكس. وحينما وقع الطرفان بنود المعاهدة، أرسل صلاح الدين سفارة علنية إلى القسطنطينية، قوامها أمير ومؤذن وقاض وعدد من الفقهاء حاملين معهم هدايا شرعية: منبراً ونسخة من القرآن الكريم مزخرفة زخرفة فخمة. واحتفل في العالم الإسلامي بيوم وصول هذه السفارة إلى بيزنطية مثل احتفالهم بيوم تحرير القدس. وتجمع التجار المسلمون المقيمون في المدينة على شاطئ البوسفور وراء جنود الإمبراطور، ليستقبلوا سفارة صلاح الدين الاستثنائية ويرافقوها، وسط الابتهاج العام وعلى أنغام الموسيقى. وسارت وراء السفراء قافلة طويلة محملة بثروات أسطورية، وحينما كان الأمراء بثيابهم المزرقة الشبيهة بثياب الخلفاء، يرون الأبواب الذهبية لقصر الإمبراطور المنيف تشرع لهم، على أنغام الموسيقى ودق الأجراس في بيزنطية، كان بارون ويسمّباخ مبعوث فريدريك باربروس يصل على جواده الراكض بسرعة قصوى، ليطلب السماح بمرور جيش الإمبراطور الجرمني مروراً حراً عبر الإمبراطورية البيزنطية. وطلب فور وصوله مقابلة الإمبراطور. ولابد أنه تلقى درساً مفيداً في غمرة المهرجانات واحتفالات الاستقبال. وركز المؤرخون العرب — أمثال بهاء الدين — الذين لا يرق الشك إلى كتاباتهم على الصداقة المتنامية التي كانت ستربط بين صلاح الدين واسحق لانيج.

المئة ألف جرمني والمغامرة الخائبة

ومع ذلك ففي ١١ أيار (مايو) ١١٨٩ غادر راتيسبون مائة ألف جرمني، ليعيشوا

أشد المغامرات خبيّة في تاريخ وطنهم . وكان الانكليز والفرنسيون والإيطاليون يُبحرون عهد ذاك على سفن كثيرة ، وتتأهب الأساطيل للإقلاع من جميع موانئ البحر الأبيض المتوسط . باتجاه الأرض المقدسة . وكان صراع — لارحمة فيه — ستتابع مفاجآته العديدة — يبدأ بين الدول الأوربية والإسلام المنتصر .

الفصل الثامن عشر

١ ، ٢ - لم يرد في المصادر العربية أي ذكر لرسالة فردريك باربروس إلى صلاح الدين أو لرد صلاح الدين على فردريك باربروس .

الفصل التاسع عشر

رينو دي ساجيت وصلاح الدين

تساقط سلسلة حصون الفرنجة جنوبي لبنان

بين النهاية الجنوبية للبنان، وهضبة الجليل، على الجبال المهيمنة على وادي الليطاني، بنى الصليبيون سلسلة من الحصون يغطي بعضها بعضها الآخر، وتهدد أرض أتابك دمشق وتسيطر على الطرق الساحلية المؤدية إلى صور وصيدا.

صلاح الدين يتحفر لحصار حصن شقيف أرنون

وكان أشهر هذه الحصون وأمنعها حصن بوفور الذي يسميه المؤرخون العرب شقيف أرنون؛ وبعد سقوط القدس تحصن فيه رينو دي ساجيت منتظراً أياماً أفضل. وكان هذا الحصن مبنياً على ارتفاع ستائة وسبعين متراً عن سطح البحر يعلو صخرة يقوم جدارها على شفير هاوية. وكان يمكن لسيد شقيف أرنون أن يتحدى أفضل المتسلقين المسلمين مادام في قعر آباره من الماء الوشل؛ ولكن بعدما رأى رؤية العين حوالية تهاوي عدد من الحصون الشهيرة بأنها أمنع من أن تؤخذ، اعتقد بأن من السياسة أن يخادع عدوه، والأجدى له أن

يتجنب الاشتباك معه في معركة، ولكن صلاح الدين كان عام ١١٨٩ يُحضر قواتٍ عديدة يدفعها إلى أسفل حصن بوفور محتلاً كل طريق يؤدي إلى جسر العبور.

رينو دي ساجيت يقابل صلاح الدين

وقبل أن تكمل استعدادات المحاصرة طلب رينو دي ساجيت مقابلة أكرم أعداء الفرنجة وأصدقهم وأعلمهم وكان صلاح الدين يرغب في أن يستقبل بكل احترام رجلاً كامل الرجولة صادق القلب ثاقب الفكر، ودعاه إلى مائتته. وخلال الطعام، تبودلت عبارات المجاملة والتعذيب الشهيرة لدى الشرقيين والتي لها أحياناً مذاق الأفاويه.

ثقافة رينو دي ساجيت الإسلامية ومعرفة دقائق العربية

وكان رينو يعرف دقائق اللغة العربية وكنوزها من الروائع الخيالية المؤثرة. واستطاع بيسر الاستيلاء على لب صلاح الدين المتأثر دائماً بأقوال الرجال المرموقين.

ويوضح مؤرخه بهاء الدين الذي كان حاضراً المقابلة، أن الحديث لم يتطرق بين تناول الزيتون الدسم للسفوح اللبنانية والمعجنات الدمشقية المحشوة بالفستق إلا إلى صفات الشعراء من جميع الأمم، والنعم التي تغدقها الديانتان الإسلامية والمسيحية على البشر.

كان اختياراً موقفاً لمواضيع الأحاديث في ظل الأشداق الفاغرة لمجانيق حصن بوفور والممالك المتمنطقين بالخناجر. ونادراً ما كان يصادف في المشرق فرنجي يتقن بطلاقة التعبير بالعربية السورية. واعتز صلاح الدين بمعارف ضيفه الذي استطاع — كما قال — إلحاق عالم ببلاطه لكي يلقيه ساعة يشاء مضمون الدين الإسلامي؛ ولأن السلطان شديد الورع جَمَّ التقوى فقد أحب كثيراً المناظرات المذهبية، وخاصة عندما تكون ممزوجة بالتهديد.

وكما يقول بهاء الدين: «كان يسر صلاح الدين لأول مرة أن يكون محدثه فرنجي واسع الثقافة آسر التصرف»^(١).

خدعة رينو دي ساجيت

وفجأة جثا الكونت الحذق — وقد شجعه ما أحدثه في نفس صلاح الدين من انطباع

مؤاتٍ — على قدمي السلطان وخاطبه بقوله: «مولاي». زاعماً أنه بعد كل ما قدمه من خدمات للفرنجية لم يلاقِ إلا خيبة الأمل، وأنه أقسم على التخلي عن قضية هذا العدد من الجاحدين البرابرة؛ ثم طلب من صلاح الدين أن يعطيه ملاذاً منعزلاً في أحد القصور القريبة من دمشق كي يستطيع أن يقضي بقية حياته مع عائلته في طمأنينة ومتابعة دراساته الأثيرة على قلبه عن القرآن. وعلى هذا الشرط أبدى استعداداه لتسليمه قصر بوفور، والتمس — فضلاً عن ذلك — أن يُمنح مهلة لإحضار أسرته من صور، لأن الفرنجية سوف ينتقمون منها حالما يعلمون بأنه طلب ملجأ من صلاح الدين. ولم يكن السلطان يقوم بمساومة مخادعة، ولذا قبل بأن يستبدل القلعة المهيبة بقصر دمشق ذي بهو داخلي، وبغية استمرار الصداقة بين سكان الوادي وسكان القصر، أكثر صاحبنا رينو من التردد على صلاح الدين، والموضوع كان دائماً هو هو: القرآن. ولم يكن يدري كيف يعبر له عن بالغ غبطته وامتنانه حينما يفكر بأنه سيحيا عما قريب مع أسرته تحت سماء دمشق الساحرة.

اكتشاف المسلمين خدعة دي ساجيت وسوقه أسيراً إلى دمشق

وبينما كان صلاح الدين يعتبر نفسه الأدهى، ويَعده بكل ما يريد، كان رينو يشغل رجاله سرّاً بتقوية تحصينات شقيف أرنون (بوفور)؛ ولكن المسلمين عادوا فانتبهوا إلى أن الرجل يكرهم، وأنهم يضيعون وقتهم في هذه اللباقات غير المعتادة؛ فأمر صلاح الدين بمراقبة الحصن عن كثب، ورغم إحساسه المسبق لم يشأ أن يخلّ بقوانين الضيافة. كان بإمكانه أن يوقف دي ساجيت الذي اعتقد أن نواياه ظلت طي الكتمان، ولذا ما فتى يتردد على معسكر المسلمين. ورفض صلاح الدين خلافاً لرأي أمرائه أن يوقف ضيفه، فكظم غيظه، وكان يبدو كل مرة أكثر تهدياً مما سلف. ولكن اليوم المحدد لاستسلام بوفور كان يقترب؛ وقبل الموعد بمدة قصيرة نزل رينو كعادته من الحصن ليثرثر مع صديقه حول مشاريعه المقدسة، فلاحظ أن صلاح الدين يُبدي شيئاً من الاضطراب إذ كان الأمراء يتهايمسون حوله، فأسرع إلى إنهاء مقابلة لم تعد تعني شيئاً، ودهش لأنهم سمحوا له بالعودة طليقاً إلى قلعته. واعتقد أن شكوكه لم تكن في محلها، وعاد في اليوم المحدد ليعتذر عن عدم إمكانه تسليم القلعة فوراً لأن أسرته لما تغادر صور، ولأن الطرق لم تكن آمنة رأى ضرورياً إرسال عدد من رجاله المسلحين ليأتوا بعائلته ويحموها خلال الرحلة؛ مستمهلًا من جديد تسعة

أشهر فبدا صلاح الدين نافذ الصبر وأنذر رينو بتنفيذ تعهداته، ولإدراك الكونت أن الأمور ساءت طلب أن يسمح له بالذهاب ليأمر بفتح أبواب الموقع، ولكن السلطان الذي لم يكن مستعداً هذه المرة لترك مخاطبه يتحصن داخل الأسوار، ولا أن يدعه يخدعه ويحاربه، أرسل معه حرساً حتى الجسر المتحرك؛ ولكن حين بلوغه إياه وبعد حديث قصير مع أحد ضباطه الذي قدم لاستقباله، ولعلمه أي مصير كان ينتظره، أمر هذا الفرنجي الكبير بإنزال الجسر المتحرك وصرخ برجاله ليستحثهم على المقاومة حتى الموت. ومنعهم من الاستسلام، واعدأ إياهم بأنهم سيتلقون عما قريب نجدة من فرنجة الساحل. وحرّضهم على الاستبسال بالدفاع دونما هوادة. وحين أعيد أمام صلاح الدين قيّد رينو دي ساجيت بالسلاسل، وسبق إلى دمشق سيراً على الأقدام بين هتافات المسلمين.

كان صلاح الدين يستشيط غيظاً، لأنه ظل مسمراً أمام الحصن مدة ثلاثة أشهر طمعاً في أن يحتله دون إراقة دم رجل واحد؛ ولما أضاعه من وقت في مطارحات دينية مع رينو دي ساجيت.

ظهور غي دي لوزينيان على المسرح السياسي من جديد

وظهر غي دي لوزينيان من جديد على المسرح السياسي على رأس سبعة آلاف رجل.

وكان صلاح الدين وعد عند استسلام عسقلان بأن يطلق سراح غي دي لوزينيان، وبعض رفاقه الأسرى، خلال ثمانية أشهر، وفي الأجل المحدّد، وقبل أن يطلقوا سراح ملك القدس السابق حلّفه صلاح الدين على الانجيل بأن يتخلى عن مملكته، وبأن يعود إلى أوروبا، وبأن لا يشهر سيفه أبداً ضد الإسلام. فحلّف؛ وحسب قول الشاعر النورماندي امبرواز، لم يكن صلاح الدين يصدّق حرفاً واحداً من كل الأيمان التي أقسمها دي لوزينيان؛ ولكنه بفضل ما تحلى به من بعد نظر سياسيّ حكيم، كان يؤثر ترك دي لوزينيان للفرنجة في حال رغبتهم بإعادة ملك شرعي غير منازع على القدس، لأن صلاح الدين لم يكن البتة يحترم مزاياه العسكرية، وكان يعلم أن غي سيء الحظ، كما يقول الشاعر المشار إليه، وأنه لم يكن في الحرب قاسياً ولا خيفاً. فهذا المطالب بعرش القدس كان أفضل له من أيّ سواه، ناهيك أنه ما يزال في صور ذلك الخيف كونراد دي مونفراً الطامع بالتاج، والشجاع الذي أمسك بزمام

أمر الفرنجة منذ أن سمح له بأن يغادر سجن طرطوس حراً. وعمل دي لوزينيان لدى مجمع للمطارنة على أن يكون في حلٍّ من يمينه فجمع عدداً من الفرنجة المتفرقين وسار إلى صور لامتلاك المدينة، ولكن كونراد دي مونفرأ أوصد في وجهه الأبواب، وسلّمه كلمة صغيرة. قال له فيها: إنه وكيل فقط لأمرأ فرنجة ما وراء البحار، وأن هؤلاء لم يفوضوه بأن يسلمه صور.

غي دي لوزينيان يتجه صوب عكا بعد طرده من أمام صور

وهكذا تكون كارثة حطين عفت على آثار الماضي، ولم تبق الأسرة المالكة في القدس سوى مجرد ذكرى، وأن حقاً جديداً سيولد مع إعادة احتلال الأرض المقدسة. وهذا مايفسر لنا لماذا كان التركيز دي مونفرأ يصرّح بأنه ليس مديناً بصور إلّا لنفسه؛ بانتظار تحديد الحق على أيدي أمرأ الغرب، أعني الإمبراطور الجرمانى وملكي فرنسا وانكلترا الذين ينتظر قدومهم. وحينما طُرد غي دي لوزينيان من أمام صور، قام بمعركة مجازفة لإعادة احتلال عكا التي حصنها المسلمون تحصيناً جيداً، وكانت لهم فيها حامية قوية. ومع مائتي فارس من فرسان غيوم الثاني ملك صقلية النورماندي، كانوا قد وصلوا إلى طرابلس قبله بوقت قصير، باشر دي لوزينيان أكثر المعارك جنوناً وبطولة في الحرب الصليبية كافة، سالكاً طريقاً يهيمن عليها جميعاً الأيوبيون. وكانت هذه المسيرة من صور التي طرد منها إلى عكا المنبعة ضرباً من التحدي. «فالفرنجة— كما يكتب ابن الأثير في كتابه: (الكامل في التاريخ) امتدوا محاذين شريط الساحل دون أن يزايلوه لاضرباً في السهول، ولا في الصخور، ولا في الممرات، ولا الأرياف الأوسع. وكانت مراكبهم تمخر جارية على خط موازٍ لخط سيرهم، مستعدة لنجدتهم عند وقوع أقلّ حادث، أو لحملهم على ركوب البحر إذا ما اعترضتهم عقبة كأداء»^(٢) وتدل هذه المسيرة بخطى الذئب في قلب الأرض المعادية فيما تدله على جرأة نادرة، وتتصف بالعظمة، ومهما تكن أخطاء غي دي لوزينيان السابقة فادحة فقد أعادته هذه المسيرة أحد كبار الفرنجة. وكثيراً ما يستشهد المسلمون بحجة الرمل التي توقفت عجلة الحظ عن دورانها، وكان غي دي لوزينيان تلك الحبة التي غيرت مجرى الأحداث كما سنرى.

مسيرة دي لوزينيان وبدء الصراع من جديد

عندما علم صلاح الدين بأن النورماندين عبروا— على مسافة نحو ستة عشر كيلو

متراً من عكا — الجسر المقام على القسيمة أو ليونتس، وأنهم اشتبكوا مع بضعة فرسان من المسلمين المكلفين بحماية الجسر وقتلوه، أدرك أن الحرب لم تنته بعد، ولكنه لم يكن بالتأكيد يفكر بأنه خلال السنوات الخمس المتبقية من حياته عليه أن يناضل ويحشد باستمرار قوات جديدة، وأن هذه الحرب ستنتهي من استياء أمرائه الذين ما برحوا منذ عشرين سنة يقاتلون إلى جنبه، والذين نالت من معنوياتهم هذه الحرب ضد الفرنجة نتيجة لانغمارهم في هذا الجهاد الذي يجب على الدوام أن يبدأ من جديد.

كان صلاح الدين يطلع يوماً فيوماً على مسيرة غي دي لوزينيان، والتي يروي بهاء الدين المطلع جيداً على الأحداث: في ٢٦ آب (أوغسطس) ١١٨٩ توقف ملك القدس السابق في عين البصة، الواقعة على بعد ١٢ ميلاً شمالي عكا، وعلى بعد ميلين من البحر. بينما كانت طلائعه تتمركز في الزير على بعد عشرة أميال شمالي عكا على البحر، ولم يرح صلاح الدين أن انتقل بجيشه إلى عكا. وفي ٢٧ آب (أوغسطس) انحدر في وادي الأردن وسلك للطريق المارة بطبرية، ثم اتجه المسلمون نحو الحولة. وفي الصباح التالي بلغوا المينة أو خان المينة، على الشاطئ الشمالي الغربي لبحر الجليل، فبلغهم أن الفرنجة انتهوا إلى أسوار عكا. وفي ٢٩ آب وصل صلاح الدين إلى الخربة على بعد خمسة أميال ونصف الميل إلى الجنوب الشرقي من عكا، حيث اتخذ موقعه وراء الفرنجة، وكانت ميمنته تستند إلى تلي العبادية والبروة، والقلب إلى تل كيسان، وتحتل الميسرة تل الداوك، وتبلغ نهر عكا أو نهر النعمين، بحيث صار المحاصرون محاصرين بدورهم من الشرق والجنوب الشرقي والجنوب (٣).

المواجهة الجديدة أمام أبواب عكا

كانت عكا فيما مضى مدينة بحرية مزدهرة للغاية، ويصفها الجغرافي اليوناني ايتين دي بيزنس قائلاً: إن اليونانيين القدماء أطلقوا عليها هذا الاسم «عكا» لأن هرقل سبق أن لدغته أفعى، فلم يجد الشفاء إلا في هذا المكان الذي دعي عكا اشتقاقاً من الفعل اليوناني الذي يعني شفي، وقد كثر عدد مالكيها؛ إذ انتزعها الخليفة عمر من الروم، وأخذها بلدوين الأول ملك القدس من المسلمين. وحررها صلاح الدين بعد معركة حطين الشهيرة. وهي مبنية على ساحل البحر الأبيض المتوسط غربي سهل فسيح.. وكانت، في الحقبة التي نؤرخ لها مدينة

تجارية مزدحمة بالسكان؛ ومينائها المناسب للإبحار واسع الحفر عميقها. ولها سور مزدوج تسنده أبراج ضخمة من مسافة إلى أخرى، فتجعل منه أحد أمنع المواقع في فلسطين، وكان شكل المدينة شبه مثلث يتسع من الجهة الشرقية، ويضيق من الجهة الغربية، ومن الجنوب إلى الشمال كان ثلث المدينة مغموراً بمياه البحر، أما الميناء المبني عام ٢٥٠ للهجرة على يد أحد سلاطين مصر، فكان يحرسه برج يدعى برج الدّبان، لأنهم كانوا ينظفون هناك أمعاء الذبائح، وكانت رائحتها تجذب الدّبان، وكان شأنه شأن أكثر الموانئ — عهد ذاك — يغلق بسلسلة تحفض وترفع حسب الطلب؛ وكانت خرائب معبد قديم يزعم الفرنجة أنه شيد تكريماً للقديس يوحنا، بينما يذهب المسلمون إلى أنه يخص النبي صالح، وهو يضيف نوعاً من القداسة على هذه المدينة. وإلى الشرق كان يقوم قصر يدعى البرج الملعون، لأنه في ذلك الموقع — كما تذهب أسطورة ظلت رائجة بعض الزمن — صكت الثلاثون من فضة التي باع بها يوحنا سيدة المسيح.

وكان السهل يمتد أربعة فراسخ، ويحده من الجنوب جبل الكرمل الذي اشتهر بسكنى فيثاغورس فيه، ولجوء النبي إيليا إليه؛ ويحده من الشمال جبل شارون أو سلسلة الصوريين، ومن الشرق آخر سفوح جبال الجليل. ويصب نهر البلعوس المسمى نهر الناعمين في البحر قرب المدينة من الشرق.

أمام هذه المدينة، وعلى مدى ثلاث سنوات وجه الإسلام والمسيحية أحدهما إلى الآخر ضربات رهيبة. كانا سيتواجهان في قتال وحشي حيناً، فروسياً آونة أخرى، كانا سيتذابحان وهما يرسلان صيحات الشتائم، ويتهاديان في بعض المناسبات ثلوج لبنان التي تسكن الحميات. كانت مراحل المعارك الضارية ستتناوب مع المشاهد اللطيفة طوال هذه الحرب بين جميع أمم الشرق ومختلف أمم الغرب.

وبدلاً من أن يواجه صلاح الدين في عكا — كما كان يعتقد — بضع مئات من الفرنجة المتعصبين الذين لا يقلقه عددهم وجد نفسه وجهاً لوجه مع ألفي فارس، وثلاثين ألف راجل تقريباً. وكانت قوات فرنجية جديدة تنزل من البحر على الساحل اللبناني، ويعبر خمسمائة مركب مضيق جبل طارق قادمة من أوروبا الشمالية في أول ايلول (سبتمبر) وعليها ١٢٠٠٠ من الدانماركيين والفريزيين. وكان هؤلاء الحلفاء غير المنتظرين — كما يكتب مؤرخ

فرنجي — قوماً أكسبهم مناخهم القاسي سمة خاصة، وقوتهم على ضراوة القتال صفة ثلاثية: القامة العملاقة، والشجاعة الجاحمة، والإيمان المتوهج. وكان يرسو أسطول آخر بقيادة أسقف كنتربري ودوق دي غيز وجاك دافين، وعليه انكليز وفرنسيون متلهفون للنزال.

وجاء حاكم تورنج وألمانه يتبعهم دوق غلدر وروبرت الثاني كونت درو، وتيبو كونت شارتر، وإيتين كونت صانسن، وراول كونت كليرمون، وفيليب أسقف بوفي، وإيرار واندري دي بريان، وغيوم كونت شالون سورسون، وجوفروا دي جوانفيل مستشار شامبانية، وغني دي دمبيار، وأنسيريك دي مونتريال، وغني دي شاتيون سورمان، وأخوه غوشيه الثالث الذي اشتهر فيما بعد باسم القديس بولس. كل فرسان ومشاة شامبانية كانوا أمام عكا، ولا ننسى أن هذه القوات لم تكن تمثل سوى طليعة أنفذاها الغرب اللاتيني، طليعة ستتبعها عمّا قريب جيوش ملكي فرنسا وانكلترا. وكان فريدريك باربروس مايزال زاحفاً مع جرمانيه المائة الألف.

حصار عكا وفكرة إعادة احتلال القدس

وأقنع حاكم تورنج ودوق دي غلور بعيد وصولهما، أقنعا كونراد دي مونفرّا بأن ينسى مؤقتاً خصومته مع غني دي لوزينيان وكذلك اهتماماته الوراثية، وأن ينضم بلا أية نية دفيئة إلى الجميع لكي يسهم صادقاً في إعادة احتلال القدس. فقبل كونراد بعدم التمسك في الوقت الحاضر بترشيح نفسه للتاج. وفي ٢٤ ايلول (سبتمبر) كان هذا الأخير بدوره أمام عكا مع هيكلية واسبتارييه ولومبارديه وبنادقته، وعلى رأسهم أسقفا بيزة، ورافين.

ومن جهته استدعى صلاح الدين حليفه مظفر الدين والملوك المظفر أمير حماة.

حواشي الفصل التاسع عشر

-
- ١- ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٩٧ - ٩٨ .
 - ٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٣٣ .
 - ٣- ابن شداد: النوادر السلطانية ١٠٣ - ١٠٥ .
 - ٤- أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٣ .



الفصل العشرون

ملحمة عكا

الهجوم الإسلامي الأول على الفرنجة

لقد حرر أول هجوم إسلامي قسماً من أسوار عكا جهة برج قلعة الملك حتى باب قراقوش، وبفضل هذه الثغرة في خطوط الفرنجة أمكن تقوية الحامية وتموينها. وفي ١٦ ايلول (سبتمبر) عام ١١٨٩ بدأت مع إشراقة الفجر معركة أكثر جدية، فهاجم صلاح الدين مندفعاً على رأس فرسانه مما بين النهرين، فصمد الفرنجة متحملين ثقل الصدمة بلا تراجع. وحل الظلام، والمعركة ما تزال محتدمة، مشتدة الأوار. وكانت خسائر الجانبين بالغة الفداحة — كما يقول بهاء الدين — « كانت سوق، باع كل واحد فيها نفسه بالجنة. كانت الرؤوس تتساقط كال مطر الغزير. كان السلطان في كل مكان يتوثب بين صفوف العدو لعله يجد فيها نقطة ضعف، فيثير همة رجاله بالتحريض وبالقدوة التي يقدمها هو نفسه غير آبه بالخطر. ولكنه رغم كل شجاعته ومساندة رجاله لم يتمكن من اختراق صفوف العدو»^(١).

انتشار جيش الفرنجة بتشكيل غير قابل للاختراق

واضطر صلاح الدين في اليوم الخامس إلى الانسحاب بعض المسافة لكي يتيح الراحة

لقواته المنهكة، فأنكفأ إلى التلال المحيطة بالمدينة؛ فأخذ الفرنجة بدورهم زمام المبادرة في العمليات. فانتشروا في السهل وأقاموا تشكيلة غير قابل للاختراق، فوضعوا المشاة في القلب والمجنبة والفرسان على جناحيهم.

الصدام الرهيب .. والحرب سجال

وتقدم الفرنجة ببطء ذراعاً فذراعاً، ملتصقاً بعضهم ببعض بتلاحم جعل شهود العيان من المؤرخين العرب يحسبونهم جداراً يتقدم. وأغرقت هذه الموجة الصلبة التماسك المواقع الإسلامية الصغيرة التي صادفتها؛ ولما بلغت ثقل جيش صلاح الدين نشبت مجزرة رهيبة، وعاد الخصمان مساءً كل إلى معسكره والحرب سجال،.. إلا أن صلاح الدين أدرك ذلك اليوم أنه لا ينازل في ساحة هذه المعركة فرساناً من فرنجة سورية أو بورجوازيين قليلي الصمود أمام مماليكه العسكرين المحترفين، وإنما قوات صدام مدربة تدريباً مدهشاً، منضبطة يزيد من قوتها المثل الأعلى الديني الذي يشحن نفوسها. ولما كان الفريقان مصممين على الانتصار مهما كلف الأمر استؤنفت المعركة. وكان غي دي لوزينيان قد تلقى إمدادات جديدة بعد أن توجه نحو عكا على رأس ٢٠٠ رجل؛ فهاهو ذا يرى تحت قيادته ٤٠٠٠ فارس و ٨٠٠٠٠ راجل. وكان فرسان المسلمين أكثر، بيد أن رجالهم أقل.

إحدى كبريات معارك الشرق

ويوم الأربعاء ٢١ شعبان ٥٨٥ للهجرة، الموافق ٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٩ للميلاد، وقعت إحدى أكبر المعارك التي حدثت في المشرق. فترك الفرنجة صفوفهم وانتشروا في السهل من نهر البلعوس حتى البحر، وفي اليوم التالي أحصى كل من الفريقين قتلاه، فكانت الخسائر فادحة، ونتيجة المعركة صفراً سواء بالنسبة لصلاح الدين أو غي دي لوزينيان.

الفرنجة يحكمون الطوق على عكا براً وبحراً

كان قتلى الفرنجة خمسة آلاف، وبلغ نتن رائحة الجثث من النفاذ درجة أخذ فيها الوباء بالانتشار، لكن وجود جثث الفرنجة خدّمهم، لأن المسلمين ابتعدوا بمعسكرهم قليلاً نحو تل

الخروبة فاقردين بذلك اتصاھم بعكا، تفادياً لتلك الرائحة الطاعونية، مما عزز استراتيجياً موقف الفرنجة؛ لأنهم لم يستطيعوا حتى ذلك الوقت تطويق المدينة، على حين تمكنوا الآن أن يعزلوها تماماً، ويحاصروها برّاً وبحراً. «وباشروا حفر الخنادق، مقيمين من التراب المتخلف عن الحفر ستاراً كما لو أنه سور، وفي كل يوم كانت طلائع المسلمين تشن عليهم المعارك — ولكنهم كانوا يتفادون الاشتباك معهم خشية رجوع صلاح الدين قبل أن ينهوا نظام تحصيناتهم»^(٢). كما نقرأ في كتاب الروضتين.

صلاح الدين يحاصر بدوره الفرنجة

وهكذا — وبأن معاً — غدا المسلمون والفرنجة كل منهما محاصراً ومحاصراً، الأولون في عكا والآخرون في المدينة الجديدة التي كانوا ينشعونها للدفاع عن أنفسهم ضد صلاح الدين، لكننا بقي هو وحده محتفظاً بحرية الحركة. وحل فصل الشتاء فغدت العمليات العسكرية مستحيلة.

المجلس الحربي الإسلامي ورأي صلاح الدين بمتابعة القتال حتى النصر

في ١٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٩ عقد صلاح الدين مجلساً حربياً بدا فيه ميالاً لمواصلة القتال دونما هوادة، موضحاً لأمرائه وحلفائه أنه لا ينبغي البتة انتظار عودة الفصل الجميل لسحق الفرنجة الذين سيستقبلون في الربيع — كما تقول المعلومات الأكيدة — امدادات ضخمة. قائلاً:

«بسم الله والحمد لله والصلاة على نبيه محمد. اعلّموا أنّ عدو الله وعدونا دخل ممالكنا وتجرأ على تدنيس أرض الإسلام بأقدامه. ولكننا بفضل الله وإرادته رأينا جناح النصر يلمع مرفرفاً فوقنا، ولم يبق أماننا سوى القليل حتى يكون نصرنا حاسماً. إن الله يأمر أن نوحّد جهودنا من أجل المهجوم الأخير لطرد الكفار من ديارنا ونمحو كلّ آثارهم. تعلمون أننا لا ننتظر مدداً جديداً إلا من الملك العادل الذي لن يلبث حتى يصل على رأس جيش جديد؛ وتعلمون كذلك أنّ كل تأخير هو في صالح الأعداء. إنهم ينتظرون إمدادات منتظمة من أوربا. ويتحينون إقلاعها حالما يمكن السفر بحراً، بعد أن قطعه فصل الشتاء. إنني

مصممٌ — والحالة هذه — على قتالهم، ومع ذلك فليقل كل منكم رأيه صريحاً في قرارنا هذا» (٣).

صلاح الدين يأخذ برأي أمرائه بإرجاء المعركة ضد الفرنجة

وواضح أن الأمراء كانوا منزعين؛ وأن القوات الإسلامية المحيطة بعكا مؤلفة بأكثرها من المجتدين الشبان العرب المتميزين بعمليات الغزو والانتقام أكثر ممّا هم مهيوّن للحملات الطويلة الأمد التي تضعّضهم؛ فالجمود أمام العدو وقضاء الفصول تحت الخيام يبعث في نفوسهم فتور الهمة، ولم يكن يجمع هذه القوات الانسجام والتجرد والجرأة والانضباط التي تسود عادة جيشاً قومياً. وكان أمراء صلاح الدين يزعمون أن خسائرهم أمام عكا أثرت في معنوياتهم؛ وتذرعوا كذلك بحاجة السلطان إلى الراحة ليستعيد صحته التي تأثرت بسنوات الحرب الأخيرة، وأن الأوثية التي تفشت في الجيش الإسلامي بسبب تحلل الجثث، أخذت تفتك كل يوم بعدد جديد من الضحايا، ومن المناسب بالتالي انتظار وصول قوات الملك العادل الذي سيكون لحضوره وآرائه فوائد جمة في الظروف الحرجة الراهنة، وأضافوا.. كما يجب إبلاغ أمراء الشرق الآخرين الذين لم يكونوا حتى الآن أمام عكا كي يحضروا ويشاركوا في هذه الحروب المقدسة (الجهاد). وأنه بمساعدتهم يمكن الصمود أمام الفرنجة حتى لو وصلتهم الإمدادات التي ينتظرونها من الغرب اللاتيني. ورأى صلاح الدين الحصافة في رأي أمرائه، وأن الجيشين المتقابلين يعجز أي منهما عن دحر الآخر، وستكون بينهما الحرب طويلة، منهكة، ودامية. وسيحاول الفرنجة بسيطرته على البحر أن يخضعوا الحامية الإسلامية بالمجاعة، بينما سيكونون هم مستنزفين يحصرهم جيش صلاح الدين، فيما هم يحاصرون المدينة. وهكذا استمرّ حصار عكا الذي بدأ في ايلول (سبتمبر) ١١٨٩ حتى ١٣ تموز (يوليو) ١١٩١، معلق المصير تتنازعه الفرص واحتمالات الحظوظ لكلا الفريقين معاً.

حواشي الفصل العشرون

١- ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١٠٦ - ١١٥.

٢- انتقال معسكر المسلمين إلى تل الخروبة: جاء في كتاب الروضتين نقلاً عن العماد الأصفهاني، قوله:

«وشكونا نتن رائحة تلك الجيف، فحملت على العجل إلى النهر، ليشرب من صديدها أهل الكفر. فحمل أكثر من خمسة آلاف جثة، حملت إلى النار قبل يوم البعثة. وأشير على السلطان بالانتقال إلى الخروبة، عند خيم الأتقال المضروبة. فسار إليها رابع رمضان، وأمر أهل عكا بإغلاق أبوابها، وإحكام أسبائها. فوجد الفرنج بذلك الفرج. وشرعوا في حفر خندق على معسكرهم حوالي عكا من البحر إلى البحر، وأخرجوا ما كان في مراكزهم من آلات الحصر. وفي كل يوم يأتينا البيزكية بخبرهم، وما ظهر من أثرهم. والجد في تعميق الخندق وتتميم محتفرهم، فكان من قضاء الله أننا أغفلناهم، وأمهلناهم بل أهملناهم؛ حتى عمقوا الحفور، ووثقوا من ترابها السور. فكانوا يخندقون ويعمقون. ويعملون من تراب الحفر حولهم سوراً. فعاد نعيمهم بلداً مستوراً معموراً. فملؤوه بالستائر، ومنعوه من الطير الطائر، وبنوه وأسسوه، وستروه وترسوه. ورتبوا عليه رجالاً، ولم يتركوا إليه نواغل مجالاً. وتركوا فيه أبواباً وفروجاً، ليظهروا منها إذا أرادوا خروجاً. ولما فرغوا من هذا الأمر، اشتغلوا بالحصر. وانقطعت الطريق على المسلمين إلى عكا، وبان ضعف رأي الانتقال، فإنه بعدما أصبحك أبكى». (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٦).

٣- المجلس الحربي الذي عقده صلاح الدين ورأيه في متابعة القتال: جاء في كتاب الروضتين.

«وعند انقضاء هذه الوقعة، وسكون ثائرتها. أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى موضع يقال له الخروبة خشية على العسكر من آثار الوقعة، من الوحم وهو موضع قريب من مكان الوقعة إلا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل وضربت له خيمة عند الثقل. وأمر اليزك أن يكون مقيماً في المكان الذي كان نازلاً فيه. واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلع الشهر، ثم أمرهم بالإصغاء إلى كلامه، وكنت من جملة الحاضرين، ثم قال: بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله، اعلموا أن هذا عدو الله وعدوينا وقد وطىء أرض الإسلام، وقد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي من هذا الجمع اليسير، ولابد من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك. وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننظرها سوى الملك العادل، وهو واصل. وهذا

العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر، جاءه مدد عظيم. والرأي كل الرأي عندي مناجزته، فليخبرنا كل منكم بما عنده في ذلك. وكان ذلك في ثالث عشر تشرين الثاني من الشهور الشمسية فأنفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخر العسكر إلى الخروبة. وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح، وترجع نفوسهم إليهم، فقد أخذ منهم التعب، وأستولى على نفوسهم الضجر وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته. والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها. ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل، ونستعيد من شد من العساكر ونجمع الرجال ليقفوا في مقابلة الرجالة. وكان بالسلطان رحمه الله التياث مزاجي قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه وعاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام، فوقع له ما قالوه ورآه مصلحة، فأقام يصلح مزاجه ويجمع العساكر إلى عاشر رمضان. قال: وكان لما بلغه خبر العدو وقصده عكا جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون، وشاورهم فيما يصنع. وكان رأيهم رحمه الله أن قال المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد وإلا إن نزلوا جعلوا الرجالة سوراً لهم، وحفروا الخنادق، وصعب علينا الوصول إليهم، وخيف على البلد منهم. وكانت إشارة الجماعة أنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعتهم في يوم واحد» (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٦).

الفصل الحادي والعشرون

مصائب الإمبراطور فريدريك باربروس في آسيا الصغرى

صلاح الدين يقرع ناقوس الخطر

في تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٩ علم صلاح الدين من صاحب برید حلب بوصول فريدريك باربروس إلى أبواب بيزنطية على رأس جيشه، فكلف أمين سرّه بهاء الدين أن يشخص إلى بغداد ليطلب من الخليفة العباسي إمدادات فورية، ويشرح له ما يتهدد المسلمين من خطر لو توصل الفرنجة إلى طرد المسلمين من شواطئ البحر المتوسط، مذكراً إياه كذلك بأن الممتلكات الفرنجية في الشرق — حتى بعد المعارك الظافرة في الأرض المقدسة — ما تزال ذات شأن، إذ تمتد حدودها من مياه البحر غرباً حتى المجرى الأعلى لنهر الخابور في الشمال الشرقي من الجزيرة العليا. ويتعبّر آخر، فإن هذه الحدود تمتد، كما يقول ر. توماس في كتابه «تاريخ سورية» من الشرق إلى الغرب على خط يترك حلب جنوباً ويستدير حولها حتى المجرى الأدنى لنهر قويق؛ ومن هناك يغطي أفاميا ويتجه إلى قمم جبال النصيرية الشاهقة حيث تتأخم طرابلس سلسلة جبال مصياف موطن شيخ الجبل الرهيب حتى سفوح لبنان المشرفة على البقاع ونهر الأردن والصحراء العربية التي كانت أطرافها فيما مضى خاضعة لقلعة الكرك الشهيرة. وكانت هذه الأرض البالغة الاتساع تنقسم إلى أربع دول مستقلة: كونتية

الرها، على الفرات التي تجاورها من الشمال مملكتا السلجوقيين وأرمينيا وإمارة انطاكية الممتدة من الأمانوس حتى الجنوب على مسافة بضعة فراسخ من اللاذقية؛ ومملكة القدس التي كانت مازال تشمل قسماً من لبنان، ومن الساحل حتى يافا. وكان صلاح الدين يسمح لنفسه بأن يذكر الخليفة الغافل بأن المسلمين من سكان المدن كانوا يتفاهمون مع الفرنجة. ولا يمكن بالتالي إثارة الحماسة العسكرية في أوساطهم. وأنهم بعد كل شيء غير آبهين لو دفعوا الضريبة إلى أمير عربي أو تركي بدلاً من أن تدفع إلى الكونت الفرنسي. وكان هذا ما يثير قلق وزير بيت مال الخليفة ويشكل نقطة بالغة الحساسية لدى سلطة بغداد هي نقطة الواردات. وفي الوقت ذاته، كان صلاح الدين يستنهض همم الأتابكة الكبار في شمالي سورية الذين هم ممكن قوة السلطة الخليفية، بل يمكن تشبيههم بسلطة البلاط لدى آخر الميروفنجيين. فاستقلالهم كان كاملاً شرط أن يعترفوا بالسيادة الفخرية للخليفة.

وصول الإمدادات الإسلامية إلى عكا

ومنذ آخر شباط ١١٩٠ كان يصل إلى أمام عكا كل من عماد الدين زنكي أمير سنجار، وابن عمه سنجار شاه سيد الجزيرة العليا، وعلاء الدين خرم شاه ابن ملك الموصل تساندهم قوات جديدة أغلبها من المتطوعة، وعدد من «رجال البلاط» الذين كانوا يتقاضون مرتباً، ويعيشون كما يلاحظ الطبري في حولياته على ما يأخذونه من الأعداء، ولم يكونوا من الجند البيروقراطيين الذين يُمضون أوقاتهم وهم يغنون على أنغام القيثارة. أما الخليفة العباسي فوعد بأن يدرس القضايا السياسية التي يفرضها طلب صلاح الدين إليه بالتدخل وانعكاساتها الدولية. صحيح أنه كان الأقوى، ولكن مكاتبه كانت مثله قوية؛ فلم يكن بمستطاعه إعطاء شيء بلا موافقة الوزير (أنأه الثانية) الذي لم يكن في مقدوره أن يغضب عماله من الموظفين المحليين، كأن يغضب القضاة الذين كان من سلطتهم وحدهم أن يصدّقوا شهادة الشهود لإثبات أهلة الشهر ولاسيما شهر رمضان، وهم الذين يفصلون في الدعاوى المدنية والجزائية حسب النصوص الشرعية، وبلا موافقة سيد البريد الذي كان يراقب الجميع حتى الخليفة نفسه. وكان الحفاظ على البريد كما يقول فردينان لوت في كتابه «نهاية-العالم القديم» الخدمة العامة الحقيقية القائمة فعلاً، إذ كانت طرق الدولة الإسلامية في أواخر القرن الثاني عشر تخرق البلاد من العاصمة إلى الأقاليم مع مراكز تبديل الخيول والبغال والجمال

بحيث يستطيع سعاة البريد أن يتوقفوا فيها ليستريحوا ويبدلوا ركائبهم. كان البريد هو الذي يراقب الطرق وأمنها وصيانتها حتى أصبح — شأن نظيره في الإمبراطورية البيزنطية — سمع الخليفة وعظمته السافرة والسرية معاً.

البيزنطيون والجرمان وجهاً لوجه

ومنذ أن ظهر الجرمانيون أمام حدود الإمبراطورية البيزنطية وجه اسحق لانج قوات إلى جميع الأقاليم التي سيعبرونها.

وفي ١٦ آب (اغسطس) ١١٨٩ واجه فريدرىك باربروس أولى مصائبه، فحينما وصل إلى فيليبوبوليس وجد المدينة خالية من سكانها، وتلقى رسالة من الإمبراطور الذي بعد أن رفض الاعتراف له بلقب الإمبراطور الروماني منعه من متابعة رحلته قبل أن يسلم بيزنطية رهائن، وأن يعده بإعطائه نصف الفتوحات التي سيحققها في سورية مقابل الخدمات التي أداها له خلال عبوره آسية الصغرى. ويانتظار جواب فريدرىك باربروس كان إمبراطور بيزنطية يعتذر عن أسره السفراء الجرمانيين القادمين حديثاً إلى بيزنطية، وكيلا يفرق في الجحومات الفاتكة الحد التي نقلوها عن بلاط خليفة بغداد كان بطريك الروم يجز في جلساته الخاصة أن ينعت اللاتين بـ «الكلاب» ويعد الذين يستطيعون أن ينجحهم بين الغسق والشفق، بآلاف الغفرانات دفعة واحدة، وتجاه هذا القدر من الوقاحة كان رد فعل فريدرىك باربروس قاسياً جداً، فأغرق منطقة فيليبوبوليس بالنار والدم، وهدد حتى بالزحف على بيزنطية ليديل من كبرائها ويكشف خداعها. وتنبه لهذا الوعيد ملوك صغار صربيون وبلغار يعرضون عليه مساعدتهم وعصابتهم السلاية، لأنهم كانوا راغبين في انتهاز سانخ الفرصة ليصفوا حساباتهم مع الروم في قضايا شخصية، تفجيراً لبؤر الأحقاد البلقانية الكامنة تحت الرماد. وفي ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) كان الإمبراطور الجرمانى يطلب من ابنه هنري الرابع أن يجمع على عجل أسطولاً في الموانئ الإيطالية المهمة، وأن يحصل من البابا على دعوته لتوجيه الحملة الصليبية ضد الروم. ثم تابع تقدمه فاجتاح أدرنة واستولى على جميع المراكز الواقعة بين بحر إيجه وبون أوكسان، وكان سيجرب حظه مع بيزنطية لو لم يقيم إمبراطورها أخيراً — وقد تملكه الذعر — بالموافقة على كل مطالبه، واعداداً إياه بتأمين تموين جيشه كل آن، وأن ينقله إلى آسية؛ ويدله على أفضل الطرق. وتأكيداً لوعوده هذه وجه

إليه رهائن مختارين لصفاتهم وأطلق سراح سفراء فريديريك باربروس وغمرهم بهداياه . ولأنه كان على عجلة من أمره ليرى الجرمانيين يغادرون بلاده طلب إلى فريديريك باربروس أن يخفف لعبور آسية لمفاجأة صلاح الدين بسرعة المسير .

إمبراطور الجرمان يقرر قضاء فصل الشتاء في تراقية

ولكن فريديريك باربروس أجاب بأن تحديد تاريخ انطلاقه يعود إليه وحده ، وأنه قرر انتظار عودة الفصل الجميل لمتابعة زحفه ؛ ورداً على مبعوث إمبراطور بيزنطية ، الذي كان يعده بعددٍ من السفن يفوق ما يحتاج إليه لعبور البوسفور ، قل لسيدك : «إن الغالب هو الذي يملئ شروطه على المغلوب . فقد استوليت على تراقية وسأنتصرف فيها على هواي ، لقد تقدّم موسم الأمطار ، وسأقضي فيها فصل الشتاء مع جيشي . وسأعاقب سيّدك لأنه أّخر رحلتي عن سوء نيّة . ولكن إذا كان يرغب حقاً في أن أعفو عنه فليعدّ لي في عيد الفصح من السنة القادمة ما يلزم من المراكب للعبور إلى آسية » .

وتركّز فريديريك باربروس في تراقية وطلب مساهمات حربية ضخمة وموئناً لمحاربه ، واختار أدرنة ليعيش فيها مع بلاطه ، وعيّن لقواته مواقعها الشتوية ، وتسلم من بيزنطية مائة وأربعاً وعشرين رهينة ، وأظهر أنّه مكتفٍ بها . وطفق اسحق لانج يتملّق هذا الذي كم تمنى أن يخدعه عما قريب ، ويانتظار ذلك وافق بحماسة على الشروط الأكثر إذلالاً التي فرضها عليه فريديريك باربروس . صحيح أن الرومي سيعرف كيف ينتقم من البربري ، ولكنه في الوقت الراهن لم يكن ليستطيع أن يظهر بغضه ولا أن يمتنع عن تسمينه وإغناؤه ...

مراسلات لانج صلاح الدين وعبور باربروس آسيا الصغرى

وبعد أن عاش فريديريك باربروس عيشة رخية خلال الشتاء عبر إلى آسية الصغرى مع جيشه بين ٢١ و ٣٠ آذار (مارس) ١١٩٠ فاخترق الأناضول البيزنطي على خط وّتر القوس . وعلم صلاح الدين من الروم بما كان يجري في آسية الصغرى لأن اسحق لانج لم يشأ أن يعتقد حليفه بأنّه لم يف بأي من وعوده التي قطعها على نفسه ، أي أن يلحق الضرر بالألمان ؛ ولكي يبرر سلوكه بعث إليه برسالة احتفظ لنا بها بهاء الدين وهي مكتوبة على رق مطوي من ناحية الترض ومقسوم إلى عمودين في الأول منهما النص الأصلي وفي الثاني الترجمة

العربية . وفي الفراغ ما بين العمودين خاتم إمبراطور بيزنطية مطبوعاً ليس بالشمع بل بنوع من الوسام الذهبي يحمل رسم الإمبراطور ويزن خمسة عشر ديناراً ذهباً . وهذه ترجمتها : « اسحق لانج المؤمن بالمسيح الذي هو الله ، المتوج من الله ، الظافر ، الدائم العظمة البالغ القوة الذي لا يُهزم ، إمبراطور الروم ، إلى النيبيل جداً سلطان مصر صلاح الدين .

سلام وصداقة

تلقيت الكتاب المرسل من عظمتك إلى عظمتي ومنه علمت بموت سفيري (هذا السفير الذي وقع معاهدة الصداقة بين صلاح الدين واسحق لانج كان قد مات في سورية على طريق العودة) وألمني أن يلقي نهايته في أرض غريبة . وضروري الآن أن ترسل إليّ جثته ومتاعه لأسلمها إلى أسرته . أما فيما يتعلق بالشائعات المغرضة التي انتشرت حول الجرمان الذين عبروا إمبراطوريتي ، والتي لا بدّ أنها بلغتك فلم تفاجئني لأن أعدائي يسرّهم أن يروجوا الأراجيف التي تخدم نواياهم ، ولكن إذا أردت أن تعلم الحقيقة فسيسرّك أن أحيطك علماً أن هذه الشعوب ذاقت هي من الآلام أكثر مما أذاقته رعاياي ، لقد خسروا مالاً وحيولاً ورجالاً . بعضهم مات من المرض والبؤس ، وبعضهم قتله جنودي ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . وقليلٌ منه استطاعوا الإفلات من القوات التي نشرتها في أقاليمي مزودة بأمر استنزافهم ، لقد بلغ جرمان من الضعف حداً يصعب معه أن يدخلوا ممالكك ، وإذا وصلوا إليها فسيكونون منهكين لدرجة لن يكونوا معها قادرين على إلحاق الأذى بك وعلى مساعدة إخوانهم فرنجة المشرق . ولا أدري لم يبدو أنك تنسى صداقتنا فلا تطلعي على نواياك ومشاريعك ؟ »^(١) .

مخاوف صلاح الدين على حدود سورية الشمالية

لم تكف تأكيدات الرومي لتهدئة مخاوف صلاح الدين ، لأن حدوده الشمالية كانت خالية من القوى الاحتياطية مادامت كل قواته وآلياته الجاهزة تقف أمام عكا أو هي في الطريق إليها . كان يتطلع قلقاً نحو حلب ، مفتاح سورية الشمالية ، ولكن رسالة اسحق لانج تؤكد أن تقدم الجرمان في آسيا الصغرى كان يصطدم يومياً بعقبات جديدة .

باربروس يدخل قونية عاصمة السلجوقيين

وقبل فريدريك باربروس الذي كان يعتقد بأنه وجد في شخص قلع أرسلان حليفاً

موثقاً به، بعداء متنام فيما هو يوغل تقدماً في الأناضول السلجوقي فأبناء سلطان قونية لم يؤيدوا سياسة والدهم بل أخذوا بالاتفاق مع زعماء القبائل التركانية يقطعون الدروب ويضايقون الجرمان ليخرجوهم عن الطرق السالكة، وإحداث الفراغ أمامهم، حتى إن الابن الأكبر قطب الدين ملكشاه الثاني نهد يتحدّى فريدريك باربروس أمام قونية التي أصبحت منذ عام ١٠٧٤ عاصمة الإمبراطورية السلجوقية بعدما كانت فارسية، ومقدونية ورومانية. ورغم أن الكثرة سحقته ولكن هازميه لم يجنوا من انتصارهم أدنى فائدة ببلاد كل مافيا حتى الحصى معادٍ لهم. ومع ذلك ارتاحوا كثيراً إلى انفتاح أبواب قونية في وجوههم ليمضوا فيها بضعة أيام تخففاً من العناء بعد ملحماتهم العائرة الحظ عبر آسية الصغرى، وهذا الاحتلال اللاهث للقرى المقفرة التي لم يكونوا ليجدوا فيها حزمة علف لخيولهم أو قبضة طحين لرجالهم.

مصائب الجرمان في آسيا الصغرى

أجل كان اسحق لانج ينتم لفيليبوبوليس ولإلهانات التي اضطر إلى اجترارها بمرارة، حينما كان هو الأضعف، وهامو ذا الآن مسرور بمصائب فريدريك باربروس. ترى كيف انقلب هذا الجيش اللجب البالغ الثقة في نفسه؟ والذي كان يتصرف أئى حلّ كما لو أنّه في أراضٍ مفتتحة، لقد نفدت مؤنه، تلازمه المجاعة في حله وترحاله... تلك المجاعة الرهيبة، في أرض مجهولة، والتي غدت يوماً عن يوم أكثر استعصاءً وأبلغ إماتة. وطفق الناس يتحدثون في مواخير بيزنطية عن اضطرار الصليبيين الجرمانيين إلى ذبح خيولهم وأكلها. فهل أصبح هؤلاء الفرسان الشجعان، فرسان فريدريك باربروس أشباحاً؟.. أولئك الذين انطلقوا من بعيد، بعيد جداً ليحتلوا القدس. وعبروا أوربا من الشمال إلى الجنوب، والذين شرعوا بعد خمسة أيام في قونية للراحة وإعادة التجمع يتأهبون للانحدار نحو السهوب السورية! ولم يكن لهم من خيار سوى طريقين جدّ سالكين. وإذا ألقينا نظرة على الخريطة رأينا أنه بدءاً من خليج أدنة حتى العراق العربي تتوضّع التضاريس على هيئة قوس ضخمة السلسلة، مكونة من جبال طوروس ومرتفعات كردستان التي ينفتح فيها معبران أحدهما إلى الجنوب، وهو الطريق الملكية القديمة من همدان إلى بابل، والثاني إلى الشمال عبر ثغرة الفرات الأعلى.

وعبر فريدريك باربروس في ٣٠ أيار (مايو) جبال طوروس قرب لازنده، متجهاً نحو

الحدود التركية — الأرمنية في الطوروس الكيليكى، ومن هناك انحدر عبر الإمارة الأرمنية — آنذاك — من إيزوريا الشرقية حتى سلوقية الواقعة تقريباً بمواجهة انطاكية. ومن راتيسبون على الدانوب إلى سلوقية قطع فريدريك باربروس مع مائة ألف جرمانى أكثرهم مشاة مسافة تقارب ألفاً وخمسمائة كيلو متر، مات منهم في الطريق ستون ألفاً، تركت عظامهم في أوربا المذعورة من أقصاها إلى أدناها شاهداً على تلك الحملة الصليبية الثالثة التي ساقى هذا العدد من الرجال من تخوم بافاريا حتى سلطنة قونية.

الجرمان على أبواب سورية والخطر الكبير

وكان عدد الناجين أربعين ألفاً حين أخذوا أهبتهم للعبور إلى سورية، ولكن عددهم ما يزال كبيراً بحيث لم يستقبل بغير اكتراث نبأ ظهورهم من جهة انطاكية. كان اقتراب مثل هذه الكتلة من الرجال — كما يلاحظ السيد ريني غروسيه — يشكل أروع خطر واجهه الإسلام السوري قبل الغزو المغولي.

نهاية باربروس المأساوية وانزياح شبح الخطر الداهم

لكن حادثاً صغيراً واحداً غيّر مجرى الأحداث التاريخية التي هي آنذاك قيد الإعداد. بقضائه على حياة الإمبراطور الجرمانى. كان فريدريك باربروس قبل اتجاّحه نحو أضنة وانطاكية متوقفاً للاستراحة على ضفاف نهر الشليف بعد مسيرة طويلة، يتصبب جسمه عرقاً، فاستحمّ وغرق وهكذا انتهت حياة ذلك الجندي الشجاع الذي قاد وهو في السبعين من عمره جيشاً ضخماً ليعيد احتلال فلسطين. وأشاعت تلك النهاية غير المنتظرة الفرح في كل ديار الإسلام، وأثلج قلب صلاح الدين خاصة لهذا النبأ. ونقل ابن الأثير لنا صدى ذلك قائلاً: «لو لم يظهر الله نعمته للمسلمين بإهلاكه ملك الجرمان ساعة كان يتأهب لعبور الحدود السورية لكنا كتبنا اليوم أن مصر وسورية كانتا فيما مضى ملكاً للإسلام.»^(٢)

هلهلة الجيش الجرمانى وبلوغ قلوه صور

واستندت قيادة القوات الجرمانية لفردريك دي صواب ابن الهوهنزوفن الباسل ولكن نافخ الروح في الصليبية لم يعد هناك ليؤجج حمية رجاله بالقذوة الشخصية. وليس بعيد أن

يكون الجرمان الذين شهدوا تساقط هذا العدد الهائل من رفاقهم قد فتّ في عضدهم تلك المسيرات المنهكة؛ ومهما يكن من أمر فقد همدت فيه روح الشجاعة، وتحرر الجند من الانضباط غير المهادن الذي ما انفك يفرضه عليهم فريدريك باربروس الذي صمد بصلابة حيال الألم رغم سنه المتقدمة. فلم يعودوا — كما كانوا — يتلقون بفخر أوامر رؤسائهم، وأشار المؤرخون العرب أنفسهم إلى أنّ التغيّرات المعنوية التي حلّت بالفرنجة أثّرت في انسجام وقوّة هذه الكتلة من الرجال الذين كان يدعمهم عهد ذاك مثل أعلى عجيب. فكتب العماد «هؤلاء الجرمان المخيفون جداً سابقاً كانوا قد سقطوا إلى أسفل سافلين..» ويضيف قائلاً: «كانوا يستسلمون بيسر حتى إنهم لم يعودوا يساوون ثمناً يذكر في سوق النخاسة»^(٣) فأصبح جيش راتيسبون أشبه مايكون بجماعة يتركها قادتها شيئاً فشيئاً لمصيرها.. فأين هي الآن حماسات الأيام الماضية؟ من لم يزل يتذكر قول القديس برنار الذي كم تمنى لو نظم الإكليروس الصليبية كانتصار للشوب الكهنوتي؟ ووصل جيش فريدريك الراحل أمام انطاكية في حالة بالغة السوء، وقد أصيب بالصميم بخيبة أمل.

وزيادة في مصائبه حلّ به وباء الطاعون، وأرهقته مشاق عبور الحدود السورية. واستقبل أمير انطاكية فريدريك دي صواب العاثر الحظ بحفاوة غامراً إياه بصاحب عبايات الصداقة، لكن زعمت بعض الألسنة الشريرة أنه كم ودّ الاستيلاء على الكنز الحربي الذي كان الجرمان يحملونه معهم، ولو واثته الفرصة لحنق بيديه فريدريك دي صواب المتعطش للقتال في الأرض المقدسة.

ووضع أمير انطاكية أسطولاً تحت تصرف الجيش الجرمانى، وأخيراً حينما وصلوا إلى صور، خفّ كونراد دي مونفرّ لاستقبالهم وقيادتهم إلى معسكر عكا، ولم يكن بقي من هذا الجيش المؤلف من ١٠٠ ٠٠٠ رجل سوى ٧٠٠٠ — ٨٠٠٠ مشاة و ٧٠٠ خيالة.

تأسيس تنظيم الفرسان الاستباريين التوتونيين

ولما وصلوا إلى عكا أراد بضعة سادة من مدينتي بريم ولوبيك — وقد أخذتهم الشفقة على مواطنهم المرضى والجرحى — أن يخففوا من آلامهم فقطعوا أشعة المركب الذي أقلهم إلى الأرض المقدسة واستعملوها خيمة ضخمة استقبلوا فيها المرضى. وانضم إليهم أربعون سيداً

ألمانياً آخرون وأسسوا لرجالهم مستشفى في قلب الخيم الفرنجي؛ وصَفَقَ لغيره هؤلاء الاستبار الأتقياء غي دي لوزنيان وبطريك القدس والأخبار والأمراء الصليبيون الحاضرون. وطلبوا من الدوق فريدريك دي صواب أن يكتب لأخيه هنري دي صواب ملك جرمانيا ليطلب من البابا سلسيتين الثالث أن يكرّس غير هؤلاء الذين أقاموا المستشفى. فقدم هنري الطلب، وصدر عن البابا مرسوم مؤرخ في ١٢ شباط (فبراير) ١١٩١ بتأسيس التنظيم الجديد تحت اسم الاخوة الاستباريين التوتونيين لسيدة صهيون، وهذا هو أصل التنظيم العسكري للفرسان التوتونيين. وفرض عليهم البابا نظام القديس أوغستين والأنظمة الخاصة بالقديس يوحنا. أما الانضباط العسكري فكان انضباط الهيكلين. وقبل أن يلبسوا الرداء (المعطف الأبيض) كان عليهم أن يشبّوا أنهم من أصل نبيل.

تقرير حاكم سميساط الأرمني لصالح الدين عن الجيش الجرمانى

وعلم صلاح الدين أن جيش فريدريك دي صواب غادر انطاكية، ولم تكن تقارير حكام المناطق الحدودية — على الإطلاق — مطمئنة، فأحدها — وقد حفظه لنا بهاء الدين — يبيّن لنا في أية حال وصل الجرمانيون إلى سورية، وقد حملته الأوساط السياسية الإسلامية على محمل الجد أو المناصرة للإسلام. إنه تقرير حاكم أرمني لمنطقة سميساط. وإليكموه: «رسالة من غاثوغيكوس قائد قلعة الروم إلى مولانا وملكنا صلاح الدين السلطان المعظم الذي رفع لواء العدالة والإحسان، حامي الإيمان صلاح الدنيا والدين أمير الإسلام والمسلمين أدام الله سعاده، وزاد عظمته وحفظ حياته وليتوّج آماله أخيراً بالجد السماوي. سلام وطاعة. بعدما غادر فريدريك باربروس مملكته غزا امبراطورية بيزنطية، ولم يرحل عنها إلا بعد أن خضع إمبراطورها للشروط التي فرضها عليه، وقدم له ابنه وأخاه وأشهر قادة بلاطه رهائن، كما حمله على دفع خمسين وزنة من الذهب ومثلها من الفضة، وتجهيز مراكب للإبحار إلى آسيا، ولم يطلق سراح الرهائن إلا بعد أن وصل إلى أراضي قلع أرسلان. وفي الأيام الثلاثة الأولى قدّمت لهم قبائل تركانية خيولاً وأبقاراً وخرفاً وموثناً أخرى، ولكن حبهم الغنيمة جعلهم يسرعون من كل مكان، وشجرت الحرب ما بين تلك القبائل وملك الجرمان. فأنهك طوال ثلاثة وثلاثين يوماً. وحينما اقترب من قونية، جمع قطب الدين ملك شاه الثاني ابن قلع أرسلان قوّاتٍ وبدأ ينازله؛ لكنه هُزم وتعقبه فريدريك باربروس الذي خيّم أمام قونية وهدد

بمهاجمة المدينة . فاحتكم قطب الدين ملك شاه الثاني ثانية للسلاح فأصابته المصيبة ذاتها وارتكب الملك الجرمانى مجزرة رهيبة ودخل قونية شاهراً سيفه . وعرض كل السكان على السيف ، وأمضى خمسة أيام في هذا الموقع ، فطلب قلع أرسلان خلالها حياته وحرته مقابل الاستسلام . وحصل على ذلك . وسلم عشرين من أمرائه رهائن ، وأقنع سلطان قونية فريدريك باربروس بأن يسلك طريق طارس ، وقبل أن يجتاز الأعداء حدود أرمينيا الصغرى ، قرر ابن لاون مختاراً أو مكرهاً أن يرسل إليه مملوكه الحاكم وغيره من القادة أمراً بإياهم سرّاً أن يجعلوا الألمان — إذا أمكن — يسلكون طريق ممالك قلع أرسلان . ولكن حينما جاء هؤلاء السفراء للقيام بمهمتهم ، علموا بأن الأمور تفررت على نحو مختلف تماماً ؛ لأن فريدريك باربروس تقدم على رأس قواته في كيليكية ، وكان يستريح على شاطئ أحد الأنهر ؛ وهناك تناول الطعام ونام . وعندما استيقظ أراد أن يستحم في هذه المياه ولكن ماكاد يخرج حتى سبب له البرد — بمشيئة الله — مرضاً مات منه بعد بضعة أيام .

بعد هذا الحادث هرب سفراء ملك أرمينيا من الجيش وجاؤوا يخبرون ملك أرمينيا بوفاة فريدريك باربروس . عندئذ أوصد هذا الأخير باب القلعة على نفسه وقرر الدفاع ، لكن ابن ملك الألمان أمر بإعادة السفراء إلى معسكره ، وأعلمهم بأن والده لم يقيم بهذه الرحلة إلا ليحج إلى المدينة المقدسة ، وأنه بدوره تولّى القيادة وليس لديه أي هدف آخر . وهو ، بعد أن تحمل كل هذه الآلام ، لن يغفر لملك أرمينيا ، وسيستولي على ممالكه إن أقام بوجهه العقبات ، ولكنه سيعامله كصديق إذا سمح له صادقاً بالمرور ؛ وبالمؤن . وأكرهت هذه التهديدات ملك أرمينيا على توقيع معاهدة تحالف مع ملك الجرمان .

أخيراً عليّ أن أخبرك بأن هذا الأخير يقود جيشاً كبير العدد وحينما استعرض قواته وجد أنه ما يزال لديه اثنان وأربعون ألفاً من الفرسان ، ومن المشاة عدد هو من الضخامة بحيث يستحيل تحديده . إنهم أنواع مختلفة من البشر تحتويهم قاعدة من الانضباط بالغة الصرامة حتى لتوصف بالفظاعة . فمن أجل أقل هفوة يقتل المحارب دون أن يحميه أي شيء من العقاب . واتهم أحد ضباطهم بتجاوز الحدود في معاقبة أحد خدمه ، وأنه مذنب باقتراف القسوة البالغة فحكم عليه القسوس بالإعدام وأعدم فعلاً . هؤلاء الرجال يمتنعون عن أية لذة ، وإذا مارسها أحدهم تحاشاه الآخرون كمجرم ، ويفرضون عليه كفارة . وهم يسلكون هذا

السلوك تحت تأثير الألم الذي أصابهم بفقدانهم بيت المقدس . ومؤكد أن بعضهم نذروا ألا يرتدوا منذ زمن بعيد إلا لباس الحرب ؛ وإن يكن الزعماء يستنكرون هذه الغيرة المبالغ فيها . إن صبرهم على المتاعب والآلام والأشغال يفوق التصور . هذا ما أكتبه إليك عن هؤلاء القوم وسأطلعك — فيما بعد بمشيئة الله — على ما سأطلع عليه من جديد^(٤) . ويتسلم صلاح الدين هذا التقرير ، يدرك المرء أنه لم يكن البتة متفائلاً . ومؤكد لو علم بأنه لن يصل أمام عكا سوى بضعة آلاف من الرجال المرهقين ، لا يتسم لتأثر حليفه البعيد ، ولما كان هو نفسه أخاف أمراءه خلال مجلس الحرب الذي عقده بعد اطلاعه على هذه الرسالة للتشاور في النهج الذي يجدر اتباعه .

حواشي الفصل الحادي والعشرون

١ — رسالة امبراطور الروم إلى صلاح الدين :

قال العماد : « ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافاً واستسعاءً . ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة فيه . وإثمه مستمر على المودة ، راغب في المحبة . ويعتذر عن عبور الملك الألماني ، وإنه قد فجع في طريقه بالألماني . ونال من الشدة ، ونقص العدة ما أضعفه وأوهاه ، وأنه لا يصل إلى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع ، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع . ويموت بما به كاده ، وإنه قد بلغ في أذاه اجتهداه . ويطلب رسولاً يدرك به من السلطان رسولاً . فأجيب في ذلك إلى مراده ، ووقع الاعتداد بما ذكره من اعتاده » .

وقال القاضي ابن شداد : « كان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وكان وصل منه رسول إلى الباب الكريم السلطاني بمرج عيون سنة خمس وثمانين في رجب في جواب رسول كان أنفذه السلطان بعد تقرير القواعد وإقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية فمضى الرسول ، وأقام الخطبة ولقي باحترام عظيم وإكرام زائد . وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر ، وجمعاً من المؤذنين والقراء . وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينية يوماً عظيماً من أيام الإسلام شاهده جمع كبير من التجار ورقي الخطيب المنبر ، واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار ، وأقام الدعوة الإسلامية العباسية ، ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبر بانتظام الحال في ذلك . فأقام مدة . ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه وهو شيخ من أحسن ما يفرض أن يكون من صور المشايخ وعليه زهم الذي يختص بهم ومعه كتاب وتذكرة ، والكتاب مختوم بذهب » . (أبو شامة : كتاب الروضتين ص ١٥٩ — ١٦٠) .

وجاء في كتاب النوادر السلطانية لابن شداد :

رسالة امبراطور الروم إلى صلاح الدين حول عبور ملك الألمان بجيشه بلاده في طريقه إلى بلاد الشام :
من ايساكوس الملك المؤمن بالمسيح الإله ، المتوج من الله المنصور العالمي أبداً ، أفعقوس المدير من الله القاهر الذي لا يغلب ، ضابط الروم بذاته انكليوس ، إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدين :
هذه هي ديباجة الكتاب ، وأما ما فسر من الكتاب فهو كما يلي :

الحية والمودة ، وقد وصل خط نسيبتك الذي أنفذت إلى ملكي وقرأناه وعلمنا منه أن رسولنا توفي . وحزننا حيث إنه توفي في بلد غريب ، وما قدر أن يم كل ما رسم له ملكي ، وأمره أن يتحدث مع نسيبتك ويقول في حضرتك ، ولابد لنسيبتك أن تهتم بإنقاذ رسول إلى ملكي ليعرف ملكي ما بعثت إليك مع رسولي المتوفى . وأما القماش الذي خلفه ووجد بعد موته ينفذ إلى ملكي لتعطيه أولاده وأقاربه . وما أظن أنه سمع نسيبتك أخباراً ردية . وأنه قد سار في بلاد الألمان ، وما هو عجب فإن الأعداء يرجفون بأشياء كذب على قدر أغراضهم ، ولو تشبه أن تسمع الحق فإنهم قد تأذوا وتعبوا أكثر مما آذوا فلاحى بلادى ، وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرحل والرجال ، ومات منهم كثير وقتلوا وتلفوا وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادى ، وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون إلى بلادك ، وإن وصلوا كانوا ضعفاً بعد شدة كثرة ، لا يقدر أن ينفعون جنسهم ولا يضرون نسيبتك . وبعد ذلك كله العجب كيف قد نسيبت الذي بيني وبينك ؟ وكيف ما عرفت للملكي شيئاً من المقاصد والمهمات ؟ ما ربح ملكي من محبتك إلا عداوة الفرنج وجنسهم ، ولابد لنسيبتك ، كما قد كتبت للملكي في كتابك الذي قد أنفذت إلينا من إنقاذ رسول حتى يعرفني جميع ما قد كتبت إليك في القديم من الحديث ويكون ذلك بأسرع ما يمكن ، ولا تحمل على قلبك من محبي الأعداء الذين قد سمعت بهم ، فإن إدارهم على قدر نيتهم وآرائهم . (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٣٢ - ١٣٣) .

٢ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٥٠ .

٣ - جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة تقريراً عن الحالة التي تردى إليها الجيش الألماني بعد وفاة قائده الملك فردريك باربروس غرقاً ، وجلس ابنه مكانه ، ومسيرته إلى الأرض المقدسة على سمت انطاكية ، وتواتر الأخبار عن ضعف قواته ... والتدابير التي اتخذها صلاح الدين لحماية الثغور الشمالية :

« وساروا على سمت انطاكية في فرق ثلاث ، كأنهم من المرض قد نبشوا من أحداث . وأكثرهم حملة عصي وركاب حمر ، وكل بالأرض التي يسلكها غير خبير . ففزع بهم صاحب انطاكية ، وثقلت عليه وطأتهم المفاجية ، وحسن لهم طريق بلاد حلب ، فلم يروا لهم في ذلك الصوب من أرب . وطلب منه الملك قلعة انطاكية لينقل إليها ماله وخزائنه وأثقاله ، فأخلاه له ، وسلمها إليه طمعاً في ماله ، وأموال رجاله . وكان على ما حدسه ، فإنه لم يعد إليها ، واستولى الإبرنسي بانطاكية عليها . وجاءت فرقة منهم ليلاً إلى حصن بغراس ، وظنوا أنه في أيدي أجناسهم الأنجاس . ففتح والي القلعة الباب ، وأخرج الأصحاب ، وتسلم تلك الأموال بأحمالها ، والصناديق بأقفالها ، وأسر منهم وقتل كثير ، وخرج بعد ذلك أهل حلب وجندوها إلى طرقهم ، وفرقوا بين فرقهم ، والتقطوهم من الخمر والغياض . وكان الواحد يستأسر منهم ثلاثة ، ولا يرى من رفقاتهم إغاثة . فهانت الألمانية بعد تلك المهابة في الأنفس ، وباعوهم في الأسواق بالثمان الأبخس . ولما تكامل وصول السالمين إلى انطاكية ، سلكوا إلى طريق طرابلس جبلة واللاذقية ، فخرج عليهم رجالها فقتلوا منهم وأسروا فما وصلوا إلى طرابلس إلا في خوف ، ولم يصف ممن جاء مع الملك غير ألف . وجأؤا إلى النازلين على عكا ففرقوا في لجهم ، وخمدوا في وجههم ، ثم هلكوا على عكا بعد انقضاء مدة ، وانقضاء شدة . بتاريخ ثاني عشر ذي الحجة سنة ست وثمانين . »

وقال القاضي ابن شداد : « مرض ولد ملك الألمان الذي قام مقامه مرضاً عظيماً ، وأقام بموضع يسمى التينات من بلاد لافون ، وأقام معه خمسة وعشرون فارساً وأربعون دابة . وجهازه عسكري نحو أنطاكية حتى يقطعوا

الطريق، ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم، ثم إنَّ الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغراس ومقدمها كند عظيم عندهم، وإنَّ عسكر بغراس مع قلته أخذ منهم مائتي رجل نبهاً وقهراً. وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم، والمرض الشديد، وقلة الخيل والظهر والعدد والآلات. ولما اتصل هذا الخبر بالنواب في البلاد الإسلامية، أنفذوا إليهم عسكراً يكشفون أخبارهم، فوقع العسكر على جمع عظيم، قد خرجوا لطلب العلوفة، فأغاروا عليهم وقتلوا وأسروا زهاء خمسمائة نفس. ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ويقول هم عدد كثير لكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة. قال: ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم، فعبر منهم جمع عظيم. ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رشحاً إلا النادر، فسألتهم عن ذلك، فقالوا: أقمنا بمرج وخم أياماً، وقلت أزودنا وأحطابنا، فأوقدنا معظم عددنا، ومات منا خلق عظيم، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها. ومات الكند الذي وصل إلى أنطاكية وطمع لافون فيهم، حتى عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تأخر معه. ولم تنزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض. قال: ولما تحقق السلطان وصول ملك الألمان إلى بلاد لافون وقربه من البلاد الإسلامية، جمع أمراء دولته وأرباب الآراء، وشاورهم فيما يصنع، فاتفق الرأي على أن العسكر يسير بعضه إلى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العدو الواصل، وأن يقيم هو رحمه الله على منازلة العدو المقابل بباقي العسكر المنصور. فكان أول من سار صاحب منيج ناصر الدين بن تقي الدين، ثم عز الدين بن المقدّم صاحب كفر طاب وبارزين وغيرها، ثم مجد الدين صاحب شيزر، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب. وسار إلى دمشق ولده الأفضل لمرض عرض له. وكذا بدر الدين شحنة دمشق. ثم سار الملك الظاهر إلى حلب لإيالة الطريق وكشف الأخطار وحفظ ما يليه من البلاد. وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد وتدبير أمر العدو والمحتجز. (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٥٦—١٥٧).

٤ — صورة كتاب الكاغيكوس الأرمني

ولقد وصل إلى السلطان — رحمه الله — كتاب من الكاغيكوس، وهو مقدّم الأرمن، وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات. (هذه ترجمته).

«كتاب الداعي المخلص الكاغيكوس: مما أطلع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الإيمان، رافع علم العدل والإحسان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، أدام الله إقباله، وضاعف جلاله، وصان مهجته وكأله، وبلغه نهاية آماله، بعظمته وجلاله: من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره، وذلك: أنه أول ما خرج من دياره، ودخل بلاد الهنكر غصباً، وغضب ملك الهنكر بالإذعان والدخول تحت طاعته، وأخذ من ماله ورجاله ما اختار، ثم إنه دخل أرض مقدّم الروم، وفتح البلاد، ونهبها، وأقام بها وأخلاها، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه، وأخذ رهائنه: ولده وأخاه وأربعين نفرًا من خلصائه، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً وخمسين قنطاراً فضة، وثياب أطلس مبلغاً عظيماً، واغتصب المراكب، وعاد بها إلى هذا الجانب، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان، وردّ الرهائن، وبقي سائراً ثلاثة أيام، وترك الأوج يلقونه بالأغنام والأبقار والخيل والبضائع، فتدخلهم الطمع، وجمعوا جميعاً من جميع البلاد، ووقع القتال بين التركان وبينه، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوماً وهو سائر ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً، فظفر به ملك الألمان، وكسره كسرة عظيمة، وسار حتى أشرف على قونية، فخرج إليه

جموع عظيمة من المسلمين، فردهم مكسورين، وهاجم قونية بالسيف، وقتل منها عالماً عظيماً من المسلمين والفرس، وأقام بها خمسة أيام، فطلب قليج أرسلان منه الأمان، فأمنه الملك، واستقرّ بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه الملك رهائن، وعشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة، ففعل، وقبل منه. وقبل وصوله إلى هذه البلاد نفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده، وما لقيه في طريقه، وأنه لا بدّ من اجتياز هذه الديار اختياراً أو كرهاً، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك حاتم، وصحبته ما سأل، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه. وكانت الوصية معهم أن يحرفوه على بلاد قليج أرسلان إن أمكن، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب، وعرفوا الأموال، أبى الانحراف، ثم كثر عليه العساكر والجموع، ونزل على شطّ بعض الأنهار، فأكل خبزاً ونام ساعة، وانبته، فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد، فمكث أياماً قلائل ومات. وأما لافون (ابن لاون) فكان سائراً يلقي الملك، فلما جرى هذا المجرى، هرب الرسل من العسكر، وتقدموا إليه، وأخبروه في الحال، فدخل في حرب حصونه واحتفى هناك.

وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه إلى قصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه واستقرت القاعدة وبلغه هرب رسل ابن لاون فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال: إن أبي كان شيخاً كبيراً وماقصده هذه الديار إلا لأجل حج بيت المقدس، وأنا الذي دبرت الملك وعانيت المشاق في هذه الطريق فمن أطاعني وإلا قصدت دياره. واستعطف ابن لاون واقتضى الحال الاجتماع ضرورة وبالجملة فهو في عدد كثير.

ولقد عرض عسكره فكان اثنين وأربعين مجحفجاً وأما الرجالة فما يحصى عددهم، وهم أجناس متفاوتة على قصد عظيم وخذ في أمرهم وسياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة.

ولقد بلغهم عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه، فاجتمعت القسوس للحكم فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه، وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم. فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه وقد حرّموا الملاذ على أنفسهم حتى إن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجره وعزروه كل ذلك كان حزناً على البيت المقدس.

ولقد صبح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة، وحرّموا ما حل ولم يلبسوا إلا الحديد، حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك، وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب في حال عظيم. طالع المملوك بالحال وما يتجدد بعد يطالع به إن شاء الله تعالى. . .

هذا كتاب الكاغيكوس ومعنى هذا اللفظ الخليفة، واسمه بركري كوز ابن باسيل. (ابن شداد— النوار السلطانية ص ١٢٤ — ١٢٦).

ولقد أرسل صلاح الدين رسالة إلى الديوان العزيز حول قرب وصول ملك الألمان بجيشه، والدعوة التي أطلقها للجهاد فريضة على كل مسلم، لإبعاد هذا الخطر القادم؛ وهي بقلم العماد الأصفهاني:

وقد وصل الخبر بالدهية الدهياء، والغمة الغماء، والنكبة النكباء، والشدة الدماء، والليلة الليلاء، وهي أن ملك الألمان، ومعه ملوك الفرنجية وحشودها وقوامصها وكنودها، وأحزاب الشيطان وجنودها، وألوية الأتواء وبنودها وصل جاراً على السماء ذيول قتامة، مجرياً في الأرض سيول طامة، ثائراً بأطلابه لطلاب ثاره، سائراً بخيله ورجاه كالسيل إلى قراره.

وانه في عصائب صلبان في عصبيتها متصلة، وأسراح سراحين على سرح الإسلام متوثبة، وأنه في مئين الألوف الآلاف للمنون، وأقطاب الإعطاب الدائرة لدوائر سوئها رحي الحرب الزبون، وقد أوقدوا للبشر شراراً، وأضرمو للشرك الداعي إلى النار ناراً، فإن حسرتهم على (قيامتهم) دائمة، وقيامتهم قائمة، والموت يدعوهم إلى المقبرة التي يدعوها، والآجال تليهم لماياهم التي يدعوها. وكان خبر وصوله متداولاً على السنة الأراجيف، وتشيعه أعداء الله من قبل للترهيب والتخويف. واستعدت العساكر الإسلامية للتوجه إلى بلاد الروم في الربيع ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجموع باتفاق الجميع، وانتظر ورود خبر صحيح، ويقين بأمر صريح، حتى إذا صح الخبر سار العسكر ثم انقطعت الأخبار، وتمادى الانتظار، ومضت شهور الربيع آذار ونيسان وأيار.

وكانت كتب سلطان الروم قليج أرسلان وأولاده، ورسلمهم متواصلة بما ينبيء عن التعاضد، ويبني أمر انوفاء والوفاق على التعاون والتعاقد، وهم بإثماء ما يصح عندهم وأعدون، ويزعمون أنهم في رد الواردين وإردائهم مساعدون. فأخلف ذلك الوعد وضيع ذلك العهد، ووصلت كتبهم بغتة في هذا الأوان بما تأخر به الخبر من العيان.

وقالوا: إنهم قد توسطوا بلاد الإسلام، وإنهم على قصد الشام، ثم ورد الخبر بأنهم صالحوهم وصانعوسه وأخلوا لهم الطريق وواعدوهم، ووسعوا لهم في المضائق، وسعوا في أمن طرقهم من الطوارق، وهذا حادث كثير. وباعث فاجيء فاجع لأهل الحمية في الدين باعث، وناكب لعقود العقول في تعاضم ضرورة، وتفاقم خطره ناكث.

وقد تعين الجهاد على كل مسلم، وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم، والاهتمام يدفعه من أفرض المهام وأهم الفروض، والخدام منفرد في حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالتهوض وهو واثق بأن بركات النار العزيزة تدركه ولا تتركه، وأن الذي يستبعد من النصر القريب يتسق ويتسع به سلكه ومسلكه إن شاء الله تعالى. (العماد الأصفهاني الفتح القسي: ٣٩٧-٣٩٨) ..

الفصل الثاني والعشرون

صراع الشرق والغرب أمام أسوار عكا^(١)

معسكر المسلمين أمام عكا

من سورية: على امتداد أطرافها قدم الباعة، ليتركزوا في المعسكر الإسلامي الذي لم يكن أقل اتساعاً ولا أدنى أهمية من المعسكر الفرنجي، ويجب أن نورد هنا ما كتبه مؤلف عربي هو ابن الأثير، بهذا الصدد: «في وسط المعسكر، كانت ساحة واسعة فيها مائة وأربعون دكاناً ييطار. ولاحظت أن مطبخاً واحداً كان يحتوي على ثمانية وعشرين قدراً ضخمة يتسع كلٌّ منها لنعجة كاملة. وأحصيت بنفسي عدد الدكاكين المسجلة لدى مفتش السوق، وعددت منها حتى سبعة آلاف. ونلاحظ أن هذه الدكاكين لا تشبه دكاكيننا في المدن. فواحدة من التي في المعسكر قد تساوي مائة من دكاكيننا. كانت كلها محشوة جداً بالبضائع، وقد سمعت أنه لما غيّر صلاح الدين مكان معسكره وانتقل إلى تل الخروبة، ومع قصر تلك المسافة تكلف بائع سمن واحد سبعين ديناراً ذهبياً للانتقال. أما سوق الملابس القديمة منها والجديدة فشيء يفوق حد التصور. كان في المعسكر أكثر من ألف حوض استحمام يقوم على الخدمة فيها زنوج، كل اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة، كانت الأحواض من الخرف ويحيطونها بالأسيجة والحصير كيلا يرى المستحمون من الخارج. كان الاستحمام بدرهم».

ياله من معسكر سعيد هذا الذي يستطيع فيه الإنسان أن يستحم ويتدلك ويتعطر بعد المعركة. وبالمقابل، كان الفرنجة منشغلين خلال أوقات فراغهم الإجبارية أن يدعموا تحصيناتهم تحت أسوار المدينة التي يحاصرونها. وقد أتاح لهم تأخر وصول صلاح الدين إلى الخربة أن يكسبوا بعض الأرض، وأن يشددوا قبضتهم، فركزوا أكثر قوتهم شرق البرج الملعون حتى البحر، فبنوا في هذه الجهة ثلاثة أبراج أعلى من السور يتسع كل منها، لخمسمائة رجل موزعين على ثلاثة طوابق. في أحد هذا الطوابق كانت الكباش المخصصة لاختراق التحصينات، وزود الثاني بمجانيق ضخمة تعمل بدقة على حبال ونوابض حجارة كبيرة وأقواساً ضخمة يستخدمها رماثها كما تستخدم المدفعية الآن. وكانوا يرمون بها بقضبان حديدية محمّاة حتى الاحمرار وغير ذلك من القذائف.

العلاقات بين المسلمين والفرنجة فترة وقف القتال

ولكن مع توقف الجيشين عن القتال بعد معركة ٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٩، قامت شيئاً فشيئاً علاقات حسن جوار بين المسلمين والفرنجة، وكانت تقام ميادين الطراد بين المعسكرين العدوين، حيث كان بعضهم يتحدّى بعضهم الآخر برماح مرفوعة عالياً.

وكان الأمراء المسلمون والقادة الفرنجة في آن معاً يحتفون بالمنتصر في هذه المعارك الأنيقة ويتبادل الفريقان الأحاديث ويغنون ويرقصون، بمثل الصدق الذي كان يسودهم حينما يقرر بعضهم بطون بعضهم الآخر^(٢).

كونراد دي مونفراً يستأنف الأعمال الحربية بحراً

وعاد الربيع. هذا الربيع اللبناني الذي يتبدى في شهر آذار (مارس) في ضوء عذب غسلته الأمطار الأخيرة؛ ومع مجيء الطقس الجيد بدا سهل عكا أكثر اتساعاً بحيث تنتصب سفوح جبال الجليل بصورة أشد وضوحاً تحت سماء مدهشة. واستأنف كونراد دي مونفراً المدافع الباسل عن صور العمليات الحربية، فهاجم بخمسين مركباً معدة لنقل الرجال والمؤن أسطولاً مصرياً أتى مدداً للحامية الإسلامية في عكا؛ وتحولت هذه المعركة لصالح المسلمين الذين استولوا على عددٍ من السفن الفرنجية، وأغرقوا الكثير منها.

الفرنجة يهاجمون المسلمين في سهل عكا

وفي هذا الوقت من حزيران (يونيو) ١١٩٠ تلقى صلاح الدين رسالة غاثو غيفوس قائد قلعة الروم الذي ينبئه — كما قلنا — بوصول صليبي فريديك باربروس. وبما أن صلاح الدين أرسل قسماً من قواته إلى الشمال لينع عليه طريق حلب على الأقل، انتهزها الفرنجة فرصة ليهاجموا في سهل عكا قائد ميمنة المسلمين الملك العادل؛ وكان يمكن أن يصاب بأذى لو لم يحدث الجوع أثره في المعسكر الفرنجي.

الزنكيون يشاركون الأيوبيين الجهاد ضد الفرنجة

وكانت الإمدادات تتدفق على المعسكرين، إذ وصل عماد الدين زنكي في حزيران (يونيو) ١١٩٠، وتبعه بعد قليل سنجار شاه، وعلاء الدين خرم شاه وزين الدين الذين كانوا عائدتين من شمال سورية، حيث تمكنوا من قطع طريق حلب على قوات فريديك دي صواب؛ وهكذا انضم الأتابكة الزنكيون أخيراً إلى الجهاد ناسين مؤقتاً ما كان بينهم وبين صلاح الدين من عدااء.

صلاح الدين يستنجد عبثاً سلطان المغرب

وفي بحثه عن نقاط ارتكاز جديدة للإسلام المناضل الذي لم يكن يمكن لأي أحد فيه أن يبدو غير مكترث لهذه المعركة الضخمة ضد الفرنجة، أرسل صلاح الدين سفيراً إلى مراکش لطلب المدد من السلطان الموحد أبي يوسف يعقوب المنصور. واستقبلت هذه السفارة في مراکش في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١١٩١، وعبثاً طلبت من السلطان المغربي إرسال أسطول لينازع الأسطول الإيطالي السيادة على البحر المتوسط. وقد كتب صلاح الدين: «على المغرب الإسلامي أن يساعد المسلمين أكثر مما يساعد الغرب المسيحي المسيحيين»^(٣).

وصول إمدادات جديدة للفرنجة وسيطرتهم على البحر

وكان هنري دي تروا كونت شمبانية ينزل عند الفرنجة مع عشرة آلاف رجل في ٢٧ تموز (يوليو) ١١٩٠، ومثله تيبو دي بلوا، وإيتين دي سانسير وجان دي بونتيني، وراؤول دي

كلير مونت وبرنار دي سان فاليري وإيرار دي شاسني ، وروبير دي بوف ، وآلان دي فونتناي وغوتيه دارزليير وغي دي شاتودان وجان دارسيس الخ..» لقد وصلوا في الوقت المناسب ، لأن الفرنجة المرهقين جوعاً كانوا على وشك التفاوض مع صلاح الدين ، وقد جعلت هذه الإمدادات إضافة إلى إمدادات فريدريك دي صواب الفرنجة يضيقون الحصار على عكا ، التي كانت حاميتها بقيادة قائدين باسليين : حاكم المدينة بهاء الدين قراقوش ، والكردى حسام الدين أبي الهيجا . وشدد الحصار على المدينة من جهة البر ، بينما كانت سابقاً تتصل بقوات صلاح الدين التي كانت بدورها تحاصر الفرنجة الذين يحاصرون عكا .

وأعادت المراكب الإيطالية التي أقلت الكونت دي شبنانية وقواته المبادرة في البحر إلى أيدي الفرنجة .

اتصال المسلمين بالمدينة المحاصرة

وعمد السلطان للاتصال بالمدينة المحاصرة بوساطة سباحين ماهرين كانوا يرقون تحت السفن العدوّة الساذّة منفذ الميناء ، وكذلك بوساطة حمام الزاجل الذي استعمل لأول مرة أمام عكا لأغراض حرية ، لنقل الأوامر والأخبار ، تلك الأخبار التي لم تكن مطمئنة لصلاح الدين ، فلمؤن كادت تنفذ في عكا . وكل ما استطاع السلطان إيصاله إلى المحاصرين مركب فيه أربعمئة كيس من القمح والحمص . وصغار-جاموس البقاع السوداء ، والبصل والخربز والخرف ذات الألية العريضة المدهنة التي يحبها جداً العارفون من أهالي الصحراء .

والخدعة التي استعملها في هذه المسألة كانت بدائية ، ولكنها نجحت نجاحاً باهراً . لقد رفع على صارية سفينته علم الصليبيين وألبس البحارة لباس الفرنجة ، وكانوا غير مُلتحين لأنهم كانوا من المسيحيين المتعاونين .

فريدريك دي صواب والمعركة الفاشلة

وئارت ثائرة فريدريك دي صواب الذي وصل منذ قليل مع بقايا جيشه أي سبعة آلاف راجل من المائة الألف الذين غادروا راتيسبون وأنحى باللائمة على البارونات المتمركزين أمام عكا لجمودهم وما انصرفوا إليه من ألعاب ، وكانت رغبته عارمة في القتال ، تغلّي في عروقه

الحماسة فهاجم المماليك الذين تركهم صلاح الدين على التلال المجاورة، ولكن هذه المعركة لم تنته لصالحه.

تحركات الفرنجة وصدامهم مع المسلمين جنوبي عكا

كان الجميع يرون أن حصار عكا قد طال أكثر مما ينبغي فالحاجة والأزمة الرهيبة تحت هذا المناخ الشديد الحرارة تنهك الجيش الفرنجي، الذي أخذت معنوياته تنهار. وكف القادة عن محاولة الحفاظ على روح القتال لدى رجالهم؛ لأن هؤلاء باتوا يحلمون خصوصاً بالأغذية التي قد يجدونها في معسكر الأعداء. وليس بميتة جميلة تحملهم إلى الخلد. ولما أدركت النبال الفرنجية أن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر حتى أمطار الشتاء، قررت فتح ممر لها براً، والذهاب للتمون من جهة حيفا مهما كلف الأمر. وقد بدت لها الفرصة مؤاتية إذ علمت أن صلاح الدين سقط مريض الحمى، وعليه أن يلزم خيمته.

وفي ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٩٠ تحرك الجيش الفرنجي مع انبلاج الفجر، وكان الرجال من الالتصاق أحدهم بالآخر بحيث كانوا يؤلفون جداراً صفيقاً ينطلق منه برّد من السهام، تتقدمهم الراية الكبرى للصليبية، محمولة على عربة في قلب الجيش وكان الفرنجة يتبعون في سيرهم ضفة نهر البلعوس؛ ولكون صلاح الدين لا يستطيع اعتلاء صهوة جواده فقد أمر بأن يحمل على محفة حتى تل الخروبة حيث كان يرى تحركات الأعداء، ويوجه قواته حسب الظروف. تقدم الجيش الفرنجي من الشمال إلى الجنوب من جوار تل العبادية حتى الداعوق. ومن الداعوق إلى تل الكرذانة؛ ونبع نهر الناعمين الذي لم يكن سوى المستنقع الصغير المسمى بصّة الكرذانة إلى الشرق من تلك البلدة وفي رأس الماء فيما يدعى اليوم عيون البص على بعد ستة أميال جنوبي عكا حدث الصدام الرهيب؛ وبعد ثلاثة أيام من المعارك الضارية أسقط في يد الفرنجة فلم يتمكنوا من اختراق صفوف المسلمين. وبكى صلاح الدين حرقة وألماً إذ لم يكن يستطيع الوقوف، بله قدرته على أن يكون وسط رجاله في المعركة ومشاركتهم مخاطر القتال كما يقول بهاء الدين فامر أولاده الذين كانوا يسهرون على راحته بأن يشاركوا في المعركة قائلاً لهم: «إن واجبهم يقتضي أن يكونوا قدوة للمسلمين، هذه القدوة التي سيكونها هو ذاته لولا مرضه. وأضاف إن على أولاده أن يتذكروا على الدوام واجبهم بأن يكونوا في المواقع الأكثر تعرضاً للأخطار»^(٤).

نكوص الفرنجة على أعقابهم ومعركة جسر الداعوق الدامية

صحيح أن أياً من الفريقين المتحاربين لم يحرز في أية لحظة نجاحاً حاسماً، ولكن يمكن القول إن الفرنجة هُزموا ماداموا قد اضطروا إلى النكوص على أعقابهم بعد ما تحملوا معركة دامية جديدة قرب جسر الداعوق دون أن يُبادوا، ولكن سقط قتلى من الفرنجة والمسلمين من الكثرة بحيث عمّ نتن رائحة الجثث كل المنطقة.

حسن معاملة صلاح الدين أسرى الفرنجة

يقول المؤرخون العرب: إنه حينما عرض الأسرى على صلاح الدين رأى بينهم شيخاً طاعناً في السن فسأله من أي بلاد هو، فأجاب: إن بلادي بعيدة للغاية حتى إنك لتحتاج إلى عدة أشهر لتصل إليها. فقال له صلاح الدين: مادام الأمر كذلك: فما الذي حملك على الحضور إلى هذه البلاد لتقاتلني؟ فأجاب الشيخ الفرنسي: ماجئت إلّا طمعاً في الحج إلى الأرض المقدسة. فأمر صلاح الدين بإطلاق سراحه قائلاً له: اذهب وتمم الحج الذي عزمته عليه فأنت حرّ. ثم اذهب لقضاء ما تبقى من أيام عمرك بين أهلك. وأوصل إلى أولادك هذه العلامات على إحساني. ودفع إليه عدداً من الهدايا وحصاناً ينقله إلى معسكر الفرنجة^(٥)

ولم تكن معاملة صلاح الدين لساثر الأسرى أقل أرحمة من هذه المعاملة، فقد كان بينهم قائد القوات الفرنسية وخازنها، فأواهما في خيمة مجاورة لخيمته وعاملهما كضيفين قبل أن يرسلهما إلى دمشق. وطلب إليه أحد صغار أولاده أن يسمح له بقطع رؤوس بعض أسرى الفرنجة، معتقداً بذلك أنه يثبت جدارته بدينه، فأجابه صلاح الدين: معاذ الله أن أسمح بفظاعة لا جدوى وراءها. لا أريد أن يتعود أولادي أن يتخذوا من إراقة الدم الإنساني لعبة لهم. وهم لا يعرفون قيمة الدم الإنساني ماداموا لم يدركوا بعد الفرق بين المسلم وغير المسلم^(٦).

وكان أحد جنوده قد اختطف طفلاً عمره ثلاثة أشهر من يدي والدته، فبحث صلاح الدين عن الطفل وأعادته إلى أمه^(٧).

مصاعب المسلمين والفرنجة أمام أسوار عكا

قلنا : إن أمراء صلاح الدين بدؤوا يتعبون من البقاء الدائم على صهوات جيادهم ، وكان رجالهم يتدمرون من ضالة الغنائم التي يحصلون عليها جرّاء هذه الحملة العسكرية ، أمام عكا . وعاد الشتاء فأصبحت أية عملية حربية مستحيلة . ومن جديد اشتدت الفاقة في معسكر الفرنجة ، فكان كيس القمح يساوي ستة وتسعين ديناراً صورياً ، ولم يكن هذا المبلغ ميسوراً للجميع دفعه ، ورغم هذا الثمن الباهظ نفد مخزون القمح ، وشرع الفرنجة يلجأون جيادهم ليأكلوا . وحينما أتوا على الجياد كلها طفقوا يغفلون سروج الجلد والجلود العتيقة التي كانت تباع بسعر غالٍ جداً .

فشل الصليبية الألمانية

وكانت الأوثمة تتلو الأوثمة فصار يموت ممثا رجل يومياً من المرض والحرمان . فابن فريدريك باربروس الذي عانى الكثير من الصعاب ليصل بجيشه أمام عكا مات في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١١٩١ متأثراً بحمى خبيثة ، ولم ينج من الألمان سوى ثلة ضئيلة العدد في تلك المذبحة التي هلك فيها حوالي مائة ألف رجل على الطريق الطويلة من رايتسبون إلى عكا ، فغادرت هذه الأماكن الموحشة منكفئة في طريق العودة إلى بلادها . وهكذا فشلت الصليبية الألمانية .

تنازع الفرنجة على ملكية القدس

من جهة ثانية ، كانت مصاعب جديدة تبرز بين أهم قادة الفرنجة : من سيكون ملك القدس ؟ غي دي لوزينيان أو كونراد دي مونفرّا ؟ كان قسم من الجيش يميل إلى الأول ، ملك القدس ، وانحاز شطر غيره إلى الثاني ، مركزيز صور . وكان النزاع ، بعد المجاعة والطاعون يستقر في مخيم الفرنجة . من سيكون ملك القدس ؟ وغدت هذه القضية همّ البارونات الذين كانوا يزجون أوقات فراغهم في وزن فُرص كل من المرشحين اللذين لم يعد في مستطاعهما أن يرى أحدهما الآخر ، وكانا يميكان الشبكة البالغة التعقيد لتدابيرهما المتعلقة بالملكة الشّبح التي فقدتها الأول ، ويعجز الثاني عن استردادها . من سيكون ملك القدس ؟ وكان حدث غير مرتقب إطلافاً سيفجّر الدول .

ففي تشرين الأول (أكتوبر) ١١٩٠ قضت الملكة سيبيل وبناتها ضحايا الطاعون .
وبما أن غي دي لوزينيان لم يكن يركن في المطالبة بحقه بالعرش إلا عن سبيل زوجته فقد استند
خصوصه إلى أنه حسب الدستور الأورشليمي يعود التاج إلى شقيقتها الأميرة إيزابيل ، والأخت
الثانية للملك آموري الأول . وبما أن الملكة سيبيل ماتت فيجب أن تؤول أرضها إلى أختها
إيزابيل ، وكان زوج إيزابيل أونفرو الرابع دي تورون ، وقد سبق له أن رفض مملكة القدس حينما
عرضت عليه عام ١١٨٦ ، وربما أن هذا الأخير لا شعبية له ولم يكن بالتالي يتحلى بأية من
الفضائل المؤهلة لرجل يريد أن يحكم ، ولو فعل للاكنه الألسن تسليّة في المشاحنات التي
كانت تدور سرّاً في ظل مملكة مفقودة . إذاً والحالة هذه ، كان الخصم الأشد رهبة لغي دي
لوزينيان هو كرنراد دي مونفراً ؛ الوحيد الذي كان على الأقل يملك شيئاً ما إذا احتاط للأمر ،
فاحتفظ بصور التي ما يزال هو حاكمها ، ولكونه لا يستطيع أن يدعي أي حق في التاج فقد
التف أنصاره حول العقبة فعملوا على إبطال زواج إيزابيل باونفرو الرابع دي تورون ليزوجوها
كونراد دي مونفراً ؛ وهكذا فإن إيزابيل وارثة عرش القدس المعترف بها شرعاً تورث التاج
بدورها شرعاً مركز صور الذي يصبح بذلك المطالب الشرعي ، ملغياً من الحساب نهائياً ،
غي دي لوزينيان . وهكذا تزوج كونراد دي مونفراً إيزابيل لأن زوجته الأولى ما برحت تعيش
في بيزنطية .

وبعد احتفالات العرس أذاع في الفرنجة بأنه أصبح ملك القدس ، مما يعني توليه قيادة
الجيش . واحتج غي دي لوزينيان وأنصاره على هذا الغضب . وزعم الهيكليون أنه مادام غي
دي لوزينيان كُرس علناً ملكاً في المدينة المقدسة على يد هيراقليوس ؛ فما زالت حقوقه قائمة
لا تُمس .

ومن جهة ثانية ، كان أسقف بوفي شأنه شأن بقية العناصر الفرنسية يتمسكون
بمونفراً ، وأعلن أسقف كنتربري الموجود في عكا ، والعناصر الأنكلو — نورمانديّة اختياريهم
غي ، ولدرجة حاول فيها الأسقف — ولكن عبثاً — أن يعارض طلاق أونفرو دي تورون من
إيزابيل ، هكذا ويهدف الاستئثار بالمملكة الشهب ، وما اعتوره من المنازعات السلاليّة أضعف
الجيش الفرنجي وألف القادة والجنود عصابات مستقلة حسب اختياراتهم ، وتبدلت الشتائم ،
وجرت مشاجرات ، وتفاقت الأمور لدرجة اقترح معها المفكرون البعيدو النظر — إدراكاً

منهم لدهم خطر هذا النزاع — هدنة بين الخصمين ، وأخذوا وعداً بأن يقبلوا حلاً لهذا النزاع — بحكم ريكاردوس قلب الأسد وفيليب أوغست اللذين كانا مبحرين في طريقهما إلى الأرض المقدسة على رأس جيشين لإعادة الاحتلال ، ممّنّي الجميع بمؤن وافرة .

الموقف العسكري قبل وصول قوات الحملة الصليبية الجديدة

ولكي يتمكن من إعادة اللقاء مع جنوده في الربيع ، سرح صلاح الدين قسماً منهم قبل فصل الأمطار . فغادر عماد الدين زنكي ملك سنجار ، وأمير جزيرة ابن عمر معسكر المسلمين في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٩٠ ، وبعدهما بقليل علاء الدين ابن أمير الموصل ، والملك المظفر تقي الدين والملك الظاهر .

ولما كانت مراكب الفرنجة لم تعد تسد ميناء عكا بسبب حالة البحر ، انتهز صلاح الدين الفرصة لتبديل حامية عكا ؛ وفي ١٣ شباط (فبراير) ١١٩١ سمي الأمير سيف الدين علي المشطوب حاكماً للموقع بدلاً من الأمير حسام الدين أبي الهيجا .

والحادث الوحيد الذي يجب أن يشار إليه خلال هذا الشتاء هو فقدان سبع سفن مشحونة مؤناً لحامية عكا الإسلامية ، إذ دهمتها صاعقة وطوّحت بها على صخور الشاطئ . فتحطمت شظايا . كان ذلك هو موقف الجيشين أمام عكا حينما أبحر ملكا فرنسا وانكلترا متجهين نحو الأرض المقدسة .

الفصل الثاني والعشرون

١ — عنوان الفصل الأساسي بالفرنسية: « كان هناك أمام عكا جمع غفير من الشعوب كي تتقاتل، وينظم كل فريق نفسه متنبهاً بحرب طويلة الأمد ».

٢ — عن العلاقات بين المسلمين والفرنجة فترة وقف القتال، يذكر القاضي ابن شداد هذه الطرفة، فيقول: « وكان الرجال يوماً من الطائفتين قد سمعوا من القتال، فقالوا إلى كم نقاتل الكبار وليس للصغار حظ، نريد أن يتصارع صبيان منا ومنكم. فأخرج صبيان من البلد إلى صبيين من الإفرنج، واشتد الحرب بينهم، فوثب أحد الصبيين المسلمين إلى أحد الصبيين الفرنجيين فاخبطه وضرب به الأرض، وقبضه أسيراً، فاشتره بعض الإفرنج بدينارين، وقالوا: « هو أسيرك حقاً » فأخذ الدينارين وأطلقه » (ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٩٢).

٣ — عن إرسال صلاح الدين سفارة إلى سلطان المغرب للمشاركة في جهاد الصليبيين، ثبت هنا ماورد حول هذا الأمر نقلاً عن كتاب الروضتين لأبي شامة:

وثيقة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ (الأمير الأجل الاسفهلار الأصيل العالم المحترم فتمسّ الدين عدة الإسلام جمال الأنام تاج الدولة أمين الملة صفوة الملوك والسلطين شرف الأمراء مقدم الخواص، أدام الله توفيقه، ويسر طريقه، وأنجح مقصده، وأعذب مورده، وحرس مغيبه ومشهده، وأسعد يومه وغده، يستخير الله سبحانه، ويتوجه كيفما يسر الله إلى الجهة الإسلامية المغربية حرس الله جانبها، ونصر كتابها ومراكبها، ويستقر في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم وأشغالهم وأفعالهم، وما يحبونه من القول نزره أو جمه، ومن اللقاء منبسطة أو منقبضة، ومن القعود بمجالسهم مخففة أو مطولة، ومن التحيات المتهاذاة بينهم ما صيغته وما موقعه، وهل هي السنن الدينية أو العوائد الملوكية، ولا يلقاه إلا بما يحبه، ولا يخاطبه إلا بما يسره. والكتاب قد نفذ إليه ولم يختم ليعلم ما خوطب به، والمقصود أن تقص القصص عليه، من أول وصولنا إلى مصر وما أزلنا من البدع بها، وعطلنا من الإلحاد فيها، ووضعنا من المظالم عنها، وإقامة الجمعة، وعقد الجماعة فيها، وغزواتنا التي توصلت إلى بلاد الكفار

من مصر، فكانت مقدمة الملك الشام الإسلامي باجتماع الكلمة علينا، ومقدمة الملك الشام الفرنجي بانقياد المسلمين لنا، واتفاق الملوك المجاورين على طاعتنا، وتفصيل ما جرى لنا مع الفرنج من الغزوات المتقدمة التي جسننا فيها خلال ديارهم، وجعلها الله تعالى مقدمات لما سبق في علمه من أسباب دمارهم، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى، وفتح البيت المقدس وتلك على الإسلام منة الله العظمى، إلى غير ذلك من أخذ الثغور، وافتتاح البلاد، واثخان القتل فيهم والأسر لهم، واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب، وخروج نجاتهم وكثرتها وقوتها ومنعتها وغناها وثروتها ومسارعتها ومبادرتها، وأنه لا يمضي يوم إلا عن قوة تتجدد، وميرة تصل، وأموال واسعة تخرج، ومعونات كثيرة تحمل وإن ثغرنا حصره العدو، وحصرنا نحن العدو، فما تمكن من قتال الثغر، ولا تمكن من قتالنا. ونحند على نفسه عدة خنادق، فما تمكننا من قتاله، وقدم إلى الثغر أبرجة أحرقها أهلهم. وخرج مرتين إلى عسكرنا فكسر العدو أقله، فإنه اغتتم أوقاتاً لم تكن العساكر فيها مجموعة، وارتاد ساعات لم تكن إلا هب فيها مؤخوذة، وأقدم على غرة استيقظت فيها نصره الله لنا، ونخللناه لهم، فقتل الله العدو القتل الدريع، وأوقع به الفتك الشنيع. وانجلت إحدى الحركتين عن عشرين ألف قتيل من الكفار، خرجت أنفسها إلى مصارعها، وهمدت أجسامها في مضاجعها. والعدو وإن حصر الثغر فإنه محصور، ولو أبرز صفحته لكان بإذن الله هو المبور المكسور. وتذكر ما دخل الثغر من أساطيلنا ثلاث مرات وإحراقها لراكبهم وهي الأكثر، ودخولها بالميرة بحكم السيف الأطهر. وإن أمر العدو مع ذلك قد تطاول، وخطبه قد تمدد، ونجدته تتواصل. ومنها ملك الألمان في جموع جماهيرها مجمهرة، وأموال قناطيرها مقنطرة. وإن عساكرنا لو أدركته لما استدرك، ولولا سبقه لها بالدخول إلى أنطاكية لتلف وهلك. وتذكر إن الله قسم طاغية الألمان، وأخذه أخذه فرعونية بالإغراق في نهر الدنيا، الذي هو طريقه إلى الإحراق في نار الآخرة. وإن هذا العدو لو أرسل الله عليه أسطولاً قوياً مستعداً يقطع بحره ويمنع ملكه، لأخذنا العدو إما بالجوع والحصر، أو برز فأخذناه بيد الله تعالى التي بها النصر. فإن كانت الأساطيل بالجانب المغربي ميسره، والعدة منها متوفرة، والرجال في اللقاء فارحه، وللمسير غير كارهه، فالبدار البدار. وأنت أيها الأمير فيها أول من استخار الله وسار، وإن كانت دون الأسطول موانع أما من قلة عدة، أو من شغل هناك بمهمة، أو بمباشرة عدو وما تحصن منه العورة، أو قد لاحت منه الفرصة فالمعونة ما طريقها واحدة، ولا سبيلها مسدودة، ولا أنواعها محصورة، تكون تارة بالرجال، وتارة بالمال، وما رأينا أهلاً لخطابنا، ولا كفواً لانتجادنا، ولا حقوقاً بدعوتنا، ولا ملبياً بنصرتنا، إلا ذلك الجنب، فلم ندعه إلا لواجب عليه وإلى ما هو مستقل به ومطبق له. فقد كانت تتوقع منه همة تقد في الغرب ناراها، ويستطير في الشرق سناها، وتغرس في العدو القصوى شجرتها فينال من في العدو الدنيا جناها، فلا ترضى همة أن يعين الكفر الكفر، ولا يعين الإسلام الإسلام وما اختص بالاستعانة إلا لأن العدو جاره، والجار أقدر على الجار، وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار ولأنه بحر، والنجدة بحرية، ولا غرو أن يجيش البحار البحار (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٧٠ — ١٧١).

٤ — صلاح الدين يطلب من أبنائه أن يكونوا قدوة للمسلمين (راجع ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١٥٠).

٥ — «وصل في أثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون نفرًا من أسارى الفرنج، كانوا قد أخذوا في بيروت، وسُيروا إليه — رحمه الله — فوصلوا في ذلك اليوم إلى ذلك المكان. ولقد شاهدتُ منه رقة قلب ورحمة في ذلك اليوم لم ير أعظم منها — رحمه الله — وذلك أنه كان فيهم شيخ كبير طاعن في السن، لم يبق في فمه ضرس، ولم يبق له قوة إلا مقدار

ما يتحرك بها لا غير ، فقال للترجمان : « سله : ما الذي حملك على المجيء وأنت في هذا السن ؟ وكَم من ههنا إلى بلاده ؟ » فقال : « أما بلادي فبيني وبينها مسيرة عدة أشهر ، وأما مجيئي فأينما كان للحج إلى القيامة . فرق له السلطان — قدس الله روحه — ومن عليه وأطلقه وأعاده راكباً على فرس إلى عسكر العدو . »

٦ — « ولقد طلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير ، فلم يفعل ، فسألته — رحمه الله — عن سبب المنع ، وكنتُ حاجبهم فيما طلبوه ، فقال : « لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدماء ويهون عليهم ذلك ، وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر » ولا يخفى ما في طي ذلك من الرأفة والرحمة للمسلمين — رأف الله به ورحمه — ولما أيس من خروج العدو عاد إلى الخيم في عشية ذلك اليوم ، وهو الأحد عاشر ربيع الأول سنة سبع ، فرحاً مسروراً . (٥ ، ٦ — ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٥٦) .

٧ — قصة الرضيع الذي أعاده صلاح الدين لوالدته :

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، وكان من قضيتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر ، وساروا به حتى أتوا به إلى خيمة السلطان — رحمه الله — وعرضوه عليه ، وكان كل ما يأخذونه يعرضونه عليه ، فيخلع عليهم ويعطيهم ما أخذوه . ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة حتى وصل خبرها إلى ملوكهم ، فقالوا لها : « إنه رحم القلب ، وقد أذنا لك في الخروج إليه ، فاخرجي واطلبيه منه ، فإنه يرد عليك » . فخرجت تستغيث إلى اليك الإسلامي ، فأخبرتهم بواقعها بترجمان كان يترجم عنها ، فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان ، فأثته وهو راكب على تل الخروبة ، وأنا في خدمته وفي خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاءً شديداً ، ومرغت وجهها في التراب ، فسأل عن قصتها ، فأخبروه ، فرق لها ، ودمعت عينه ، وأمر بإحضار الرضيع ، فمضوا فوجدوه قد بيع في السوق ، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري ، وأخذته منه ، ولم يزل واقفاً — رحمه الله عليه — حتى أحضر الطفل ، وسلم إليها ، فأخذته وبكت بكاءً شديداً وضمته إلى صدرها ، والناس ينظرون إليها ويبكون ، وأنا واقف في جملتهم ، فأرضعته ساعة ثم أمر بها ، فحملت على فرس ، وألحقت بمسكرهم مع طفلها . فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر ، اللهم إنك خلقتة رحيماً فارحمه رحمة واسعة من عندك . يا ذا الجلال والإكرام ، فانظر إلى شهادة الأعداء له بالبرقة والكرم والرأفة والرحمة . ومليحة شهدت لها ضرائها والحسن ليس لحقه من ناكسر

(ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٥٨ — ١٥٩) .

الفصل الثالث والعشرون

فيليب أوغست وريكاردوس قلب الأسد في مواجهة صلاح الدين

ريكاردوس قلب الأسد واستعداداته للحملة الصليبية الثالثة

لقد خلف ريكاردوس الأول الملقب «قلب الأسد» سواء لشجاعته أو لقسوته عام ١١٨٩ والده العجوز هنري الثاني على عرش انكلترا؛ لكن اهتمته ألسنة خبيثة مشبعة بدخان المواخير بالإسهام في وفاة أبيه الذي قضى نحبه وهو يلعنه. ومهما يكن من أمر هذا القيل والقال فقد تميزت السنوات الأولى لحكم ريكاردوس بعمليات السلب وبطوفان سخط الملك السريع الغضب، وتضاعفت في سائر أنحاء مملكة البلانتاجنية المحارق والمشانق وغدا ريكاردوس الأول سقّاح اليهود.

ولاحظ قبل أن يبحر إلى الأرض المقدسة أن خزانته الحربية قد بعثرت، فواردات العشر الصلاحيين المشهور الذي سبق لأبيه أن فرضه لدعم الجيش الانكليزي في الحملة الصليبية ضد صلاح الدين نفدت في الحرب التي شنها على انكلترا هنري الثاني ملك فرنسا؛ ولم تكن هذه الحرب سوى المقدمة لحرب المائة سنة. فأثقل ريكاردوس شعبه بالضرائب الباهظة، وباع كل ما يمكن أن يباع بوزنه ذهباً، أعني أنه باع الوظائف الأكثر تفاهة والألقاب والأملاك

العائدة إلى العرش، وكان مستعداً — كما كان يجب أن يقول — حتى لبيع مدينة لندن لو وجد لها شارباً طويلاً باع الثراء، وليس هذا فحسب بل لم يؤفر حتى أحبار مملكته فأجرهم المناصب وحقوق السادة التي رغبوا في امتلاكها بمبالغ طائلة. وعلى سبيل المثال، فإن أسقف دَرهام، وهو أحد الراغبين في الإفادة من استعدادات سيده الطيبة قد توسل — رغم اشتهاره بنعت الشيخ البخيل — صدقات الفقراء المجموعة خلال ممارسته أعماله الأسقفية سبيله لشراء مقاطعة نورثمبرلاند، مما دفع ريكاردوس إلى الجهر بالقول إنه اجترح معجزة بجعله أسقفاً شيخاً كونتاً شاباً. وهكذا حاز ملك انكلترا بما طالته يده بالغش والجريمة والدناءة ماعمر به خزينته، كما استطاع أن يحصل من البابا على صكوك غفران لأولئك الذي نذروا الاشتراك في الحروب الصليبية، مقابل بدل يدفعونه حسب طبقتهم الاجتماعية؛ ويمكن بذلك أن يجهز أسطولاً قوامه مئتا مركب أسند قيادته لكبير الأساقفة جيرار، وبرنارد أسقف بايون. وعيّن للوصاية على العرش خلال فترة غيابه الملكة الأم إيلينور ومستشاره غيوم دي لونشان، ليبحر بعدها إلى فرنسا بهدف التنسيق مع فيليب أوغست ووضع خطط الاستعدادات الأخيرة لسفر الملكين إلى المشرق. وانكسرت عصا الحاج التي تلقاها في تور؛ فاعتبر ذلك المؤمنون بالخرافات فألاً سيئاً، وسافر ريكاردوس إلى فيزلاي ليبارك عصاً أخرى بكل مظاهر التفخيم التي ترافق هذه المراسم. وبانتظار فيليب أوغست الذي سيلحق به في فيزلاي أمضى حياة صاخبة، بلغنا صداها عبر كتابات مؤرخي ذلك العهد، ولم يتردد أحدهم أن يكتب: «إن ملك انكلترا رغم كونه ذا مزاج قاسي، فظ، غير مهادن؛ ورغم ما لطخ به نفسه دوماً وازع من ضمير بكل الجرائم، وانتهك في تعهده قواعد الحياء، واحتقر الدين ورجاله، كان يفرض على نفسه كفارات قاسية، وكثيراً ماذهب وسط فيض من خشوع التقوى، وقد أرخى ذيل قميصه ليرتمي على أقدام الكهنة، يعترف لهم بخطاياهم. ولما لامه فولك كاهن نويي علناً على رذائله حين قال له: إن لديه ثلاث أخوات سيقُذنه إلى جهنم. أجابه ريكاردوس وهو ينتصب واقفاً: في هذه الحال سأعطي الهيكلين كبريائي، والرهبان بخلي، وأحبار مملكتي فسقي. هكذا كان الرجل الذي سيواجهه صلاح الدين.

لقاء عاهلي فرنسا وانكلترا في فيزلاي

ولم يكن ملك فرنسا فيليب أوغست إلى جانب هذا الملك العنيد المستبد سوى مجرد

تلميذ لِسَاحِرٍ رغم مؤامراته للاستيلاء على عرش انكلترا. ولم تكن المصائب العامة التي اعتبرته الغوغاء مسؤولاً عنها سوى هنات تافهة بجانب أعمال عنف البلاتاجيني الدموي. وهذا ما انتهى إليه رأي كاتب سيرة خليفة لويس السابع التي سجلها باللاتينية شعراً في قصائده ذات المقاطع الستة. وبعد أن تعاهد الملكان في فيزلاي على الإخلاص المتبادل في جميع الأحوال، بدا كأنهما لا يريدان الافتراق.

فريكاردوس قلب الأسد الحَذِيق الذي ما انفكت طويته مشحونة على الدوام بسوء النوايا حصّن نفسه ضد كل ما لا يتفق مع تحالف سيكون فيه الكثير من المخدوعين، وفي طليعتهم ملك فرنسا. وبعد العناق ومراسم الاستقبال، بدأ التفكير في السفر إلى الديار المقدسة، وفي أولئك الذين يقاتلون قتال اليائسين على الشاطئ اللبناني، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من مملكة القدس العائرة الحظ. وتلقى فيليب أوغست في كنيسة سان دنيس قبيل السفر العصا والراية الحمراء، لون دير القديس دنيس. وأُناب عنه في إدارة المملكة والدته أديل ابنة تيبو كونت شميانية، وخاله غيوم أسقف رنس.

لقاء الحليفين اللدودين في صقلية

وفي ٤ تموز (يوليو) ١١٩٠ غادر فيليب فيزلاي برفقة ريكاردوس قلب الأسد، وافترق الحليفان في ليون، فسلك ملك فرنسا طريق جنوة، وسيد انكلترا سبيل مرسيلية، متواعدين على اللقاء في مسينة. وحينما اجتمعا من جديد في صقلية استطابا — ولاشك — فيها المناخ، فأَمْضيا ستة أشهر أوْشكا فيها أن يتقاتلا. ولما كان غيوم النورماندي ملك صقلية الذي احتل هذه الجزيرة قد توفي دوغما وارث، اختار الصقليون تنكريد دي ليكسي سيداً لهم. ولما طالب بالعرش هنري السادس إمبراطور الجرمان، فزع تنكريد إلى ملك انكلترا يلتمس عونه، فطلب هذا بدوره مقابل مهمته كسمسار شريف أن تعاد إليه أخته حنة أرملة ملك صقلية الراحل، والمهر الذي أصدقها إياه، وأسطولاً مؤلفاً من مائة سفينة، فأرسل إليه تنكريد المرأة ولكن بلا مال ولا سفن. فخف ريكاردوس قلب الأسد فاستولى — على سبيل الإنذار — على قلعتين وحاصر مسينة، وأخذها عنوة، وعرض قسماً من سكانها على السيف غير آبه بفيليب

أوغست وبلاطه الذين كانوا يحيون حياة ترف في المدينة الفخمة العذبة ؛ ولعدم تكافؤ القوى
المنحني تنكريد صاغراً أمام حاميه الغضوب .

ما الذي حدث حينذاك ؟ فالتاريخ ليس واضحاً هنا ، والآراء متضاربة . فقد اتهمت
الحوليات الانكليزية عاهل فرنسا بالتآمر مع ملك صقلية تنكريد اليكسي على تدمير الجيش
الانكليزي والقضاء على ريكاردوس . أما وجهة النظر الفرنسية فيعرضها لنا ريفورد وغيره ...
ومهما يكن من أمر ، فملكنا فرنسا وانكلترا أوشكا أن يفصلاً نزاعهما بقوة السلاح . ولم تك
العاصفة تنقشع حتى تراكمت غيوم جديدة في جو صقلية النقي . فنحن لم ننسَ بعد أنه قبل
بضع سنوات ، أعلن ملك انكلترا خطوته على أخت فيليب أوغست ، وأنه لم يعلن الحرب
على أبيه إلا لكونه يعتقل الخطيئة في أحد الأقبية الرطبة لسجن من سجون لندن .

ومنذ ذلك الحين ، كانت الفصول تتلو الفصول ولم ينس البلانتاجيني تلك التي كان
يجب أن يتزوجها ، وسأقت له الصدف وحدها في صقلية اسبانية حسناء هي بيرانجير دي
نافار فطلب يدها للزواج . وبلغ النبأ السار مسامع ملك فرنسا فيليب أوغست ، فشرع
بالإهانة اللاحقة بأخته ، واعتبرها إهانة يوجهها آل بلانتاجيني للتاج الفرنسي .. وهكذا
توترت العلاقات كل التوتر بين القائدين الكبارين للحملة الصليبية الثالثة .

وصول ملك فرنسا إلى عكا وانفجار الخلافات الصليبية من جديد

وغادر فيليب أوغست مسينة في ٣٠ آذار (مارس) ١١٩١ . ووصل بعد خمسة
عشر يوماً أمام عكا على رأس ست سفن . فاستقبل بكل حماسة . ولاحظ المسلمون خاصة
أنه كان يحمل معه صقراً أبيض الريش من نوع نادر كثيراً ما كان يزينه ويدلله ، فأفلت منه
ذات يوم ، وحط على سور عكا فأخذه المسلمون وقدموه للسلطان ، ورغب الفرنجة في
استرداده لقاء ألف دينار فرفض السلطان ردّه (كتاب الروضتين) (١) .

وما إن حل فيليب أوغست بمقر قيادته في البرج الملعون ، أي المكان الأكثر تعرضاً
للخطر حتى أمر بالإسراع في عمليات تشديد الحصار الذي مرّ عليه حتى الآن ، حولان
كاملان . وكانت آلات الحرب ترمي المدينة بقذائفها ليل نهار ، وأخذت مواقعها مئات
الكباش ذات الطوابق والسقوف وكذلك الأبراج المتحركة التي يبلغ علوها أربعة أذوار ، مما أثار

ذعر المسلمين وهلعهم. ولكن غي دي لوزينيان — الذي مافتيء يطالب جازماً بعرش القدس — أغضبه إعلان ملك فرنسا — الذي كان يعتمد على تأييده إياه — أنه إلى جانب كونراد دي مونفراً. فأيقظ هذا الخيار في الصف الفرنجي كامن أحقاد سبق أن هدأت. فرفض فريق من القوات التي مازالت متعلقة بقضية غي دي لوزينيان الاعتراف بفيليب أوغست قائداً للجيش الفرنجي أمام عكا. أما غي دي لوزينيان — الذي حالما رأى نفسه مجرداً من حقوقه — فثار على ملك فرنسا وأبحر إلى قبرص برفقة أخيه جوفروا، ورينو دي ساجيت الذي فقد قصر بوفور، وأنفروا الرابع دي تورون، والمعلم الأكبر لتنظيم الهيكليين ابن سيدة الكرك ايتينيت دي ميلي، وتبعه جمع غفير من البارونات الذين مازالوا على ولائهم له.. ذاك الرجل الذي خسر معركة حطين، وفتح أبواب القدس لصالح الدين، وتناول الشراب المثلج والمعطر بالماورد، تحت خيمة المنتصر قبل أن يرى رأس رينو دي شاتيون البائس — الذي جندله صلاح الدين بضربة سيفه — يتدحرج أمامه فخان رفاقه في السلاح ووضع سيفه ودينه في خدمة ملك انكلترا. وماعثم هذا الأخير أن قوم الفائدة التي يمكن أن يجنيها من هذه العملية الممتازة، فقبل أن يتبنّى المزاем السلالية لغني دي لوزينيان الذي أصبح مَحْمِيَّه.

ملك فرنسا يسعى لمفاوضة صلاح الدين

لم يُبدِ ملك فرنسا قلقاً أكثر مما ينبغي لذهاب عامله، إذ تصور أنه سيستطيع الاستيلاء على عكا قبل ظهور سفن البلاتاجيني الأربعين، فيما هو يؤدي اللعبة على طريقته ضد شريكه؛ وسعى للتفاوض مع حامية عكا الإسلامية لكي تستسلم له صلحاً، ورجا صلاح الدين أن يرسل إليه أحد أمرائه لمعرفة كم ديناراً تساوي عكا؟ ولكن صلاح الدين أملى جوابه التالي على رسول ملك فرنسا: «قل لسيدك إنه إذا كان محتاجاً إليّ فليرسل أحد قواده، أما أنا فلا أطلب منه شيئاً، وليس لديّ أي مقترح لأقدمه له». وكان هذا يعني الرفض.

ريكاردوس يستولي على جزيرة قبرص الاستراتيجية

بعد أن احتفل ريكاردوس قلب الأسد بخطوبته في صقلية أبحر أخيراً إلى الديار المقدسة، ولكن ما إن أصبح على مرأى من سواحل المشرق حتى هبّ ريح معاكسة فبعثرت

أسطوله . وجنحت ثلاث من سفنه على متن إحداها خطيبته بيرانجير دي نافار وحاشيتها على شواطئ قبرص الخاضعة لحكم الروم ، وكان يحكمها رجل يدعى اسحق من أسرة آل كومين استقل فيها عن أباطرة بيزنطية المالكين الحقيقيين للجزيرة في عهد أندرونيك ، وظل مستقراً فيها إبان عهد اسحق آخر : هو اسحق لانج . وكان يكنّ للآتين ككل رومي محترم حقداً عنيداً .. ولما جنح البحارة الانكليز على شواطئ جزيرته برفقة الاسبانية بيرانجير دي نافار قيّد النوتية ، وحاول أن يتجاهل صفة الغريقة الجميلة . ولم يستطع ملك انكلترا حيال هذه الإهانة أن يتألم نفسه فسارع إلى إنزال العقاب بالقبرصيّ ، وهبط الجزيرة في ٢٣ أيار (مايو) ١١٩١ ، وقرر مصير اسحق بسرعة ، فأدبل عن عرشه ، وأعلن ريكاردوس قلب الأسد نفسه ملكاً على قبرص مكانه ؛ وبينما كان الشعب يحتفل بتغيير سيده ، انتهز ملك انكلترا هذا الحادث السّفري ليتزوج بيرانجير دي نافار بحضور غي دي لوزنيان وأمير انطاكية وطرابلس والمعلم الأكبر للهيكلين ورينو دي ساجيت ، وشقيق ملك أرمينيا ، والنّبالّة الفرنجية في سورية التي تبعت غي دي لوزنيان ، ونزلت لتوها في قبرص حينما علمت أن ملك انكلترا فيها .

وكان لاحتلال قبرص آثاره الإيجابية على مسيرة الحملة الصليبية الثالثة ، إذ لم يعد الفرنجة المعلقون على الشاطئ السوري أمام عكا يخشون أن يحتجز القبارصة الروم سفنهم ، كما حدث سابقاً ، فضلاً عما كان للجزيرة من مركز هام نظراً لموقعها الاستراتيجي الذي لن يغيب فيما يلي من القرون عن نظر الدبلوماسية البريطانية . وكان بمستطاع السفن الفرنجية أن تتوقف فيها وتموّن . وبعد أن ترك ريكاردوس قلب الأسد حاميةً في قبرص التي تم احتلالها مُصَادَفةً بفضل الرياح ، أبحر باتجاه عكا مع أربعين سفينة نقل . ومَرّت الرحلة بلا حوادث .

وصول الأسطول الانكليزي إلى الشواطئ السورية

وصل الانكليز في مطلع حزيران (يونيو) ١١٩١ إلى الشواطئ السورية . ودمروا في مياه بيروت أكبر سفينة — (بسطة) — كان صلاح الدين قد جهّزها ، وكانت تقل ستمائة وخمسين جندياً وأسلحة ومؤناً مخصصة لحامية عكا — ولم يشأ البحارة المسلمون التخلي عن سفيتهم للانكليز الذين استولوا على جسرهما الأعلى ، وبعد أن أغرقوا إحدى سفنهم بناءً على أمر قائدهم يعقوب الحلبي ، فتحوا بالفؤوس جوانب السفن وتركوا المياه تغمرهم أحياء مع

أسلحتهم ومؤنهم . وكان تدمير هذه السفينة نجاحاً باهراً لريكاردوس قلب الأسد ، لأنه لو وصلت إلى ميناء عكا لما آلت هذه القلعة الحصينة إلى ما آلت إليه . أما السلطان — كما يكتب مؤلف كتاب « الروضتين » — فقد تحمّل المصيبة بشجاعة مؤملاً أن يحتسبها له الله لأنه يدافع عن قضيته . مشيراً بذلك إلى الآية القرآنية : ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ (١١٩/٩) .

ابتهاج الصليبيين برسو الأسطول الانكليزي أمام عكا

وفي ٨ حزيران (يونيو) ١١٩١ أرسى الأسطول الانكليزي أمام عكا . وكان ذلك حدثاً ترددت أصداؤه في الشرق كله . ففي كل مكان ابتهاج الصليبيون ، واستعادوا شجاعتهم ، وأوقد الجيش الفرنجي المشاعل أمام عكا ، واستمرت الصلوات وزعيق الأبواق والكوسات حتى الفجر . ووزع الندامى الشراب في شوارع المعسكر على الكبار والصغار . ولم يشاهد في أي مكان آخر مثل هذا العدد من الشموع والأضواء ، حتى خيل لمعسكر المسلمين — كما يروي امبرواز وبهاء الدين — أن الوادي قد اشتعل . كان الفرنجة يعتقدون أن وصول ملك انكلترا سيحقق لهم من فوره النصر .

استمرار النزاع بين ملكي فرنسا وانكلترا أمام عكا المحاصرة

وخلال الأيام الأولى من حياتهما المشتركة ، ظهر ملكا فرنسا وانكلترا كما لو أنهما صديقان قديمان بالغتا السرور للقائهما بعد طول غياب ، كأنهما نسيا سابق مشاجراتهما وهمومهما السلالية ، وسوء التفاهم المزعج بين البلاطين الذي كان يغذيه بدناءة عملاء ماهرون . ولم يكونا ليستطيعا اللقاء دوغما تبادل العناق الملكي واللياقات المخملية . وكممثلين بارعين ، كان كل منهما يحذر الآخر ، ويبحث عن طريقة للإيقاع به . بينما كانا بحضور البارونات تحت خيمة الاحتفالات أو في المعسكر يظهران كملكي أعظم شعبيين في الدنيا ، ويتظاهران بالحبّة المتبادلة ، إنما يحتاط كل منهما في سريره للضربات التي يمكن أن يكيلها له نذره . ولقد باشر كل منهما قبل المباراة الأخيرة عملاً شخصياً لا يمكن إنكار مرونته . إذ قدم فيليب أوغست ثلاث قطع من العملة الذهبية البيزنطية للصليبيين الذين يتطوعون للخدمة في جيشه ، وأرني ريكاردوس قلب الأسد بوساطة رقباء التجنيد لديه ، فقدم أربع قطع لكل من

يسجل اسمه في جداول الجيش الانكليزي . ويجب ألا يغرب عن بالنا أن كونراد دي مونفراً الذي يدعّمه ملك فرنسا، وغي دي لوزينيان محمي ملك انكلترا كانا مستعدين لدخول الحلبة للدفاع عن حقوقهما في عرش القدس . وانفجرت المأساة : فقد طالب فيليب أوغست استناداً إلى معاهدة فيزلاي التي تنصّ فيما تنصه ، على أن لكل من الشريكين الحق في نصف مايجرزه الشريك الآخر من مكاسب في الأرض المقدسة ، فطالب رفيقه بنصف جزيرة قبرص التي وإن لم تكن في فلسطين فهي واقعة على طريقها . ورفض ريكاردوس التنازل عن شبر واحد من الأرض القبرصية ، وتفادياً للمنازعات المستقبلية باع الجزيرة لأصدقائه الهيكليين بخمسة وعشرين ألف مارك من الفضة ، وحقق الإنكليزي لنفسه صفقة ممتازة ، أمّا تنظيم الهيكليين — رغم فقره الظاهر — فكان بمستطاعه أن يمنح نفسه مملكة قبرص رغم ما حُرّمه أثر سقوط القدس ، من أهم مصادر وارداته ، ناهيك بما دفعه من فدية لعددٍ من الأسرى ، وكذلك مرتبات الجند الذين كانوا يقاتلون تحت رايته .

ويجب أن نلاحظ أيضاً أن فرسان الهيكل كان لهم في قبرص المشاريع ذاتها التي سيحققها الاستباريون في رودس ومالطة ... وأصبح ملك انكلترا بعد بيعه قبرص وقبضه الثمن قادراً على استخدام خيالة القديس جرجس (الليرات الانكليزية الذهبية) ، فكان — بحكم المؤكد — أغنى صليبي على الإطلاق شوهد في أرض المشرق ، وقد عرف كيف يستخدم لأغراضه الشخصية هذا الكنز الذي وضعه بين يديه محض مصادفة الرحلات البحرية . كان ملك فرنسا إزاءه ، وهو الباحث الدائم عن الدوائق ، أشبه بالخادم . فلم تكن خيمته ولا مائدته لتشبه خيمة البلاتانجني ومائدته ، وكان قواده الذين أغراهم عرض أجر أفضل لا يترددون في عبور جسر الإنكليز الذهبي . أمّا الناس العاديون الذين كانوا يؤلفون قوة المشاة ففضلوا تسجيل أنفسهم في جداول ريكاردوس وطبيعي أن غي دي لوزينيان أدرك ارتفاع أسهم خصمه وتضاعفها إذ لعب ورقة ملك انكلترا ، ولم يلبث حزه أن تغلب على حزب خصمه جاذباً إليه المترددين والمؤمنين لتوهم بقضيته مثل البيزيين والفلامانديين وكونت شمبانية والاستباريين ، ولذا زایل دور لباقة السياسي ليتكشف عدوانياً مجاهراً بعدائه ، واتهم ماركيز صور بالخيانة والمروق وطلبه للمبارزة ، فأصيب دي مونفراً بالفجعة ، فتخلى عن عكا ، ولجأ مع أنصاره إلى صور . وكما لو أن هذا القدر من بواعث الصراع لا يكفي لاستمرار المنازعات غير المجدية ، فقد أصيب

كل من فيليب أوغست وريكاردوس قلب الأسد بالحمى بأن معاً، فاتهم كل منهما الآخر بدس السم له، فأُلججت هذه الأخبار صدر صلاح الدين الذي برهن مع ذلك على عظمة نفس مفاجئة، لم يكن أحد يتوقعها في الأوساط الفرنجية في عكا حيث كانت تختمر كل هذه الأحقاد، وتتصادم المصالح، وتحاك المؤمرات. فحينما علم صلاح الدين بأن عدوّه: عدوي السلام والإسلام يرتعدان على سريهما العسكريين من الحمى، أمر بأن ترسل إليهما الفراريج والمرطبات، وبأن يزود يومياً بمعلومات عن تطور حالة الملكين الصحية ونقاتهما؛ وأوقف الفرنجة عمليات الحصار خلال مرض ملكيهما مما أعاد بعض الأمل إلى حامية عكا الإسلامية المُحَبطة بسبب هدم آلات الحصار قسماً من الأسوار بقدر قامته الرجل، وكان الفرنجة يرسلون إلى السلطان بيانات صحية متعددة. ويزعم المؤرخون الشرقيون أن الفرنجة كانوا يسعون لكسب الوقت فكانت بالتالي بياناتهم قليلة الجدوى. ولذلك طلب ملك انكلترا رغم وضعه الأليم مقابلة صلاح الدين، وأهداه صقوراً فخمة حملها معه من وراء البحار. وحسب قول السفير الفرنسي فإن هذه الجوارح التي هي من نوع الصقور أثر فيها مناخ عكا، فغدت هامة النشاط فاقدة الحيوية لدرجة تثير الشفقة، فتساقط ريش حوصلاتها وهزلت من قلة الممارسة، ولهذا فإن ملك انكلترا الذي كان يريد تقديم هذه الجوارح إلى صلاح الدين كان يلتمس منه أن يرسل إليه اثنتي عشرة من الفراخ لتسمين صقوره قبل أن يحملها إليه، وفهم المسلمون أن ريكاردوس قلب الأسد بطلبه هذه الفراخ كان يبغي أن يصنع منها حساءً مقوياً. هذا على الأقل ما يرويه المطلع أبو شامة. ولم يكن ممكناً أن تستمر هذه الألعاب إلى مالا نهاية. فبعد أن اتهم الانكليز فيليب أوغست بخيائته الصليبيين لقاء بضعة أكواب من ثلج لبنان، ردّ الفرنسيون بأن ريكاردوس قلب الأسد بقبوله فراخ صلاح الدين كان متفقاً معه على إثارة خلافات جديدة في المعسكر الفرنسي.

البحث عن صيغة اتفاق جديد بين الفرنجة

وكان لامندوحة من إيجاد حل للنزاع الشاجر بين غي دي لوزينيان وكونراد دي مونفراً فاجتمع الأساقفة الحاضرون وبحثوا عن صيغة اتفاق. فاقترحوا أن يحتفظ غي دي لوزينيان بلقبه كملك للقدس على ألا يدع هذا اللقب لورثته، وعلى أن يصبح كونراد دي مونفراً بعد وفاة غي دي لوزينيان وارثاً تاج القدس. وفضلاً عن ذلك تعهد ملكا فرنسا وانكلترا بتجديد

معاهدة التحالف بينهما علناً وباقتسام ما يحوزانه من المسلمين ؛ وأن يتعاونوا في مقاتلة العدو المشترك كلما قضت الضرورة، ووافق الملكان على قرارات الأساقفة، لاعتقاد كل منهما أن الاتفاق جرى لصالحه. وهكذا — وبناء على رجاء ملك فرنسا — عاد كونراد دي مونفراً ليحتل مكانه بين الصليبيين، وفكروا أنه إذا كان أمام عكا ثلاثمائة ألف من الفرنجة فيهدف بحاربة صلاح الدين لا غير.

الإمدادات الجديدة للمعسكري المسلمين والصليبيين

وأفاد صلاح الدين من خلافات العدو وتردده فأنته إمدادات وفيرة، إذ وصل مجاهد الدين برنقش مع قوات مجموعة ما بين النهرين، وقفّى على أثره علم الدين الكرجي وسيف الدين شكر مع جيش مصري، وكذلك أمراء آخرون يقودون جيوشاً من حوران والموصل. وفي عكا كان قراقوش يحفر خنادق جديدة ويبنى تحصينات مكان التي هدمت. وعاد الصيف أخيراً فأتاح نشاطاً أكبر للقوات المسلحة. فمنذ الأيام الأولى من شهر حزيران (يونيو) ١١٩٠ تضاعفت الهجمات والهجمات المضادة. ووسط هذه المعارك المتواصلة كان من الممكن أن ترى التنظيمات دمار قواتها لولا الإمدادات المحشودة من الصليبيين التي تتدفق من أوروبا، إذ تطوع جمع غفير من الشبان في تنظيمات هيكل القديس يوحنا حين نزولهم على الساحل اللبناني، وأمضوا مدة المستجدين تحت السلاح قبل أن يكرسوا أنفسهم للرهبانية. وهكذا غدا هيكلياً روبرت دي سايلي الذي قاد أسطول ريكاردوس قلب الأسد حال وصوله أمام عكا، واعتبرت الأعمال الكبرى التي اجترحها في كل من اسبانيا وصقلية بديلاً عن فترة الاختبار. وما إن تم قبوله حتى أسندت إليه المسؤوليات الأولى، وبعدها رفع إلى أعلى رتبة في التنظيم. إذ اختير لمنصب المعلم الأكبر الشاغر منذ ثمانية عشر شهراً.

احتدام المعارك بين الفرنجة والمسلمين

وكان يوم ٢ تموز (يوليو) ١١٩١ اليوم الأكثر دموية، فقد استطاع الفرنسيون أن يدمروا جزءاً من البرج الملعون الذي يعد أفضل دفاعات المسلمين، إذ نصب فيليب أوغست إزائه قاذفة حجارة ضخمة تدعى «الجارة الفحلة» فكانت تقذف المدينة بصخور ضخمة؛ ولكن المدافعين ردوا عليها بقذائف لا تقل عنها ضخامة وزهبة؛ دعاها الفرنسيون المشهورون

بروح الدعابة «ابنة عم الفحلة» وإلى جانب «الجارة الفحلة» نصب فيليب أوغست آلات حصار أخرى، وما إن أحدثت الثغرة حتى شن الفرنسيون هجوماً شرساً، ولكن صلاح الدين كان بدوره يقطاً، فطفق يركض جواده من كتيبة إلى كتيبة مثيراً حماسة الجنود للجهاد مطلقاً صرخة التلاحم: «والإسلاماه!» وكلما تشوّفت له عكا الظاهرة بعيداً بين أعمدة الدخان تصور ما يعانيه المحاصرون فيها من آلام، فينقضّ مهاجماً بصورة أشرس دافعاً بقوته أعنف فأعنف في خضم المعمة، حتى هبوط الليل. فكان وهو في قلب المعركة لا يتناول سوى جرعة من دواء بناء على نصيحة طبيبه. ورغم شجاعة رجال فيليب أوغست كانت الغلبة للمسلمين، ففي يوم ٢ تموز (يوليو) ١١٩٠ المشهود تحلى الفرنجة عن أسوار عكا، وكان يمكن أن يتسلقوها لولا الخلاف الناشب بينهم في الوقت المناسب لانقاذ المحاصرين. ففقد الصليبيون في ذلك اليوم آلاف الرجال وأحرقت أفضل آلات حصارهم.

استغاثة المسلمين المحاصرين بعكا بصلاح الدين

ولكن رغم الانتصار كان صلاح الدين يائساً فعشية يوم المعركة هذه وردته رسالة موجزة تقول: «لقد أنهكنا الحرمان حتى أننا سنكون مضطرين—إذا لم تفك عنا الحصار غداً وتنقذنا من قبضة الفرنجة—إلى التسليم بلا شروط، إلا شرطاً واحداً هو إبقاؤنا على قيد الحياة». ولم يتلق المسلمون قط نبأ بمثل هذا السوء. لأن عكا كانت تمتلك جميع وسائل الدفاع التي أتها من الساحل والقدس ودمشق وحلب وحتى من مصر.

وحاول صلاح الدين منذ فجر الغد أن ينجذ عكا، لكن محاولاته ذهبت بديداً لأن مشاة الفرنجة—كما يكتب بهاء الدين—كانوا خلف تحصيناتهم أصلب من حائط؛ وكان عددهم أمام عكا لا يقل عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل. لقد كانت كل الشعوب ممثلة في هذا التجمع الذي ينطبق عليه قول أبي الطيب المتنبي:

تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث إلا التراجم^(٣)

وكان الظماً أشد ما يعانيه المحاصرون، لأن الفرنجة تمكنوا من قطع مياه ساقية كانت تروي المدينة.

ملكا فرنسا وانكلترا يتباحثان سرّاً مع صلاح الدين

وعلم ملك انكلترا أن رسولاً مسلماً تحدّث سرّاً إلى ملك فرنسا فأزعجه ذلك غاية الإزعاج، ودون أن يدري ماذا دار بالضبط بين صلاح الدين وفيليب أوغست بعث رسولاً إلى صلاح الدين يستفسره عن نواياه ..

ولم يكن صلاح الدين ليرفض المفاوضة لو وثق بصدق الملكين الفرنجيين الأكبرين، لكنه كان ينتظر بعض التطورات داخل عكا. وكان ملكا شديدي الحيرة. ولأن الفرنجة فقدوا بدورهم الأمل في نهاية موفقة لهذه المعركة التي تدور بين عالمين لا تنضب مواردهما، فكل المعارك التي خاضوها انتهت حتى الآن بفشل دام. ورغم الجيوش التي وصلت بقيادة ملكي انكلترا وفرنسا لم يستطيعوا تحقيق أية نتيجة إيجابية، وقریباً سيكونون على أبواب شتاء آخر، الشتاء الرابع أمام عكا ولذا سعى كل من ملكي الفرنجة إلى التفاوض مع صلاح الدين، كل منهما في معزل عن الآخر ومن وراء ظهره.

كان ريكاردوس قلب الأسد راغباً بالصلح، وألحّ ووعد بأن يجيء لمقابلة السلطان. وأعدّ هذا الأخير خيمة استقبال فخمة، ولكن عبثاً لأن ملك الانكليز لم يحضر، رغم انتظار صلاح الدين إياه واعتذر له قائلاً: لا تظنّ أني غيرت رأيي في الصلح، ولكن حمى خبيثة شفيت لتوي منها عاودتني فأعاقبتني عن مغادرة خيمتي، ولن أتاخر عن القدوم لمقابلتك حالما أستعيد صحتي .. ماذا حدث بالفعل؟ هل علم فيليب أوغست، رغم بقاء المحادثة سرّية، بأن حليفه يُبيت له خيانات جديدة؟ هذا ممكن للغاية. وأرجعت المقابلة إلى أجل غير مسمى.

فشل محاولة الخروج من عكا

وفي عكا لم تبق حبة قمح واحدة؛ وأدرك صلاح الدين أنه فقد الأمل في إنجاد الحامية الإسلامية، وبعث إليها مع سبّاح ماهر الرسالة التالية: حاولوا أن تخدعوا يقظة أعدائنا، اتفقوا واخرجوا دفعة واحدة تحت جناح الظلام محاذين الشاطئ، وسيغتنم رجالنا فرصة الفوضى التي ستنتجم عن ذلك في مخيم الفرنجة، فيهاجمونهم بسيف واحد أما المدينة فاتركوها بكل ما فيها. واستعد المحاصرون لمغادرة عكا ليلاً، ولكن كلاً منهم كان يريد أن يحمل أشياءه، ويريك نفسه بالصناديق الصغيرة، وطلع النهار قبل أن يتمكن المحاصرون المسلمون من

الخروج، ولم ينجحوا كذلك في الخروج الليلة التالية، لأنَّ السر شاع في الأُرقة وتجاوز الأسوار ويكتب عماد الدين قائلاً: «ولولا ذلك لتحقق الهدف ولسوء الحظ أدرك الفرنجة ما يُدبر في الخفاء، فأحكموا الحراسة على كل منافذ المدينة. لقد أيقظهم اثنان مارقان لجأ إلى مخيمهم وأطلعاهم على ما يدور.»^(٤) وفضلاً عن هذا الفشل فإنَّ خيبات كثيرة أخرى أحزنت صلاح الدين. فقد هرب قائد إحدى كتائب الحرس. ويكتب أمير أربيل: «لقد كان إيمان عدة أمراء ضعيفاً، وقد أعماهم الكفر والفجور فهربوا خائنين المسلمين في النقاط التي كانوا يدافعون عنها.» وتسارعت الأحداث. «ففي ١١ تموز (يوليو) ١١٩١ حمل كل جيش الفرنجة السلاح، وقام بتحركات جماعية» — كما يقول ابن شداد^(٥) — وبدأ الانكлиз، بقيادة الكونت ليسستر، واندريه دي شافيني وهوغ لوبران كونت المارش، والأسقف ساليزبوري الذي كان يسانده فوج من البيزيين بدؤوا الهجوم على ثغرة البرج. وكادوا يستولون عليها عنوة؛ واستمرت المعارك عدة أيام بلا توقف، واضطر المسلمون الذين كانوا يرفضون القتال، إلى الدفاع عن أنفسهم.

صلاح الدين يرفض الموافقة على التسليم وسقوط عكا

ولم تعد عكا قادرة على الصمود. وأخبر حاكمها قراقوش صلاح الدين^(٦) «بأنه يجد نفسه مضطراً إلى الاستسلام خشية أن يغضب الله العلي العظيم بتعريضه للهلاك بحد السيف هذا العدد الكبير من المسلمين الصالحين المحاصرين في عكا. لأنني متضايق من شكاوى النساء والأطفال الذين يموتون جوعاً. لقد جاء فصل الربيع، ولذا أراني مكرهاً على التفاوض مع الفرنجة شرط أن يسمح هؤلاء للمحاصرين بمغادرة المدينة مع منقولاتهم وأغراضهم، وأن يعيدوا لنا المدينة بكل ما فيها مقابل أن تعيد إليهم صليب الصلبوت، وأن تطلق لهم سراح ألف وخمسمائة أسير من جميع الممالك، وأن تدفع لهم مائتي ألف دينار ذهباً فضلاً عن أربعة آلاف تدفع مباشرة إلى كونراد دي مونفرا الذي تولّى مفاوضات الصلح.»^(٧)

ورفض صلاح الدين الموافقة على مثل هذه المعاهدة التي من شأنها أن تقضي على عمله السياسي، فجمع أمراءه، وفيما هم يتشاورون شاهدوا الرايات الفرنجية الكبيرة ترفرف على أسوار عكا، بينما كانت الرايات الإسلامية السوداء والصفراء تختفي عن أسوارها. ويروي

ابن شداد واصفاً ذلك اليوم يوم ١١ تموز (يوليو) ١١٩١ بأنه يشبه في التاريخ يوم حطين الذي سبق فتح القدس: «كان السلطان يناقش مع قواده وأعضاء مجلسه، الشروط التي يمكن أن تحقق مقابل تسليم عكا. كنّا في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الثانية ظهراً. وفجأة ارتفعت ضوضاء صاخبة من جهة الفرنجة وتضاعف ألم المسلمين واكتفى أعقل الحاضرين بالقول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ وامتلاً الجميع رعباً، وضجّ الخيم بالصراخ والبكاء والعيول، وكان كل واحد يشارك في المصيبة الداهية بقدر إيمانه. وكان مشهداً كريهاً عندما شوهد المركيز دي مونفرّا — لعنه الله — يدخل عكا حاملاً الرايات الأربع للملك الفرنجة، فغرز إحداها — مكان الرايات الإسلامية — فوق القلعة والثانية فوق مئذنة الجامع الكبير، والثالثة فوق برج الهيكلين، والأخيرة فوق برج القتال، وكان بالغاً ألم صلاح الدين، فأكثر له من التعازي ورجوته أن يفكر في المستقبل، في مدن الساحل، في القدس، في الوضع الجديد، في التدابير التي يجب اتخاذها لإنقاذ المسلمين الأسرى في عكا، قائلاً له: إذا خسرتنا مدينة فلم نخسر الإسلام»^(٨). وإليك مقطعاً من الرسالة التي وجهها الفاضل أخو صلاح الدين إلى شمس الدولة بن منقذ مندوب السلطان لدى بلاط المغرب: «لقد خسر الفرنجة أمام عكا خمسين ألف رجل. وفقدنا عكا، ولكننا، مع ذلك، لم نفقد شجاعتنا ولم نضعف بسبب المصيبة التي حلت بنا في سبيل الله. لن نتقهقر ولن نغادر. نحن ثابتون على جميع طرق العدو، وخيامنا قرب خيامهم، ولكن ما يلزمنا قبل كل شيء مدد بحري، مدد أسطول مرّاكش. فبوساطته نستعيد كل ما فقدناه ويستعيد جيشنا بأسه. وعلى الأمير حامل رسالتنا هذه، أن ينقل معلوماته عن الوضع القائم وعن الخطر الذي يهدد الإسلام. لينشرها في سائر أرجاء المغرب في الصلاة الجامعة يوم الجمعة. إن الإسلام يتوجه الآن بأنظاره نحو المغرب»^(٩).

نصر الفرنجة الباهظ الثمن

ويعتبر يوم ١٢ تموز (يوليو) ١١٩١ يوم نصر للفرنجة بعد حصار دام حوالي ثلاثة أعوام، ولكنه كان نصراً باهظ الثمن. فقد خسر الفرنجة مائة وعشرين ألف قتيل في الحملة الصليبية الثالثة هذه. فمن ١٢٠٠٠ إسكندنيا في غادروا بلادهم إلى الأرض المقدسة لم يبق إلا مائة رجل قادرين على حمل السلاح. وهلك حوالي مائة ألف جرمانى وإمبراطورهم وابن

إمبراطورهم في الطريق. وقد أصاب هذا الدم المراق أمام عكا أوربا بفقر الدم سنوات عدة. كما أريد قسم من النبالة الفرنسية. وما إن استقر الفرنجة في عكا حتى بدأ الصراع بينهم: فكان ملك الإنكليز يتصرف وكأنه السيد الأوحده. وغرز رايته محار راية الجرمان، فشرع هؤلاء بالإهانة وردوا بأنهم سيدبحون الإنكليز الذين سيصادفونهم في الأسواق.

عودة فيليب أوغست إلى بلاده

ولكن ريكاردوس لم يغير شيئاً من تصرفاته؛ وما كان ليعامل فيليب أوغست إلا كما يعامل تابعه، وليس من شك في أن ملك فرنسا بصناديقه الخاوية وملابسه المهترئة كانت له كل مظاهر الغريب الفقير إلى جانب الإنكليزي طويل باع الثراء، الذي كان بمقدوره أن يشتري بالذهب القبرصي قادة ونبلاء، ناهيك ببعض أمراء المسلمين الخونة. وفضل فيليب أوغست المفجوع، الذي أرقدته نوبة جديدة من الحمى، بله ماورده من أبناء عن تطاير شرر الفوضى في فرنسا، فضل أن يغادر عكا، فسافر إلى صور عند محمية كونراد دي مونفرا، الذي ما برح وقتاً لصديقه المسكين المحبط. وفي هذه المدينة نجاءته بعثة عليية من صلاح الدين للاستفسار عن صحته وليهنئه بانتصاره عليه، وليقدم إليه هدايا تليق بعاهل عظيم. وبعد أن استراح بعض الوقت فكر فيليب أوغست بالأوبة إلى فرنسا. وترك في الأرض المقدسة ألفاً وخمسمائة رجل أوكل قيادتهم إلى دوق بورغونية هوغ الثالث. وتخلّى لمرکز صور عن الجزء الذي حازه من عكا باسم «حصّة الشريك» وأوصى بأن تكون حصّة فرنسا من الفتوحات المقبلة، حسب نصوص معاهدة فيزلاي وعكا، من حق كونراد دي مونفرا الذي سيديرها لحساب ملك فرنسا. وبعد أن سوّى أموره على هذا النحو أبحر في ٢ آب (اغسطس) ١١٩١ إلى إيطاليا، فوصل أسطوله المؤلف من خمس عشرة سفينة نقل إلى برنديزي دونما حوادث. وتلقى، حسب العادة، سعفات الحج من يدي البابا سلسطين الثالث. ولدى رجوعه إلى دياره أعاد تنظيم ماليته وفكر في الطريقة التي يمكنه بها الاستيلاء على الأراضي التي يملكها البلاتاجيني في فرنسا، متظاهراً بنسيان اليمين الذي أقسمه باحترامها وحمايتها من أيّ عدوان، ومنع أي عمل من الأعمال العدائية حتى رجوع ملك انكلترا.

تفرد ملك انكلترا بقيادة الفرنجة

وسفر فيليب خلا الجو لريكاردوس الذي غدا القائد الوحيد للحملة الصليبية الثالثة،

ولم يكن هذا مجرداً من المزايا العسكرية، ولكن صفاته كجندى باسل كان يعطلها قصر نظره السياسي. فقد حسب نفسه — قبل الأوان — في بلاد مفتوحة، ولم يدر في خلده أن الأسلحة — حتى المنتصرة منها — يجب أن تدعمها براعة رجل دولة، وهذا ما كان يفتقده تقريباً البلاتاجيني المتهور. لقد تشاجر مع كونراد دي مونفرّا الاختصاصي في قضايا المشرق، وكان يمكن أن يفيد من نصائحه، وذلك لأن كونراد رفض أن يعترف بسلطة ملك انكلترا على إمارته صور؛ فصادر هذا الأخير ما كان يملكه كونراد في عكا، والذي آل إليه من ملك فرنسا.

بربرية ريكاردوس ومجزرته الشنيعة

واقترف ريكاردوس خطيئة مميتة أخرى ستظل طويلاً تسبب الكراهية للانكليز في الشرق الأدنى، ذلك أنه كان لدى المسلمين — حسب اتفاق تسليم عكا — مهلة ثلاثة أشهر لتنفيذ الشروط^(١٠). ولم يكن صلاح الدين قد وافق عليها، ولكنه انحنى أمام الأمر الواقع، وأصدر أوامره بدفع ثلث الفدية في الموعد المقرر، وأن تسلّم الأعتدة والأسلحة والسفن، وإطلاق سراح أسرى الفرنجة. وكان عليه أن يعيد صليب الصليبيات في أول يوم من الاستحقاق الأول. وفي الموعد المضروب، أرسل ريكاردوس قلب الأسد بعض قواده إلى معسكر صلاح الدين لتسلّم الصليب الذي استعاده المسلمون من بغداد، وتسلّم مائة ألف دينار ذهباً وستمائة أسير فرنجي. فأعلن صلاح الدين أنه بموجب المعاهدة يجب أن يتم بآن معاً تسليم الصليب والذهب والأسرى وإطلاق سراح قسم من سكان المدينة المسلمين المحصورين في حي واحد. فغضب ريكاردوس لأن صلاح الدين ذكره بما عليه أن يفعله. فتصلب في رأيه واشترط أن يتم له الدفع أولاً، لكن صلاح الدين الذي ارتاب في موقفه هذا رفض أن يدفع الفدية قبل أن يرى جماعة من المسلمين على الأقل تغادر المدينة، وظل كل منهما على موقفه، عندها، وعلى سبيل الانتقام اقترف ملك الانكليز فعلة نكراء، إذ أخرج المسلمين رجالاً ونساءً عراة موثقين بالحبال، وعددهم ثلاثة آلاف وأمر — في ٢٠ آب (أغسطس) ١١٩١ في الساعة الرابعة بعد الظهر — مرتزقة الأفاقين بأن يقتلوهم، ويلقوا جثثهم المثل بها في الآبار الواقعة تحت تل العياضة أمام عكا — وعلى مرأى من صلاح الدين الخيم قرب تل كيسان^(١١).

استنكار العالم الإسلامي جريمة عكا

وأثار هذا العمل الهمجي الذي لم يكن له مايسوّغه استنكار العالم الإسلامي وكتب عماد الدين يقول: «لقد رأيت هؤلاء الشهداء، شهداء إيماننا، مجردين عراة في السهل المُحَرِّق. ولكنني لأشك في أن الله سربلهم بثوب السعادة ودعاهم إلى جنة الخلد والمجد الأبدي.» (١٢).

وعند ذاك تصرّف صلاح الدين في الفدية التي كان ينوي دفعها لقواد ملك انكلترا، فقسّمها بين أمرائه وأعاد الأسرى المزمع إطلاق سراحهم إلى مالكيهم القدماء وسلك قسم كبير منهم طريق دمشق. أما صليب الصليب فقد وضعه صلاح الدين في خزانته ليس من قبيل الاحترام، بل بالعكس على سبيل الاحتقار وعدم الاعتبار، لأن امتلاك المسلمين إياه يُعد أكبر مصيبة يمكن أن تحلّ بالفرنجية. وعبثاً قدّم الروم ثم الجورجيون الكثير من الهدايا ووجهوا إلى صلاح الدين الرسل بعد الرسل الذين رفض استقبالهم.. وبقي صليب الصليب بين عفش السلطان.

حواشي الفصل الثالث والعشرون

١ - وصول ملك فرنسا ونهر الباز الذي اصطاده المسلمون .

« وكان قد شاع الخبر بأن ملوك الفرنج واصلون ، وهم حاشدون حافلون . فوصل ملك الفرنسيس قليب في ست بطس عظام ، مملوءة بفوارس ذوي إقدام ، قتلنا ما حمل الماء إلا أهل النار ، وما أجلب للدوابر إلا الدبار . وكان عظيماً عندهم من كبار ملوكهم ينقادون له بحيث إذا حضر حكم على الجميع ، ومازالوا يتواعدونا به حتى قدم . وصحبه من بلاده باز عظيم عنده هائل الخلق أبيض اللون نادر الجنس . وكان يعزه ويحبه حباً عظيماً ، فطار من يده .. حتى سقط على سور عكا فاصطاده أصحابنا وأنفذوه إلى السلطان وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا . قال القاضي ابن شداد : ولقد رأيته وهو يضرب إلى البياض ، مشرق اللون مارأيت بازياً أحسن منه . قال العماد : وكان مع هذا الملك باز أشهب ، كأنه عند إرساله نار تتلهب . فقارقه يوم وصوله بحيث عجز عن حصوله . » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٣ وانظر : ابن شداد ١٥٧) .

٢ - عن حصار الفرنجة عكا ومضايقة المسلمين المحاصرين داخلها .

« وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل ، فكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمق ، وزوال فرق ، وانتعاش عثرة ، وانجبار كسرة .. ثم تكررت الرسائل من الفرنج إلى السلطان شغلاً للوقت بما لا طائل تحته ، منها أن ملك (الانكليزية) طلب الاجتماع به ثم فتر بعده أياماً ، ثم جاء رسوله يطلب الاستئذان في إهداء جوارح جاءت من البحر ، ويذكر أنها قد ضعفت وتغيرت ، وطلب أن يحمل لها دجاج وطير تاكله لتقوى ثم تهدي ، ففهم أنه يحتاج إلى ذلك لنفسه لأنه حديث عهد بمرض . ثم نفذ أسيراً مغرباً عنده فأطلقه السلطان . ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج فأرسل إليه ذلك . وكان غرضهم من ذلك تفتير العزمات وتضييع الأوقات على المسلمين ، وهم مشغولون بالحصار وموالاته الرمي والجد في الزحف ، حتى تبدلت قوة البلد بالضعف ، وتخلخل السور ، وأهلك التعب والسهرة أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم ، حتى إن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلاً ليلاً ولا نهاراً والعدو عدد كثير يتناوبون على قتالهم . واشتد ذلك عليهم سابع جمادى الآخرة فركب السلطان بالعسكر الإسلامي ورجبهم ونحاهم ، وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر ، وجرى قتال عظيم ، وهو كالوالدة الشكلي يحرك فرسه

من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد وينادي بنفسه بالإسلام ، وعينه قد فارت بالدمع ، وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على من بها من المصائب العظمى ، اشتد في الزحف والحث على القتال . ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً البتة وإثماً شرب شيئاً أشار به الطبيب ولما هجم الليل عاد إلى الخيم ، وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن ، ثم ركب سحراً وصبحوا على ما أمسوا عليه . وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها إنّا قد بلغ بنا العجز إلى غاية ما بعدها إلّا التسليم ، ونحن في الغد إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ، ونسلم ونشتري مجرد رقابنا وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم ، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضاً . فرأى السلطان مهاجمة العدو فلم يساعده العسكر ، فإن الرجالة من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم . وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم فثبتوا وذبوا غاية الذب . وحكى بعض من دخل عليهم أسوارهم أنه كان هناك واحد من الفرنج صعد سور خندقهم ، وجماعة ينالونه بالحجارة وهو يرميها على المسلمين ، ووقع فيه زهاء خمسين سهماً وحجراً وهو يتلقاها ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب ، حتى ضربه زراق بنفط فأحرقه . ورؤيت امرأة عليها ملوطة خضراء ، فما زالت ترمى بقوس من خشب حتى جرحت جماعة ، ثم قتلت وحملت إلى السلطان فعجب من ذلك . (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٦٥ — ١٦٧ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٦) .

٣ — وكانت الأوضاع تأخذ مساراً مأساوياً بالنسبة للمسلمين داخل عكا المحاصرة ومن كتاب فاضلي إلى الديوان جاء فيه نقلاً عن كتاب الروضتين :

« إن ما قطع الخادم الخدم إلا أنه قد أضجر وأسأم من المطالعة بخبر هذا العدو الذي قد استفحل أمره ، واستشر شره . فإن الناس ما سمعوا ولا رأوا عدواً حاصراً محصوراً ، غامراً مغموراً ، قد تحصن بخنادق يمنع الجائز من الجواز ، ويعوق الغرض عن الانتهاز . ولا تقصر عدتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل . وقد أفناهم القتل والأسر ، وأكلتهم الحرب ولقمهم النصر . وقد أمدتهم البحر بالبحار ، وأعان أهل النار . واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية والألسنة الأعجمية من لا يحصى معدوده ولا يصور في الدنيا وجوده ، فما أحقهم بقول أبي الطيب :

تجمع فيه كل لسن وأمة فما يفهم التحديث إلا التراجم

حتى انه إذا أسر الأسير واستأمن المستأمن ، احتيج في فهم لغته إلى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثان ما يقول أول وثالث ما يقول ثان . والأصحاب كلوا وملوا ، وصبروا إلى أن ضجروا ، وتجددوا إلى أن تبددوا . والعساكر التي تصل من المكان البعيد لا تصل إلا وقد كل ظهرها ، وقل وفرها ، وضاق بالبيكار صدرها . ولا تستفتح إلّا بطلب الدستور ، ويصير ضجرها مضرراً بالسمعة عند العدو المخذول . ولهم قاتلهم الله تنوع في المكائد ، فإنيهم قاتلوا مرة بالأبرجة ، وأخرى بالمنجنقات ، ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش ، وآونة باللوالب ، ويوماً بالنقب ، وليلاً بالسرايات ، وطوراً بظم الخنادق ، وأنا أنصب السلام ، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمرالكب . ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطاً مستطيلاً يشبه السور من التراب ، وتلافاً تشبه الأبرجة مدورة ورفعوها بالأخشاب . وعالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ، ورموه قدامها ، وهم يتقدمون أول أول ، وترتفع حالاً بعد حال ، حتى صارت منه كتصف غلوة سهم . وقد كان الحجر والنار تؤثران في

أبرجة الخشب . وهذه أبراج وستائر للرجال والمنجنيقات من العطب ، لا تؤثر فيها الحجارة الرامية ، ولا تعمل فيها النار الحامية » . (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٦) .

٤ — فشل محاولة خروج المسلمين المحاصرين من عكا :
« قال العماد : وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد منتظراً الأمل البعيد . ولما عرف السلطان أنه لا سلامة ، وأن عكا عذمت الاستقامة . نفذ إلى جماعة عكا سراً . وقال لهم : خذوا من العدو حذراً ، واتفقوا واخرجوا ليلاً من البلد يداً واحدة ، وسيروا إلى جانب البحر ، وصادموا العدو بالقهر . وخلوا البلد بما فيه ، وتركوه بما يحويه . فشرعوا في ذلك ، واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه ، ولم يعلم أن انتهاء به يهلكه . فما تمكنوا من المراد حتى أسفر الصباح . ولم يصح ذلك في الليلة الثانية ، لمصير السر إلى العلانية . قال : ولو صح ذلك لنجح المقصد . لكن الفرنج اطلعوا على هذا السر ، فحرسوا الجوانب والأبواب . وكان سبب علمهم ، اثنين من غلمان الهاريين ، خرجا إلى الملاعين ، وأخبراهم بحيلة الحال وعزيمة الرجال » . (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٧) .

٥ — عن تحركات الفرنجة الجماعية قبل سقوط عكا ، راجع ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٦٩ .

٦ — رسائل أهل عكا المحاصرين إلى صلاح الدين لما ضاق بهم الحصار :

الرسالة الأولى :

« إنا بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم . ونحن في الغد — يعني يوم الأربعاء ثامن جمادى الآخرة — إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا . » (النوادر السلطانية لابن شداد ١٦٧) .

الرسالة الثانية :

« إنا قد تبايعنا على الموت . ونحن لا نزال نقاتل حتى نقتل ، ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياء ، فأبصروا كيف تصنعون في شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا . فهذه عزائمتنا ، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تلبسوا له ، فأما نحن ، فقد فات أمرنا . (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٦٩ — ١٧٠) .

رسالة أهل عكا الأخيرة للسلطان :

ضايق الفرنج عكا كل المضايقة ، ولم يتمكن السلطان صلاح الدين من إنقاذها أو التخفيف عن المحصورين ، وحاول الاتفاق مع الفرنج فتعتوا كل التعت ، وعلم أهل عكا تعنت الفرنج ، فأرسلوا إلى السلطان يقولون قبيل سقوط البلد بيد الفرنج .

يامولانا : لا تخضع هؤلاء الملاعين الذين قد أبوا عليك الإجابة إلى ما دعوتهم فينا ، فإننا قد بايعنا الله على الجهاد حتى نقتل عن آخرنا ، وبالله المستعان . (ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ — ٣٤٤) .

٧ — ذكر حديث مصالحة أهل البلد ومصانعتهم عن نفوسهم

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة خرج العوام من الثغر ، ونطقت كتبه أن أهل البلد ضاق

بهم الأمر وكثرت الثغر، وعجزوا عن الحفظ والدفع، ورأوا عين الهلاك، وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضريت أعناقهم عن آخرهم، وأخذ جميع ما فيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك، فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال، ومائة أسير معينين من جانبهم، يختارونهم، وصليب الصليبوت، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين، وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم، وذراريهم ونسائهم، وضمنا للمركيس الملعون — فإنه كان قد استرضى وعاد — عشرة آلاف دينار، لأنه كان واسطة، ولأصحابه أربعة آلاف دينار واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج. (ابن شداد: النوادر السلطانية ١٧٠ — ١٧١).

٨ — ذكر استيلاء العدو على عكا (يسر الله فتحها):

ولما وقف السلطان — رحمة الله عليه — على كتبهم، وعلم مضمونها، أنكر ذلك إنكاراً عظيماً، وجمع أرباب المشورة من أرباب دولته وأكابرها، وعرفهم ذلك وشاورهم فيما يصنع واضطربت به آراؤه، وتقسّم فكره، وتشوّش حاله، وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوام، وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه، وهو في مثل هذا الحال، فما أحسن المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وشعاره وناره على أسوار البلد وذلك في ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخر سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصاح الفرنج صبيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين، واشتد حزن الموحدين وانحصر كلام العقلاء في تلاوة: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾. وغشى الناس بهتة عظيمة، وحيرة شديدة، ووقع في العسكر الصباح والعويل والبكاء والتحيب، وكان لكل قلب حظ في ذلك، على قدر إيمانه، ولكل إنسان نصيب هذا الحظ على قدر ديانته ونخوته، وأقشعت الحال على أنه استقرت تلك القاعدة بين أهل البلد وبين الفرنج على الحال المتقدم، وأن المركيس الملعون دخل البلد ومعه أربعة أعلام للملوك، وأخذ عروضة محمد بن بارهك — رحمه الله — وكان شجاعاً من شجعان الإسلام — رحمه الله — فنصب المركيس علماً على القلعة، وعلماً على مئذنة الجامع في يوم الجمعة، وعلماً على برج الداوية، وعلماً على برج القلعة عوضاً عن علم الإسلام، وحيز المسلمون إلى بعض أطراف البلد، وجرى على أهل الإسلام المشاهدين لذلك الحال ماكثر التعجب من الحياة معه. ومثلت بخدمة السلطان — رحمه الله عليه — وهو أشد من الوالدة الثكلى والولهة الحيرى، فسليته بما تيسر من التسلية، وأذكرته الفكر فيما قد استقبله من في معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف، وكيفية الحال في ذلك، وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد، وذلك في ليلة السبت الثامن عشر منه. وانفصل الحال على أن رأى التأخر عن تلك المنزلة مصلحة فإنه لم يبق غرض في المضايقة، فتقدم بنقل الأثقال ليلاً إلى المنزلة التي كان عليها أولاً بشفر عم، وأقام هو جريدة — رحمه الله عليه — في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد، فانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح، وأقام هو جريدة راجياً من الله تعالى أنه ربما حملهم غرورهم وجهلهم بالخروج إليه، والهجوم عليه، فبنال منهم غرضاً، وبقى نفسه عليهم، ويعطي الله النصر لمن يشاء، فلم يفعل العدو شيئاً من ذلك، واشتغلوا بالاستيلاء على البلد، واتمكّن منه. (ابن شداد: النوادر السلطانية ١٧١ — ١٧٢).

٩ — رسالة الفاضل إلى شمس الدولة بن منقذ، يخبره بها عن سقوط عكا: انظر (أبو شامة: كتاب الروضتين

ج ٢ ص ١٨٨ — ١٨٩ ، ابن واصل: مفرج الكرب ج ٢ ص ٣٦١ ، ابن الفرات في تاريخه ج ٤ ص ٢ — ٢٥) .

١٠ — عن المفاوضات بين المسلمين والصليبيين حول أسرى عكا :

« ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب .. وفي ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني ، ومعه اثنان من أصحاب الانكثار ، فأخبر أن ملك الفرنسيين سار إلى صور — يسر الله فتحها — وذكروا شيئاً من تحرير أمر الأسارى ، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصليبيات ، وأنه هل هو في العسكر أو حُمل إلى بغداد ؟ فأحضر صليب الصليبيات ، وشاهدوه وعظموه ، ورموا نفوسهم إلى الأرض ، ومرغوا وجوههم على التراب وخضعوا خضوعاً عظيماً لم ير مثله ، وذكروا أن الملك قد أجابوا السلطان — رحمه الله عليه — إلى أن يكون ما وقع عليه القرار يدفع في تروم (أي نجوم) ثلاثة كل ترم شهر . ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجزها حتى حصل لهم ما كانوا اتسموه من الأسارى والمال المختص بذلك الترم ، وهو الصليب ، ومائة ألف دينار ، وألف وستائة أسير ، وأنفذوا ثقاتهم ، وشاهدوا الجميع ما عدا الأسارى المعيتين من جانبهم ، فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ، ولم يكلموهم حتى يحصلوا ، ولم يزالوا يطاولون ويقضون الزمان حتى انقضى الترم الأول فكان انقضاؤه في ثامن عشر رجب . ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك فقال لهم السلطان — رحمه الله — « إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا ، وتتسلموا الذي عين لكم في هذا الترم ، ونعطيك رهائن على الباقي ، يصل إليكم في ترومكم الباقية ، وإما أن تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا » . فقالوا : « لا نفعل شيئاً من ذلك ، بل تسلمون ما يقتضيه هذا الترم ، وتقنعون بأماننا حتى نسلم إليكم أصحابكم » . فأبى السلطان — رحمه الله — ذلك ، لعلمه أنهم إن تسلموا المال والصليب والأسرى ، وأصحابنا عندهم ، لا يؤمن غدرهم . »

ولما رأوه — رحمه الله عليه — قد امتنع من ذلك ، أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مبرزين ، وذلك في نهار الأربعاء الحادي والعشرين من رجب من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وكان الذي برز ملك الانكثار ومعه خلق عظيم من الخيالة والرجالة والتركيل .

١١ — ذكر قتل المسلمين الذين بعكا :

ولما رأى الانكثار الملعون توقف السلطان — رحمه الله عليه — في بذل المال والأسارى والصليب غدر بأسارى المسلمين ، وكان قد صالحهم وتسلم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال ، وأنه إن دفع السلطان إليهم ما استقر أطلقهم بأموالهم وذرائعهم ونسائهم ، وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق ، وأخذهم أسارى ، فغدر بهم الملعون ، وأظهر ما كان أبطن ، وفعل ما أراد أن يفعله بعد أخذ المال والأسارى على ما أخبر به عنه أهل ملته فيما بعد ، وركب هو وجميع عسكر الفرغية راجلهم وفارسهم في وقت العصر من يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وساروا حتى أتوا الآبار تحت تل العياضية ، وقدموا خيامهم إليها ، وساروا حتى توسطوا المرج بين تل كيسان والعياضية ، وكان البيك الإسلامي قد تأخر إلى تل كيسان لما قدموا خيامهم إلى تحت تل العياضية ، ثم أحضروا من الأسارى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك ، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الحبال ، وأوثقوهم في الحبال ، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد ، فقتلوهم صبراً طعنوا وضرباً

بالسيف — رحمة الله عليهم — واليزك الإسلامي يشاهدهم ، ولا يعلم ماذا يصنعون لبعدهم عنهم ، وكان اليزك قد أنفذ إلى السلطان — رحمة الله عليه — وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم ، فأنفذ إلى اليزك مَنْ قوّاه ، وبعد أن فرغوا حمل المسلمون عليهم ، وجرت بينهم حرب عظيمة ، جرى فيها قتل وجرح من الجانبين . ودام القتال إلى أن فصل الليل بين الطائفتين ، وأصبح المسلمون يكشفون الحال ، فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم ، وعرفوا مَنْ عرفوه منهم ، وغشي المسلمين بذلك حزنٌ عظيم وكآبة عظيمة ، ولم يبقوا من المسلمين إلّا رجلاً معروفاً مقدماً أو قوياً أيداً ، للعمل في عمائرهم . (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٧٣ — ١٧٤) .

١٢ — قول العماد في شهداء عكا :

« فشاهدناهم مستشهدين بالعرا عرايا مجرّدين . ولا شك إنّ الله كساهم من سندس النعيم ، ونقلهم إلى دار المقامة في العز المقيم . وتصرف السلطان حينئذ في المال ، وفرّق مجموعته في رجاء الرجال . وأعاد الأسارى إلى أربابها ، واحتوت عليها بدمشق أيدي أصحابها . وحفظ الصليب السليب وردّه إلى مكانه ، وأعادته إلى صوانه ، لالعزه بل لهوانه . فإثّه لا مصاب عندهم أعظم من استيلائنا عليه ، وامتداد أيدينا إليه ، وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولاً ، وأنفدوا بعد رسول رسولاً ، فما وجدوا قبولاً ، ولا صادفوا سولاً . » (أبو شامة : كتاب السروضتين ص ١٨٩ — ١٩٠) .

الفصل الرابع والعشرون

ملك انكلترا يسعى لتنصيب أسرته في الأرض المقدسة

أوضاع الصليبيين بعد سقوط عكا

وبعد مغادرة ملك فرنسا، وتركه قيادة قواته لهوغ دي بورغونيه، لم يعد ريكاردوس قلب الأسد يشارك أحداً بمقاليد السلطة؛ إنه يملك وحده. وبعد عكا أصبح الانكليزي البطل غير المنازع للحملة الصليبية الثالثة. ففي عكا — بعد سنوات الحرمان، وضراوة المعارك الأخيرة — غدا الفرنجة في رخاء. كانت المراكب القادمة من كل موانئ الغرب تُنزل في المدينة المحتلة أفافات جميلات وبنات داعرات، أصبحت تلك المدينة كما يقول الشاعر امبرواز انطاكية ثانية، فالأحلاق فيها تفقد صرامتها شيئاً فشيئاً. ونسي المنتصرون بطريقة فاقدة الحياء أكثر مما ينبغي ما قاسوه رديحاً طويلاً من وطأة الحرمان الرهيبة. كان تدفق هذه الشبيبة البعيدة عن الروح الحربية من الكثرة — كما يقول امبرواز — بحيث لن ترافق النساء الجيوش مستقبلاً، بل يبقين في المدينة باستثناء الخوادم والغسّالات اللاتي ينظفن ثياب الجنود واللاتي يفلن رؤوسهم من البراغيث، كما تفعل القروء.

الصلبيون يزحفون صوب مدن الساحل الفلسطيني

وبعد مضي يومين على مذبحه المسلمين الفظيعة، تلقت القوات الأمر بالزحف إذ عزم الصلبيون على استرداد أشهر مدن الساحل الفلسطيني: قيصرية، يافا، عسقلان تلك المدن التي يعتبر امتلاكها ضرورياً لتأمين مراكز انطلاق وطيدة تمهيداً لعملية في المستقبل ضد القدس. وتذكر هذه المسيرة على طول الساحل تحت شمس آب المحرقة، في منطقة مدمرة تدميراً منهجياً، تحت أقدام الصليبيين، تذكر بأكثر من ناحية بالمسيرة القدرية إلى حطين. كان غي دي لوزينيان — كعهده في تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٧ — يقود الطليعة وريكاردوس قلب الأسد يقود القلب ودوق بورغونيه المؤخرة. كان المشاة الموزعون على الجناحين يتقدمون بخطا الواثق بانتظام؛ وكل منهم مدجج سابغ التسليح، وكانت حمائل سيوفهم من الالتصاق ببعضها بعضاً حتى ليستحيل على سهام العدو أن تنفذ من بينها، وتسربل كل فرد بدرّاعة من الجوخ المبطن بالقطن لا تخترقها أشد القذائف حدة؛ حتى خامر قلب قاضي الجيش الإسلامي الذعر عندما رأى رجلاً مرتدياً مثل هذا اللباس، وقد انغرز اثنا عشر سهماً في ظهره وهو ما يزال نجاداً في مسيره على طول الساحل، وكأن شيئاً لم يحدث. كان ثقل الحيلة الصليبية يتقدم في القلب يحدق به سورحي من المشاة، ترفرف فوق الجيش آلاف الرايات، وكان الأسطول الفرنجي الذي يجري محاذياً الساحل يؤمن التموين. ولعدم تمكنه من الهجوم الشامل، كان صلاح الدين يتبع خطة استنزاف الفرنجة بمجموعات صغيرة سريعة الحركة من الممالك تنقض انقضاض البزاة مرخية الأعنة على هذا المعسكر المتحرك محاولة أن تعمل سيوفها هنا وهناك ضاربة عدداً من الرجال ثم تعود بالسرعة ذاتها. كان يبدو على المسلمين أنهم يحاذون الفرنجة في مسيرتهم نحو الجنوب؛ لا تنقطع المناوشات بين الجيشين، وبعد ستة أيام من الزحف وصل الجيش الفرنجي أمام قيصرية المدينة المغرقة في القدم التي زينها هيرودس، والتي انقلبت فيما بعد مركزاً للحكام الرومانيين، وعندما اقترب منها جيش الفرنجة لأذ سكانها فراراً، ولم يتوقف فيها ريكاردوس قلب الأسد، فالجرب كما تبدو طويلة الأمد غير مؤكدة النتائج.

ملك انكلترا يسعى للتفاوض مع صلاح الدين

وبعد أن اتخذ ملك انكلترا موقفاً أمام أرسوف، أبولونية القديمة الواقعة قرب يافا سعى

إلى التفاوض مع صلاح الدين، ناسياً أن بينه وبين القائد العربي مذبة ثلاثة آلاف من الأسرى المسلمين، ومن جانبه أعلن صلاح الدين أنه ليس ضد المفاوضات شريطة أن يكون هدفها تحقيق اتفاق دائم بين الفريقين وأوكل إلى أخيه مهمة التفاوض على الصلح.

وقمت المقابلة بين الملك العادل وريكاردوس قلب الأسد في ٥ ايلول (سبتمبر) ١١٩١ في أحراج أرسوف بحضور أونفرو دي تورون المكلف بترجمة أقوال شقيق صلاح الدين.

انقطاع مباحثات الصلح والاحتكام كرة أخرى للصلح

وحينما سأل الملك العادل عن شروط الصلح التي يقترحها ملك انكلترا، أجاب هذا الأخير بأن على المسلمين أن يعيدوا إليه مملكة القدس، وأن ترتد الجيوش الإسلامية إلى الحدود السورية القديمة^(١). فانقطعت المفاوضات من فورها وانسحب الملك العادل مُغضباً، واحتكم الفريقان كرة أخرى للصلح. ويوم السبت ٦ ايلول (سبتمبر) أعني بعد مضي أربع وعشرين ساعة فقط على لقاء العادل وريكاردوس، كان القتال يحدث قرب نهر الأعوج بين أرسوف والرملة. وفدحت خسائر الجانبين، وفي الساعة التاسعة صباحاً كان ثلاثون ألفاً من الجيش الإسلامي صادقوا العزيمة يحدقون بالجيش الفرنجي مطوقين إياه بتصميم، يتقدم الأمراء عازفو الأبواق وحملة الطبول، تليهم سرايا الخيالة السوداء وبدو الصحراء الهائجون، كان الهجوم برياً بحرياً معاً كما يكتب امبرواز ويوافقه بهاء الدين لكون الفرنجة مضطرين إلى حث الخطى ليلبغوا أرسوف حيث سيتوقفون، أخذ المسلمون بخناقهم، ملجئين إياهم لأسوأ موقف، ويفخر المسلمون بأنهم قضوا عليهم قضاءً سهلاً. تلك هي المرحلة الأولى من المعركة التي تستحضر للذاكرة معركة حطين، بيد أن القائد كان هذه المرة يعرف مهنته؛ فبعدما تمّ تجاوز المشاة منذ بدء القتال وقد أخذوا يتقهقرون على طول الجبهة ويُسحقون واخترق الجناحان، وتجدل قتيلاً جاك آفين ودب الذعر في صفوف جنده، عندها أطلق ملك انكلترا خيالاته الثقيلة القوية؛ وكان له من الجرأة في غمرة هزيمته ما جعله ينتقل إلى الهجوم ويتنصر، وقتل أو جرح الكثير من جند الإسلام بينهم عدد من الأمراء.

لكن صلاح الدين أصرَّ على الثبات في حومة المعركة؛ وأعاد الكثير من الهاربين إلى

القتال ، ثم أمر بقرع الطبل وأمر خيالاته — باذلاً جهده الأخير — فانقضوا على الفرنجة المنعزلين عن خيالاتهم وهكذا عاد ظافراً بعد أن أصبح على قاب قوسين من الهزيمة وفوت النصر على الفرنجة .

صلاح الدين يأمر بتدمير عسقلان

وانحدر الفرنجة نحو عسقلان التي أصبحت بعد ازدهارها القديم مدينة بحرية صغيرة محصنة تشرف على الطرق الممتدة بين مصر وفلسطين . وكان ملك انكلترا يرمي من وراء احتلاله إياها أن يقطع كل اتصال بين البلدين العريين لانتقال الرجال أو المؤن .

وكان صلاح الدين يريد أن يترك حامية في عسقلان ، ولكن أمراءه أقنعوه بالعدول عن ذلك مخافة أن يحل بها ما حلّ بحامية عكا ، ونصحوه بمتابعة المعركة ومراقبة تحركات الأعداء وإنما كهم بمعارك جانبية خاطفة تمهيداً لمعركة كبرى . وقالوا له : إن هدف الفرنجة هو بلوغ القدس ، وقد أصبحوا منها على بضعة مراحل ومن رأيهم أن تقوّى حامية القدس ماداموا لا يستطيعون بلا خسائر فادحة وقف زحف الفرنجة . وبما أن قواتهم لا تفني بترك حامية في كل مدينة ، فالأجدي أن يُحْدِق الخراب بطريق الفرنجة ؛ فأمر صلاح الدين بتدمير عسقلان وقلعها رأساً على عقب^(٢) ، كما دمرت قديماً نينوى أو بابل أو طيبة ذات المائة باب . وكان صلاح الدين قد تجوّل في أسواقها ، وبعد دمارها غادرها وكتب إلى ابن أخته عماد الدين الزنكي صاحب سنجار . قائلاً : «إني موقن بأني بهدمي عسقلان قد أمنت حياة القدس وخلاصها»^(٣) .

وصول ريكاردوس قلب الأسد إلى يافا

وخلال ذلك كان ريكاردوس قلب الأسد يستقر في يافا ، ولكن غدا جيش الفرنجة على درجة من الإنهاك لا يستطيع معها حتى التقاط أنفاسه وقد لزمه سبعة عشر يوماً لقطع المسافة بين عكا ويافا ، بينما يستلزم قطع هذه المسافة في الأحوال العادية مسيرة يومين اثنين فقط .

ورمّ ريكاردوس قلب الأسد أسوار يافا ؛ وحدث له آنذاك حادث تافه كاد أن يؤدي بحياته ؛ فبينما كان في رحلة صيد بجوار الرملة حيث خيم جيش صلاح الدين ، وقد بلغ منه الإرهاق مبلغه من الحر ، جلس معتمداً جذع شجرة ليستريح ونام ، وفجأة أيقظه صراخ

مرافقيه من الفرسان ، فإذا فريق من المسلمين يضرب حوله الطوق . فقفز إلى صهوة جواده وقاوم المهاجمين بعض الوقت مع قوته الصغيرة ، وكاد أن يقتل لو لم يصرخ أحد رفاقه باللغة العربية وقد أربعه الخطر المحدث بحياة سيده : « أنا الملك حافظوا على حياتي . » فلحق به المهاجمون وأسروه ، بينما أخذ ملك انكلترا طريقه إلى يافا .

وبقي الصليبيون شهرين في يافا قضاها الجيـش وسط مباحج تذكره بأيام عكا ؛ خاصة وقد ضاقت النسوة ذرعاً بالبقاء وحدهنّ في عكا فسرّن إلى يافا ؛ وفيما هم غارقون في ابتهاجهم كان صلاح الدين يهدم الرملة واللّد ، فصار طريق القدس قاعاً صفصفاً .

كونراد دي مونفراً يتآمر على ريكاردوس ويتصل سراً بصلاح الدين

هنا تتمحور مؤامرة كونراد دي مونفراً الذي لم ينس أن ريكاردوس قلب الأسد جرّده ساعة مغادرة ملك فرنسا من جميع مناصبه التي سبق أن أسنده إليه فيليب أوغست ، وجرّده من ألقابه وحقوقه بعرش القدس . كما هدده بأن ينتزع منه صور وإمارتها ، وبأن يشنقه بلا محاكمة على أحد أبراج الميناء المصري القديم ، في المدينة التي ظلت رديحاً طويلاً ، خاضعة لحكم الفراعنة ؛ ولكي يتفادى هذا العار وجه كونراد دي مونفراً رسالة صداقة إلى صلاح الدين عارضاً عليه تحالفه ضد الانكليزي . ولم يكن في هذا — بعد كل حساب — ما يصدّم ، لأنها ليست المرة الأولى التي نرى فيها أميراً فرنجياً كبيراً يسعى إلى مخالفة أمير مسلم . وكان هذا المارق يطالب المسلمين ثمناً لخيانته بأن يسلموه بيروت وصيدا ، ويتعهد بأن يقاتل ملك انكلترا ، بل أن يباغت أصدقاءه القدامى في عكا لكي يتمكن من إعادة هذه المدينة إلى صلاح الدين ، وبدأت القضية لهذا الأخير أجمل ما ينبغي ، مما حمله على التفكير في أن مركيز صور ينصب له فخاً ، ولذا عمد إلى مطالبته بشروط مسبقة لأي اتفاق معه ، منها أن يياده كونراد دي مونفراً ملك الانكليز بالحرب .

ريكاردوس يخادع كونراد ويفاوض سراً صلاح الدين

بيد أن ريكاردوس الذي كانت خيالاته السرية تجترح العجائب اطلع على مساعي المركيز ، وعمل — مؤجلاً الانتقام من هذا المغرور فوق العادة — على استقدام امدادات إلى عكا لحمايتها من أية مفاجأة . وبوصفه لاعباً ماهراً أرسل إلى كونراد دي مونفراً يستفسره عن

أ. راضه العصبية ، ويوقظ في سويدائه وحوش الطمع ، ذاكرًا له القدس التي أصبح هو منها على مسافة مائة كيلو متر فقط ، جاعلاً تاجها يسطع باهراً أمام عيني المركيز العجوز ، وترن في أذنيه ألقاب جذابة ، واضعاً عقله موضع التعذيب .

وبعدما حار كونراد دي مونفراً بين صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد لعب ورقة ملك الانكليز القريب الشأو من القدس ، وذهب لمقابلته في مخيمه بثياب احتفالية . وتصلح البطلان ، وفيما كان الانكليزي يخادع الطامع بعرش القدس ويهدد أحلامه بمملكة لم يكن ينوي فعلاً الاستيلاء عليها ، كان يعرض الصلح مرة أخرى على صلاح الدين ، وقابل أخاه الملك العادل عدة مرات . وكانت الشروط ما تزال هي هي : فريكاردوس قلب الأسد يطالب بالقدس وأراضي الضفة الغربية للأردن وصليب الصليبوت . وأجابه صلاح الدين : « إن البلاد التي تطالب بها لم تكن يوماً ملككم ، ولم يشأ الله أن يجعلكم تضعون فيها حجراً واحداً . لقد أغرم عليها وانتزعتموها متآ زمن ضعف المسلمين . فالقدس ليست أقل قدسية بالنسبة إلينا مما هي بالنسبة إليكم . فإلى القدس كان إسراء نبينا محمد ؛ ولن يكون في مقدورنا أن نتخلي لكم عن هذه المدينة المشرفة دون أن يلحقنا العار إلى الأبد »^(٤) .

وكانت المفاوضات التي يتابعها الطرفان بشيء من الحماسة تطول وتطول ، وانقضت الأيام والأسابيع والطرفان يتناقشان لوضع النقاط على الحروف وكلاهما يدرك أن ماتعوزه هي الحجة الفيصل : القوة . حينذاك عرض ريكاردوس قلب الأسد على صلاح الدين بوساطة أخيه الملك العادل حلاً ، وإن لم تؤيد نصه الأصلي أي من المصادر العربية أو الفرنجية ، ويبدو لنا مجرد مزاح مؤرخ . لقد عرّض أخته حنة أرملة غيوم ملك صقلية زوجة لشقيق صلاح الدين على أن يكون مقدم صداقها الجزء الذي استولى عليه من الساحل مع عكا والرملة وأرسوف ويفا وخرائب عسقلان ، أما الملك العادل صهره العتيد فيتلقى بمملكة القدس .

وهكذا تصبح شقيقة ملك انكلترا العظمى وشقيق سلطان مصر وسورية وما بين النهرين ونجد ملكة وملك القدس بنعمة صلاح الدين . ولم يستشر ريكاردوس قلب الأسد ، كونراد دي مونفراً أو غي دي لوزينيان مجرد استشارة ؛ ويقال إن الملك العادل رأى في ذلك الزواج السياسي مصلحة للأيوبيين وللإسلام معاً . ولكن صلاح الدين الذي لم يكن من سجيته التحمس للمظاهر الخداعة ، لم يُيّد من الحماسة ما كان يرجوه ريكاردوس . وهيئات

أن ينسى ما وقر في سويدائه من تدين، لذا لم يكن ليغريه مثل هذا الحل للحرب المقدسة (الجهاد) التي سبق أن أعلنها خليفة بغداد. ومع ذلك لم يعارض هذا الزواج، وأصبحت زيارات الملك العادل لخيم ريكاردوس قلب الأسد يومية. وكان الأخير يحتفي احتفاء بالغ الدقة بالشخص الذي شرع يعتبره علناً صهره؛ فنصب له قرب خيمته خيمة استقبال، ولم ينفك يغمره ترحاباً، ويقدم له الحلويات والأشياء الفنية النفيسة؛ وكان الملك العادل يصطحب معه بعض لاعبي القيثارة، ومغنية عربية ويضع مع ملك انكلترا مشاريع المستقبل^(٥).

ورغم كل ذلك لم يقطع صلاح الدين الاتصال بكونراد دي مونفرا، لأنه كان على بينة من العداة المستحكم بين ملك الانكليز ومركز صور. ومن أغرب الأمور أن صلاح الدين رغم فشله في عكا يترضاه قطبا معسكر الفرنجة، وكان لديه متسع من الوقت يفكر فيه بهدوء كيلا يرتقي ارتقاء أعمى بين ذراعي ريكاردوس قلب الأسد أو كونراد دي مونفرا ويمكن القول: إن وضعه لم يكن في أية لحظة أفضل مما هو عليه الآن. فريكاردوس قلب الأسد ينشد ضم الأيوبي إلى أسرة البلانتاجيني، وكونراد يسعى إلى صداقة صلاح الدين، لكي يطرد الانكليزي من الأرض المقدسة. أجل! كان ملك انكلترا يناور لكي ينتزع مملكة القدس من المطالبين بها، ولم يكن ليتردد في أن يستند إلى تأييد صلاح الدين الذي طردهم منها؛ لكن الصحيح أن موقف ريكاردوس قلب الأسد لم يكن البتة واضحاً أمام نبلاء الفرنجة حتى تخلى عنه أفضل مؤيديه: دوق بورغونية، الهيكليون، الجرمان، الجنويون، واستقبلهم كونراد دي مونفرا في مخيمه، ومنذ تلك اللحظة أصبح السؤال هو أي من الاثنين: ريكاردوس أو كونراد سيحصل أولاً على توقيع صلاح الدين. فأونفروا دي تورون كان يجهد سعيّاً لصالح البلانتاجيني — والأمير دي ساجيت كان بالغ التوق في أن يكون الوسيط الرسمي لمركز صور لدى السلطان. ومن جهته كان صلاح الدين حريصاً على أن يظل هذا الخلاف شاجراً ما بين هذين الرجلين، ولذا طفق يبذل الوعود لكليهما معاً، وهو يعيد بناء أسوار القدس. وهكذا كانت نتيجة تلك المفاوضات البرق الخلب للفرنجة، ومهدف شغلهم عن واقعهم ذاك حملهم ريكاردوس على إعادة تشييد مدينة عسقلان، وكانت أعمال البناء هذه ترزعج الكثير من سوادهم، لأنهم — كما كانوا يقولون — لم يأتوا إلى هنا لحفر الخنادق، وبناء الأسوار، ولكن لطرده المسلمين من القدس. وقرّ جمع غفير منهم، فبعضهم عبر البحر، ويم بعضهم الآخر شطر صور. أما الذين لبثوا حيث هم فطالبوا بالقتال.

وقرر ريكاردوس أن يخيّم ليلة عيد الميلاد تحت أسوار المدينة المقدسة، عند ذاك
تكشفت نتائج سياسته الرعناء. ففي اليوم التالي لمعركة عكا ١٣ تموز (يوليو) ١١٩١ كانت
القدس المحرومة الموارد، الخالية من الجنود لحمايتها الخاوية من القمح لإطعام سكانها، المجردة
من التحصينات تقريباً حتى لتكاد تكون في متناول يد ريكاردوس الذي لم يكن عليه إلا
مسيرة بضعة ساعات لاستلابها من عدوٍ أضعفت معنوياته هزيمة عكا. أما الآن بعد أربعة
أشهر فالزمن غدا متأخراً جداً. فصلاح الدين قد شحن المدينة بقوّات سابعة السلاح وافرة
المؤن، وسهر بنفسه على تدعيم تحصيناتها بأسرع ما يستطيع، كما لم يغفل عن
تدمير كل المنطقة المحدقة بها تدميراً منهجياً. فهذا الزحف الفرنجي على القدس
كان عديم الجدوى. فبعد أن سحق ريكاردوس قلب الأسد في ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر)
١١٩١ مفرزة في يازورهي على مسافة ثمانية أميال شمالي شرقي الرملة، قاد جيشه إلى اللد على
طريق يافا — القدس حيث دهمته الأمطار في منطقة مستنقعات، فاضطر إلى التخييم ثلاثة
أسابيع.

جيش الفرنجة ينكفيء عن القدس بعد أن غدا قاب قوسين منها

وفي منتصف شهر كانون الأول (ديسمبر) أصبح على مرأى من القدس؛ «وكان
الطقس — كما كتب امبرواز — قارص البرد متلبد الغيوم، تجوده أمطار طوفانية؛ ونفقت
حيواناتنا تحت وطأة الصواعق فيما كان يقوض خيامنا داهم المطر، ووقع تساقط البرد،
وأفسدت المياه خبزنا، وأنتنت لحوم الخنزير، وصدّئت آلاتنا وملابسنا الحديدية».. وهُرع
بدو المناطق المجاورة طمعاً في السلب فأنزلوا ضرباتهم الخاطفة بالجيش المبتل من المطر،
المرتعد برّداً، والذي كان يتقدم بمتناهى البطء في الطرقات الموحلة، وتعود كرات العدو
فيقطعون عنه قوافل تموينه مكرهين إياه على البقاء بحالة استنفار دائم. وأصبح الفرنجة على
مرأى من القدس؛ ولكن هل كان جيشاً حقاً؟

«كان الأفراد مرضى منطوي البطون على الجوع ولكنهم — كما يتابع امبرواز — كانوا
مبتهجين بأمل أن يستطيعوا أخيراً بلوغ القبر المقدس». وتوقف ريكاردوس قلب الأسد على
مسافة عشرين كيلو متراً من القدس. وعقد اجتماعاً لمجلسه، وتردّد. كان فرنجة المغرب يودون
متابعة الزحف نحو القدس، على حين كان فرنجة المشرق يبغون الرجوع إلى الساحل. كانوا

يتوجسون خوفاً من أن يصبحوا بين فكي كاشة: حماة القدس، وجيش صلاح الدين المسيطر على الريف. كان هذا الخطر شبيهاً بذاك الذي سبق أن واجهوه تحت أسوار عكا ولكنه هذه المرة أخطر، لأنهم بمنأى عن البحر وبعيدون عن حماية الأساطيل الفرنسية. وكان الصليبيون على شبه يقين بأن امداداتهم ومواصلاتهم مع الساحل يمكن أن يقطعها عليهم البدو، كما ترامى إليهم أن جيشاً إسلامياً جديداً بقيادة أبي الهيجا (السمين) قد وصل من مصر. وفي ١٠ كانون الثاني انكفأ الجيش الفرنسي متقهقراً إلى الورا بعد أن غدا على مرأى من القدس، وارتد إلى الساحل؛ ليستأنف من جديد مناوشاته وهو في منجاة من الخطر.

حواشي الفصل الرابع والعشرون

١ — جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة عن طلب ملك الانكليز ريتشارد قلب الأسد الاجتماع بالملك العادل لعرض الصلح على المسلمين :

« وطلب ملك الانكليز الاجتماع بالملك العادل خلوة فاجتمعا ، فأشار بالصلح ، وكان حاصل كلامه : إنه طال بيننا القتال ، ونحن جفنا في نصره لإفرنج الساحل ، فاصطلحوا أنتم وهم ، وكل منا يرجع إلى مكانه . فقال : على ماذا يكون الصلح . قال : على أن يسلم إلى أهل الساحل ما أخذ منهم من البلاد فأبى الملك العادل . وأخبره أن دون ذلك قتل كل فارس وراجل . فرجع مغضباً . (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩١ تاريخ ابن الفرات ج ٤ ص ٣٣) .

٢ — عن قرار صلاح الدين هدم عسقلان :

« قال العماد : ورحل السلطان ونزل بظاهر عسقلان بعد العضر وشرع فيما عزم عليه من الأمر ، وكان لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الأمراء ، وشاور في أمر عسقلان ذوي الآراء فأشار علم الدين بن سليمان بن جندر بخرابها ، للعجز عن حفظها على ما بها ، ووافق الجماعة وقالوا قد ضاق عن صونها الاستطاعة . فإن هذه يافا قد نزلوا بها وسكنوا فيها . وهي مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ولا سبيل إلى حفظ المدينتين فاعمد إلى أشرف الموضعين فحصنه وحكمه . فاقتضت الآراء إقامة العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء حتى إذا تحرك العدو كانوا منه على علم .

قال القاضي : أشار عليه بتخريب عسقلان خشية أن يستولي عليها الفرنج وهي عامرة فيتلفوا من بها من المسلمين ، ويأخذوا بها القدس الشريف ، ويقطعوا طريق مصر . وخشي السلطان من ذلك ، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وما جرى على من كان مقيماً بها . فسار حتى أتى عسقلان ، وقد ضربت خيمته شمالها ، فبات هناك مهموماً بسبب خراب عسقلان ، وما نام تلك الليلة إلا قليلاً ، ولقد دعاني إلى خدمته سحراً ، وكنت فارقتة بعد مضي نصف الليل فحضرت وبدأ بالحديث في معنى خرابها . وأحضر ولده الأفضل وشاوره في ذلك وطال الحديث . ولقد قال رحمه الله : « والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب إلي من أن أهدم منها

حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف أصنع». قال: ثم استخار الله تعالى فأوقع في نفسه أن المصلحة في خرابها، فاستحضر الوالي وأمره بذلك في تاسع عشر شعبان. ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب، وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجاً معلوماً يخربونه. ودخل الناس إلى البلد، ووقع فيه الضجيج والبكاء. وكان بلداً نضراً خفيفاً على القلب محكم الأسوار عظيم البنا مرغوباً في سكناه، فلحق الناس عليه حزن عظيم وكان هو بنفسه وولده الأفضل يستعجلان الناس في الخراب، خشية أن يسمع العدو فيحضر ولا يمكن من خرابها. وأمر بحريق البلد فأضرمت النار فيه، والأخبار تتواتر من جانب العدو بعمارة يافا. وخرب من سوق عسقلان معظمه وكان عظيم البناء بحيث إنه كان في موضع تسع أذرع وفي موضع عشرًا وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر، إن عرض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رمح فلم يزل الخراب والحريق يعملان في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان. (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٢ - ١٩٣).

٣ - رسالة صلاح الدين إلى صاحب سنجار يعلمه أنه بهدمه عسقلان، قد أمن عصمة القدس:

«قد تقدم الإعلام بما جرى عند رحيل العدو على قصد عسقلان، وما تم عليه منا في طريقه من النكابة والخذلان، وأنه قطع في سبعة عشر يوماً مسافة يومين لما لا يسهه وغامر في الحين، وما صدق كيف وصل إلى يافا فأظهر بها الاستيطان وأقام بها يعمر المكان. وهذه مدينة يافا متوسطة بين القدس وعسقلان، ومنها إلى كل واحدة منهما مسافة نصف نهار، وكلتاها من العدو على خوف وحذر، وكل واحد من الموضعين يحتاج في تحصينه إلى ثلاثين ألف مقاتل، وتعدر الجمع بين حفظ الثغرين وتحصين البلدين: وتعين في تخرب عسقلان عمارة القدس وتحصينه وعصمته من العدو وتأمينه». (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩١).

٤ - لقد أرسل ملك الانكليز ريتشارد قلب الأسد رسالة موجهة إلى صلاح الدين عن طريق أخيه الملك العادل، جاء فيها:

إنك تسلم عليه وتقول له: إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس فمتعبدنا ما نزل عنه ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب، فهو خشبة لا مقدار له عندكم وهو عندنا عظيم، فيمن به السلطان علينا ونصطليح ونستريح من هذا العناء الدائم.

وكان جواب صلاح الدين لريتشارد قلب الأسد على رسالته التي نقل القاضي ابن شداد فحواها، قوله:

القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن نزل عنه ولا نقدر على التلطف بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وما أقدركم الله على عمارة حجر منها مادام الحرب قائماً، وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة، ولا يجوز أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها. (ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١٩٤).

٥ — لقد ذكرت المصادر العربية عرض ريتشارد قلب الأسد على صلاح الدين الصلح أن يتزوج أخوه الملك العادل شقيقة ريتشارد: وما جاء في النوادر السلطانية لابن شداد: رسالة حول اقتسام الساحل الفلسطيني بين ريتشارد والملك العادل، وفي رسالة أخرى عن مشروع الزواج الذي اقترحه ريتشارد وكاد أن يتم لولا معارضة البابا لذلك، وعرض ملك الانكليز على صلاح الدين أن يزوجه ابنة أخته إن قبل ذلك ..
— رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين من أجل الصلح:

إني أحب صداقتك ومودتك، وإنك ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه، ولا بد أن يكون لنا علفة بالقدس الشريف، ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين، وتقسم البلاد بيني وبينه، ولا علي لوم من الإفرنجية .
— رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الصلح وحول تزويج أخته من الملك العادل، وهو مشروع الزواج الذي اقترحه ريتشارد قلب الأسد وكاد يتم لولا أن البابا عارض في ذلك:

إن معاشر دين النصرانية أنكروا عليّ وضع أختي تحت مسلم دون مشورة البابا، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه . وها أنا ذا أسير إليه رسولاً يعود في ثلاثة أشهر، فإن أذن فيها ونعمت، وإلا زوجتك ابنة أختي وما أحتاج في إذنه في ذلك . (ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٠٢ — ٢٠٣) .

الفصل الخامس والعشرون

الصلح الصعب

البحث عن مخرج من المأزق

وعاد فصل الشتاء فشرح صلاح الدين جيشه لأنه لم يعد الآن يخشى شيئاً من جانب الفرنجة الذين ارتدوا في كانون الثاني ١١٩٢ إلى قواعدهم على الساحل ولكن قبل أن يفترق عن أمراء جيشه وقادته بعد تقويم النتائج من ربح وخسارة، عقد مجلسه الحربي ليعرف مع أي من الاثنين يجب أن يعقد الإسلام الصلح: كونراد دي مونفرا، أو ريكاردوس قلب الأسد.

وخلال حياته التي أمضى سحابتها على صهوة جواده، وقّع صلاح الدين مع الفرنجة الكثير من المعاهدات، بحيث لم يكن يجهل شيئاً عن صدق هذه الوثائق وأمدّها، ولكن ما حصل من تصدّع في معسكر أعدائه، شاهد بين على أن الأمور، تجري لصالحه.

كان الجميع متعبين مرهقين من الحرب، حتى إن ملك انكلترا نفسه لم يخف رأيه هذا لدى اجتماعه بالملك العادل في يازور قبل زحف الصليبيين على القدس. فالمدن مدمرة في كل مكان، وغدت الامدادات بالرجال والمؤن معدومة لدى الفريقين. لطول ماراوح الجنود في مكائهم مكتفين بمناوشات خاطفة بين المواقع المتقدمة، ولكثرة مادنوا من الموتى،

وما شاهدوا من المدن المحترقة خفت لهب الحماسة في صدور الجميع، ودونه تصبح الجيوش كتنلاً فاقدة الحركة، وخاصة جيوش تلك الأيام التي تفتقد وسائل التدمير الضخمة التي تمتلكها قيادات جيوش العصر الحاضر، ومنذ عدة أشهر كانوا يجبطون اندفاعاً في نفق دون أن يروا أي بصيص للأمل في آخره فالحماسة تحتاج إلى الحركة لتدوم، وكذلك إلى انتصارات، وإلا فهي تصدأ حتى في أعماق أشجع القلوب.

كان على المسلمين والفرنجة معاً بعد تلك السنين الطويلة من متواصل المعارك المرهقة أن يقرروا أن من الأفضل لكليهما معاً محاولة التفاهم بهدف الخروج من هذا المأزق الذي ولجوه.

حالة اللا حرب واللا سلم الجديدة

مع الأسف كان الصلح تلك الأيام — كما هو في يومنا هذا — صعباً. ففي مطلع عام ١١٩٢ هدف صلاح الدين أن يطيل إلى ما لا نهاية حالة اللا سلم واللا حرب المتأرجحة، بين المسلمين والفرنجة. إذ قال لأمرائه: «إن السلم الذي يريده أعداؤنا لن يحترموه، فإذا مت فسيغزون فلسطين مرة أخرى؛ وقواتهم الآن تدمر نفسها، وإذا ما عرفنا كيف نزيد نارهم حرباً قضى عليهم أوارها — عما قليل — ولن يكون في استطاعتهم بعد ذاك أن يشتوا أمامنا. فلنصبر ونتيقظ. وسنستأنف المعارك حالما نلمح الأمارات المواتية لنصر الإسلام الحاسم» (١).

التوقيع على تسوية سياسية مع مركز صور في القدس

ولما سُرّحت القوات المحتشدة، ذهب صلاح الدين إلى القدس حيث وقع تسوية مع مركز صور تتضمن اتفاقاً على النقاط التالية: يحصل رينو دي ساجيت الوسيط بين الفريقين مقابل مهمته، على مدينة صيداء وما تبعها من أراض ويستعيد الهيكليون والاسبترليون القلاع التي كانوا يملكونها فيما سبق ويكتفي كونراد دي مونفرا بالمدن والأراضي التي قد ينتزعها من الفرنجة، وإذا ساندته المسلمون فسيكتفون بالغنائم، وتظل عسقلان على الحياد؛ لا تطالها يدا الفريقين. وأما التحصينات التي أقامها فيها ريكاردوس قلب الأسد بعد احتلالها فتدمر دكاً عن آخرها. (٢) وموجب هذا الاتفاق كانت تنازلات صلاح الدين منحصرة في أدنى الحدود.

كان يعيد صيذاء التي لم تكن لها أية قيمة استراتيجية؛ وبعض الأكواخ المحصنة للهيكلين والاسبتارين، أما كونراد دي مونفرا فعليه بدهياً أن يخدم نفسه على حساب الفرنجة وفي هذا السياق إلى الصلح كان مركز صور هو الواصل الأول (المخلّق)؛ ولما وضع كونراد دي مونفرا هذا الاتفاق في جيبه، فكر في الوسائل الآيلة إلى جني الامتيازات الفورية منها، وخدمه الحظ مرة أخرى في مهمته المغامرة كما تمنّى، ويتذكر قراؤنا أن الجنوئين انحازوا إليه، بينما انحاز البيزيون إلى غي دي لوزينيان.

انقسام صف الفرنجة مرة أخرى

وكان الجنووين إضافة إلى كونهم بحّارة ماهرين تجاراً حاذقين، وأتّى لهم أن يجدوا على الساحل السوري أفضل من ميناء عكا لحماية أساطيلهم التجارية؟ والحال فإن عكا هي التي سعى مركز صور جاهداً إلى استعادتها من الفرنجة. فاتفق في شهر شباط (فبراير) ١١٩٢ مع الجنووين الذين كانوا في المدينة وانفجرت المؤامرة، بفضل تراجع دوق بورغونيه القائم على رعاية مصالح فيليب أوغست الذي سبق أن تشاجر مع ملك انكلترا وانحاز دوق بورغونيه إلى مركز صور، لأن الجنووين كانوا يؤيدونه، وكانت هذه القطعة الصغيرة من العملة التي جاءت في اللحظة الأخيرة، كالقشة التي قصمت ظهر البعير فتسارعت الأحداث. ولكن البيزيون كانوا بدورهم في عكا ومصممين على عدم مغادرتها فاحتدم قتال الفريقين في الشوارع، فخف كونراد من صور على رأس مجموعة من مؤيديه وحاصر عكا ثلاثة أيام دون أن يتمكن من التغلب على مقاومة البيزيون. ولما أدرك هؤلاء أنهم لن يستطيعوا الإفلات من قبضة الجنووين وحلفائهم، نشدوا بمساعدة ملك انكلترا الذي كان في قيصرية، وفي ليلة واحدة صار أمام المدينة التي طالما أجهد نفسه لينتزعها من المسلمين. وغادر كونراد منسحباً إلى معقله لدى سماعه أول نبأ عن قدوم ريكاردوس. ومنذ اليوم التالي عمل الانكليزي على أن يقرب ما بين البيزيون والجنووين، وإحباط مشاريع مركز صور. وعبثاً حاول أصدقاء مشتركون التوفيق بين كونراد دي مونفرا وريكاردوس قلب الأسد، لأن ملك انكلترا الصلف المغرور قد اقترف الكثير من الأخطاء السياسية التي ذهب ضحيتها نبلاء الفرنجة المقيمون منذ زمن بعيد في سورية، كما كان مسؤولاً عن الكثير من الغوايات التي أفقدهت يوماً عن يوم المزيد من الصداقات ومساندات الدعم في صفوف الفرنجة السوريين المتمسكين بامتيازاتهم وأرباحهم المطردة

التزايد، لالشيء إلا إشباعاً لمطامعه الشخصية، وهكذا انفضوا من حوله، وبصورة ظاهرة أكثر من حول محميّه الذي كان يدعم مطالباته بعرش القدس: غي دي لوزينيان.

الفرنجية يقررون تنويع مركز صور ملكاً على القدس

كان هاجس كارثة حطين يذكّر بالعجز العسكري لغبي دي لوزينيان، وفي اجتماع عقده ريكاردوس قلب الأسد في عسقلان في شهر نيسان (ابريل) ١١٩٢ ضمّ أهم بارونات الفرنجة لمحاولة حل المسألة الشائكة: مسألة وراثة عرش القدس. فأجمعت الآراء على عدم اعتراف فرنجية سورية البتة بغبي دي لوزينيان ملكاً للقدس، وأن كونراد دي مونفرا هو الوحيد القادر على كسب موافقتهم، لأنه كان في نظرهم جميعاً الأقدر والأجدر بمملكة القدس. لم يكن البلانتاجيني يحب مركز صور، ومع ذلك صالحه تحت ضغط البارونات السوريين، وأرسل ابن أخيه كونت شيمانية إلى صور ليأتي بملك القدس العتيد إلى عكا حيث كان سيتوج.

واجتاح فرنجية المشرق فرح غامر، وكانت تلك المصالحة الواقعية، وإن لم تكن العاطفية بين ريكاردوس قلب الأسد وكونراد دي مونفرا تترأى لهم المقدمة لإعادة احتلال القدس. فكونراد دي مونفرا يتمتع بصفات رجل الدولة، وقد برهن على ذلك أكثر من مرة، فهو بارع صقلته سلسلة طويلة من التجارب في المشرق، حتى كان يستطيع أن يلتزم دون أن يفتضح أمره، وأن يخون بأناقة؛ ويعرف كيف يحافظ على صداقات له أقامها بين الرجال المحيطين بصلاح الدين، وكان هذا الأخير يكن له الاحترام والتقدير.

اغتيال كونراد دي مونفرا وتنصيب البلانتاجيني ملكاً للقدس

في ٢٨ نيسان (ابريل) ١١٩٢ طاف نبأ فاجع من مدينة إلى مدينة موقعاً الفرنجة في حالة قصم ظهر بالغة: لقد اغتيل كونراد دي مونفرا، إذ وجد صريعاً في أحد شوارع صور وفي خاصرته خنجر. فقيماً كانت زوجته تستحم خرج شاخصاً إلى فيليب دي درو كبير أساقفة بوفي مليئاً دعوته لتناول طعام الغداء، ولم يعرف البتة مدبر هذا الاغتيال الذي أعاد مسألة وراثة عرش القدس إلى جدول الأعمال اليومي. وتذهب الشائعة العامة إلى أن ملك انكلترا... كان وراء عملية الاغتيال هذه، لأن موت كونراد دي مونفرا حسن وضع

ريكاردوس السياسي، إذ لم يعد لحزب مونفرا بعدما فقد رأسه أي مسوَّغ لوجوده، فانهار من تلقاء نفسه، وطبيعي أن ينضم أفرادُه إلى ملك انكلترا، وكان غي دي لوزينيان ما يزال هناك، ولكن لم يعد وجوده يؤبه له، وحاميه فيليب أوغست بعيد عنه، ولذا هبت رياح الخضوع تحتاج الفرنجة. فخفف دوق بورغونية والثمسا والبارونات السوريون النشطون والهيكليون والجنويون والجرمان جميعاً إلى الانكليزي واضعين أنفسهم طوعاً تحت حمايته؛ ولم يتخلف عن هذا الركب حتى أنفروا دي تورون الذي طالما عمل لصالح مركز صور، وكان لسانه المفاوض لدى صلاح الدين، وهاقد جاء ساعياً يعرض خدماته على البلانتاجيني. وهكذا لم تكد جثة كونراد دي مونفرا تبرد حتى كان خلفه على عرش القدس قد وُجد، وكانت أسرة البلانتاجيني عن طريق هنري دي شبنانية تحتفظ للمستقبل بحقوقها في فلسطين. وبغية تعويض غي دي لوزينيان، وبالتالي إبعاده عن الأرض المقدسة تنازل له ريكاردوس قلب الأسد عن مملكة قبرص مقابل مائة ألف دوقية ذهبية دون أن يدفع شيئاً للهيكلين الذين سبق أن باعهم هذه الجزيرة. وظلت أسرة دي لوزينيان البواتية تملك في هذه المملكة اللاتينية الصغيرة حتى عام ١٤٨٩ إذ باعها لدوقة البندقية كاترين كورنارو وريثة أسرة لوزينيان، وهي بدورها من البندقية.

الفرنجة يستأنفون القتال ويزحفون نحو القدس

وفي الربيع، عادت القوات الفرنجية إلى الهجوم، ففي ٢٤ أيار (مايو) ١١٩٢ استولوا على حصن الداروم الواقع على مسافة ثلاثين كيلو متراً جنوب عسقلان على طريق مصر، وتقرر مجدداً الزحف على القدس رغم اعتراضات ريكاردوس قلب الأسد إذ تلقى رسائل مزعجة من انكلترا، حيث طاب لأخيه بتشجيع ملك فرنسا، أن يقوم بلعبة غير مأنوسة، فيجلس على عرش الغائب. ورغم الحرّ البالغ القسوة وندرة الماء، بدأ الزحف، وكان المسلمون قد سَمَموا مياه الينابيع والآبار، وتوقف الفرنجة قرب جبال الخليل على بعد أربعة وعشرين ميلاً إلى الشمال الشرقي من الداروم. حيث جرى اشتباك خفيف مع الطليعة الأيوبية، ثم توقفوا في تل الصافي على مسافة سبعة أميال إلى الشمال الغربي من بيت جبرين. وفي ١٠ حزيران (يونيو) تمركز جيش الفرنجة إلى الشمال من النطرون في بيت نوبة، بانتظار قوافل التموين وآلات الحصار. هناك جَمَد ريكاردوس قلب الأسد جيشه، وما يزال هذا القرار دونما تفسير.

العدول عن فكرة حصار القدس والانسحاب إلى الرملة

وأمام القدس التي لم يبق يفصل ريكاردوس عنها سوى مسيرة يوم واحد خارت عزيمته ، وفي الواقع كان يعتقد بأن ما لديه من الخبراء ومن العناد لا يكفي لمحاصرة المدينة المقدسة التي حسب أن المسلمين قد حصنوها أكثر مما قدر .

ويذكرنا ابن الأثير بمشاغل ريكاردوس قلب الأسد ، حينما يعلمنا بأن ملك الانكليز ، بعدما اطلع على مخطط المدينة ودرس النقاط الهامة فيها قال لمن كانوا يطالبونه ببدء الهجوم : « لا يمكن مهاجمة مثل هذا الموقع الحصين مادام صلاح الدين على قيد الحياة ، ومادام المسلمون على اتفاق فيما بينهم ، وليس بمستطاعنا بأن معاً ، أن نحصر القدس ونواجه في الأرياف قوات السلطان التي تهكننا كما فعلت أمام عكا . ليس لدينا هنا البحر عن يميننا ، ولا مراكب البندقية لحمايتنا » ، ويُلاحظ أن ملك انكلترا لم يكن يريد أن يتحمل مسؤولية حطين ثانية ، وأنه يفضل الاحتفاظ بالمواقع المحتلة على الساحل ، بصعوبة بالغة ، سليمة بدلاً من خسارة كل شيء في معركة يذكر ريكاردوس قلب الأسد بذعر نتائجها ، إذا لم يحرز فيها غير النصر ، وكان بالتالي قلقاً متردداً ، لا يجزؤ على تخيل ما ستسفر عنه هذه الحملة الصليبية الثالثة . ورغم رأي مستشاريه عدل عن حصار المدينة المقدسة ، وفكر في عدة مشاريع يمكن أن ينشط فيها جيشه المجمد . ففكر في العودة إلى الرملة لإقامة مخيمه الشتوي ، وفكر في الصعود شمالاً حيث سيكون بمأمن أكثر في كونتية طرابلس . لتسوية عدد من المسائل العائلية ، أو يتوجه إلى مصر لضرب سلطة صلاح الدين فيها . وراقت البلانتاجيني هذه الفكرة ؛ فاشترى آلفاً من الجمال ، وكان من الجنون المطبق أن يقوم بمثل هذه المسيرة عبر رمال سيناء المحرقة في حرّ تموز ... واكتفى بأن ينسحب إلى الرملة ...

ريكاردوس قلب الأسد يقترح على المسلمين عقد معاهدة سلم دائم

وفي تموز (يوليو) ١١٩٢ عاد الحديث عن الصلح وجاءت العروض الأولى من ريكاردوس قلب الأسد . لقد كان قلقاً ، ويود العودة لبلاده بأسرع وقت مستطاع ، حيث كان جان سانتير يسعى جاهداً يؤيده في مسعاه فيليب أوغست إلى تجريده من مملكته . فأبلغ صلاح الدين بوساطة أخيه الملك العادل الذي كرسه فارساً أنه مستعد بهدف تحقيق سلم

دائم بين الأمم الإسلامية وأمم الغرب، للقبول بتنازلات، فتخلى عن مطالبته بعرش القدس مكتفياً بالشريط الساحلي بين يافا وإمارة انطاكية. واقترح بأن تعود القدس مسيحية تحت حماية المسلمين، ويتعهد بعدم محاولته إعادة الاستيلاء على شبر واحد من أرض الجليل، وأن يعيش بتفاهم وحسن جوار مع صلاح الدين إذا تعهد هذا الأخير مقابل هذه التنازلات بأن يسمح بالممارسة الحرة للدين المسيحي في كنائس المدينة المقدسة، ويسمح كذلك للحجاج بزيارة القدس والأماكن المقدسة، دون أن يدفعوا الجزية للخزانة الأيوبية، وأن يقبل بوجود الرهبان والقسس في كنيسة القيامة، وإقامة عشرين جندياً إنكليزياً في قلعة القدس.

انقطاع المفاوضات بين الفرنجة والمسلمين

وتظاهر صلاح الدين بالتأثر بنوايا عدوه السلمية، وأبدى فعلاً نية طيبة، وتبادل رسائل عاطفية مع ريكاردوس قلب الأسد، مؤكداً له أن ابن أخيه كونت شمبانية سيكون في نظره أعزّ أولاده، ولوّح باتفاق سياسي إنكليزي أيوبي، وهذا ما كان يحبه ريكاردوس قلب الأسد بعد أن فشل في تزويج إحدى شقيقاته من أخي صلاح الدين، وبعد تبادل للرسائل الأكاديمية، وإثر عدة مقابلات قلبية بين أوفنغرو دي تورون الاختصاصي بالمفاوضات، والقاضي الحاج يوسف الذي سبق أن سمع أن السلطان صلاح الدين يظهر شيئاً من الليونة إذ كان يريد أن يدع الساحل للفرنجة حسب طلبهم، ولكن شرط أن يتعهدوا بهدم أهم القلاع، التي أعاد ملك انكلترا بناءها بجهد جهيد، أعني غزة، والداروم وعسقلان، وأن تخطط مستقبلاً الحدود، بحيث يُترك للمسلمين حرية التصرف في القلاع التي أقامها الصليبيون داخل لبنان، ولكي يعوّض ملك انكلترا عن الإنشاءات التي أقامها في عسقلان يدع له الضياع المحيطة بها. ورفض ريكاردوس أن يهدم أسوار عسقلان فانقطعت المفاوضات^(٣).

مهاجمة صلاح الدين يافا

وفيما كانت هذه المفاوضات تطول، تلقى صلاح الدين قوات جديدة من الموصل وسورية فهاجم في ٢٦ تموز (يوليو) يافا التي كانت في قبضة حامية فرنجية ضعيفة، ودخلها بعد ثلاثة أيام من الهجمات العنيفة ولما رأى الفرنجة أنفسهم مطوقين داخل الحي الذي كانوا فيه، أوفدوا بطيركهم ومدير قصرهم إلى صلاح الدين بطلب الأمان، فمنحهم السلطان

استسلاماً مشرفاً، وتقرر أن يتم التسليم في الغد. ولكن في الغد، وبناء على نصيحة بطريرك القدس الذي أنبأهم بأن ريكاردوس قلب الأسد قادم لمساعدتهم على رأس خمسين سفينة منها خمس عشرة ناقلة كبيرة مسلحة في بيروت، رفض الصليبيون فتح الأبواب للمسلمين، فقام هؤلاء بهجوم جديد، وقلبوا أحد الأبراج، وعبر ثغرة أحدثها رجال هندستهم دخلوا المدينة، ولكن صدهم جدار من النار إذ عمد الصليبيون لحرق القش والعشب اليابس لحجب رؤية العدو. ولما تبددت سحب الدخان ألقى المسلمون أنفسهم تجاه جدار آخر من رؤوس الحراب والسيوف. فكان الصليبيون المرفق على المرفق، — كما يقول بهاء الدين — يتحفزون متربصين بالمسلمين، وقد أقاموا من أجسادهم جداراً مكان الجدار المهتم سادّين الثغرة بحيث يستحيل حتى على النظر أن يحترقها^(٤). .. ولكن النجدة الموعودة لم تصل، فاضطر الفرنجة يملأ نفوسهم هاجس الموت إلى طلب الاستسلام مرة أخرى، فطلب صلاح الدين أن يفتدي الفارس بالفارس والراجل بالراجل، وفرض فوق ذلك على المحاصرين في يافا غرامة حربية. ووافق المحاصرون على هذه الشروط، فطلبوا من صلاح الدين وقف القتال، فأجابهم بأنه غير قادر على احتواء جنوده، فإذا كانوا حقاً يريدون البقاء أحياء فعليهم أن يجتمعوا جميعاً في القلعة، وإلا فلا يمكنني أن أتحمّل مسؤولية حياتكم. وبالواقع كان المماليك يجهلون أمر التسليم، ولذا انتشروا في المدينة قاتلين كل من يضعه سوء الطالع في طريقهم، ولكي يحمي الفرنجة من الموت بادر صلاح الدين، وفاءً بوعده، إلى إرسال عدد من أعوانه الموثوق فيهم لحماية الصليبيين من جنده أنفسهم.

وفي هذه الأثناء كان ريكاردوس قلب الأسد يظهر مع سفنه أمام ميناء يافا، ولكن حينما شاهد الرايات الإسلامية ترفرف على الأسوار اعتقد أن المدينة قد سقطت، وفيما كان يتأهب للعودة على أعقابها مع أسطوله، تمكن أحد الفرنجة مخادعاً المسلمين أن يتسلل سباحة حتى بلغ سفن ريكاردوس، وأعلمه أن جمعاً غفيرة من الفرنجة مازالوا في القلعة يحمون مدخل الميناء، وقد أخفى عليه عمداً كونهم في القلعة بأمر من صلاح الدين وتحت حمايته.

الفرنجة يستعيدون يافا ويستأنفون مفاوضات الصلح

ورفع ملك انكلترا أشرعته باتجاه ميناء يافا، فبلغه ونزل إلى البر، عند ذاك قام

المحاصرون في القلعة بقتل حراسهم، واحتلّ الفرنجة يافا من جديد. وأرسل ريكاردوس عدداً من المماليك الأسرى إلى صلاح الدين قائلاً لهم: «قولوا للسلطان على لساني لقد طالت هذه الحرب أكثر مما يجب، لقد قام كل منا بمهمته التاريخية وقوانا منهكة، وينبغي لنا الآن أن نصون دماء رعايانا. وأسألوه بالله الذي يعبد أن يمنحني شروطاً مشرفة لكي يعيش في سلام واحدنا مع الآخر.» فأجابه صلاح الدين بأنه ما يزال موافقاً على الشروط الأساسية، وأن المسائل الوحيدة الباقية هي عسقلان ويافا والاروم، واقترح أن تُقسم الإجازة نصفين، فيحتفظ الفرنجة بيافا التي احتلوها مؤخراً، ويأخذ هو عسقلان^(٥).

وبعد معركة يافا بشهر واحد، وخلال اشتباك ضارٍ بين المسلمين والفرنجة.. أصيب ملك الإنكليز في هذا الصيف بالبرداء وألزمه المرض فراشه، وكان من الخطورة بمكان حيث أخذ المحيطون به ينتظرون سماع أنفاسه الأخيرة.

صلاح الدين يملئ على الفرنجة معاهدة الصلح إملاء المنتصر

مرة أخرى أعلن صلاح الدين هدنة عامة تشمل البر والبحر، وأحس ملك الإنكليز برغبة ملحة في الأجاص والدراق، فأمر صلاح الدين بأن ترسل إليه هذه الفواكه يوماً فيوماً مصحوبة بشراب لذيذ مبرد بثلج لبنان. فعززت هذه الروحات والجيشات المحادثات، وكان الوقت آخر آب والجيش الفرنسي يستعد عن آخره لمغادرة سورية التي مني بها بالهزائم أكثر مما حاز من الانتصارات.

وكان ريكاردوس الأول بدوره ينبغي العودة إلى انكلترا قبل موسم الأمطار. كانت النقطة التي ما تزال موضع خلاف هي عسقلان، إذ كان يريد أن يعوّضه صلاح الدين عن الأعمال التحصينية التي أجراها فيها، وأصرّ صلاح الدين على عدم التخلي عن هذا الموقع للفرنجة، فراجع ريكاردوس. ومن تنازل إلى تنازل تخلى تقريباً عن كل مطالبه، لتأمين هذا السلم البالغ الصعوبة، دافعاً إياه حثيثاً في اللحظة الأخيرة، لأن قلقه أخذ يتزايد باستمرار لما يحدث في بلاده، ولأنه خشي أن يداهم الشتاء. وهكذا أملى صلاح الدين معاهدة الصلح إملاء المنتصر رغم هزائم عكا وعسقلان ويافا^(٦).

معاهدة الصلح تكرر عجز الفرنجة ومجد صلاح الدين

وفي يوم الأربعاء ٢٢ شعبان، ٤ ايلول (سبتمبر) ١١٩٢ وقع هنري دي شمبانية ابن أخت ملك انكلترا وخليفته على مملكة الساحل، وباليان الثاني دييلين وأونفرو الرابع دي تورون والملك الأفضل والملك الظاهر، وقعوا باسم ملك انكلترا، وصلاح الدين سلطان سورية ومصر وما بين النهرين واليمن وثيقة ليست هي سلماً أبدياً، بل هدنة مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام. وبقي الساحل الممتد من يافا إلى عكا تحت سلطة الفرنجة، وبقيت عسقلان محايدة وقسمت منطقة الرملة — اللد قسمين أحدهما بيد الفرنجة، والثاني بيد المسلمين. وبموجبها كان المسيحيون يستطيعون الحج بحرية إلى الديار المقدسة، وكان مأذوناً لبعض التنظيمات الدينية أن تقيم في الأديرة التي أنشأها وتدير شؤونها، وقرر أيضاً مصير الناس العاديين. لكن حادثاً تافهاً واحداً كاد يُفشل العملية. فقد رفض ملك انكلترا أن يؤدي القسم بحجة أن الملوك لا يحلفون، فاكتمى منه بالمصافحة علامة الالتزام (رواية ابن شداد).

وبعد ثلاثة أسابيع كان بوهيموند الثالث أمير أنطاكية يوقع مع صلاح الدين معاهدة بيروت، واعترف له صلاح الدين بالسلطة على السهل الغني الممتد بين انطاكية وحارم. وحصل باليان الثاني على اقطاعية واقعة في الجنوب من حيفا، وكان نصيب رينو دي ساجيت مكافأة له على خيائته السياسية نحو صلاح الدين، وعلى معارفه الفقهية والنحوية العربية نصف أراضي صيداء، وحتى شيخ الجبل سنان المعلم الأكبر للحشاشين لم يقبل بأن يخرج بلا فائدة، وأنى إلا أن يضع توقيعه في ذيل الرق الذي كرّس هذا الصلح العام^(٧).

وأعلن النبأ السار على الفور في المعسكرات وفي أسواق المدن السورية، وفي جميع المناطق الخاضعة لحكم صلاح الدين أذاع الرسل أنه «باسم الله الرحمن الرحيم وبأمر من صلاح الدين، صلاح الدنيا والدين، تمّ الصلح بين الفرنجة والمسلمين. وضار مسموحاً لشعوب الفريقين أن تعيش بتفاهم، وأن تسافر وتتاجر بحرية في أراضي الفريقين»^(٨). وأنقذ هذا الصلح الإسلام فصلاح الدين كان يوشك أن يموت. والحال أنه لو توفي خلال الحرب — كما يكتب القاضي ابن شداد — «لكان الإسلام في خطر»^(٩).

تلك كانت نهاية هذا التحالف الضخم للشعوب ، الذي عرف باسم الحملة الصليبية
الثالثة . وكرس هذه النهاية مجد صلاح الدين وعبقريته ، كما كرس عجز الفرنجة المنقسمين
سعيًا وراء قضايا مصلحة قذرة ، أمام الإسلام الذي كان ظله يتعاضد ، وشمل قارّات
أخرى ...

حواشي الفصل الخامس والعشرون

١ — من دراسة المصادر التاريخية لعهد صلاح الدين، نجد أنه كان يعتقد أن الفرنجة لن يحترموا السلم المعقود مع المسلمين مستقبلاً، وأن على المسلمين أن يقاتلوا الفرنجة حتى ينتزعوا النصر، ويحققوا القضاء على الممالك اللاتينية في المشرق العربي. (راجع ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٣٥).

٢ — عن التسوية التي توصل إليها صلاح الدين الأيوبي مع مركز صور (راجع كتاب ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١٩٠ — ١٩٩، ٢٠٠ — ٢٠٣).

٣ — الرسائل المتبادلة ما بين صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد بحثاً عن معاهدة سلم دائم؛ انطلاقاً من مبدأ «مقاسمة البلاد»..

— رسالة ملك الانكليز ريكاردوس قلب الأسد إلى صلاح الدين:

إنّا قد وافقنا على مقاسمة البلاد وإن كل من في يده شيء فهو له فإن كان مافي أيدينا زائداً، أخذتم في مقابلته مايقابل الزيادة مما يخصنا، وإن كان مافي أيديكم أكثر فعلنا كذلك، ويكون القدس لنا، ولكم فيه الصخرة. (النوادر السلطانية: ابن شداد ص ٢٠٥).

— رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين أرسلها له شفوية مع رسول خاص:

تقول لصاحبك بأنا قد هلكنا نحن وأنتم، والأصلح حقن الدماء، ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك عن ضعف مني، بل للمصلحة، ويكون هو الوسطة بيننا وبين السلطان، ولا تغتر بتأخري عن منزلي، فالكيش يتأخر لينطح.

— رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الموضوع نفسه أرسلها له مع رسول آخر:

تقول له: إنه راغب في مودتك وصداقتك، وإنه لا يريد أن يكون فرعون يملك الأرض، ولا يظن ذلك فيك،

ولا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلهم، وهذا ابن أختي الكندھري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا. ويقول :

إن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا أطلب منك كنيسة، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك بما كان تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلت بتركها وأعرضت عنها، ولو أعطيتني مقرة أو قرية لقبلتها وقبلتها.

— جواب صلاح الدين الملك الانكليز عن الرسالة السابقة :

إنك إذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي، وسيلغك ما أفعل في حقه من الخير، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة، وبقية البلاد نقسمها، فالساحلية التي بيدك تكون بيدك، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا. وما بين العاملين تكون مناصفة، وعسقلان وماوراءها تكون خراباً لانا ولا لكم، وإن أردتم قراها تكون لكم، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان. (ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢١٨ — ٢١٩).

— رسالة من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الصلح والقدس :

الذي أطلبه منك أن يكون لنا في قلعة القدس عشرون نفرأ، وأن من سكن من النصارى والفرنج في البلد لا يتعرض لهم. وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطاة، والبلاد الجبلية لكم.

— جواب صلاح الدين الملك الانكليز عن الرسالة السابقة :

إن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة، وأما البلاد فعسقلان وماوراءها فلا بد من خرابه. (ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٢٠).

— رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الصلح :

إن الملك يسألك ويخضع لك في أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة، وأي قدر لها عند ملكك وعظمتك؟ وما سبب إصراره عليها إلا أن الفرنج لم يسمحوا بها. وهو قد ترك القدس بالكلية، لا يطلب أن يكون فيه رهبان ولا قسوس إلا في القيامة وحدها، فتترك له أنت هذه البلاد ويكون الصلح عاماً، فيكون لهم كل ما في أيديهم من الداروم إلى أنطاكية، ويسلم ما في أيديكم، ويتنظم الحال ويروح، وإن لم ينتظم الصلح فإن الفرنج لا يمكنونه من الرواح ولا يمكنه مخالفتهم.

— جواب صلاح الدين الملك الانكليز على رسالته السابقة :

إن أهل أنطاكية لنا معهم حديث ورسلنا عندهم، فإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح، وإلا فلا. وأما البلاد التي يسألها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه، وإلا فلا قدر لها، وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابله ما خسر عليه لدأ في الوطاة.

— جواب ملك الانكليز إلى صلاح الدين عن الرسالة السابقة :

لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجراً واحداً ، ولا يسمع عنا في البلاد مثل ذلك وأما البلاد فحدودها معروفة لا مناصرة فيها . (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٢١) .

٤ — وصف حصار صلاح الدين مدينة يافا ، وقتال المسلمين والفرنجية ، عن بهاء الدين ابن شداد .
« وأشرف على يافا ثم نزل عليها من الغد ورتب عسكره ، في الميمنة ولده الظاهر ، وفي الميسرة أخوه العادل . وركب المنجنقات ، وزحف عليها . فأرسل العدو رسولين نصرانياً وفرنجياً يطلبان الصلح . فطلب منهم قاعدة القدس وقطيعته . فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا أن ينظروا إلى يوم السبت تاسع عشر رجب ، فإن جاءتهم نجدة ، وإلا تمت القاعدة على ما استقر . فأبى السلطان الإنظار ، وأمر بالنقب فحشي وأحرق فوقع بعض البدنة . فوضع العدو أخشاباً عظيمة خلف النقب فالتهب ، فمنع من الدخول في الثلمة . وقاتلت خارج الأبواب إلى الليل ، فلما أصبحوا ، وقعت البدنة فعلا غبار مع الدخان ، فأظلم الأفق ، وما تجاسر أحد على الولوج خوفاً من اقتحام النار . فلما انكشفت الغبرة ، ظهرت أسنة قد ثابت مناب الأسوار ، ورماح قد سدت الثلمة ، حتى عن نفوذ الأبصار . ورأى الناس هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم . ولقد رأيت رجلين على ممشى السور يمنعان المتسلق فيه من جهة الثلمة ، وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل ، فقام رفيقه في مقامه ، متصد بالمثل ما لحقه أسرع من لمح البصر ، بحيث لم يفرق بينهما إلا نافذ بصير . ولما رأى العدو ما قد آل الأمر إليه سبروا يطلبون الأمان . فقال رحمه الله : الفارس بفارس ، والتركيلى بمثله ، والراجل بالراجل ، والعاجز فعلى قطيعة القدس . فنظر الرسول ، ورأى القتال على الثلمة أشد من إضرار النار ، فسأل السلطان أن يبطل القتال إلى أن يعود ، فقال : ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ، ولكن ادخل إلى أصحابك ، فقل لهم ينحازون إلى القلعة ، ويتركون الناس يشغلون بالبلد . فما بقي دونه مانع . ففعلوا وانحازوا إلى قلعة يافا ، بعد أن قتل منهم جماعة . ودخل الناس البلد عنوة ، ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغللاً كثيرة وأثاثاً وبقايا قماش مانهب من القافلة المصرية . واستقرت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان . وكان قايماز النحمي في طرف الغور لحمايته من عسكر العدو الذي لعكا . » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٠ — ٢٠١) .

٥ — رسائل متبادلة بين صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد :

— رسالة من ريتشارد قلب الأسد إلى صلاح الدين ، بعد استرداد يافا أرسلها مع رسول له يطلب فيها الصلح ، ويقول فيها :

بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا أمر لا بد له من آخر ، قد هلكت بلادى وراء البحر ، وما دام هذا مصلحة لالنا ولا لكم .

— جواب صلاح الدين إلى ملك الانكليز على الرسالة السابقة :

إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة ، وكان الحديث في يافا وعسقلان . والآن قد خربت هذه يافا ، فيكون لك من قيسارية إلى صور .

— جواب ملك الانكليز إلى صلاح الدين عن الرسالة السابقة :
يقول الملك :

إن قاعدة الفرنج أنه إذا أعطى واحد لواحد بلدًا صار تبعه وعلامة . وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان ويكون عساكرهما في خدمتك دائماً ، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي .

— جواب صلاح الدين الملك الانكليز :

حيث دخلت هذا المدخل فأنا أجيئك إلى أن تجعل هذين البلدين قسمين : أحدهما لك وهو يافا وماوراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وماوراءها .

— جواب ملك الانكليز لصلاح الدين مع رسول بلغه للسلطان :

يشكر الملك ويقول : إنه إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده ، وإلا احتاج أن يشتي هنا .

— جواب صلاح الدين الملك الانكليز :

أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه . وأما تشتيته في هذه البلاد فلا بد منها ، لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة ، وإذا أقام أيضاً إن شاء الله تعالى . وإذا سهل عليه أن يشتي ههنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنفوان شبابه ووقت اقتناص لذاته ، ما يسهل عليّ أن أشتي وأصيف وأشتي وأصيف ، وأنا في وسط بلادتي وعند أولادي وأهلي ، ويأتي إليّ ما أريده ومن أريده . وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني . والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير العسكر الذي عندي في الصيف . وأنا أعتقد أنني في أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء . (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٢٨) .

— جواب ملك الانكليز لصلاح الدين عن الرسالة السابقة :

لكم أطرح نفسي على السلطان وهو لا يقبلني ، وأنا كنت أحرص حتى أعود إلى بلادتي ، والآن فقد هجم الشتاء وتغيرت الأنواء وما بقي بيننا حديث . (تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢ — ص ٨١ ، نقلاً عن الوثائق الحروب الصليبية د . محمد ماهر حمادة ص ٢٣٦) .

٦ — رسالة ملك الانكليز إلى الملك العادل حول الصلح

مرض ملك الانكليز فأرسل له صلاح الدين فاكهة وثلجاً ، فأرسل ملك الانكليز إلى الملك العادل مع رسول يقول له :

قل لأخي — يعني الملك العادل — ببصر كيف يتوصل إلى السلطان في معنى الصلح ويستوهب لي منه عسقلان وأمضي ويبقى هو هاهنا مع هذه الشذمة اليسيرة ويأخذ البلاد منهم ، فليس غرضي إلا إقامة جاهي بين الفرنجية ، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فليأخذ لي عوضاً عن خسارتي على عمارة سورها .

— رسالة صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل حول عرض ملك الانكليز الأخير

إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم ، فإن العسكر قد ضجروا من ملازمة البيكار والتنفقات قد نفدت . (تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢ ص ٨٣ — ٨٤) .

٧ — الاتفاقية ما بين صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد .

« ثم إنَّ الانكليزي نزل عن عسقلان وعن العوض عنها ، واستوثق منه على ذلك . فأحضر السلطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان . وذكر يافا وعملها وأخرج الرملة منها واللذ ومجدل بابا ، ثم ذكر قيسرية وأعمالها ، وأرسوف . وعملها ، وحيفا وعملها ، وعكا وعملها ، وأخرج منها الناصرة وصفورية ، وأثبت الجميع في ورقة وقال للرسول : هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم فإن صالحتم على ذلك فمبارك وقد أعطيتكم يدي ، فينفذ الملك من يحلف في بكرة غد . ولأ فنعلم أنَّ هذا تدفيع وماطلة . وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خراباً وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها . واشترط دخول بلاد الإسماعيلية . واشترطوا هم دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في الصلح . وشرط أن تكون الرملة واللذ بين المسلمين وبينهم مناصفة . واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان ورضي الإسماعيلية والدواية وسائر مقدمي الإفرنجية بذلك . ولم يحلف الانكليزي بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذر بأن الملوك لا يحلفون . وقنع من السلطان بمثل ذلك . ثم حلف الجماعة فحلف الكندھري ابن أخته المتخلف عنه في الساحل وباليان بن بارزان ابن صاحبة طبرية ووصل ابن الهنفرى وابن بارزان وجماعة من مقدمهم إلى السلطان فأخذوا يده على الصلح . واقترحوا حلف جماعة العادل والأفضل والظاهر والمنصور وسيف الدين المشطوب ودلدرم وابن المقدم وصاحب شيزر وكل مجاور لبلادهم ؛ وحلف صاحب أنطاكية وطرابلس وعلق الإيمن بشرط حلفهم للمسلمين . قال : ووصل رسول الدين بكتمر صاحب خلاط يبيدي الطاعة والموافقة وتسيير العسكر ، وحضر رسول الكرج ، وذكر فصلاً في معنى الديارات التي لهم في القدس وعمازتها وشكوا من أنها أخذت من أيديهم ويسأل ردها إلى أيدي نوابهم . وورد رسول صاحب أرض الروم يبذل الطاعة . قال العماد : وعقدت هدنة عامة في البر والبحر ، والسهل والوعر . وجعل لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكا إلى صور وأدخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية . ووقعت المصالحة مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر . أولها مبتدأ ايلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان . » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٣ — ٢٠٤) .

٨ — اعلان الصلح :

قال القاضي ابن شداد : « أمر السلطان أن ينادى في الوطاعات والأسواق ألا إن الصلح قد انتظم . فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا يدخل إلى بلادهم فليفعل . وأشاع — رحمه الله — أن طريق الحج قد فتح من الشام . ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس ، وكنت حاضر ذلك جميعه . وأمر أن يسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير ، ولإخراج الفرنج منها . ويكون معهم جماعة من الفرنج إلى حين وقوع الخراب في السور خشية من استيفائه عامراً . ففعل ذلك وخربت . وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً غشي الناس من الطائفين من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى . » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٤) .

٩ — موقف صلاح الدين من معاهدة الصلح ورأي القاضي بهاء الدين بن شداد بها ، على أنها أنقذت الإسلام ، يقول ابن شداد :

« والله العليم أن الصلح لم يكن من إيثاره — أي من إيثار صلاح الدين — فإنه قال لي — رحمه الله — في بعض محاوراته في الصلح : « أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقي لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس تله — يعني حصنه — ». وقال : « لا أنزل ، ويهلك المسلمون ». فهذا كلامه وكان كما قال ، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسامة العسكر ، ومظاهرتهم بالمخالفة ، وكان مصلحة في علم الله تعالى ، فإنه اتفقت وفأته بعيد الصلح ، فلو كان اتفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الإسلام على خطر ، فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة له ، رحمة الله عليه . » (ابن شداد — النوادر السلطانية ص ٢٣٥) .

الفصل السادس والعشرون

العودة إلى دمشق

مغادرة ريكاردوس الدير المقدسة وحظوظه العائرة

في ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٩٢ غادر ريكاردوس قلب الأسد الدير المقدسة ، وهو أشد قلقاً من يوم مجيئه في حزيران ١١٩١ ، إذ لم يكن الصلح الذي وقعه مع صلاح الدين ذلك الذي كان يتمناه ؛ كما لم يعد احتلال القدس ، وفشل في الربط بين أسرته والأسرة الأيوبية ، بل دمرته هذه الحملة تدميراً ، فعاد مخذولاً ، إذ ردت المعارك والحميات عجوزاً ، متراجعاً دون مملكة القدس التي كم غدت بعيدة نائية المطرّح بعد أن شاهد عاصمتها من أقرب مكان ممكن . فأَيَّ أمل كان سيستقيّه على هذا الساحل الذي طفق يغيب عن عينيه ، وهو الآن يمخر العباب نحو الغرب . وأَيّة تجارب كانت تنتظره لدى عودته ؟ كان فيليب أوغست وأخوه هو يعملان معاً على هلاكه ؛ وصار على مثل اليقين بأن غبار البشر — ولو ملوكاً كانوا — يتناثر أمام نفحة رابية واحدة ، وتجهمت السماء بوجه ذلك الابن الملعون ؛ فدفعت الريح سفينة ريكاردوس في خليج البندقية طارحة إياها حطاماً قرب إكيليّة . واضطر ملك انكلترا لعبور قسم من أوربا لأن يقوم بحركة التفاف واسعة لاجتناب مملكة فرنسا وجواسيس فيليب أوغست وكائنه الخفيّة ، فصعد من البندقية شمالاً ، ودخل متخفياً أراضي

دوق النمسا الذي لطخ رايته بالوحل غداة الاستيلاء على عكا، وقد سرّ هذا الأخير حينما علم أن ريكاردوس قلب الأسد تائه الآن فوق أرضه متنكراً بزيّ فلاح، وكان ما يزال متأثراً بالإهانة التي لحقت به، فأمر بمطاردة ملك انكلترا الذي لم يلبث أن عُرف فأوقف وسُجن، وقد عامله ليوبولد دوق النمسا دونما احترام وأبقاه راسقاً في قيوده مدة ثلاث سنوات قبل أن يسلمه إلى هنري السادس إمبراطور جرمانيا الذي كان بدوره يضغن عليه ضغينة لا انطفاء لأوار لظاها لتلك الطريقة غير اللائقة التي تصرّف بها في صقلية؛ وفي مقابلة لم تغب عنها قوارص الكلّم اتهم كل من الملكين الآخر بالفظاظة والاحتتيال والاعتتيال. بيد أن صدّى المنازعات، ووصف سوء المعاملة التي لقيها ريكاردوس سببت استياء بعض الانكليز والنورماندين والبابا نفسه، ولكن الجرمان ظلوا يرفضون إطلاق سراح الملك إلّا بعد محاكمته ليس بوصفه ملكاً بل كرجل عادي، فلجأ الملك إلى برلمان سبير، وهدد البابا، وأمام عدم تراجع هنري السادس رمي بالجرم أولئك الذين كانوا يأسرون ملك انكلترا. ورغم صواعق روما ظل قائد الصليبية الثالثة سجين الإمبراطور سنة أخرى، ولم يستعد حريته إلّا لقاء مائة وخمسين ألف مارك فضة، منها مائة ألف تدفع نقداً؛ ولكن ما إن استطاع العودة إلى وطنه ووطئت قدماه الأرض حتى علم بأن أخاه كان ينتظره على رأس ثأريه...

أريحية صلاح الدين وعظمة نفسه

أمّا صلاح الدين، فما إن علم بأن آخر المراكب الانكليزية توارت وراء الأفق الغربي حتى سرح قوات سنجار والموصل. وقال موصياً ابنه الملك الأفضل الذي كان يتجه إلى حلب^(١):

«أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير، وأمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر فما بلغت ما بلغت إلّا بمداواة الناس، ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقى على أحد، واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلّا برضاهم، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك فإنه كريم».

هذه الكلمات وحدها تبين ما كان عليه من أريحية ذلك الرجل... صلاح الدين الذي كان أعداؤه أنفسهم يعترفون له بعظمة النفس.

أعمال صلاح الدين الإصلاحية

وأَمْضى السلطان عيد الفطر في القدس، وانتَهز هذه الفرصة للقيام ببعض الأعمال الهادئة، فأوكل إدارة المدرسة التي بناها إلى أمين سره الخاص بهاء الدين رفیق السلاح الوفي في كثير من معاركه. وكتب العماد «أنه أمر بإعلاء أسوار القدس وتدعيمها وتزيين أبنيتها وتأمين طرقها، وأضاف إلى وقف المدرسة سوقاً بدكاكينها وبناءً محاطاً بالبساتين وحسن وضع الصوفيّة ومنحهم وقفاً مهماً. وحول الكنيسة القائمة في حي القيامة إلى مستشفى جهّزه بالأطباء من جميع الاختصاصات، وجعل السور يمر فوق قبة صهيون فضمها بذلك إلى القدس، وأحاط المدينة بالخنادق» (٢).

أما الآن وقد عمّ السلم الشرق كله فقد أراد صلاح الدين أن يؤدي فريضة الحج، ويسجد أمام الكعبة شكرياً لله على نعمه التي غمر بها مُلكه؛ وأعلن عن رغبته تلك، وأمر الديوان بتسجيل اسم كل من أراد من أفراد الجيش أداء فريضته لإحصاء عدد الذين سيسلكون طريق الحج، ولإعداد ما يلزم من نفقات خلع ومؤونة. وكلف سيف الإسلام حاكم اليمن بتأمين سلامة قافلة الحجيج. وكان كل شيء جاهزاً للسفر إلى الديار المقدسة حينما تلقى صلاح الدين أنباء مزعجة من أخيه الملك العادل الذي كان حينذاك في قلعة الكرك. كان الخليفة العباسي يتذمر من سلوك بعض اقطاعيي مابين النهرين المتمتعين بشيء من حماية السلطان. لأن بغداد لا تقبل بتدخله السري في شؤون الخلافة في العراق أو خراسان، على حين كان شيوخ البدو في سورية يظهرون بمظاهر السادة بعد عودتهم من حرب فلسطين الظافرة التي أبلوا فيها بلاءً حسناً بحيث صاروا يتصرفون وكأنهم مساوون لأمرأ أمير المؤمنين، ومسألة أمرأ مابين النهرين هذه لم تسوّ على الإطلاق تسوية ترضي الجميع. فأرسل صلاح الدين قاضي دمشق إلى بغداد لشرح وجهة نظره. وقبل أن يتوجه إلى مصر لتفقد أحوالها رغب صلاح الدين في قضاء بضعة أشهر في دمشق؛ فغادر القدس يوم الثلاثاء في ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٩٢، وفتش الحصون البحرية على الساحل، وسلك طريق بانياس؛ وتوقف في نابلس ليطلع على شؤونها لأن الأهالي كانوا يتدمرون من تصرفات حاكم المدينة المشطوب لما أشيع عنه من قسوة. واتجه بعدها نحو السامرة، وفي قلعة كوكب استقبل

بهاء الدين قراقوش القادم في موكب مهيب لتقديم احترامه وتأكيد ولائه، مفتشاً حيثما مرّ الإنشاءات العسكرية تفتيشاً دقيقاً.

أمير انطاكية يطلب حماية صلاح الدين

وأمر صلاح الدين بأعمال إصلاحية في كثير من المواقع الحصينة على الساحل. وجهزها بالفرسان والمشاة؛ وأوجد مراكز عسكرية جديدة خوفاً من عودة مفاجئة للفرنجة. وفي ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) دخل بيروت حيث استقبله حاكمها عز الدين سماح استقبلاً تكريمياً حافلاً. وكان يتأهب لمغادرتها حينما وصل أمير انطاكية بوهموند، وعدد من حكام إمارته لتقديم الاحترام لصلاح الدين وطلب حمايته، فشرّفه صلاح الدين باستقباله إياه مع مرافقيه البارونات الأربعة عشر وغمرهم بالهدايا، وأظهر لهم الكثير من أمارات المودة وخصص لبوهموند دخلاً مقداره عشرون ألف دينار تؤخذ من بيت المال^(٣).

العودة الظافرة إلى دمشق

ووصل صلاح الدين أخيراً إلى دمشق في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٩٢ بعد غياب دام أربع سنوات، فاستقبله جمهور بالغ الحماسة. وخلال عدة أسابيع كانت المهرجانات تتلو المهرجانات؛ وشاركت المدينة كلها في هذه المباهج المقامة تكريماً للبطل الأنقى في الإسلام.

صلاح الدين سيف ملحمة الإسلام المنتصر

ومطلقاً لم يبلغ أحد من البشر ما بلغه صلاح الدين من ألقى المجد بعد انقضاء عهد الرسول (ﷺ) وقادة الفتح الأولين، إذ أحرز أكبر نصر للإسلام على الفرنجة — حطين. وأزاح ستار الظلام القائم بين الشرق والغرب، لقد بكى الناس فقدان القدس في أكثر الأكوخ تواضعاً في فرنسا، ولكن هنا في دمشق، أصبح صلاح الدين في حياته وسيبقى أبداً على مر الأجيال سيف الإسلام. وأضحى رمز الإسلام. وغدا اسمه وحده يجعل يقظة الإسلام تهز رهبة أعماق أقصى الولايات في الغرب، وقدم دمشق لتحيتها الأمراء وشيوخ القبائل، وقوام المقام والقضاة والعلماء وتغنى الشعراء بأعجب ملحمة قام بها خيالة الرحمن، تحت السماء

المرصعة بالنجوم في العربية السعيدة على جميع طرق القوافل الممتدة نحو بحر الخزر أو المتغلغلة في قلب القارة الآسيوية الحافلة بالأسرار، في كل مكان تحت الخيام المنسوجة من وبر الجمال أو تحت أروقة الخانات أو في أبهاء أصفهان، في كل مكان في دوارات البربر أو مخيمات المغول حتى عتبة التيبث وهضاب اثيوبيا العالية تغنى الشعراء بقصة الأبطال، ورووا أسطورة «صلاح الدين البطل الأنقى في الإسلام».

مرض صلاح الدين ودنو أجله

إلا أنه منذ الأسابيع الأولى للعام الهجري ٥٨٩ (١١٩٣) ساءت صحة صلاح الدين، وأغلق الخَصِيَّة بابَه في وجوه الزائرين الساعين إلى دمشق لزيارته وتهنئته. وألزمه أطباؤه عدم مغادرة حجرته. ولكن صلاح الدين أراد أن يستقبل في أيام شباط (فبراير) ١١٩٣ قافلة حجاج هامة عائدة من مكة، وسار إلى ملاقاتها بهذا الطقس البارد في وادي بردى المؤدي إلى دمشق، فأحس بألم ممض، وهو على صهوة جواده وصرخته الحمى، فعاد إلى دمشق مرهقاً لا يكاد يستقر على سرج حصانه. فلزم الفراش نهائياً.. وتفاقم مرضه بالحمى التيفية.

يمين الولاء لصلاح الدين ولابنه الأفضل من بعده

ويوم السبت ٢١ شباط (فبراير) قدم بهاء الدين يستفسر عن حاله، مع ولديه الفاضل والملك الأفضل فوجدوه في أسوأ حال. ولما غلبت الغيبوبة لصلاح الدين تسربت المدينة لحل الحداد، وأغلق التجار المذعورون دكاكينهم في الأسواق خشية الاضطرابات التي قد تنجم عن اغتياح سيف الإسلام. شعر الملك الأفضل بدنو أجل والده وسط عويل النساء، فاستدعى إلى القلعة حاكم دمشق وكل من فيها من الأمراء الأتابكة ليقسموا له يمين الولاء قبل أن يتمكن من الجلوس في الإيوان وترؤس المأدبة، وكان القضاة قد وضعوا نص اليمين على الشكل التالي: «منذ الآن أقسم أن أكون وفياً ومطيعاً لصلاح الدين مادام حياً وأن أؤيد أبداً حكمه مكرساً لخدمته حياتي، وأموالي، وسيفي ورجالي. ومن بعده سأظل على هذا الولاء لابنه الأفضل وورثته وأشهد الله على أنني سأطيعه وأؤيد حكمه مكرساً لخدمته حياتي وأموالي وسيفي ورجالي، وأن تطابق أفعالي أقوالي والله على ما أقول شهيد. وإذا نسيت قسمي هذا فلتكن زوجاتي طوالق وليعتق عبيدي، وعلي أن أحج حافياً إلى البيت الحرام»^(٤).

خاتمة الملحمة والحداد العام في ديار الإسلام

وفي يوم الأربعاء ٤ آذار (مارس) ١١٩٣ وبعد صلاة الفجر أسلم صلاح الدين الروح وهو في الخامسة والستين من عمره، بينما كان أبو جعفر أمام القلعة يتلو عليه آي الذكر الحكيم، وقد كتب العماد: «وَحَلَّتِ الظُّلُمَاتُ مَحَلَّ النُّورِ حِينَما غَابَ هَذَا الْكَوْكَبُ لَيْلِ السَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ صَفَرٍ. وَغَابَتْ مَعَهُ يَنَابِيعُ النُّورِ، وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا وَمَاتَتْ مَعَهُ آمَالُ النَّاسِ وَتَوَارَتْ الْأَرْحِمَةُ وَانْتَشَرَ الْعَدَاءُ»^(٥). وقال محمد بن القادسي: «وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الأول — ١٩ آذار (مارس) — شاعت الأخبار — يعني ببغداد — بوفاة صلاح الدين بن يوسف بن أيوب، وذكر أنه دفن معه سيفه الذي كان معه في الجهاد، وكان ذلك برأي الفاضل، وقيل عنه: هذا يتوكلأ عليه إلى الجنة.»^(٦)، ورفع جثمان والده وواراه الثرى يعاونه خطيب دمشق. ويفقد الإسلام حاميه الناصر ظل يكيه كما تبكي الأم وحيدها. ولم يبق شخص إلا صعقه النبأ وأحس بأنه أصيب في قلبه وعقله.

لقد مات البطل الأنقى في الإسلام في حالة فقر مدقع غير مخلف سوى سبعة وأربعين درهماً وقطعة ذهبية صورية.

واضطرب المقربون منه إلى اقتراض نفقات الجنازة، وقدم القاضي الثياب الاحتفالية والكفن رغم أن الفرصة واثته مرتين ليكون أحد أثري أثرياء زمانه، الأولى عند وفاة الخليفة الفاطمي العاضد، والثانية عند وفاة الأتابك نور الدين ولكنه وزّع على جنده وأنصاره كنوز الخليفة الذي حكم مصر، ورأى بنفسه أن يحوز أية قطعة نقدية من ثروة نور الدين الضخمة واضعاً إياها بين يدي ولده (ولد نور الدين). كان الحداد عاماً — لأنه، كما يقول بهاء الدين، منذ رحيل الخلفاء الراشدين الأربعة لم يصب الإسلام بطعنه كهذه. وأقيمت الصلوات على روحه في جوامع مكة والمدينة، وهو تكريم لم يجز إلا للخلفاء وحدهم دون سواهم^(٧). وقبل صلاة العصر نقل الجثمان إلى حدائق قصر الصيف، وبعد بضع سنوات خصص له في المدرسة العزيزية قرب الجامع الأموي الكبير المدفن النهائي، حيث ما تزال روحه الطاهرة تنعم بالسلام في هذه المدينة المقدسة: دمشق وسط أنوار مجد يتعظم من جيل إلى جيل.

زهد صلاح الدين

إن سيد مصر وسورية الجنوبية وسورية الشمالية وفلسطين وحروران، وشرقي الأردن والجزيرة وما بين النهرين واليمن، قاهر الأسر الأرثقية الكثيرة الحركة في ماردين وزنكيي الموصل والأرمن... هذا الذي أنهى الخلافة الفاطمية في مصر لصلاح خلافة بغداد، والذي نظم شؤون الأتابكة السوريين، واستعاد القدس من الفرنجة، وخاض معهم حرباً لا هوادة فيها على امتداد عشرين سنة... نعم! إن الرجل الذي حقق كل ذلك لم يخلف لأولاده السبعة عشر— عدا المملكة— سوى سبعة وأربعين درهماً وقطعة ذهبية صغيرة. وأكثر من مرة كان يعوزه ما يقيم به أوده، ولم تكن وظيفة الخازن عنده مجزية كما لم يكن أمام أولاده الذين لم يصيبوا ملكاً لحدثة سنهم بعد وفاة أبيهم، إلا أن يعملوا لكسب قوتهم لدى إخوتهم وأعمامهم أو أبناء إخوتهم الذين شرعوا يتصارعون كالذئاب حوالي الإرث السياسي لصلاح الدين.

صلاح الدين الصورة الأنقى إسلامياً وعالمياً

وسيبقى صلاح الدين في التاريخ الإسلامي إحدى أعظم صوره؛ وحينما كانت أوروبا تتعافى من الصدمة السيكلوجية الرهيبة التي اعترتها زمن الفتوحات الإسلامية، وحينما كانت بيزنطة المهروبة الجانب، نصف الآسيوية ونصف الفرنجية تدع جيوش الحملات الصليبية الأولى تباد في آسيا الصغرى، حاطمةً بذلك حماسة الصليبيين، ظهر صلاح الدين روح الإسلام الأصولي بشبابه المعافى، الكثير الحركة، على مسرح التاريخ؛ فزاد من قوته في هذه اللحظة المؤاتية وخاصة لقيادته الحرب ضد الفرنجة الذين كانوا أقل حماسةً مما كانوا عليه قبل قرن مضى، ومؤكّد أن المثل الأعلى الديني كان إلى جانب صلاح الدين في هذا الصراع لطرد الفرنجة نهائياً من سورية وفلسطين، ومن إقطاعاتهم الثانوية فيما بين النهرين، والتي كانت تهدد مركز الخلافة: بغداد، ذلك كان همّ الملك الذي لم يكن سوى سلسلة متلاحقة من المعارك، واستئناف مغامرة الرومان لصلاح الإسلام. تلك المغامرة التي كانت تشمل البحر المتوسط والأراضي التي يحدها، ذلك كان هدف صلاح الدين. كانت مصر الأيوبية وأسطولها مقابل القوة البيزنطية التي فشلت أساطيلها أمام الاسكندرية وتجاه دمياط. وبعد انتصاره الباهر في حطين الذي مهد له فتح القدس وفلسطين، تبدّى جلياً أن الوجود الفرنجي في المشرق أوشك أن يصبح غير قابل للبقاء.

سيد العواصم العربية الثلاث ومعهد وحدة سورية

حينذاك حدث حادث له أهميته؛ فصلاح الدين الذي غدا سيد كل الساحل تقريباً وقف ثاني يوم النصر الذي هزّ أوربا القلقة هزة مؤلمة أمام قلة مقاتلة مخندقة وراء صخرة صور الصراع، فتقرر على ما يظهر حظ صلاح الدين السياسي. كانت الأمور الكبيرة قد أنجزت، وقوة صلاح الدين ما زالت تتنامى، فأعاد الوحدة السورية، كما ترسخت من النيل إلى دجلة أركان الإمبراطورية الأيوبية سنة بعد سنة، فامتلك صلاح الدين ثلاث عواصم: القاهرة ودمشق وحلب. وتملّفته بغداد تملق الموجس خوفاً، واعترف في الموصل — بؤرة الفتن التقليدية ضد السوريين — بسلطته. ولكن بعد صور، وإثر حادث عكا البائرة الحظ والتي لم يستطع صلاح الدين إنقاذ حاميتها، انتهت حياته السياسية. وقد رأى عليه ضربة لازب مساومة ملك انكسرا المحتال، الذي جاء في آخر لحظة بلا نصر حاسم باهر، والذي تمكن مع ذلك أن يتعاقد تعاقد النّد للنّد مع صلاح الدين الذي لم ينتصر عليه في ساحة القتال، ولكن عرف كيف يستنزفه وهو يجره من مفاوضة إلى مفاوضة حتى هذا الصلح الشهير صيف ١١٩٢ الذي استقبله الجميع بحماسة. ويلاحظ أن الغيرة الدينية لدى صلاح الدين لم تكن أبداً — منذ صور — أقوى مما هي عليه الآن، كانت تملكه حماسة دينية. لقد قرأ هو نفسه لأولاده المعاهدة التي كتبها له خصيصاً قطب الدين النيسابوري. وحينما لم يكن يستطيع المشاركة في صلاة الجمعة كان يستدعي الإمام، إن كان مريضاً، ويكره نفسه على الوقوف لأداء الصلاة. كان يحصي إحصاءً دقيقاً أيام صومه، وحينما يمضي الليل في خيمته الحربية، كان يأمر حارسه بأن يتلو عليه آياً من الذكر الحكيم؛ وفيما كان الفرنجة يتلقون امدادات جديدة في عكا، وبينما شرع ملكان يتوجهان إلى الأرض المقدسة التي كان صلاح الدين أعاد فتحها، وأيان كان يتردد في المشرق شائعة مفادها أن البابا نفسه سيشارك في الحملة الصليبية ضد صلاح الدين، كان هذا الرجل يزداد يقيناً وثباتاً أمام كل هذه الأخطار ويتضرع إلى الله قائلاً: «إلهي إني أكل أمري إليك، وأرضى بما تبتليني وتبلي أصحابي إذا كان في ذلك مرضاتك»^(٧).

الحاكم العادل والقائد الإنسان

وكمدبر في تصريف الأمور، يصفه لنا أحسن مؤرخي سيرته بهاء الدين بأنه سلطان

كثير التدقيق فلم يكن يدع لأحد سواه أن يوقع الشكاوى التي ترفع إليه ، وكان يصرف الوقت اللازم لدراسة المذكرات التي كانت تردده من جميع أنحاء المملكة . ورغم حاجته إلى المال لتمويل الحروب وجد سبيلاً إلى خفض الضرائب . وكان محباً للعلوم الفقهية ، حامياً للعلماء ؛ وفوق كل ذلك بنى قلعة القاهرة الشهيرة ، ورسم الكثير من الأبنية في القدس . وظلت طريقته في تحقيق العدالة سائدة في المشرق . فحينما كانت أعماله تسمح له بذلك يعقد بنفسه ديوانه يومي الاثنين والخميس ، يعاونه قضاة سواء في المدينة أو في المعسكر . وكان يقبل المتقاضين المسيحيين أسوةً بالمسلمين . وأمام صلاح الدين كان للفقراء الحقوق ذاتها التي للأغنياء . وكان من الرحمة والشفقة بحيث لم يلبث أن حامت حوله إشاعة الضعف . فكان خدمه يسرقونه بوقاحة ، وكان خازنوه ينهبون وارداته دوغماً اكتراث . فكان صلاح الدين يغضي عن ذلك أو يرى أنها أمور لا تستحق الاهتمام .

هذا القائد ، هذا المنتصر في هذا العدد من المعارك^(٩) الذي لم يكن يستطيع رؤية الدم المراق إلّا وهو يشعر بامتعاض حقيقي ، كان يخشى جانب أمرائه فلا يريد أن يتذكر إساءاتهم ، مفضلاً الاحتفاظ بصداقتهم بلطفه وأريحيته ، وحينما ثار عليه علناً عدد من الأمراء خلال حصار عكا لم يشأ خلافاً لما كان متوقفاً أن يجعلهم عبرةً لمن يعتبر ، والأعجب أنه استطاع أن يثبت نفسه بلا عنف ولا قوانين استثنائية ، ومن دون استعمال السيف أو السم على رأس مملكة إسلامية أوجدها ودغم أسسها بسنين قليلة . ولم يفكر أحد من أمرائه أو أولاده أو أصدقائه أو خدمه أو مماليكه أن يعترض على ألقابه أو حقوقه ، أو أن يفكر في التخلص منه لمناسبة إحدى المآدب الشرقية التي لانهاية لها ، والتي تختتم دائماً بالحلويات اللزجة المتبلة والأشربة المثلجة التي طالما غُيب فيها أمراء وأبطال في الإسلام^(١٠) ...



حواشي الفصل السادس والعشرون

١ - جاء في كتاب القاضي بهاء الدين بن شداد مؤرخ سيرة صلاح الدين عن وصيته لابنه الملك الظاهر، قيل توجهه إلى حلب وليس لابنه الأفضل كما ذكر شاندور.. (راجع ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٣٨).

٢ - أعمال صلاح الدين الإصلاحية في مدينة القدس:

«قال العماد: عاد السلطان بعد السلم إلى القدس، لتفقد أحواله، وعرض رجاله. واشتغل بتشديد أسواره وتحصينها، وتخليد آثاره وتحسينها. وتعميق خنادقه، وتوثيق طرائقه. وزاد في وقف المدرسة سوقاً بدكاكينها، وأرضاً ببساتينها. وكذلك رتب أحوال الصوفية في رعايتها، والوقف الكافل بكفاتها. وغير الكنيسة التي في شارع قمامة بالبيمارستان، ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الأنواع والألوان. وأدار سور القدس على قبة صهيون، وأضافها إلى المدينة. وأمر بإدارة الخنادق على الجميع، وصمم العزم على الحج فلم يوافقهم القدر، وتأسف على قواته، بعد أن قدّم مقدّماته. وأقام شهر رمضان وأفاض الإحسان. وفوّض ولاية القدس وأعمالها إلى عز الدين جرديك حين استعفى منها حسام الدين سياروخ، وولى مملوكه علم الدين قيصر مادون القدس كعمل الخليل وغزة والداروم وعسقلان..»

قلت ولم يزل البيت المقدس شرفه الله تعالى ملحوظاً بالعمارة والتحصين من عهد السلطان رحمه الله إلى سنة ست عشرة وسبعمائة فإنه خرب في الحرم منها بسبب خروج الفرنج وانتشارهم في البلاد فخيف من استيلائهم عليه وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو السلطان وتشتت الناس بعد خرابه ورغبوا عن السكنى به» (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٥).

٣ - عن استقبال صلاح الدين بوهيموند أمير أنطاكية في مدينة بيروت:

قال العماد الأصفهاني: «ودخل يوم الخميس بيروت وبها واليها عز الدين سامة، فاهتم له بالكرامة. ولما أراد عن بيروت الانفصال، في الحادي والعشرين من شوال؛ قيل له: إن الإبرنس الأنطاكي يسند مع عصابة من الوفد قد وصل إلى الخدمة، مستمسكاً بحبل العصمة. فثنى عنانه ونزل وأقام وما ارتحل. وأذن للإبرنس في الدخول، وشرفه في حضرته بالمثل. وقرّبه وأنسه، ورفع مجلسه. وكان معه من مقدّمي فرسانه أربعة عشر بارونياً،

فوهب كلاً منهم تشريعاً سريعاً : وأجزل له ولهم العطاء ، وأبدى بهم الاعتناء . وكتب له من مناصفات أنطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار ، وخص أصحابه بمبار . وأعجبه استرساله إليه ، ودخوله بغير أمان عليه . فلا جرم تلقاه بالإحسان ووافقه ، وودّعه يوم الأحد وفارقه . » (نقلاً عن كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ ص ٢٠٧) .

٤ - عن نصّ يمين الطاعة لصالح الدين وابنائه الملك الأفضل من بعده ..
جاء في النوادر السلطانية :

ولما رأى الملك الأفضل ما حلّ بوالده ، وتحقق اليأس منه ، شرع في تخليف الناس ، وجلس في دار رضوان المعرفة بسكنه ، واستحضر القضاة ، وعمل له نسخة يمين مختصرة مُحصّلة للمقاصد ، تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته ، وله بعد وفاته ، واعتذر للناس بأن المرض قد اشتد ، وما نعلم ما يكون وما نفعل هذا إلا احتياطاً على جاري عادة الملوك . فأول من استحضر للحلف سعد الدين مسعود أخو بدر الدين مودود - الشحنة - فبادر إلى اليمين من غير تشريط . ثم استحضر ناصر الدين - صاحب صهيون - فحلف ، وزاد أن الحصن الذي في يده له . وحضر سابق الدين - صاحب شيزر - فحلف ، ولم يتذكر الطلاق ، واعتذر بأنه ما حلف به . ثم حضر خشتين الهكاري ، وحلف . وحضر نوشروان الزرذاري وحلف ، واشتراط أن يكون له خبز يرضيه : علّكان ومنكلان وحلفا . ثم مدّ الخوان ، وحضر الجماعة وأكلوا . ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف ، وأحضر ميمون القصري وشمس الدين سنقر الكبير وقالوا : « نحن نخلف بشرط ألا نسلّ في وجه أحد من أخوتك سيفاً ، لكن رأسي دون بلادك » . - هذا قول ميمون - وأما سنقر ، فإنه امتنع ساعة ، ثم قال : « كنت حلفتني على النظرين يميناً ، وأنا عليها » . وحضر سامة ، وقال : ليس لي خبز ، فعلى أي شيء : أحلف ؟ . فروجع فحلف ، وعلّق يمينه بشرط أن يُعطى خبزاً يرضيه . وحضر سنقر المشطوب ، وحلف ، واشتراط أن يُرضى . وحضر اليكي الفارسي ، وحلف . وحضر أليك الأفطس وحلف واشتراط رضاه ، ولم يحلف بالطلاق . وحضر أخو سياروخ وحلف واشتراط رضاه . وحضر حسام الدين بشارة وحلف - وكان مقدماً على هؤلاء - ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم ، بل حلف هؤلاء النفر ، وربما شدّ منهم غير معروف : ونسخة اليمين المحلوف بها وفصوها : الفصل الأول : إنني من وقتي هذا قد أصفيت نيتي ، وأخلصت طويتي للملك الناصر مدة حياته ، وإنني لا أزال باذلاً جهدي في الدبّ عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي ، بتمتلاً أمره ، واقفاً عند مرأضيه ، ثم من بعده لولده الملك الأفضل عليّ : ووالله إنني في طاعته ، وأذّب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي وأمتثل أمره ونهيه ، وباطني وظاهري في ذلك سواء ، والله على ما أقول وكيل . هذه نسخة اليمين المحلوف بها ، أعني مقاصدها . (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٤٤ - ٢٤٥) .

٥ ، ٦ - وفاة صلاح الدين :

« وكانت وفاته رحمه الله عليه بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة . وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته . ووصلت أنا وقد مات وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرامته . ولقد حكى لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، تبسم وتهلّل وجهه وسلمها إلى ربه . وكان يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون . وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم

بنفوسهم . فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوّز والترخص إلى ذلك اليوم . فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفداء بالنفس . وكان يوماً عظيماً قد شغل كل إنسان ماعنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره » (أبو شامة : كتاب الروضتين : ج ٢ ص ٢١٣) .

وقال العماد الأصفهاني :

« ودخلنا إليه ليلة الأحد للعيادة ، ومرضه في الزيادة ، وفي كل يوم تضعف القلوب ، وتتضاعف الكروب . وانتقل من دار الفناء ، إلى دار البقاء ، في سحرة يوم الأربعاء ، ونابت الظلماء عن الضياء . ودخل قمره ليلة السابع والعشرين في السرار ، ودجت مطالع الأنوار ، ومات بموته رجاء الرجال ، وأظلم بغروب شمس فضاء الأفضال ، وغاصت الأبادي ، وفاضت الأعادي . » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢١٣) .

٧- قال محمد بن القادسي وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الأول شاعت الأخبار يعني ببغداد بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢١٤) .

٨- دعاء صلاح الدين : انظر النوادر السلطانية لابن شداد ص ١٠ - ١٢ .

٩- وجاء في كتاب النوادر السلطانية لابن شداد في ذكر المدن والحصو التي يسر الله فتحها على يدي صلاح الدين - رحمة الله عليه - من ديار الفرنج - من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة ست وثمانين :

طبرية على بحر الأردن بالسيف . عكا على البحر الكبير بالأمان . حيفا على البحر بالأمان . الناصرة التي تنسب إليها النصاري . الرملة . قيسارية بالسيف . أرسوف بالأمان . يافا بالسيف « مدينتها » . عسقلان بالأمان . غزة بالأمان . الدارم . صيدا على البحر . بيروت بالأمان . جبيل . هونين . جبيلية . تبين . أنطربوس « دون أخذ برجها » بالسيف . جبلة « مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالأمان » اللاذقية مدينتها بالسيف وقلعتها بالأمان . مدينة القدس الشريف خلّصه الله تعالى . نابلس . البيرة بأرض القدس . صفورية . الطور . حصن دُبورية . الفولة . حصن عقربلا . حصن جينين . سفسطية . كوكب . حصن عفرى « شمالي القدس » . بيت لحم . حصن العازرية بأرض القدس . البرج الأحمر « قريباً منه » . حصن الخليل « عليه السلام » بيت جبرين . تل الصافية . حصن مجدال . يابا . قلعة الجيب فوقاني . « الجيب » . التحتاني . النطرون . الحصن الأحمر . لُد بأرض الرملة . قلنوسة « قريباً منها » . يُبني . القاقون والقيمون . قلعة الكرك « بعد حصار سنة ونصف » . قلعة الشولك « بعد حصار سنتين » . قلعة السِّلَع . الوعيرة . قلعة الجمع . قلعة الطفيلة . قلعة الهرمز . جميع ذلك في وادي موسى والسراة . قلعة صَفَد . حصن يازور . شقيف أرنون . حصن اسكندرونة « بين صور وعكا » . قلعة أبي الحسن « بأرض صيدا » . صيدا أيضاً حصن . بَلْدَة بالساحل الأعلى . المرقية « على البحر » . حصن يحمور بأرض عكا . بلنياس بين جبلة والمرقب . صهيون . بلاطنس . حصن الجماهرية . قلعة العيذد . بكّاس . الشُّغَر . بكسرايل . السُّرْمَانِيَّة . قلعة بُرْزِيَّة . دَرْسَاك . بُغْراس « قريباً من أنطاكية » الدانور بأرض بيروت . السوفند قريباً من صيدا . (ابن شداد النوادر السلطانية ص ٢٤٨) .

١٠- صلاح الدين في مرآة التاريخ :

آ - صلاح الدين في مرآة مؤرخي عصره:

ويتحدث ابن الأثير عن طرف من مناقب صلاح الدين:

«وكان، رحمه الله، كريماً، حليماً، حسن الأخلاق، متواضعاً، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه.

وبلغني أنه كان يوماً جالساً وعنده جماعة، فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموز فأخطأته ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته، ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه ليتغافل عنها.

وطلب مرة الماء فلم يحضر، وعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر، فقال: يا أصحابنا، والله قد قتلني العطش! فأحضر الماء، فشربه ولم ينكر التواني في إحضاره.

وكان مرة قد مرض مرضاً شديداً أرجمف عليه بالموت، فلما برىء منه وأدخل الحمام كان الماء حاراً، فطلب ماء بارداً، فأحضره الذي يخدومه، فسقط من الماء شيء على الأرض، فثأله له لضعفه، ثم طلب البارد أيضاً فأحضر، فلما قاربه سقطت الطاسة على الأرض، فوقع الماء جميعه عليه، فكاد يهلك، فلم يزد على أن قال للغلام: إن كنت تريد قتلي فعرفني! فاعتذر إليه، فسكت عنه.

وأما كرمه، فإنه كان كثير البذل لا يقف في شيء يخرج منه، ويكفي دليلاً على كرمه أنه لما مات لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد صوري، وأربعين درهماً ناصرية، وبلغني أنه أخرج في مدة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال، وأما العين والثياب والسلاح فإنه لا يدخل تحت الحصر، ولما انقضت الدولة العلوية بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع ما يفوت الإحصاء ففرقه جميعه.

وأما تواضعه، فإنه كان ظاهراً لم يتكبر على أحد من أصحابه، وكان يعيب الملوك المتكبرين بذلك، وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية، ويعمل لهم السماع، فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له فلا يقعد حتى يفرغ الفقير.

ولم يلبس شيئاً مما ينكره الشرع، وكان عنده علم ومعرفة، وسمع الحديث وأسمعه، وبالجمله كان نادراً في عصره، كثير المحاسن والأفعال الجميلة، عظيم الجهاد في الكفار، وفتوحه تدل على ذلك، وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً. (ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٩٦ - ٩٧).

ويتحدث ابن جبير في رحلته عن «حسن سيرة السلطان»، فيقول:

وقد تقدم الذكر أيضاً في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات: صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب، وماله من المآثر الماثورة في الدنيا والدين، ومثابته على جهاد أعداء الله، لأنه ليس أمام هذه البلدة بلدة للإسلام، والشام أكثره بيد الإفرنج، فسبب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه الجهات، فهو لا يأوي لراحة، ولا يخلد إلى دعة، ولا يزال سرجه مجلسه؛ إنا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين وحللناها وقد خرج المنازلة حصن الكرك، وقد تقدم الذكر أيضاً له، وهو عليه مَحاصير حتى الآن، والله تعالى يعينه على فتحه. وسمعنا أحد فقهاء هذه البلدة وزعمائها المسلمين بسندة هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكر عنه

في حضرة محفل علماء البلد وفقهائه ثلاث مناقب في ثلاث كلمات حكاهما عنه رأينا إثباتها هنا : إحداهما أن الحلم من سجاياه ، فقال ، وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه : أما أنا فلأن أخطيء في العقوب أحب إلي من أن أصيب في العقوبة . وهذا في الحلم منزع أحنفي (الأحنفي : نسبة إلى الأحنف بن قيس ، الذي اشتهر بالحلم) .

وقال أيضاً ، وقد تُنويذت بحضرته الأشعار وجرى ذكر من سلف من أكارم الملوك وأجوادهم : والله لو وهب الدنيا للقاصد الآمل لما كنت أستكثرها له ، ولو استفرغت له جميع ما في خزانتي لما كان عوضاً مما أراقه من حرّ ماء وجهه في استمناحه إياي . وهذا في الكرم مذهب رشديّ أو جعفريّ (رشديّ : نسبة إلى هارون الرشيد . جعفريّ : نسبة إلى جعفر المتوكل أو إلى جعفر البرمكي) .

وحضره أحد عماليكه المتميزين لديه بالخطوة والأثرة مستعداً على جمال ذكر أنه باعه جهلاً معيياً أو صرف عليه جهلاً بعيد لم يكن فيه ، فقال السلطان له : ما عسى أن أصنع لك ، وللمسلمين قاضي يحكم بينهم ، والحق الشرعيّ مبسوط للخاصة والعامة ، وأوامره ونواهيه مُتَّكَلَة ، وإنما أنا عبد الشرع وشخصته ، والشحنة عندهم صاحب الشرطة ، فالحق يقضي لك أو عليك . وهذا في العقد مقصد عمريّ (عمريّ : نسبة إلى عمر بن الخطاب) .

وهذه كلمات كفى بها لهذا السلطان فخراً ، والله يمتنع ببقائه الإسلام والمسلمين بمنّه (رحلة ابن جبير ص ٢٧٠ — ٢٧١) .

أما القاضي ابن شداد صاحب سيرة صلاح الدين ، فقد قسم كتابه المعروف باسم النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية إلى قسمين ، أفرد القسم الأول منه لدراسة أخلاق صلاح الدين وفضائله ، بينما بحث في القسم الثاني سيرته العسكرية حتى وفاته ..

وبما جاء في القسم الأول ذكر مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية : « فهو قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع أهل العلم وأكابر الفقهاء ، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته .. » (ص ٧) .

وحين يتطرق ابن شداد لبحث مسألة التزام الدين بفريضة الزكاة ، يقول :
« فإنه مات — رحمه الله تعالى — ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة .

وأما صدقة النفل فإنها استنفدت جميع مملكته من الأموال ، فإنه ملك ممالك ومات ، ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية ، وجرماً واحداً ذهباً صورياً ، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ، ولا قرية ولا شيئاً من أنواع الأملاك » . (ص ٨) .

ويتحدث ابن شداد عن عدله ، فيقول :

« ولقد كان — رحمه الله — عادلاً رؤوفاً ، رحيماً ، ناصراً للضعيف على القوي .

وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام ، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد ، من كبير وصغير ، وعجوز هرمة ، وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سراً وحضراً .

على أنه كان في جميع أزمائه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل، ولم يردّ قاصداً للحوادث والحكومات، وكان يجلس مع الكاتب ساعة، إما في الليل أو في النهار، ويوقع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه، ولم يردّ قاصداً أبداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة.. لقد كان رؤوفاً بالرعية.. فما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته، وكشف ظلامته، وأخذ بقصته» (ص ١٣ — ١٤).

«ويروي القاضي ابن شداد كيف أن صلاح الدين جلس بين يديه إلى جانب خصمه التاجر الذي رفع عليه دعوى، «بعد أن نزل عن طراحته وسأواه» على بساط الشرع وبعد أن ربح صلاح الدين الدعوى بالبيّنة القاطعة بحضور شهود عدل، لم يردّ خصمه خائباً وأمر له بخلعة ونفقة بالغة» (ص ١٥ — ١٦).

ويتحدث ابن شداد عن كرمه، بقوله: «وكرمه — قدس الله روحه — كان أظهر من أن يسطر.. وكان يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة». «ويعطي فوق ما يؤمل الطالب».. «ويكرم أكثر مما يعطي».. «وأما تعداد عطاياه وتعداد صنوفها فلا تطمع فيها حقيقة أصلاً.» (ص ١٧ — ١٨).

أما في ذكر شجاعته، فيقول:

«ولقد كان — رحمه الله تعالى — من عظماء الشجعان، قويّ النفس، شديد البأس، عظيم الثبات، ولا يهوله أمر، ولقد رأيته — رحمه الله — مرابطاً في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج، وتجدّهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم ثيّف وسبعون مركباً على عكا، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس وهو لا يزداد إلا قوة نفس، ولقد كان — رحمه الله — يعطي دستوراً في أوائل الشتاء، ويبقى في شذمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة».

«وكان — رحمه الله تعالى — إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفيين ومعه صبي واحد وعلى يده جنيب، ويغرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، ويرتب الأطلاب، ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها، وكان يشارف العدو ويجاوره».

«وما رأيته استكثر العدو أصلاً، ولا استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير، تذكر بين يديه الأقسام كلها، ويرتب على كل قسم بمقتضاه من غير جدّة ولا غضب يعتريه رحمه الله».

ولقد انهزم المسلمون في يوم المصافّ الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله، ووقع الكؤوس والعلم وهو — رضي الله عنه — ثابت القدم في نفر يسير، قد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردهم، ويخجلهم حتى يرجعوا، ولم يزل كذلك حتى نُصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم..».

«وكان — رحمه الله — يمرض ويصح، وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط، وتترأى الناران، ونسمع منهم صوت الناقوس، ويسمعون منا صوت الأذان، إلى أن انقضت الواقعة على أحسن حال وأيسره» (ص ١٩ — ٢٠).

أما عن اهتمامه بأمر الجهاد، فيقول:

« ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه ، عظيم الاهتمام به ، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الإزفاد ، لصدق وبّر في يمينه .

ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آله ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح بمنة وميسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحة على مرج عكا ، فلو لم يكن في البرج إلا قتلته ، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً . »

وكان يعتبر أن الموت في سبيل الله أشرف الميئات ، ويقول عن نفسه « غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميئات » (ص ٢٢ — ٢٣) .

ويذكر ابن شداد طرفاً من صبره واحتسابه :

فصلاح الدين لم يتوقف أبداً عن الجهاد مهما اعترضته الأمراض ، وكان « يرتب العسكر للقاء الفرنجة يوم التعبئة للحرب » ، ويلقي العدو بنفسه دون أن تلين قناته ، رغم مرضه عند الحروبة في حصار عكا :

« وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو مستديراً إلى ورائهم ، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح ، ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس ، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً .

ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ، ونزل هو قبالتهم على تل مطّل عليهم إلى أن دخل الليل ، ثم أمر العساكر المنصورة أن عادت إلى مجال المصابرة ، وأن يبيتوا تحت ، وتأخر هو ، ونحن في خدمته ، إلى قمة الجبل ، فضربت له خيمة لطيفة ، وبثت تلك الليلة أجمع أنا والطبيب ثمضه ونشأغله ، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى ، حتى لاح الصباح ، ثم ضرب البوق ، وركب هو ، وركبت العساكر ، وأحدقت بالعدو ، ورحل العدو عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر ، وضايقهم المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة .

ولقد رأيته — رحمه الله — بمرج عكا ، وهو على غاية من مرض اعترّاه بسبب كثرة دماويل ، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه ، بحيث لا يستطيع الجلوس ، وإنما يكون متكئاً على جانبه إن كان بالخيمة ، وامتنع من مدّ الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرّق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو ، وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلباً تعبئة القتال ، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب ، ومن العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الألم وقوة ضربان الدماويل ، وأنا أتعجب من ذلك ، فيقول : إذا ركب يزول عني ألمها حتى أنزل ، وهذه عناية ربانية . » (ص ٢٤ — ٢٥) .

وكان صلاح الدين « حليماً متجاوزاً قليل الغضب » يحافظ على أسباب المروءة « نديّ اليد ، كثير الحياء ،

مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده، ولا يخاطبه بشيء إلا وينجزه.. وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافراً». (ص ٣٠ - ٣١).

«وكان حسن العشرة، حسن الأخلاق.. طاهر المجلس، طاهر السمع طاهر اللسان، حسن العهد والوفاء».

ويختتم ابن شداد القسم الأول من كتابه النوادر السلطانية، بقوله:

فهذه نبذة من معاسن أخلاقه ومكارم شيمه، اقتصرت عليها خوف الإطالة والإستام، وما سطرث إلا ما شاهدته، أو أخبرني الثقة به وحققته، وهذا بعض ما اطلعت عليه في زمان خدمتي له، وهو يسير مما اطلع عليه غيري ممن طالت صحبتته، وقدمت خدمته، ولكن هذا القدر يكفي الأريب في الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال. (ص ٣٤).

ب- صلاح الدين في مرآة العصر

هذه هي صورة صلاح الدين التي نقلها لنا مؤرخو عصره بروح من الموضوعية، من المشاهد العيانية المباشرة أو نقلاً عن ثقة.. فلا عجب أبداً أن تكون الصورة زاهية بالنسبة للمؤرخين المعاصرين عرباً وغربيين.. ومن هنا كان عنوان كتابنا هذا: «صلاح الدين.. البطل الأتقي في الإسلام» لشاندر الذي أعطاه حقه.. ولقد تناول كارل بروكلمان مجملأ عدداً من صفاته وما امتاز به، بقوله:

«وليس من شك في أن قلة ضئيلة من أمراء الإسلام كانت تضارعه من حيث تجرده عن أيما نزعة إلى الكسب الشخصي، ومن حيث انصرافه إلى خدمة دولته ورعاياها ليس غير، ولم يستطع أعداؤه أنفسهم إلا الإقرار له بالشهامة والنبيل في معاملة الخصم المغلوب. ليس هذا فحسب، فقد كان صلاح الدين بالإضافة إلى ذلك كله نصيراً للعلم» (تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٣٢).

ويقول الباحث الأستاذ قدرى قلعجي:

«والواقع إن سر عظمة صلاح الدين ودعامة مجده، هي الأخلاق التي امتاز بها في وقت تفسخت فيه الأخلاق وانهارت القيم. وقد استعاض بقوة هذه الأخلاق الكريمة عن العبقرية العسكرية والدهاء السياسي. وكانت هذه الأخلاق تظهره أحياناً بمظهر البساطة والسداجة، فيحاول الكثيرون استغلالها، ولكنها كانت تتغلب في النتيجة على الخديعة والمكر، وتحتطم تلك المحاولات على صخرة منيعة من الصفاء والوفاء ونبيل الغاية والوسيلة معاً».

وقد أعطى صلاح الدين الغرب، بعدله ورحمته وتسامحه، صورة جديدة للإسلام، فزالت تلك الروح العدائية القديمة التي حملت الصليبيين إلى الشرق سنة ١٠٩٦، حتى غدا ملك الانكليز يقترح كما رأينا زف شقيقته إلى أحد أمراء المسلمين.

ويلاحظ الأستاذ نقولا زيادة أن الصليبيين كانوا في السنين الأولى من القرن الثاني عشر قد عللوا عظمة عماد

الدين زنكي بأن جعلوه ابن الكونتيس ايضا التي اشتركت في الحملة الأولى ، وفي زمن الحملة الثانية اعتقدوا أن قلعج أرسلان من نسل جرمانى شريف ، ولكن بعد أن ذاعت شهرة صلاح الدين ظهرت أسطورة تعلل عظمة توماس بكت أحد مشاهيرهم بجعله ابناً لأم عربية .

ومن جهتنا نقول : ولا عجب ، أن تحاول الصهيونية العالمية اليوم وريبتها إسرائيل أن تدعي ، كما ادعى صليبيون الأمس ، أن صلاح الدين ينتمي إلى القبائل اليهودية ، وتسعى لإلباسه الطاقية الصهيونية ؛ فهي رغم خنثيتها من ظهور صلاح الدين جديد ، يقود ملحمة حطين عربية فاصلة معاصرة ، لا تملك إلا أن تعجب بعظمة هذا الإنسان الكبير ، فتسعى لتزوير التاريخ ، لتجعل منه بطلاً من أبطالها ..

ويخلص الباحث قدرى قلعجي إلى القول :

وهكذا تثبت سيرة صلاح الدين الأيوبي أن القوة لا تصنع البطولة إذا لم تقترن بالمرءة ومكارم الأخلاق .

فيا سيرة صلاح الدين علمينا مناقب الأبطال ! (قدرى قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ص ٤٥٢-٤٥٣) .

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨	١٧	يتضح	يتضح
٢٩	١٠	فردريك	فريدريك
٣٤	٢٠	بأيديهم	بأيديهم
٣٧	٦	منسكناً	منسكناً
٤٠	٤	تشجع	تشجيع
٤١	١٤	كلايه	كلايه
٤١	١٦	المقربون	المقربين
٤٤	الأخير أو	و	و
٥٤	١٧	المسلمون	المسلمون
٦١	٩	دي مولاي	دي مولاييه
٨١	٤ — أسفل	ألا يعزب	ألا يغرب
٨٩	٧	أبا لخدعة	بالخدعة
١١٥	٩	عرش مصر	عرش دمشق
٢٤٧	٨ — أسفل	من السور	عن السور
٢٩٠	٥	ورمانية	ورومانية
٣٤٥	١٠	أسنده	أسندها
٣٤٨	٤ — أسفل	منطوي	طاوي
٣٧٩	٤ — أسفل	يحدد	تحقق

الفهرس

الإهداء	٩
تقديم (بقلم العماد مصطفى طلاس)	١٣
ألبير شاندرور... والشرق	١٥
واقع العالم الإسلامي عشية الحروب الصليبية	١٧
الدول اللاتينية في المشرق وعوامل قوتها ووضعها	١٩
يقظة الإسلام السوري	٢٠
نور الدين زنكي بطل الإسلام والمناضل بلا هوادة ضد الفرنجة	٢١
الصراع على وادي النيل وبرز نجم صلاح الدين	٢٢
السيرة النضالية المستمرة ضد الفرنجة الشرق	٢٥
حطين .. النصر الأعظم للعرب والمسلمين على الفرنجة	٢٥
فتح بيت المقدس	٢٧
صلاح الدين ومشروع تصفية الوجود الصليبي في الشرق	٢٧
الحملة الصليبية الثالثة	٢٨
ملحمة عكا	٢٩
الصراع على الساحل الفلسطيني ، وسياسة الأرض المحروقة	٣١
الطريق إلى القدس	٣١
البحث عن مخرج من حالة اللا سلم واللا حرب	٣٢
القدس .. وهاجس حطين أخرى	٣٣
الصلح الصعب	٣٣

٣٣ مجد صلاح الدين وفشل الحملة الصليبية الثالثة
٣٤ صلاح الدين : سيف ملحمة الإسلام المنتصر
٣٥ صلاح الدين الأيوبي .. وحطون ما بين الأمس واليوم

الفصل الأول

التمخضات الكبرى في العالم الإسلامي

عشية الحروب الصليبية

٣٧ العهد الذهبي للإسلام
٣٧ وحدة العقيدة الروحية والزمنية للعالم الإسلامي وبوادر الانقسام
٣٨ زعزعة السلطة المركزية وتسلبت الموالي على الحكم
٤٠ محنة العالم الإسلامي وانقسامه عشية الحروب الصليبية
٤١ الفاطميون والحكم الإرهابي في مصر
٤١ اضطهاد مسيحيي مصر
٤٢ السلجوقيون وكارثة البيزنطيين في معركة ملاذكرد (هتزيكرت)
٤٢ مجمع كليرمون والدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى
٤٣ واقع التجزئة والانقسام في الصف الإسلامي
٤٤ الممالك اللاتينية في الشرق
٤٥ حواشي الفصل الأول

الفصل الثاني

سورية الفرنجية

٤٩ وضع سورية الفرنجية في مطلع القرن الثاني عشر
٤٩ قلاع صلاح الدين وحصونهم في سورية

٥٠	البنية السياسية للمجتمعات اللاتينية في سورية
٥٢	منظمات الفرسان زمن الحروب الصليبية
٥٣	المحاكم والقوانين في المجتمعات الصليبية
٥٣	التحولات الاجتماعية
٥٤	العلاقات التجارية بين الفرنجة والمسلمين
٥٥	البنية الإدارية للممالك اللاتينية والمسيحيون الشرقيون
٥٦	المبادئ الليبرالية في مجتمعات سورية الفرنجية
٥٩	حواشي الفصل الثاني

الفصل الثالث

الحملة الصليبية الثانية

ويقظة الإسلام السوري

٦٥	سقوط القدس وردود الفعل الإسلامية الأولى
٦٦	معركة الرها والدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية
٦٦	الصليبيون وصراع المصالح الخاصة
٦٧	فشل الحملة الصليبية الثانية أمام دمشق
٦٨	نور الدين زنكي ويقظة الإسلام المناضل
٧١	حواشي الفصل الثالث

الفصل الرابع

صراع الفرنجة والمسلمين

على وادي النيل

٧٥	بدايات صلاح الدين
----	-------------------

٧٦ نور الدين واهتمامه بحماية مصر من الهجمات الصليبية
٧٧ الخليفة العباسي يؤيد سياسة نور الدين تجاه مصر
٧٧ الحملة الصليبية على مصر واستنجد الخليفة الفاطمي بنور الدين
٧٩ وصول القوات السورية إلى مصر
٧٩ شيركوه وصلاح الدين في القاهرة
٨٠ صلاح الدين يعجل بنهاية الوزير الخائن
٨٠ صلاح الدين يخلف عمه وزيراً أول لمصر
٨١ صلاح الدين سيد مصر المطلق
٨٥ حواشي الفصل الرابع

الفصل الخامس

صلاح الدين يحل في القاهرة محل الفاطميين

ويؤسس السلالة الأيوبية

٨٩ مصر صلاح الدين بؤرة الإسلام المناضل
٩٠ صلاح الدين يدحر في دمياط حلف بيزنطة وملكة القدس
٩١ صلاح الدين ينتقل من الدفاع إلى الهجوم
٩٢ إنهاء الخلافة الفاطمية في مصر
٩٣ صلاح الدين مؤسس السلالة الأيوبية الحاكمة
٩٥ حواشي الفصل الخامس

الفصل السادس

القاهرة

٩٧ إصلاح نظام الحكم في مصر
١٠٠ بناء قلعة القاهرة

١٠١	ثروات الخليفة الفاطمي الأسطورية
١٠٢	قلعة قصر الجبل
١٠٤	ثروات القاهرة في عهد صلاح الدين
١٠٦	الازدهار التجاري لمصر والمبادلات الاقتصادية مع الفرنجة
١٠٩	حواشي الفصل السادس

الفصل السابع

نور الدين ضد صلاح الدين

١١١	قلق نور الدين من نشاط صلاح الدين
١١٢	الفرنجية يهلمون بالاستيلاء على مصر
١١٣	نور الدين يستولي على قلعة الشويك (مونتريل)
١١٣	الصراع الخفي بين نور الدين وصلاح الدين
١١٤	صلاح الدين يتجنب الصراع الأخوي مع نور الدين
١١٥	صلاح الدين يعزز موقفه ويستند لأخيه فتح برقة والنوبة واليمن
١١٥	وفاة نور الدين المفاجئة واعتلاء الملك الصالح عرش مصر
١١٥	سيرة نور الدين الكفاحية
١١٨	القضاء على ثورة الفاطميين
١٢٠	صلاح الدين والتنظيم الإداري في مصر
١٢٠	الوزير الفاضل الأنا الآخر لصلاح الدين
١٢١	الحكم المستنير
١٢٣	حواشي الفصل السابع

الفصل الثامن

فتح سورية

١٢٧	آموري ملك القدس يحاصر بانياس
-----	------------------------------------

١٢٨	الصراع بين الاسماعيلية والهيكلين
١٢٨	انقسام الممالك اللاتينية في الشرق
١٢٩	سياسة آموري الخارجية في المشرق
١٢٩	بلدوين الرابع ملكاً للقدس
١٣٠	الصراع على الوصاية
١٣١	فشل الفرنجة أمام أسوار الاسكندرية
١٣٢	الانقسامات الداخلية في الدول الزنكية
١٣٢	صلاح الدين يدخل دمشق
١٣٣	استيلاء صلاح الدين على المدن السورية عنوة
١٣٤	أمام أسوار حلب
١٣٧	العودة إلى حمص
١٣٨	الفرنجة يهددون جنوبي سورية
١٣٩	في ظل أعمدة بعلبك
١٤٠	الحلف الجديد ضد صلاح الدين
١٤٠	هزيمة قوات أمير الموصل وأرمينية المنتصر
١٤١	الاستيلاء على حلب وشمال سورية
١٤١	السلطة الأيوبية من حلب إلى القاهرة
١٤٢	مجد صلاح الدين وألقابه
١٤٢	صلاح الدين وشيخ الجبل
١٤٣	العودة إلى مصر وإنجازات صلاح الدين العسكرية والفنية والفقهية
١٤٤	مجد صلاح الدين
١٤٥	حواشي الفصل الثامن

الفصل التاسع

كارثة الأيوبيين في سهل عسقلان

١٤٩	الفرنجة وأحلام اقتسام وادي النيل
١٥٠	صلاح الدين يحاصر عسقلان

١٥١	خطأ صلاح الدين أمام عسقلان
١٥٢	نصر الفرنجة في معركة عسقلان (الرملة)
١٥٢	حصار حارم
١٥٣	صلاح الدين وسحق الهيكليين في مرجعيون
١٥٥	حواشي الفصل التاسع

الفصل العاشر

من ضفاف الفرات إلى ضفاف الأردن

١٥٧	ملكة أرمينية الصغرى وتحالفها مع ممالك الفرنجة
١٥٨	صلاح الدين يغزو أرمينية
١٥٨	زعامة صلاح الدين وميثاق الصداقة
١٥٩	حلب بؤرة صراع جديد
١٦٠	إعادة اليمن إلى الحضرة الأيوبية
١٦٠	مغامرة رينو دي شاتيون وخرق الهدنة بين الفرنجة والمسلمين
١٦١	صلاح الدين يهاجم مملكة القدس
١٦٢	سقوط قلعة حبس جلدان
١٦٣	ظهور المسلمين أمام بيروت وصمود الفرنجة
١٦٣	رينو دي شاتيون ومشاريعه للاستيلاء على المقدسات الإسلامية
١٦٥	تدابير الأيوبيين المضادة وسقوط المغامرة
١٦٦	الحلف الإسلامي الفرنجي غير المقدس
١٦٧	صلاح الدين يوجه ضربته الأولى للأعداء
١٦٧	حصار الموصل
١٦٨	عودة حلب إلى سلطة الأيوبيين
١٧١	حواشي الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

سيد الكرك

١٧٥	استيلاء الفرنجة على حبس جلدان
-----	-------------------------------

١٧٦	صلاح الدين ينهض لملاقاة الفرنجة
١٧٧	حصار الكرك
١٨١	الخلاف الشائك بين الدولتين الزنكية والأيوبية
١٨٣	حواشي الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

مسألة الموصل

١٨٥	الاضطرابات الداخلية في إمارة الموصل
١٨٦	الجيش السوري في وادي الفرات
١٨٦	أمام أسوار الموصل
١٨٧	استغاثة ملك أرمينية بصلاح الدين
١٨٧	الصلح بين الزنكيين والأيوبيين
١٨٨	أمير حمص يدفع حياته ثمناً لقراره الاستيلاء على سورية
١٨٩	سيد المشرق الإسلامي وصراعات المستقبل

الفصل الثالث عشر

النقطة الحاسمة

في الحروب الصليبية

١٩١	الانقسام داخل صف الفرنجة
١٩٣	بعثة القدس إلى أوروبا والدعوة إلى صليبية جديدة
١٩٤	الاضطرابات الجديدة في مملكة القدس
١٩٥	رينو دي شاتيون يتصدر الواجهة السياسية مرة أخرى
١٩٦	الدعوة إلى الجهاد المقدس في دار الإسلام
١٩٦	أمارات انهيار الممالك اللاتينية في الشرق
١٩٩	حواشي الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

حطين..

النصر الأعظم للمسلمين على الفرنجة

- ٢٠١ تحت راية الجهاد
- ٢٠٢ الصليبيون والدعوة إلى الوحدة المقدسة
- ٢٠٢ الاستنفار المرتجل وحشد جيوش الفرنجة في صفورية
- ٢٠٣ تحركات صلاح الدين لتأمين حدوده الشمالية
- ٢٠٣ احتشاد القوات الإسلامية
- ٢٠٣ صلاح الدين يعبر أراضي كونتية طرابلس
- ٢٠٤ عملية فرسان الهيكل الانتحارية
- ٢٠٤ الاستيلاء على مدينة طبرية وحصار قلعتها
- ٢٠٥ ضجة في صف الفرنجة
- ٢٠٦ ملك القدس يزحف بقوات الفرنجة إلى حتفا
- ٢٠٦ خطة صلاح الدين الحربية
- ٢٠٧ بدء المعركة
- ٢٠٨ حطين : الكارثة الأفدح للصليبيين والنصر الأعظم للمسلمين
- ٢١١ بطل حطين يلتقي بالأسرى من قادة الصليبية
- ٢١١ نهاية رينو دي شاتيون
- ٢١٢ الفرع الغامر يعم معسكر المسلمين
- ٢١٢ مسألة ريمون كونت طرابلس
- ٢١٤ استسلام قلعة طبرية وتحرير عكا
- ٢١٥ إخضاع الساحل الفلسطيني ، وتساقط مدن الفرنجة وحصونهم
- ٢١٦ استسلام بيروت وإتمام تحرير الأراضي الفلسطينية
- ٢١٦ حصار صور
- ٢١٧ وصول كونراد دي مونفرا واستقباله كمنقذ لمدينة صور
- ٢١٨ صمود صور أمام القوات الإسلامية

٢١٩ خطأ صلاح الدين الاستراتيجي أمام صور
٢١٩ سقوط المدن الفلسطينية
٢٢٠ حصار عسقلان وتحريرها
٢٢١ تحرير غزة والتوجه صوب القدس
٢٢٣ حواشي الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

تحرير القدس

٢٢٩ أمام أسوار القدس
٢٢٩ التفاوض على الاستسلام
٢٣٠ حصار القدس ودك السور الشمالي
٢٣١ القضية الخاسرة
٢٣١ نص عهدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لمسيحي دار الإسلام
٢٣٢ استئناف المفاوضات واستسلام المدينة
٢٣٣ استسلام قلعة القدس
٢٣٣ أثر سقوط القدس على الفرنجة
٢٣٤ أرباحية صلاح الدين ونبله
٢٣٤ خروج الفرنجة المهزومين من باب داود
٢٣٤ صلاح الدين يخفف آلام نسوة الفرنجة ويغمرهن بالهدايا والمؤن
٢٣٥ رحمة صلاح الدين بفرنجة القدس وتنكر دينهم لهم
٢٣٥ « سيف الإسلام » يعيد سلطة المسلمين على القدس
٢٣٧ حواشي الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

كونراد دي مونفراً ..

الخصم النذل لصلاح الدين

٢٤١ صور ودعم تحصيناتها ، وأسوارها الحصينة
-----	---

٢٤١	محاصرة صور براً وبحراً
٢٤٢	دفاع المحاصرين المستميتين عن صور
٢٤٢	ظهور جيش إسلامي جديد أمام صور
٢٤٢	خدعة كونراد مونفرأ الناجحة
٢٤٣	صلاح الدين يرفع الحصار عن صور
٢٤٣	صور قاعدة الفرنجة الحصينة وبوابة الحملة الصليبية القادمة

الفصل السابع عشر

صلاح الدين يعمل على إلقاء فرنجة المشرق في البحر

٢٤٥	الدعوة إلى الجهاد واستئناف القتال
٢٤٦	سقوط طرطوس
٢٤٦	سقوط بانياس وجبله واللاذقية
٢٤٧	الاستيلاء على حصن صهيون
٢٤٧	انهيار شبكة التحصينات الصليبية حامية مملكة أنطاكية
٢٤٨	القضاء على أهم حصون الفرنجة الشمالية
٢٤٩	سقوط الكرك وإعادة الاتصالات بين الشام ومصر
٢٥٠	سقوط صفد وكوكب
٢٥١	الأرض المقدسة مسرح الحروب المقبلة
٢٥٣	حواشي الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

تحالف أوروبا المسيحية ضد الإسلام

٢٥٧	أوروبا والإعداد للحملة الصليبية الثالثة
-----	---

٢٥٨ ملكا فرنسا وانكلترا يتسلمان الصليب من يد بطريك صور
٢٥٩ امبراطور جرمانيا يحلم بانتزاع قصب السبق في المشرق
٢٥٩ باربروس يضع قواعد صارمة للحملة الصليبية الجديدة
٢٦٠ امبراطور جرمانيا يتوعد منذراً صلاح الدين
٢٦١ صلاح الدين يرد على تهديدات ملك جرمانيا
٢٦٣ عبقرية صلاح الدين السياسية ومعاهدة التحالف مع بيزنطية
٢٦٣ حول سياسة امبراطور بيزنطية اسحق لانج
٢٦٤ اسحق لانج ينحاز لصلاح الدين خوفاً من القوات الصليبية
٢٦٥ سفارة صلاح الدين الاستثنائية لدى القسطنطينية
٢٦٥ المئة ألف جرمانيا والمغامرة الخائبة
٢٦٧ حواشي الفصل الثامن عشر

الفصل التاسع عشر

رينو دي ساجيت وصلاح الدين

٢٦٩ تساقط سلسلة حصون الفرنجة جنوبي لبنان
٢٦٩ صلاح الدين يتحفز لحصار شقيف أرنون
٢٧٠ رينو دي ساجيت يقابل صلاح الدين
٢٧٠ ثقافة رينو دي ساجيت الإسلامية ومعرفته دقائق العربية
٢٧٠ خدعة رينو دي ساجيت
٢٧١ اكتشاف المسلمين خدعة دي ساجيت وسوقه أسيراً إلى دمشق
٢٧٢ ظهور غي دي لوزينيان على المسرح السياسي من جديد
٢٧٣ غي دي لوزينيان يتجه صوب عكا بعد طرده من أمام صور
٢٧٣ مسيرة دي لوزينيان وبداية الصراع من جديد
٢٧٤ المواجهة الجديدة أمام أبواب عكا
٢٧٦ حصار عكا وفكرة إعادة احتلال القدس
٢٧٧ حواشي الفصل التاسع عشر

الفصل العشرون

ملحمة عكا

- ٢٧٩ الهجوم الإسلامي الأول على الفرنجة
٢٧٩ انتشار جيش الفرنجة بتشكيل غير قابل للاختراق
٢٨٠ الصدام الرهيب .. والحرب سجال
٢٨٠ إحدى كبريات معارك الشرق
٢٨٠ الفرنجة يحكمون الطوق على عكا براً وبحراً
٢٨١ صلاح الدين يحاصر بدوره الفرنجة
٢٨١ المجلس الحربي الإسلامي ورأي صلاح الدين بمتابعة القتال حتى النصر
٢٨٢ صلاح الدين يأخذ برأي أمرائه بإرجاء المعركة ضد الفرنجة
٢٨٣ حواشي الفصل العشرون

الفصل الحادي والعشرون

مصائب الإمبراطور

فريدريك باربروس في آسيا الصغرى

- ٢٨٥ صلاح الدين يقرع ناقوس الخطر
٢٨٦ وصول الإمدادات الإسلامية إلى عكا
٢٨٧ البيزنطيون والجرمان وجهاً لوجه
٢٨٨ امبراطور الجرمان يقرر قضاء فصل الشتاء في تراقية
٢٨٨ مراسلات لانج صلاح الدين وعبور باربروس آسيا الصغرى
٢٨٩ مخاوف صلاح الدين على حدود سورية الشمالية
٢٨٩ باربروس يدخل قونية عاصمة السلجوقيين
٢٩٠ مصائب الجرمان في آسيا الصغرى

حواشي الفصل الثاني والعشرون ٣١٣

الفصل الثالث والعشرون

فيليب أوغست وريكاردوس قلب الأسد

في مواجهة صلاح الدين

- ريكاردوس قلب الأسد واستعداداته للحملة الصليبية الثالثة ٣١٧
- لقاء عاهلي فرنسا وانكلترا في فيزلاي ٣١٨
- لقاء الحليفين اللدودين في صقيلية ٣١٩
- وصول ملك فرنسا إلى عكا وانفجار الخلافات الصليبية من جديد ٣٢٠
- ملك فرنسا يسعى لمفاوضة صلاح الدين ٣٢١
- ريكاردوس يستولي على جزيرة قبرص الاستراتيجية ٣٢١
- وصول الأسطول الانكليزي إلى الشواطئ السورية ٣٢٢
- ابتهاج الصليبيين برسو الأسطول الانكليزي أمام عكا ٣٢٣
- استمرار النزاع بين ملكي فرنسا وانكلترا أمام عكا المحاصرة ٣٢٣
- البحث عن صيغة اتفاق جديد بين الفرنجة ٣٢٥
- الإمدادات الجديدة لمعسكري المسلمين والصليبيين ٣٢٦
- احتدام المعارك بين الفرنجة والمسلمين ٣٢٦
- استغاثة المسلمين المحاصرين بعكا بصلاح الدين ٣٢٧
- ملكا فرنسا وانكلترا يتباحثان سراً مع صلاح الدين ٣٢٨
- فشل محاولة الخروج من عكا ٣٢٨
- صلاح الدين يرفض الموافقة على التسليم وسقوط عكا ٣٢٩
- نصر الفرنجة الباهظ الثمن ٣٣٠
- عودة فيليب أوغست إلى بلاده ٣٣١
- تفرد ملك انكلترا بقيادة الفرنجة ٣٣١
- بربرية ريكاردوس ومجزرته الشنيعة ٣٣٢
- استنكار العالم الإسلامي جريمة عكا ٣٣٣

٢٩١	الجرمان على أبواب سورية والخطر الكبير
٢٩١	نهاية باربروس المأساوية وانزياح شبح الخطر الداهم
٢٩١	هلهلة الجيش الجرمانى وبلوغ فلوله صور
٢٩٢	تأسيس تنظيم الفرسان الاسبتاريين التوتونيين
٢٩٣	تقرير حاكم سميساط الأرمني لصالح الدين عن الجيش الرومانى
٢٩٧	حواشي الفصل الحادى والعشرون

الفصل الثانى والعشرون

صراع الشرق والغرب

أمام أسوار عكا

٣٠٣	معسكر المسلمين أمام عكا
٣٠٤	العلاقات بين المسلمين والفرنجية فترة وقف القتال
٣٠٤	كونراد دي مونفرا يستأنف الأعمال الحربية بحراً
٣٠٥	الفرنجية يهاجمون المسلمين فى سهل عكا
٣٠٥	الزنكيون يشاركون الأيوبيين الجهاد ضد الفرنجة
٣٠٥	صلاح الدين يستنجد عبثاً سلطان المغرب
٣٠٥	وصول إمدادات جديدة للفرنجية وسيطرتهم على البحر
٣٠٦	اتصال المسلمين بالمدينة المحاصرة
٣٠٦	فريدريك دي صواب والمعركة الفاشلة
٣٠٧	تحركات الفرنجة وصدامهم مع المسلمين جنوبى عكا
٣٠٨	نكوص الفرنجة على أعقابهم ومعركة جسر الداعوق الدامية
٣٠٨	حسن معاملة صلاح الدين أسرى الفرنجة
٣٠٩	مصاعب المسلمين والفرنجية أمام أسوار عكا
٣٠٩	فشل الصليبية الألمانية
٣٠٩	تنازع الفرنجة على ملكية القدس
٣١١	الموقف العسكري قبل وصول قوات الحملة الصليبية الجديدة

حواشي الفصل الثالث والعشرون ٣٣٥

الفصل الرابع والعشرون

ملك انكلترا يسعى لتصيب أسرته

في الأرض المقدسة

- أوضاع الصليبيين بعد سقوط عكا ٣٤١
الصليبيون يزحفون صوب مدن الساحل الفلسطيني ٣٤٢
ملك انكلترا يسعى للتفاوض مع صلاح الدين ٣٤٢
انقطاع مباحثات الصلح والاحتكام كرة أخرى للسلح ٣٤٣
صلاح الدين يأمر بتدمير عسقلان ٣٤٤
وصول ريكاردوس قلب الأسد إلى يافا ٣٤٤
كونراد دي مونفرأ يتأمر على ريكاردوس ويتصل سرأ بصلاح الدين ٣٤٥
ريكاردوس يخدع كونراد ويفاوض سرأ صلاح الدين ٣٤٥
جيش الفرنجة ينكفيء عن القدس بعد أن غدا قاب قوسين منها ٣٤٨
حواشي الفصل الرابع والعشرون ٣٥١

الفصل الخامس والعشرون

الصلح الصعب

- البحث عن مخرج من المأزق ٣٥٥
حالة اللا حرب واللا سلم المديدة ٣٥٦
التوقيع على تسوية سياسية مع مركز صور في القدس ٣٥٦
انقسام صف الفرنجة مرة أخرى ٣٥٧
الفرنجة يقررون تنويع مركز صور ملكاً على القدس ٣٥٨
اغتيال كونراد دي مونفرا وتنصيب البلانتاجيني ملكاً للقدس ٣٥٨

٣٥٩	الفرنجية يستأنفون القتال ويترحمون نحو القدس
٣٦٠	العدول عن فكرة حصار القدس والانسحاب إلى الرملة
٣٦٠	ريكاردوس قلب الأسد يقترح على المسلمين عقد معاهدة سلم دائم
٣٦١	انقطاع المفاوضات بين الفرنجة والمسلمين
٣٦١	مهاجمة صلاح الدين يافا
٣٦٢	الفرنجية يستعيدون يافا ويستأنفون مفاوضات الصلح
٣٦٣	صلاح الدين يملئ على الفرنجة معاهدة الصلح إملاء المنتصر
٣٦٤	معاهدة الصلح تكرر عجز الفرنجة ومجد صلاح الدين
٣٦٧	حواشي الفصل الخامس والعشرون

الفصل السادس والعشرون

العودة إلى دمشق

٣٧٣	مغادرة ريكاردوس الديار المقدسة وحظوظه العائرة
٣٧٤	أريحية صلاح الدين وعظمة نفسه
٣٧٥	أعمال صلاح الدين الإصلاحية
٣٧٦	أمير انطاكية يطلب حماية صلاح الدين
٣٧٦	العودة الظافرة إلى دمشق
٣٧٦	صلاح الدين سيف ملحمة الإسلام المنتصر
٣٧٧	مرض صلاح الدين ودنو أجله
٣٧٧	يمين الولاء لصلاح الدين ولابنه الأفضل من بعده
٣٧٨	خاتمة الملحمة والحداد العام في ديار الإسلام
٣٧٩	زهد صلاح الدين
٣٧٩	صلاح الدين الصورة الأنقى إسلامياً وعالمياً
٣٨٠	سيد العواصم العربية الثلاث ومعيد وحدة سورية
٣٨٠	الحاكم العادل والقائد الإنسان
٣٨٣	حواشي الفصل السادس والعشرون

صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام/ تأليف البير شاندور؛ ترجمة سعيد أبو الحسن؛
تحقيق نديم مرعشلي. - ط. ١. - [دمشق]: دار طلاس، ١٩٨٨. - ٤١٠ ص.؛
٢٥ سم.

١ - ٩٥٦٠.٥٥٩١ شان ص ٢ - ٩٥٦٠.٥٤٥ شان
ص ٣ - العنوان ٤ - شاندور ٥ - أبو الحسن ٦ - مرعشلي

مكتبة الأسد

رقم الإيداع - ١٩٨٨/٨/٩٤٤

رقم الاصدار ٣٥٧

